

تاريخ العرب المسلمين في أسبانيا

كلاسيكيات

ستانلي لين بول

ترجمة: علي الجارم | تحقيق وتعليق: د. عبد الباقي السيد عبد الهادي

مراجعة وإشراف: أ.د. أيمن فؤاد سيد



الدار المصرية اللبنانية

تاريخ العرب المسلمين في أسبانيا

تأليف

ستانلي لين بول

ترجمة

علي الجارم

تحقيق وتعليق

د. عبد الباقي السيد عبد الهادي

مراجعة وإشراف

أ. د. أيمن فؤاد سيد

الدار المصرية اللبنانية

ستانلي لين بول

تاريخ العرب المسلمين في أسبانيا/ تأليف ستانلي لين بول؛ ترجمة علي الجارم؛ تحقيق عبد الباقي السيد عبد الهادي، مراجعة وإشراف أيمن فؤاد سيد.
.ــ ط1 ــ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2020.
232 ص مج 1 ؛ 24 سم
في رأس العنوان : كلاسيكيات التاريخ .
تدمك : 978 ــ 977 ــ 795 ــ 264 ــ 4
1 ــ العرب في أسبانيا.
2 ــ الأندلس - تاريخ.
أ- علي الجارم، علي بن صالح بن عبد الفتاح الجارم، 1881 -1949 (مترجم) ب- عبد الهادي، عبد الباقي السيد (محقق ومعلق) جـ- سيد، أيمن فؤاد (مراجع ومشرف)
د- العنوان 71.953
رقم الإيداع : 2019 / 26735



الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت ــ القاهرة .
تليفون: 23910250 202+
فاكس: 23909618 202 + ــ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : 2020 م

لماذا إعادة نشر

كلاسيكيات التاريخ

شَهِدَ القَرْنُ التَّاسِع عَشَر البِدايَةَ الحَقِيقِيَّة لحَـرَكَةِ الاسْتِشْراق التي تَـرْجِعُ بِداياتُهَا الأولى إلى عَصْرِ الحُـرُوبِ الصَّلِيبِيَّة عندما بَدَأ الغَـرْبُ المَسِيحي في التَّعَرُّفِ على حَضَارَةِ الإسْلام. هكذا بَدَأت في الظُّـهُورِ الدِّراساتُ الاسْتِشْراقِيَّةُ الجادَّة التي تَناوَلَت كُـلَّ مَناحِي الحَضَارَة الإسْلامِيَّـة، خاصَّةً مع تأسِيسِ دار نَشْرِ بريل Brill في لَيْدِن بِهُولَنْدا التي تَخَصَّصَت في نَشْرِ التُّـراث الشَّرْقي، فبَدأت النُّصُوصُ الأصْلِيَّة للتُّـراث العَـرَبي الإسْلامِي تَعْرِفُ طَرِيقَها إلى النَّشْرِ النَّـقْدِي على أيْدي مُسْتَشْرِقِين من أمْثالِ سِلْفِسْتَر دي ساسي SILVESTRE DE SACY وفِرْدينانْد فيسْتِنْفِلد F. WUSTENFIELD وشارْل لِيال CH. LYAL ومِيخائِيل دي خُويَه M. DE GOEJE وجوسْتاف فليجِل GUSTAVE FLUGEL.

وفي الوَقْتِ نَفْسِه بَدأت الدِّراساتُ الجادَّة التي تَناوَلَت عُلُومَ القُرْآن والحَـدِيث والعَقِيدَة والأدَب وتارِيخ العُلُوم في الظُّـهُور، والتي يَـهُمُّنا منها في هذا المَجال ما يَتَعَلَّقُ منها بالتَّارِيخ الإسْلامِي على وَجْهِ الخُـصُوص. فنَتِيجَةً لنَشْرِ العَدِيدِ من المَصَادِر التَّارِيخِيَّـة الأصْلِيَّـة وتَوافُرِ نُسَخٍ خَطِّـيَّةٍ لما لم يُنْشَر منها في مَكْتَباتِ أوروبا، بَدأت في الظُّـهُورِ المُؤَلَّفاتُ الاسْتِشْراقِيَّـةُ الأولى التي تَناوَلَت التَّارِيخَ الإسْلامِي على أيْدِي كُلٍّ من إتْيان كاتْرمِير ETIENNE QUATRMÈRE وجوسْتاف فييل G. WIEL ووِلْيَم موِير W. MUIR وستانْلي لين بولS. LANE – POOLE ويوليوس فِلْهَوْزِن JULIUS WELHAUZEN وألْفرِيد بَـتْلَر ALFRED BUTLER وآدَم مِيتْز ADAM METZ ثم جان سُوفاجِية JEAN SAUVAGET وجُودْفروي ديمومْبِين GAUDEFROY DEMONBYNES وهامِلْتون جِب HAMILTON GIBB وجاسْتون ڤييت GASTON WIET وليفي بروفِنْسال LEVI PROVENCAL. وهي تُمَـثِّـلُ «كلاسِيكِيَّات الدِّراسات التَّارِيخِيَّـة» التي كَتَبَـها المُسْتَشْرِقُون بتَطْبِيق المَـنْهَج العِلْمِـي لدِراسَة التَّارِيخ الذي بَدَأ يَسُودُ مع انْتِشار نَظَرِيَّات النَّـقْدِ التَّارِيخِي الأوروبي، والتي تَقُومُ على أساسِ أنَّ التَّارِيخَ يُصْنَعُ من وَثَائِق وحيث لا تُوجَدُ وَثائِقُ فلا تارِيخ.

وبَدأ احْتِكاكُ العَرَبِ بهذه المَـدَارِس البَحْثِيَّـة حَوْلَ هذه الفَتْـرَة، وعلى الأخَصِّ بعد وُصُولِ الحَمْلَة الفرِنْسِيَّـة إلى مِصْر عند مُنْقَلَبِ القَرْنِ الثَّامِن عَشَر، ومع إيفادِ محمَّد علي باشا البَعَثات إلى فَرَنْسا، ودُخُولِ المَطْبَعَة إلى مِصْر نحو سنة 1822. وجاءَ التَّحَوُّلُ الكَبِير في هذا الاتِّجاه مع إنْشَاءِ الجامِعَة الأهْلِيَّة المِصْرِيَّـة سنة 1908 ثم مع الجامِعَة المِصْرِيَّـة الرَّسْمِيَّـة التي أنْشِئَت سنة 1925؛ فأصْبَح لِزامًا على المُحاضِرِين فيها إصْدارُ كُتُبٍ شَامِلَةٍ تُوَجَّه إلى

طَـلّابِ الجامِعَة النَّاشِئَة على نَمَطِ المُؤَلّفات الحـَدِيثَة يُمَثِّــلَها المُحاضَراتُ التي ألْقاها الشَّيْخُ محمَّد الخُضَرِي (1872 — 1927) والشَّيْخُ عبد الوَهَّاب النَّجَّار (1862 — 1941) وأحمد زكي بك (1867 - 1934)، الذي اعْتَذَرَ عن الاسْتِمْرارِ في مُحاضَراتِه بعد تَعْيينِه سِكِرْتِيرًا لمَجْلِس النُّظَّار، وكان من المُفْتَـرَض أنْ يَحِلَّ مَحَلَّه جُرْجِي زَيْدان (1861 — 1914) صاحِب كِتاب «تارِيخ التَّمَدُّن الإسْلامِي» لَوْلا أنْ حالَت دون ذلك بَعْضُ الظُّرُوفِ الإجْرائِيَّـة، وكذلك عبد الحَمِيد العَبَّادِي (1892 — 1956) وحَسَن إبراهِيم حَسَن (1892 — 1968) من مِصْر؛ إضَافَـةً إلى فِيلِيب حِتِّي (1886 — 1978) وأسَد رُسْتُم (1797 — 1965) وقُسْطَنْطِـين زُرِيق (1909 — 2000) وعبد العَزِيز الدُّورِي (1919 — 2010) من خارِج مِصْر.

وتَـهْدِفُ هذه السِّلْسِلَة إلى نَشْرِ «كلاسِيكِيَّات التاريخ»، سواءً التي كَتَبَـها المُسْتَشْرِقُون أو رُوَّادُ هذه الدِّراسَات في الجامِعَة المِصْرِيَّة وخارِجِها، والتي تُمَثِّــلُ مَـرْحَلَةً مُهِمَّـةً في تَطَـوُّرِ دِراسَةِ التَّارِيخ الإسْلامِي في العَصْرِ الحـَدِيث، مع تَحْدِيثِ مَعْلُوماتِها عن طَرِيقِ الإحَالَة إلى الدِّراسَات الحـَدِيثَة كُلَّما أمْكَن وضَبْطِ النَّصّ وشَرْحِ المُصْطَلَحات والكَلِمات الغَرِيبَة وتَخْرِيجِ النُّصُوص على النَّشَرات الحَدِيثَة للمَصَادِر. ولا شَكَّ أنَّ تَبَنِّي «الدَّار المِصْرِيَّـة اللُّبنانِيَّـة » بالقاهِرَة إصْدارَ هذه «الكلاسِيكِيَّات» هو إضَافَةٌ مُهِمَّةٌ إلى المَكْتَــبَة العَرَبِيَّة يُضَافُ إلى رَصِيدِ إصْداراتِها المُتَنَوِّعَة التي أغْنَت بها الحَرَكَة الثَّقَافِيَّـة على امْتِدادِ أكْثَر من ثَلاثِـين عامًا.

أيمن فؤاد سيِّد

مقدمة

ستانلي لين بول

حياته وآثاره

تمهيد:

الحمد لله وكفى وصلاة وسلامًا على عباده الذين اصطفى..

وبعد

فلقد أنارت شمس الإسلام العالمَ مشرقَه ومغربَه وبسطت مكة ذراعيها فانضوى تحت لوائها العُرب والعجم وطوى التاريخ صفحات من ظلام، ليكتب أخرى جديدة من ضياء ونور وعلم وحضارة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وأظلت راية التوحيد بقاعًا ما كان العرب ليطئوها لولا هذا الدين، وكان من تلك البقاع «الأندلس» الرطيب. دخله المسلمون فكان فتحًا للعالم لا لبقعةٍ منه، وخرجت من أرض الأندلس حضارة بهرت العالم، ثم جاء زمن خروجهم منها فكان حدثًا جسيمًا وخَطبًا عظيمًا، وقف العالَم لخروجهم كما وقف لدخولهم. فجاد كلٌّ بما يستطيع وكثرت المراثي، وخطَّت الأقلام، ودوَّن العُرْب والعجم أحداث هذا القطر الجليل الذي دخله العرب فجعلوا منه جنة الخلد، وخرجوا منها فغدا قفرًا يبابًا، ومن بين الأقلام التي تناولت قصة الأندلس المستشرق البريطاني «ستانلي لين بول» في كتابه «تاريخ العرب المسلمين في أسبانيا».

فقد عرض تاريخ الأندلس عرضًا يتَّسم بالحيادية، الأمر الذي كتب لمصنَّفه هذا القبول والاستحسان عند العرب وغيرهم، ما دعا بالأديب الراحل علي الجارم إلى ترجمته، وها هي الدار المصرية اللبنانية للنشر تشرع في إعادة نشر هذا الكتاب بضوابط علمية حديثة بادئين بحياة ستانلي لين بول وآثاره مُتْبِعين ذلك بنبذة عن حياة عليٍّ الجارم فنقول: مولده :

ولد المستشرق وعالم الآثار البريطاني ستانلي لين بول في لندن عام 1854م.

ولا شك أن عمه إدوارد وليام لين، كان له تأثير كبير على شهرته وبلوغه غايته في الوسط العلمي والثقافي .

وظائفه وأعماله :

عمل ستانلي لين بول بالمتحف البريطاني في الفترة من 1874م حتى 1892م، وبعدها صب اهتمامه على «علم المصريات» [1] من عام 1897 حتى عام

1904م، وفي عام 1897م أصبح أستاذًا للدراسات العربية في جامعة «دبلن».

موقفه من التاريخ الإسلامي:

يُعد «ستانلي لين بول» من فئة المستشرقين المنصفين، وقد تبيَّن لنا ذلك من خلال كتابه «تاريخ العرب المسلمين في أسبانيا» حيث أتاح لنا الوقوف على الصورة الكاملة للحضارة الأندلسية التي سطع نورها قرابة ثمانية قرون من الزمان.

وبنظرة سريعة على إنتاجه في التاريخ الإسلامي نجد أن الرجل كان منصفًا إلى حد كبير لا سيما في حديثه عن النبي محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فقد قدم لين بول عدة شهادات منصفة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وفي إحدى شهاداته أكد على فضائل الرسول قائلًا: «تميز نبي الإسلام محمد بالنُّبل في الشخصية، والقوة في الصداقة، والصبر، والشجاعة، وقوة التحمل، وبحثه المتحمس عن الحقيقة، وهذه الفضائل خلقت هذا البطل الرائد الذي كان من المستحيل عدم طاعته، أو عدم حبه، وما هي إلا فترة قصيرة حتى عرفه الناس، وأطاعوه، وأخلصوا له جسمًا ورُوحًا حتى دانت له شبه الجزيرة العربية بكاملها، ووضعت نفسها تحت أقدام نبي الإله الواحد، ولا يوجد إمبراطور في العالم تمت طاعته بهذا الشكل الذي تم مع هذا الرجل الذي يرتق عباءته».

وقال لين بول: «لقد مُنح الرسول موهبة التأثير على الناس، وكان من النبل بحيث إن تأثيره فيهم كان دائمًا من أجل الخير، لقد كان بسيطًا في عاداته، فقد حافظ على بساطة أسلوب طعامه وشرابه، وملبسه، وأثاث منزله حتى عندما وصل إلى تمام القوة، والأمر العجيب أنه على الرغم من كل المغرِيات، فقد كان عظيم التواضع، لقد كانت حياته كلها حجة في الولاء للحقيقة»، ويأسف ستانلي لين بول لأن شخصية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تم الحكم عليها خطأ في الغرب، مؤكدًا أن نبي الإسلام لم يكن المخطِّط الطَّموح لمشروع شخصي، ولم يكن المنافق، أو النبي الكاذب، وإنما كان متحمسًا نبيلًا عندما يصبح الحماس ملح الأرض الذي يحفظ الناس من التعفن والفساد وهم أحياء، ولم يكن حماس رسول الله من أجل هدف لا قيمة له، أو أنه حماس غير مثمر، لقد كان حماسه نبيلًا، ومن أجل هدف نبيل، لقد كان رسول الإله الواحد، ولم ينس مرة في حياته من هو؟ وما هي رسالته؟ لقد أتى بالبشارات السارة لقومه في عظمة وشرف مصحوبين بالتواضع الجميل الذي ينبع من معرفته بضعفه الإنساني.

كذلك يظهر إنصاف الرجل في كتابه الماتع عن صلاح الدين الأيوبي، والذي جعل عنوانه موحيًا بإنصاف المؤلف وعظمة الشخصية التي تناولها بالتأليف، فهذا العنوان : «صلاح الدين السلطان القوي وموحد الإسلام» يرد على غالب

الشبهات التي طالت صلاح الدين قبل أن يدلف القارئ إلى الكتاب ليستمتع بقراءته وبما حواه من طرح أكثر من رائع .

ولا يعني وصفنا للمستشرق ستانلي لين بول بالإنصاف أنه كان معصومًا في كتابته، فلا شك أن الذاتية والبيئة التي ينشأ فيها المؤرخ لها من التأثير الكثير والكثير على صاحبها، ومن ثم فرغم إنصاف الرجل وحرصه في غير ما موضع من كتبه أن يدافع عن العرب والمسلمين وحضارتهم الزاهية فقد سار في ركاب فئة المستشرقين التي وسمت المسلمين بالمحمديين وهو ما نلاحظه في كتابين من كتبه وسم أولهما بـ : «أسرات المحمديين»، وثانيهما : «الهند في القرون الوسطى تحت حكم المحمديين»، وهذا الوصف لا يمكن قبوله بشأن أتباع النبي محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله وصف أتباعه بالمسلمين في كتابه الكريم، وكذا على لسان رسوله سيد المرسلين، ولا شك أن هذا الأمر مرده للنشأة التي نشأها ستانلي لين بول، وللأحاديث الطويلة التي استمعها طيلة حياته من أساتذته وزملائه بشأن أتباع النبي محمد ووصفهم بالمحمديين في إشارة لقطع صلة النبي بالوحي المبين، ومن ثم آثرنا أن ننبه على هذا الأمر في عجالة، من باب التوضيح ليس إلا .

مؤلفاته:

1- القاهرة منتصف القرن التاسع عشر، ترجمة وتحقيق أحمد سالم سالم، الدار المصرية اللبنانية.

2-حياة إدوارد ويليام لين (1877م)، وهو كتاب أفرده عن عمه الذي تأثر به إلى حد كبير.

3-ناس تركيا (1878م)

4-مختارات لين من القرآن (1879م).

5-مصر (1881م).

6-القرآن لغته الشعرية وقوانينه (1882م).

7-دراسات في مسجد القاهرة، فبراير 1883م.

8-الحياة الاجتماعية في مصر: وصف للبلد وأهلها (1884م)، نشر بمكتبة الآداب، القاهرة، ترجمة ماجد محمد فتحي، ومراجعة دكتور توفيق علي منصور.

9-حياة الجنرال فرانسيس رودون تشيسني (محرر) (1885م).

10-قصة المورسكيين في أسبانيا (1886م)، وهو كتابه الثاني عن الأندلس والذي يعد تكملة لكتابه «تاريخ العرب المسلمين في أسبانيا» حيث تناول فيه

الوجود الأخير للمسلمين في الأندلس بعد سقوطها، وما وقع عليهم من تعذيب واضطهاد وتنكيل .

11-تركيا (1888م).

12-القراصنة البربر (1890م).

13-الأحاديث مع الجدول-كلام النبي محمد- (1893م).

14-أسرات المحمديين: جداول تاريخية ونسب مع التقدمة التاريخية (1894م).

15-صلاح الدين: السلطان القوي وموحد الإسلام (1898م).

16-بابار (1899م).

17-تاريخ مصر في العصور الوسطى (1901م)، ترجمة د. أحمد سالم سالم، ومراجعة أ. د. أيمن فؤاد سيد.

18-الهند في القرون الوسطى تحت حكم المحمديين 712-1764م (1903م).

19-حياة السير هاري باركس بالاشتراك مع فردريك فيكتور ديكينز 1894م.

20-تاريخ العرب المسلمين في أسبانيا، وهو كتابنا هذا الذي نقدمه للقارئ من خلال الدار المصرية اللبنانية، ضمن سلسلة كلاسيكيات التاريخ.

منهج ستانلي لين بول في كتابه :

استطاع المستشرق الإنجليزي ستانلي لين بول أن يرسم صورة واضحة وموجزة لتاريخ الأندلس من الفتح حتى السقوط، في إطار الموضوعية والبعد عن الذاتية والتعصب، وهو ما يلاحظه القارىء في غير ما موضع من الكتاب، فكثيرًا ما وجدناه يدافع عن العرب، ويمجدهم، ويمدح حضارتهم ومهارتهم متى ما استحقوا ذلك [2]، في حين أنه انتقدهم في مواضع استحقوا فيها النقد [3].

وبشأن موقفه من النصارى رأيناه ينتقد مواقف نصارى الشمال في غير ما موضع، وانتقد ما فعله ألفونسو بمسلمي الأندلس، كذلك انتقد السيد الكمبيدور على تصرفاته وأفعاله رغم إعجابه الشديد بشخصية السيد [4]، وهو ما يؤكد لنا أننا أمام شخصية موضوعية وصاحبة أمانة في العرض والطرح والتنظير.

لقد اعتمد ستانلي لين بول على المنهج الموضوعي، شأنه في ذلك شأن دوزي في كتابه «المسلمون في الأندلس»، الذي ترجمه مؤرخنا العظيم الأستاذ الدكتور حسن حبشي، ومن ثم لم يعر لين بول التأريخ الحولي اهتمامًا،

وإنما جمع تاريخ الأندلس في إطار موضوعات عالج من خلالها ثمانية قرون معالجة موجزة غير مخلة بالغرض الذي من أجله تم تصنيف الكتاب.

توفي ستانلي لين بول عام 1931م، بعد حياة حافلة بالجد والكفاح والعمل العلمي والفكري والثقافي.

عليّ الجارِم

مولده ونشأته :

هو علي بن صالح بن عبد الفتاح الجارم أديب وشاعر وكاتب ومترجم فذٌّ، ولد عام 1881م في مدينة رشيد بمصر لأحد القضاة والعلماء بالأزهر الشريف، هو الشيخ محمد صالح الجارم أحد علماء الأزهر والقاضي الشرعي بمدينة دمنهور والمتوفى عام 1924م.

ينتسب علي الجارم إلى أسرة الجارم التي يرجع نسبها إلى «الشيخ إبراهيم الجارم» أحد العلماء الذين كان يأتيهم الناس للشكوى من ظلم الوالي التركي .

بدأ علي الجارم تعليمه القراءة والكتابة في إحدى مدارس رشيد ثم أكمل تعليمه الثانوي في القاهرة حيث التحق بالأزهر الشريف وتلقى علوم الدين على يدي «الشيخ محمد عبده»، ثم التحق بعد ذلك بمدرسة دار العلوم، وبعدها سافر إلى إنجلترا لإكمال دراسته في بعثة دراسية عام 1908م فدرس أصول التربية بنوتنجهام، قبل أن يعود مرة أخرى إلى مصر بعد أربعة أعوام في 1912م حيث كان محبًّا وعاشقا لها .

عاصر الجارم دخول الاحتلال عام 1882م، وإلغاء الجيش الوطني عام 1883م وإجبار الاحتلال مصر على إخلاء السودان عام 1884م. وبموت الخديو توفيق ظهر على الساحة الوطنية شابان .. الخديو عباس حلمي الثاني ومصطفى كامل، وتم الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا عام 1904م ثم هزَّت مأساة دنشواي مشاعر المصريين وأحاسيسهم الوطنية عام1906م، وكان عمر «علي الجارم» وقتها 26 سنة ويتأهب للتخرج من دار العلوم عام «1908م» واستوعب من أهله ومن حياته كل هذه الأحداث السياسية، وترسبت في وجدانه ولكنه كان قد قرر أن يحتفظ بالوطنية بعيدًا عن الحزبية وبالقومية بعيدًا عن أي جماعات سياسية، وأن يحتفظ في أعماله بالولاء للعروبة والإسلام.

وظائفه وأعماله :

شغل علي الجارم عددًا من الوظائف ذات الطابع التربوي والتعليمي، فكان كبيرًا لمفتشي اللغة العربية ووكيلًا لدار العلوم وبقي فيها حتى عام 1924م، كما اختير عضوًا في مجمع اللغة العربية بمرسوم صدر من رئاسة الوزراء في أكتوبر 1933م، وشارك في كثير من المؤتمرات العلمية والثقافية.

رحلاته خارج مصر :

كانت أولى رحلاته خارج مصر لإنجلترا بهدف الدراسة والتعلم، كما سبق أن أشرنا، ثم زار بغداد مرتين الأولى أثناء مشاركته في الحفل التأبيني الذي أقيم للشاعر المرحوم جميل صدقي الزهاوي عام 1936م، أما الثانية فهي التي نظم فيها قصيدته المشهورة (بغداد يا بلد الرشيد) .

كما زار لبنان لحضور افتتاح المؤتمر الطبي، ومؤتمر الثقافة ببيروت عامي 1943، 1944م، كما أرسل إلى السودان للإشراف على امتحانات المدارس المصرية، وكل ذلك لأنه كان أحد أبرز المفكرين في عصره، ومن ثم كان يمثل مصر في مثل هذه المؤتمرات والمهام الرسمية.

جهوده في اللغة العربية وآدابها :

برع علي الجارم في الشعر التقليدي فأخرج ديوانًا من أربعة أجزاء ضم عددًا من القصائد السياسية والأدبية والاجتماعية، أما في التاريخ والأدب فألف مجموعة من الكتب منها: «الذين قتلتهم أشعارهم» و«مرح الوليد» تضمن السيرة الكاملة للوليد بن يزيد الأموي، و«الشاعر الطموح» تضمن دراسة عن حياة وشخصية الشاعر الكبير أبي الطيب المتنبي، كما ألف عددًا من الروايات التاريخية بلغة عربية رصينة تؤكد بلوغه الغاية في العربية وعلومها منها : (فارس بني حمدان، وغادة رشيد، وهاتف من الأندلس) بالإضافة إلى عدد من المؤلفات (شاعر وملك، وقصة ولادة مع ابن زيدون، ونهاية المتنبي) كما قام بترجمة تاريخ العرب المسلمين في أسبانيا للمستشرق ستانلي لين بول من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية وهو الكتاب الذي بين أيدينا، والذي قمنا بتحقيقه والتعليق عليه. وبالإضافة إلى تأليفه لمجموعة من الكتب الأدبية والاجتماعية قام بتأليف عدد من الكتب المدرسية في النحو منها «النحو الواضح» الذي كان يُدرَّس في المدارس المتوسطة والثانوية في العراق.

وتجدر الإشارة إلى أن علي الجارم رغم دراسته بإنجلترا وتمكنه من اللغة الإنجليزية لم ينسَق وراء الاتجاه الغربي، وظل المدافع الأول عن اللغة العربية لغة القرآن الكريم وأحد المعتزين بها ، ومن ثم عمل جاهدًا على نهضتها ورقيها.

وقد تميز شعره بإحساس مرهف وذوق رفيع انطلق من الشكل التقليدي الذي يعتمد على قافية موحدة، وتعددت أغراضه الشعرية فكتب في الشعر الوطني والرثاء والمديح والمناسبات. كما كان صاحب إحساس عالٍ يتذوق المعنى، ويتأمل الأفكار الجديدة، وكانت له بصمة واضحة وإضافة مؤثرة في كل عمل التحق به، فساهم في تبسيط النحو والبلاغة من خلال كتبه التي ألفها في ذلك، وكانت له مساهمات فعالة في المجمع اللغوي فشارك في وضع المعجم الوسيط، وأشرف على إخراج مجلة المجمع، وشارك في أكثر لجانه مثل لجنة الأدب، ولجنة تيسير الكتابة، وكان أحد دعائم «لجنة الأصول» وهي

اللجنة التي زودت المجمع بالقواعد التي يقوم عليها التعريب والاشتقاق والتضمين والنحت والقياس وغيرها، وكانت آخر مساهماته الفعالة محاضرة قيمة ألقاها عن الموازنة بين الجملة في اللغة العربية واللغة الأوربية، بالإضافة لمناداته بإصلاح الإملاء.

ونظرًا لجهود علي الجارم العظيمة في مجال اللغة العربية وآدابها فقد قرَّظه عباس محمود العقاد في تقدمته لكتاب «قصائد علي الجارم» بقوله: «كان علي الجارم زينة المجالس، كما كان يقال في وصف الظرفاء من أدباء الحضارتين العباسية والأندلسية، وتجلس إليه فتسمع ما شئت من نادرة أدبية أو ملحة اجتماعية أو شاهد من شواهد اللغة ونكتة من نكت الفكاهة، هو أديب وافر المحصول من زاد الأدباء زاد الرواية الأدبية قديمها وحديثها، ومن مبتكرها إلى منقولها، وهو عالم باللغة، وهو الشاعر الذي زوده الأدب والعلم بأسباب الإجادة والصحة .. نقول عليه .. الأديب الشاعر العالم .. وكان شعره زادا لطالب البيان».

الأوسمة والجوائز :

حصل علي الجارم على عدد من الأوسمة منها وسام النيل من مصر عام 1919م، ووسام الرافدين من العراق 1936م، كما منحته لبنان وسام الأرز عام 1947م، وشهدت بيروت عام 1947م واحدة من أشهر قصائده وهي قصيدة «العروبة» والتي جاءت في 77 بيتًا ألقاها في مؤتمر الثقافة العربي الأول الذي أقامته الجامعة العربية في لبنان .

علي الجارم والسياسة :

عرف عن الجارم أنه كان يكره السياسة ولا يقترب منها، ولكن «مصطفى صادق الرافعي» اعتبره «الشاعر الرسمي للملك فؤاد» مثلما كان أحمد شوقي شاعر القصر، وزادت هذه الفكرة عن «علي الجارم» عندما صرح الملك فاروق، وقال بعض المقربين منه أنه كان يرغب في أن ينعم عليه القصر بلقب «البكوية» مثلما أنعم على «أحمد شوقي» بهذا اللقب، وعلى الرغم من علاقاته الحميمة بمحمود فهمي النقراشي إلا أنه لم يدخل في أي نشاط لحزب الهيئة السعدية التي شكلها أحمد ماهر والنقراشي وعبد الهادي بعد انفصالهم عن الوفد.

ولا شك أن الاهتمام بالسياسة أمر يلح على عقل كل مفكر وأديب سواء من قريب أو من بعيد؛ وذلك لأن معايشة المفكرين والأدباء للأحداث والأوضاع من حولهم تحرك السواكن فيهم كى يعبروا عن آرائهم لمحبيهم وأتباعهم، وهو ما يمكن تأكيده هنا بشأن موقف الجارم من ثورة 1919م التي اشتعلت تحت قيادة «سعد زغلول»، ووقتها كان الجارم مفتشًا للغة العربية بوزارة المعارف

ولكنه أفصح للمدرسين وللتلاميذ عن أن الثورة الشعبية «وليدة إرادة أمة عانت من الكبت ومن الاحتلال قرابة أربعين عاما». فالرجل هنا عبر بحسه وشعوره في كلمات بسيطة عن رأيه في ثورة شعبية عظيمة قامت ضد المحتل الغاصب، وهذا أقل ما يمكن أن يفعله مفكر وأديب بحجم الجارم، وإن كان كما قدمنا ممن يكرهون السياسة لتقلبها بأصحابها، ومن يعملون بها .

وفاته :

بعد حياة حافلة للجارم في حقل اللغة العربية وآدابها - استطاع خلالها أن يصبح أحد أعلام مدرسة المحافظين الشعرية التي قاد تيارها محمود سامي البارودي ثم أحمد شوقي، وأن يصفه النقاد بأنه من أبرع كتاب النثر والشعر- فاضت روحه إلى بارئها عندما كان يصغي إلى أحد أبنائه وهو يلقي قصيدة في الحفل التأبيني لرئيس الوزراء المصري الأسبق محمود فهمي النقراشي حيث توقف قلبه وفاضت روحه إلى خالقها سنة 1949م.

وبوفاته - رحمه الله - فقدنا أديبًا ومفكرًا عرف بروحه المرحة الخفيفة، حيث كان مجلسه يمتلئ بالضحك فيما يروي من حديث ونوادر، وما يعلق به على الأحداث، ورغم مرضه وبعض المآسي التي ألمت به، لم تختف ابتسامته التي كانت تظهر على وجهه لتحجب من خلفها الحزن والألم الذي أصاب قلبه.

هذا الكتاب:

إن النزعة العربية الإسلامية التي نمت جذورها في أعماق الجارم وتأصلت حتى استوت على سوقها فأخرجت منه أديبًا بارعًا وشاعِرًا رائعًا، كانت هي المحرك الأساسي لكل ما يخرج عن هذه العقلية من فنٍّ وأدب، وكان لاطلاعه على الآداب الإنجليزية فيما يخص هذا الجانب فضل آخر في ترجمة هذا الكتاب، فقد راعه أن تخلو المكتبة العربية من هذا الكنز الذي يؤرِّخ لحقبة من أهم الحقب التاريخية ليس في تاريخ المسلمين فحسب، بل في تاريخ العالم أجمع، فسارع إلى ترجمته إذ رأى - كما يقول - أن النكوص عن هذه الرغبة عقوق لحسبه وقومه وتاريخه. وأبى أن يكون قلمه مجرَّدًا لقصائد الغزل والمديح والرثاء فحسب وأن يضِنَّ به على أن يترجم هذه الصفحات الخالدة التي سطرها مستشرق أُولِع بالعرب وتغنَّى بمجدهم.

لذا جاء الكتاب متميزًا عن غيره من كتب الجارم، بل تتويجًا لما يمكن أن نسميه «ملاحم الجارم التاريخية».

واعتناءً من الدار المصرية اللبنانية بهذا الكتاب فقد رأت إعادة نشره في صورة تناسب قيمة الكتاب على المستويين التاريخي والأدبي، مع ضبط النص، وشرح المصطلحات الغريبة، وتخريج للنصوص، وإحالات على المصادر

والمراجع الحديثة - كلما أمكن - وقد اعتمدنا في إخراج هذه الطبعة على نسخة مصورة عن مطبعة دار المعارف بمصر.

وبخصوص عنوان الكتاب فقد آثرنا أن نجعل عنوان الكتاب في هذه النشرة (تاريخ العرب المسلمين في أسبانيا)، وهو ما يتطابق مع مضمون الكتاب، وكذا مع عنوان الكتاب في إحدى النشرات المعنونة بـ The Muslims in Spain (المسلمون في أسبانيا)، ومع العنوان الفرعي الذي وضعه مؤلفه المستشرق الإنجليزي ستانلي لين بول في نشرة أخرى: The History of Moors in Spain Conquest 800 years rule and the Final Fall of Granada، وأراد أن يكون كتابه تاريخًا للأندلس (أسبانيا) من الفتح حتى سقوط غرناطة، ومن ثمّ فليس الكتاب قصة قدر ما هو تاريخًا للعرب والمسلمين في الأندلس، وإن كانت لفظة القصة أو السيرة تصلح بشأن مدينة كما هو الحال في كتابه «سيرة القاهرة»، فالأمر بخصوص تاريخ كامل للأندلس من الفتح حتى السقوط لا يصلح معه سوى لفظة تاريخ باعتبارها أعمق وأدق من لفظة سيرة (قصة).

د. عبد الباقي السيد عبد الهادي

تاريخ العرب المسلمين في أسبانيا

أمامَك قصةٌ عن مجدِ قومٍ		تَقَشَّع عن سـمائِهِمُ السـحابُ
مَناصِلُ إنْ دُعوا للحربِ لَـبَّوا		وإنْ نُودُوا لمَكْرُمة أجابوا
نجومٌ ما بَدَتْ إلَّا لِتَخْفى		كما يَعْلُو على الماءِ الحَباب
سَلُوا التاريخَ عنها إنْ أردتم		ففي صفَحاتِه خُطَّ الجوابُ

بدر الدين علي الجارِم

عاثَتْ بساحتِكِ الظُّبَى يا دارُ
ومحا محاسنَكِ البِلَى والنارُ
فإذا تردَّدَ في جَنابِك ناظِرٌ
طالَ اعتبارٌ فيكِ واستِعْبار
أرضٌ تقاذَفت النَّوَى بِقَطِينِها
وتمخَّضَت بخَرَابِها الأقْدَار
كتبتْ يدُ الحِدْثان في عَرَصاتِها
«لا أنتِ أنتِ ولا الدِّيارُ دِيارُ»

تقديم

شُغِف الناس في القديمِ والحديث بتاريخ العرب في الأندلس، ووجدوا في قراءته والاستِماع لأحاديثه لَذَّةً رُوحانِيّة عجيبةً لا يجدونها في سواه. ولعل مِن أسباب هذا الشغف أنهم يقرءون فيه قصةً رائعةً للبشرية تتقلّب فيها أحداثُ الزمان، وتصطَخِب صُروف الأيام، ويُدَاوِل الدهر فيها بين شَطْرَيه، فهو مرّة صفاء لا يشُوبه كَدَرٌ، وابتسام لا تَحُوم حوله جُهومة، وأمن لا يخالطه حذَر، وعِزٌّ راسخ، وقوة وسلطان ونعيم وملك كبير. وهو في أخرى هَمٌّ ونَصَب، وخُذْلان وبلاء مُسْتَطِير.

إن قصة الأندلسِ عجيبةٌ حقًّا، مثيرةٌ للنفس حقًّا. فيها من أحاديثِ البطولة والإقدام ما يعجَب له العَجَب، ويهتزُّ له عطْفُ العربيِّ الكريم. فيها جُرْأَةُ طارقٍ، وإقدامُ عبد الرحمنِ الداخلِ، وعزيمةُ الناصرِ، وعبقريةُ المنصورِ. وفيها إلى جانب كل هذا أمثلةٌ رائعة للصبر حين البَأس، وللجَلَد على أشدِّ المكْرُوه، وللتمسُّك بالعقيدة والسَّيفُ مُصْلَتٌ فوق الرءوس، وللثبات في مأزق يفِرُّ فيه الشجاع.

وقصة الأندلس، كَكُلِّ القصص، كما تصور الرُّجولة تستهوي النفوس وتسحَر العيون، ترسم إلى جانبها الفُسُولةَ والجُبنَ، والحقد والنَّفْج الكاذب، والشَّرَه في حُطام الدنيا الزائل، وبيع النفوس للشَّهوات في أقبح ما يصوره المصوِّرون.

وتاريخ الأندلس كله عِراكٌ ونِضال وصخَب. لا تكاد تقلِّب صفحةً من صفَحاته حتى تسمع قَعْقَعة السيوف، وصَلِيلَ الرِّماح: صراع بين ملوك المسلمين، وصراع بينهم وبين نصارى الشمال، وصراع بين الأجناس والقبائل، وصِراع بين العقائد والمذاهب، ثم صراع أخير بين الحياة والموت، وبين الأذان والنَّاقوس.

ومن العجَب أنك على الرغمِ من هذا الاضطراب الشامل، تقرأ في قصة الأندلس صحائفَ مِن ذهب، تتجَلَّى فيها مدَنِيةُ العرب معجزةً من المعجزات وآيةً من الآيات. فقد كانت الأندلس في العصور الوسطى شُعلة النور ومنار الهداية، وكانت جامعاتها بقُرْطبَة، وإشبِيلِيَّة، وغَرْنَاطة، وغيرها ملتقى طلاب العلم من الشرق والغرب. وكان فيها للأدبِ والشعر والفنون عامةً منزِلةٌ لم تكَدْ تصل إليها أمة، وإذا تحدثنا عن فنون العمارة والهندسة والنقْش وغيرها طال بنا الكلام، وخرجنا عمَّا قصَدْنا إليه من الإيجاز.

إن سقوط الأندلس لم يكن إلا سُقوطَ النجمِ المتلَألئ اللامِع، وانهيارَ الجبل الأَشَمِّ الراسِخ. وإن دولةً في الأرض لم تُشَيَّع بِعَبَرات العيون، وحَسَرات

القلوب، كما شُيِّعت الأندلس. ولم يبكِ الشعراء مُلْكًا طَواه الزمان كما بَكَوْا مُلْكَ الأندلس. ولم يقف المؤرخون وهم يُدَوِّنون خاتمةَ أمةٍ - حاسري الرءوس خاشعين، يرسِلون الزَّفَرات - كما وقفوا عند قبرِ دولة العربِ بالأندلس.

خَفَقَت الجوانِحُ بحبِّ الأندلسيِّين على الرغم مما يزعمه التاريخ من أنهم أُعْطوا مُلْكًا فلم يُحْسِنوا سياسته، واستنَاموا إلى الشهوات، واستعان بعضهم على بعض بالأعداء. على أنه يجدُر بأهل الرأي ألا يتعجَّلوا في الحُكم على أهل الأندلس وهم لم يعيشوا في بيئتهم، ولم يدرسوا أتمَّ الدَّرس الأحوالَ التي مرت بهم، ولم يدقِّقوا النظرَ في نظام الحكم الذي التزمته الأمم في هذه الأزمان.

إن المسلمين بالأندلس كانوا في أرض غيرِ أرضهم، وفي إقليم اجتمعت فيه كل صُنوف الفتنة والجمال. وكان أعداؤهم من الإسبان يحيطون بهم مِن كل جانب، وأعداؤهم في المشرِق ينْصِبون لهم الحَبائِل - أفَبَعْدَ هذا نصبّ عليهم اللوم حِممًا، ونحمِّلهم وِزر تصاريف الزمان، وتحكُّم البيئة، وسيطرة الأحوال التي وضعتهم فيها يد القدر؟

إن العرب عاشوا في هذه الفتن الجائحة نحو ثمانمائة عام، قلّ أن تستطيع أمة سواهم البقاء في مثلها. لِيقُل الشُّعوبية ما شاءوا، ولِيَقْسُ ابن خلدون وأمثال ابن خلدون على العرب كما أرادوا. أليس مِن التَّجَنِّي على الحقائق أن يَدَّعي ابن خلدون أن العرب لا يصلُحون لسياسة الأمم، وأنهم أمةُ جَهْلٍ وتدمير، وأنهم إذا نزلوا بلدًا أسرع إليه الخَرَابُ؟! إنَّ سماحة حُكم العرب بالأندلس، وجمال مَدَنِيّتهم، واتساع مَدى ثقافتهم أسمى من أن يصل إليه إنكارُ منكرٍ أو جحود جاحد. وإنَّ في آثارِ قُرطبةَ، وإشبيليةَ وغَرناطة، التي لا تزال ماثلةً إلى اليوم مِن معجزات البناء والهندسة - ما يُخجِلُ كلَّ مَن يدَّعي أنَّ أمة العرب أمةُ خَرابٍ وتدمير، وأنهم يهدمون القصور ليتخذوا مِن أحجارها أثافي للقُدُور، ومن خَشَبها أوتادًا للخِيام. أين هذه الأثافي وأين تلك الخيام من جنَّات الأندلس الباسمات وقصورِها الشامخات؟ ثم أين هي من عَظَمة دمشق أيام الأمويين، وجمال بغدادَ في حكم العباسيين، وازدهارِ القاهرة في عهد الفاطميين؟! إنَّ العرب يبْنُون ولا يهدِمون. وإنَّ الهدَّامين لآثارِهم ومدنيَّاتهم إنما هم أعداؤهم من البربَر، والإفرنج، والتتار وغيرهم. وإذا كانت دول العرب قد مُنِيَت بالانحِلال السريع في الشرق والغرب، فإن أكثر السبب في هذا - فيما يغلِب على الظن - إنما يعود إلى نظام الحكم الذي كان قائمًا، لا إلى طَبائع العرب أنفسهم. ولو نظرنا في عهودهم إلى الأمم حولهم في أقْطار الأرض، لرأينا أنها أُصِيبت بما أُصِيب به العربُ.

والآن نعود إلى قصة الأندلس فنرى أن ما كتبه الأوَّلون فيها لا يَشْفي نفْس القارئ ولا يَبُلُّ غُلَّته. وهذا كتاب «نَفْح الطِّيب» - وهو خير كتاب في تاريخ

الأندلس - كلّه اضطرابٌ، واستِطّرادٌ وتَكّرار والّتِوَاءٌ وتشتُّتٌ. لهذا كانت خزائنُ الكتب العربية في أشد الحاجة إلى مثل كتاب «ستانلي لين بول» الذي سمَّاه «قصة العرب في أسبانيا»، والذي قرأته فأحسستُ بدافع نفسي يلح بوجوب ترجمته إلى لغة العرب، وشعرت بأنَّ النُّكُول عن هذه الرغبة عقوقٌ لحسَبي وقومي وتاريخي. وإذا كان هذا القلمُ الذي جرَّدْته أربعين عامًا لا يُجِيد إلا تَنْمِيق قصيدةٍ في الغزَل، أو المديح أو الرِّثاء، ولا يَصُول إلا فوق صفَحاتٍ من الأدب واللغة، حتى إذا جاء كاتب إنجليزي محقِّقٌ فألَّف كتابًا بلغته فيه إنصافٌ للعرب وتاريخهم، وفيه إشادةٌ بحكمهم وعلمهم وأدبهم وحضارتِهم - انكمَش في دَواتِه وأدركه الحَصْر فأجدِرْ بهذا القلم أن يُحَطَّم، وأحْرِ بسِنَانه أن يُقْصَفَ، وأخلِقْ بصاحبه ألا يُباهي مرة أخرى بعُروبته...

إن ستانلي لين بول يحب العرب ويتَغَنَّى بمجدِهم. ويؤلِّف لأبناء أمته في تاريخهم كتابًا، أو قُل قصيدةً طويلةَ الذُّيولِ كلُّها ثَناءٌ وإِطْراءٌ، وحُبٌّ وإعجابٌ، وعَطفٌ وحَنانٌ، ولَوْعةٌ وبكاءٌ؛ فهل كان يصِحُّ في حُكم البِرِّ بالعربية، أن يبقى أبناؤها مَحْجوبين عن هذا الكتابِ دَهْرًا طويلا؟

ترجمتُ الكتابَ فارتاحتْ نفسي، لأني في حينٍ واحدٍ أذَعْتُ فضلَ العرب على لسانِ رجلٍ ليس منهم. ثُم أذعتُ فضلَ هذا الرجلِ لأنه جديرٌ بإعجابِ العربِ.

أمَّا طريقةُ لين بول في التأليفِ: فجامعةٌ بين التحقيق العِلمِيِّ، وربطِ الحوادثِ بعضها ببعضٍ، وتأديةِ قصةِ الأندلس كاملةً متَّصلة الأَوَاصِر، في أسلُوب شائِق وسِياقٍ رائع. فإنَّه بعد أنْ قرأ تاريخ الأندلس في مراجِعَ شَتَّى بين عربيةٍ وإفرنجيةٍ، ولقِي ما لاقَى في اجتِياز ذلك الخِضَّمِ المضْطَرِب بالرِّواياتِ والحوَادِث - استطاع أن يُخرِجَ للأدبِ والتاريخِ قصةً بديعةَ الأسلوبِ، متماسكةَ الحلَقاتِ، لها - مع صِدْقِ حقائقِها - كلُّ ما للقِصص الخيالية مِن فِتنة وسِحْر.

وقد يُدَاخِلُك بعضُ الرَّيْب في أنَّ المؤلِّف متعصِّبٌ للعرب، محتَطِبٌ في حَبلِهم، لأنك تراه يقتنِص الفُرَص أو يخلُقها للإشادةِ بدِينِهم، وسياستهم للأمَم، ثم بآدابهم ومدَنِيَّتهم التي يَعُدُّها شعلةَ النُّور في أرجاء أوربا بعد أن خَمَدت مدنِيَّة الرومان، وزالت حضارةُ اليونان، ثم إنه رسم لعبد الرحمن الدَّاخل، والناصر، والمنصور بن أبي عامر صورًا من القوة والحزم، والعدْل والدَّهاء، لم يستطع مؤرخٌ عربيٌّ أن يجمَع ألوانَها. وإذا غمَز بعض المحسنِين من الأمراء بنَقْدٍ، كان خفيفَ المسِّ رفيقًا، حتى إنه لم يبخَلْ بفضلِه من عطفِه عن مُلوك الطوائف، الذين بَدَّدُوا شمْلَ الدولة، فأحسنَ رِثاءَ دولتِهم، وبكَى فيهم الهِمَّةَ والسَّخاء، وإنهاض العلوم. وإعلاءَ شأنِ الأدب والشعر. أما حديثُه عن مملكةِ غَرْناطة وأُفُولِ شمسِ العرب بالأندلس، فلم يكن إلا أنَّاتٍ وزَفَراتٍ ودموعًا. وقف على أطلالِ الأندلس كما يقف العاشِق المحزون، فبكى مدينةً زالت،

وفنونًا بادت، وعِزًّا طاح مع الرِّياح، ومُلكًا كأن لم يمضِ عليه إلا ليلةٌ وصباحٌ، ومجالسَ أُنْسٍ كانت نَغمًا في مسامِع الدُّهور، ودروسَ علم هُرِعَت إليها الدُّنيا وتلفَّتَت العصور. نعم، إنَّ ستانلي لين بول كان يحب العربَ حقًّا، ولكنَّ هذا الحب لم يجاوز به الحقَّ، ولم يخدعْه عن نفسه، ولم يسلُبْه صفةَ المؤرِّخِ المحقِّق. وكلُّ ما في الأمر أنَّه كان صريحًا في نشر الحقائق، فصَدَع بها حين أنكَرَها أو شَوَّهَ مِن جمالها كثيرٌ ممن يكتُمون الحقَّ وهم يعلمون. إنَّ لين بول لم يكن متعصِّبًا للعرب. ولكنه كان لهم مُنصِفًا، وعلى تاريخهم أمينًا، ولهم أخًا وصديقًا، حين قَلَّ الأخُ وعَزَّ الصديقُ، على أنَّ في الكتاب عتابًا في مواطن العِتاب، ولومًا في مواضِع اللَّوْم، وتعنيفَ المحِبِّ المخلِص حين يَحْسُن التعنيفُ.

ومما تجمُل الإشارة إليه: أنَّ المؤلف في حديثه عن الإسبان خاصة وأهل أوربا عامة - إنما كان يتحدَّث عن حياة قومٍ في العصور الوسطى، أو في أيام حكم البربون، قبل أن يتسع نِطاق المدنِيَّة، وينبَلِج فجرُ العصر الحديث الذي غيَّر كثيرًا من أخلاق الناس وعقولهم ونظرِهم إلى الأشياء. فإذا نقَد المؤلِّف رجال العُهود الماضية بأوربا وأسبانيا، فإنه لم يتردَّد اليوم في الحكم بأنَّ الزمن دار دَوْرَته، وأن التاريخ لو نظر إلى الخلف لرأى مدنِية جديدة وقومًا آخرين.

وقد قصدتُ في ترجمة هذا الكتاب إلى تَرجَمة المعاني مع الحرص على الرُّوح التي أَمْلَته، فإنَّ لكل لغةٍ بيانًا. وحَسْبُ النقل أن يدرِك الغاية، ويصيبَ اللُّباب. والله سبحانه المستعان.

علي الجارِم

جزيرة الروضة

7 من أكتوبر سنة 1947م

آخِر أيام القُوط

بقيتْ بلادُ العربِ آمنةً مطمئِنَّة لا يُدَاسُ لها عَرِينٌ [5]، ولا يُباحُ حِماها [6]، عندما كانت جيُوش الإسكندرِ الأكبرِ تُغِير على الإمبراطوريات الشَّرقية القديمة [7]؛ فلزِم سُكَّانُ شِبه الجزيرةِ العربيةِ صحراءَهم في عُزلة وأَنَفة، ولا يبْعثون إلى الفاتِح العظيم رُسُلا، ولا يُقَدِّمون إليه طاعةً ولا خُضوعًا، وعَقَد الإسكندرُ العزيمةَ على إذْلال هؤلاءِ العربِ المستَكْبِرين، وأخَذَ الأُهْبَة لغَزْوهم ووَطْئِهم تحت قدمَيْه [8]؛ وما كاد يَهُمُّ بذلك حتى أدركته المنِيةُ [9]، فحالت دون أُمْنِيَّته، وبقي العرب أعِزَّاءَ لا يُغْلَبون.

كان ذلك قبلَ مولدِ السيد المسيح [10] بأكثر من ثلثمائة سنةٍ، والعربُ من ذلك الحين وقبله أعِزَّاءُ مستَقِلُّون بصَحْرائهم الواسعة، لا يخضَعون لسَطْوَةِ فاتِحٍ جبَّار. وقد مرَّ بهم زُهَاءُ ألفِ سنةٍ في هذه العُزْلة الهادئة التي قَلَّ أنْ يكون لها مَثيلٌ بين بِقاعِ الأرض، وقامت مِن حولهم إمبراطوريات جديدة: فأنشأ خلفاءُ الإسكندرِ المملكةَ السُّورِيَّة، وكان بها السلوقيون [11] (The Seleucids) وأبناءُ الأسرةِ المِصريَّة من البَطَالِسة [12]. وتُوِّجَ أغسطس [13] إمبراطورًا لرومة. وأصبح قُسْطَنْطين [14] أوَّلَ إمبراطورٍ مسيحِيٍّ لِبيزنطة [15]، وخضَع حُشود البرْبَر لإمبراطورية القَيَاصِرة البعيدة الأطْراف واندَمَجوا فيها. كلُّ ذلك والعربُ متحَصِّنون بشِبه جَزيرتِهم، لا يُزَعْزَع لهم أمنٌ، ولا يَطرُقُهم طارِقٌ، ولا يحاوِل غَزْوَهم فاتِحٌ؛ وإذا دانَتْ بعضُ مَشارِف بلادِهم وثُغورِها بشيء من الطاعة أحيانًا لأكاسِرة الفُرْس [16] وقَياصِرة الروم [17]، وجاسَتَ [18] بعضُ الفِرَقِ الرومانية بين الحينِ والحينِ خلال بعض مَفاوِزها [19] فإنَّ شيئًا من ذلك كان ضَئِيلا متقَطِّعًا، لم يمسَّ استِقلالَ البلادِ ولم ينلْ من عِزَّتِها.

وهكذا رَبَضَ [20] العربُ في جزيرتهم لا تُزْعِجُهم صائِحةٌ [21]، وطَفِقُوا [22] وقد أحاطَت بهم الممالكُ الضَّارِية [23] الظامِئة إلى الغَزوِ والفُتُوح، وادِعين [24] بصَحْرائهم مستَلْئِمين بشَجاعَتهم التي لا تُقْهَر. وبقي لذلك تاريخُ العربِ مَغْمُورًا [25] منذ أَزْمانٍ بعيدةٍ في القدم إلى القرنِ السابعِ الميلاديِّ، فلم يُعْرَف عنهم إلا أنَّ لهم وجودًا، وإلا أنَّ أحدًا مِن الغُزاة لم يحاولْ غَزْوَهم، إلا قَعَدَتْ به الوساوسُ وساوَرَه [26] خوفُ الهزيمةِ. ثم حدَث فُجاءةً في أخلاقِ العربِ تطوُّرٌ جديدٌ، فلم يعودوا يرغَبون في العُزْلة كما كانوا، بل انطلقوا يَجْبَهون الدنيا، وأخذوا في جِدٍّ وحَزْم يحاولون غَزْوَ العالَم.

نشأ هذا التطورُ من عزيمةِ رجلٍ واحدٍ هو محمَّد بن عبد الله، فإن هذا النبيَّ العربيَّ شرَع في طَلِيعة القرنِ السابعِ يَنْشُر الإسلامَ، فلقِيَتْ دعوتُه آذانًا

واعِية [27]، وعَظُم تأثيرُها في قلوبِ العربِ، فأثارت في طبائِعهم وأخلاقِهم ثورةً عنيفةً شامِلةً. وكان ما يدعُو إليه محمدٌ سَهْلا حَنِيفًا [28]، قريبًا إلى النفوس، يتفق مع شَريعة اليهودِ التي كان لها أَحْبارٌ [29] بالجزيرة، وقد أبطَلَ كثيرًا من الأحكام والعادات، وأضاف أحكامًا جديدة كان العرب في حاجَةٍ إليها، ودعا إلى الوَحْدانية، فكان ذلك فتحًا جديدًا بين قوم مَرَدوا [30] على عبادَةِ الأوثان.

ويصعُب علينا في هذه الأيام أن ندرِكَ التأثيرَ الشديدَ الذي بعثه هذا الدين الهادِئ في قلوبِ العربِ؛ ولكننا نعرفُ أنَّ هذا التطورَ الدينيَّ قد تمَّ فِعلا، وأنَّ للأنبياءِ الصادقين دائمًا قوةً غريبةً في اجتذابِ النفوس. ولقد كان محمدٌ حين دعا قومَه صادِقًا، ولقد بلَّغ دينَه الذي يراه الدينَ الحقَّ أمينًا مُثابِرًا [31]، ولقد كان في الدِّين من السُّمُوِّ، وفي النبيِّ وأصحابِه من الرَّغْبة الحافِزة في نشرِه - ما أثار مَوْجَةً مَلَكَتْ على العربِ شُعورَهم، وأَجَّجَ [32] في نُفوسِهم جُذَوَةً [33] يسمِّيها النَّاسُ اليومَ بالتَّعصُّب الدِّيني [34].

وكان العربُ قبلَ بَعثة محمد أَشْتَاتًا [35] من شعوب وقبائلَ مُتَطاحِنة، تَتَنَافس في الشَّجاعة الوَحْشِيَّة، والكَرَم، والبُطُولة، وتعيشُ من الغارات وانتِهاب الغَنائِم، فحوَّلهم النبيُّ في طَرْفة عَيْنٍ إلى قوم مسلِمين [36]، وملأ قلوبَهم بحماسة الشُّهَداء، ووصَل حُبَّهم الفطْريَّ للدنيا والمغانمِ، بِطُموحٍ نبيلٍ هو تبليغُ الدين إلى الناس كافَّةً [37].

خضَعت جزيرةُ العربِ كلُّها لمحمدٍ قبلَ أن يلاقي ربَّه، وانتشرت القبائلُ التي وحَّد كلمتها في الممالك المجاورةِ للجزيرةِ، وألْقى أهلَها لهم القِيادَ دَهِشِين مَشْدُوهين [38]، ثم اكتَسَحَتْ جيوشُ خُلَفائه بلادَ الفُرس، ومصر، وشمال إفريقية، حتى بلَغوا منه المكانَ المعروفَ بأعمدةِ هِرَقْلَ [39]، وردَّدَ المؤذِّنون أذانهم مِن وراء نَهْر جَيْحُون [40] بآسيا الوسطى إلى شواطئ المحيط الأطْلنطيِّ.

وصَدَّت الهجومَ العربيَّ بآسيا الصُّغرى قواتُ إمبراطورِ الرومِ، ولم يُتَحْ للمسلمين أن ينالوا من هذه البلاد حَظًّا إلا في القرنِ الخامسَ عشرَ، حين بلغوا ما طال إليه تَشَوُّقُهم مِن فتح القُسْطَنْطِينِيَّة [41]، التي دَكَّتْ حُصونَها شجاعةُ التُّركِ العثمانيين وشِدةُ مِراسِهم [42]. وفي النهايةِ المقابلةِ من بحرِ الرومِ، صَدَّ أحدُ قُوَّاد الرومِ تيارَ العربِ إلى حينٍ، فاتَّجه العربُ الفاتحون إلى ممالكِ شَماليِّ إفريقية، وكَبَحوا جِماحَ أُمَّة البربر الشَّامِسة [43] العَنِيدة بعد جِهادٍ عنيفٍ، وأخضَعُوها لسُلْطانهم، ولم يَقِفْ في وجُوهِهم إلا قلاعُ سَبْتَةَ وحُصُونُها. وكانت سَبْتَةُ كغيرها مِن بلاد جنوبيِّ بحر الروم، تحت حكم إمبراطورِ الرومِ،

غير أنَّها لبُعدِها من القسطنطينية كانت تتوجَّه إلى مَمْلَكةِ أسبانيا بطلَب المعُونة، فهي تابعة للروم من حيث الحُكْمُ، مُضافةٌ في الحقيقة إلى مَلِك طُلَيْطُلَة لحمايتها والدِّفاع عنها. ولم يكن في حكم الظَّن أن تكون معاوَنَةُ أسبانيا لها كافيةً لصَدِّ أمواجِ العرب الفاتحين، على أنَّه حدَث فوق هذا أنْ كان هناك شِقاقٌ بين «يولْيَان» [44] حاكم «سَبْتة» و«لُذْرِيق» [45] ملك أسبانيا، ففتح هذا الشِّقاقُ البابَ واسِعًا لدخولِ العرب، وذَلَّل سبيلَ الفتحِ للغُزاة.

كان يحكم أسبانيا في ذلك الوقتِ القُوطُ الغربيون [46]، وهم قبيلةٌ متوحِّشة كغيرِها من القبائلِ التي اكتَسَحَتْ ممالِكَ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ، إبَّانَ تَرَنُّحِها للسُّقوط، أمَّا القوطُ الشرقيون [47]: فقد احتلُّوا إيطاليا، وتركوا أبناء عُمومَتهم مِن القوطِ الغربيين يأخذون مكانَ بعضِ القبائلِ الجِرمانيةِ [48] الجافيةِ، ويدُقُّون أطْنابَ حُكْمِهم بأسبانيا في القرنِ الخامسِ الميلاديِّ.

وكانت أسبانيا عندما دخلها القوطُ، مُنْحَلَّةَ العُرَا، غارقِةً في ألوانٍ من التَّرَفِ الفاجِر، والنَّعِيم الذي يسلُب الرُّجولةَ، وبمثل هذا العبثِ وذلك الفُجور، ذهبت ريحُ دولةِ الرُّومان قبلَهم؛ فإنَّ الرومان كغيرهم من رجال الحروب، حينما انتهوا مِن غَزَوَاتِهم الكثيرة المتعاقبة بالنَّصْرِ والغَلَب، ورَأَوْا الدنيا تحت أقدامِهم - انصرَفوا إلى الرَّاحة بعد الجُهْدِ الشَّاقِّ، والجِهاد المُضْني، وأَلْقَوا بأنفسهم في أحْضَان النَّعيم، وناموا في ظِلٍّ ظليلٍ من الغِنى الواسِع والأمنِ الشَّامل، فذهبتْ أخلاقُهم، وماتت فِيهم حَمِيَّة آبائهم الشُّجْعانِ البُسْلِ، الذين كانوا يَرْضَوْن بالكَفافِ [49] ويتركُون آلةَ الحَرْثِ ليُجَرِّدوا السُّيوفَ ماضِيةً بَتَّارةً، إذا دَعاهم أحدُ القياصِرة لحماية بلادهم، أو لغَزْوٍ قارَّةٍ جديدةٍ.

كانت الطبقةُ الغَنِيَّةُ بأسبانيا في عَهْدِ الرُّومان، قد خلَعت العِذَارَ [50] لأنواع التَّرَفِ والشَّهَواتِ، حتى لكأنَّها لم تُخْلَق إلا للطعامِ والشرابِ، واللَّهْوِ والقِمار، ولكلِّ ما يُثِير النفسَ العابِثة [51] ويُرْضِي نَزَعاتِها؛ وكانت الطبقةُ الدنيا تشملُ العَبِيدَ وأَحْلَاسَ الأرضِ الذين أَخْلَدوا إلى زراعتها، حتى كأنهم قطعةٌ منها لا يفارقونها حياتَهم، فإذا انتقلت إلى مالِكٍ جديدٍ، انتقلوا إليه معها.

وبين هاتين الطبقتين - طبقةِ الأثرياءِ، وطبقةِ العبيد والأحلاس - كانت الطبقةُ الوسطى مِن سُكَّان المدن الأحرار، تُلاقي من سُوء الحالِ وضَنْكِ العَيْشِ ما كان شرًّا مما يلاقي العبيدُ وأَشَدَّ نُكْرًا، فعليهم كان يقعُ عِبْءُ الإنفاقِ على الدولة، فهُم الذين يؤدُّون الضَّرائبَ، ويقومُون بخدمة الدولة وما تتطلَّبُه المدنُ من الأعمال، وهم الذين يجمعون الأموالَ للأغنياء ليبعْثِروها في لذائِذهم. وبديهيٌّ أنَّ دولةً تُصاب بهذا الفسادِ وذلك الضعفِ، لن تكون بها مُنَّةٌ [52] على صَدِّ فاتح بَطَاشٍ شديدِ الشَّكِيمة [53].

كان النَّبلاءُ والأغنياءُ - وهم في غَمْرةِ النعيم ورفاهة العيش - لا يسمعون ما يَلْغَطُ به الناسُ من اقترابِ الأعْدَاءِ، وكانت سيُوفهم قد صَدِئَتْ من طولِ ما مَكَثَتْ في أغْمادِها، وكان العبيدُ لا يأبَهون لتغَلُّبِ حاكمٍ على حاكمٍ، لأنهم وصلوا إلى حالٍ من الذُّل والبؤسِ بحيثُ لا يستطيع حاكمٌ جديدٌ أن يصيبَهم بشَرٍّ منها، وكانت الطبقةُ الوُسْطى ساخطةً حانِقةً وقد بهظَها [54] ما كانت تَحْمِل من تكاليفِ الدَّولة وما كان يقَعُ عليها من الغُرْمِ من غيرِ أن تنالَ من الغُنْمِ [55] شيئًا.

وإنَّ شعبًا هَوَى [56] إلى هذه الهُوَّة، وتَدَهْوَر في هذا الدَّرْك لا يُستطاع في حكم البديهة أن يؤلِّف من رجاله جيشٌ قويٌّ مكافِحٌ، لذلك دخلَ القُوطُ أسبانيا واستولَوْا عليها بدون عَناءٍ، وفتحت لهم المدنُ أبوابَها عن طَواعِيةٍ، وخضعَتْ لهم الحضارةُ الرومانيةُ العلِيلةُ دون أن تَمُدَّ للدفاعِ كفًّا. وفي الحقِّ إنَّ طريق القُوط إلى الفتح كانت قد مُهِّدَتْ بمن نَزل قبلَهم بأسبانيا من متوحِّشِي الألان والرندال والسوابي، فلم يُكَلِّفْهُم الغزوُ جُهْدًا، أو يحمِّلْهم عَنَتًا، فقد علم الرومانيون من سكَّان أسبانيا حقَّ العِلم، ما يجُر وراءَه غَزْوُ المتوحِّشين من نكَبات وأوْزارٍ، فكم رَأَوا مَدائنَهم والنار تَلْتَهِمها التهامًا، وكم رَأَوا زوجاتِهم وأولادَهم يُسَاقون إلى الذُّلِّ والأسْرِ، وكم رأوا قوَّادَهم يُقْتَلون صَبْرًا. رأوا عواقبَ هذهِ الحروبِ ولَعَناتِها، وما يتصِل بأذْيالها مِن الطَّواعين والمجاعات والقَحْطِ وشُيُوعِ الفَوْضَى الضَّارِية، وعلَّمَتْهم هذه الكوارثُ درسًا لم يَنْسَوْه، فألقَوْا القِيادَ للقوط خاضِعين.

وكان للقوط بأسبانيا أكثرُ من مائتي سنة [57]، حينما وصل العربُ في أوائلِ القرن الثامن إلى شواطئ المحيط الأطلنطي بإفريقية، وعبروا بأبصارهم مَضِيقَ هِرَقْلَ، فشاهدوا من بعد ولايات أسبانيا المشرقة.

وكان للقوطِ منذ أن فتحُوا أسبانيا مُتَّسعٌ من الوقت لإصلاح ما فَسَد من شئونها، وبعثِ رُوحٍ جديدة في الشباب، وكان عليهم أن يستفِيدوا من مدنِيَّة الرومان، فكثيرًا ما استفادت العناصرُ المتوحِّشَة التي كملت فيها صفاتُ الرجولة، من اندماجها في المدنيات القديمة الذَّابلة. وكان هناك أسبابٌ خاصَّة تدعو القوط إلى إصلاح أحوالهم: فإنهم لم يكونوا شُجعانًا أشِدَّاءَ فحسْبُ، بل كانوا - فيما يزعمون - نصارى مخلِصين. والحقيقة أنهم عندما استولوا على أسبانيا لم تكن النصرانية فيها إلا صورةً ورسمًا، لأن قُسْطَنْطِين اكتفى بجعل النَّصْرانية دين الإمبراطورية الرومانية ولم يُعْنَ بتقويةِ دعائمها في الممالكِ الغربيةِ. وكان في حكم الظَّنِّ أن يكون هُبوطُ دينٍ جديدٍ على أمة جاهِلة كالقوط جديرًا بأن يثير حماستها، ويملأ صدورَها بالأملِ بعد أن رَزَحَت [58] تحت أثقال الوثنية طويلا، حتى لقد طَمِع قَساوِسة [59] الكاثوليك في أن يكون لهم ولكنائسهم في العَهْدِ الجديد شأنٌ مذكور، ولكن النتائجَ لم تُؤيِّد المقدِّمات،

فإنَّ القوط جعلوا من أعمالهم الدِّينية ذَرائعَ لغُفْرانِ ما يجترِحون من ذنوبٍ وآثام، وأَعَدُّوا لكل إثمٍ نوعًا من التوبة، واقْتَرفوا الذَّنبَ ليتوبوا منه مِن جديدٍ، دونَ أن يجِدوا لذلك في صدُورِهم حَرَجًا!

وجُملة القولِ أنهم كانوا كأشرافِ الرُّومان الذين سَبقوهم، عادةً وسوءَ خُلُق، ولم تدفعهم النَّصرانيةُ إلى شيء من الخيرِ والإصلاحِ، فكانت حالُ أحلاسِ الأرضِ الملازمين خِدْمتها، أسوأ مما كانت في عهد الرومان، لأنهم لم يكتفوا بإلزامهم خدمةَ أرضٍ بِذاتِها، أو سيِّد بعينه، بل حتَّموا عليهم ألا يتزوَّجوا إلا برضا السَّيِّد، وأنهم إذا أَصْهَروا [60] من ضيعة مجاورة قسمت ذريتهم بين صاحبي الضَّيْعَتَيْن. وحملت الطبقة الوُسْطَى - كما كانت الحال في حكم الرومان - عبْءَ الضرائب، فجَرَّ ذلك إلى خرابِ هذه الطبقة وإفلاسها. وكانت الأراضي في قبضةِ عددٍ من الأغنياءِ، يقوم على خدمتِها وزراعتها عددٌ عديدٌ من العبيدِ البائِسين، الذين يعيشون بلا أمل في الانتِعاش من كَبوَتِهم، أو حُلمٍ في الخلاصِ من بُؤْسِهم، وحسبُك أن رجالَ الدين الذين كانوا يخطُبون ويشيدون بالأُخُوَّة المسيحية بعد أن أثروا وملَكوا الضِّياعَ الواسعةَ، اتبعوا السياسةَ الموروثةَ، وعاملوا عبيدَهم وخَوَلَهم [61] بالعَسْف والشدة، كما كان يفعلُ أثْرياءُ الرومان. ثم إنَّ أغنياءَ القُوط غرقوا في صُنوفٍ من النَّعيم أفقدَتْهُم الحِسَّ، ونافسوا الوثَنيِّين في الفُجور، ففَلَجُوا [62] عليهم حتى أدرَكَهم ذلك السُّبات الذي أطاح بدولة الرومان.

يقول بعضُ المؤرِّخين - وهو يحاول تَمْحيصَ الأسبابِ التي أدَّت إلى تغلُّب المسلمين على المسيحيين -: «إن الملك ويتزا «غيطشة» علّم أسبانيا كيف تَقْتَرِفُ الآثامَ» ولكن أسبانيا كانت قد تعلَّمت ذلك على أحسنِ وجوهِ العلم قبل «غيطشة» بزمنٍ بعيدٍ، وربما لم يكن هذا الملِكُ أسوأَ من سابِقِيه، الذين أغرَقوا في الشَّهوات، وترخَّصوا في كلِّ ما أصاب الدولةَ من الفسادِ والتَّدَهْوُرِ. ولما كانت آثامُ القُوطِ المتوحِّشِين قريبةَ الشَّبَهِ جدًّا من مآثمِ الرُّومان الدَّائِلين [63]، لم تشعرْ المملكةُ عند انتقالِ الحكْم من الرُّومان إليهم بشيء جديد.

هكذا كانت أسبانيا حينما اقتربَ المسلمون مِن حُدُودِها. طبقةٌ فاسِدةٌ مُفْسِدة من الأغنياء، قَسَّمت الأرضَ بينها ليزرعها العبيدُ وأَحْلاسُ الأرضِ البائسون اليائسون، ثم طبقةٌ من سُكَّان المدن لم يُبقِ لها الظلم والعسفَ رطبًا ولا يابسًا [64].

هكذا كانت أسبانيا حينما كان جنود الإسلام يقيمون على الجانب الآخر من بَحْر الزُّقاق الذي عُرف فيما بعد: بمضيق جبل طارق - وهم قومٌ بُسْلٌ أَشدَّاءُ، تلتَهِب نفوسُهم حماسة لدينهم، وتتأجَّج شَوْقًا إلى ما في أرضِ الكفَّار الخصِيبة

من غنائمَ وخَيْراتٍ، وقد تدرَّبوا على السِّلاح منذ نعُومَة أظفَارهم، وعاشوا في صحرائهم عِيشَةً خَشِنة جافِية. وإنَّ موازنةً بين هذين الفريقين، لا تترك مجالا للشَّكِّ فيمن سيكون له النصرُ والغَلَب، على أنَّ الخيانة التي جاءت بعد ذلك فساعدت الفاتحين على اقتحام البلاد، أزالت كلَّ أثرٍ للشَّكِّ في انتصارهم.

خلَع لُذريق غيطشةَ مِن عرشهِ [65]، وبدأ حكمُه بُداءةً حسنةً، ولكنه خَضَع آخر الأمر لإغراءِ الثروة والقوةِ، وجمَح به النَّهَم في الشَّهَوات الدَّنيئة حتى نفِرت منه القلوبُ، وأصبح كلُّ ما حوله مستعِدًّا للاشتعال، لا ينتظر إلا شرارةً صغيرةً لينفَجِر ويذهبَ بمَمْلَكَتِه.

وكانت العادةُ بين أمراءِ المملكةِ أن يُرسِلوا بناتِهم وأبنائهم إلى القصر لتهذِيبهم وأخذِهم بكل ما يثَقِّفُ النفسَ ويَغْرِسُ الخلُقَ الكريمَ؛ فأرسل الكونت «يوليان» حاكم سَبْتَة، ابنته فلورندا إلى قصرِ لذريق بطُلَيْطُلَةَ، لتنال قِسْطًا من التربية بين وَصَائِفِ الملِكة. وكانت فلورندا غايةً في الجمال فشُغِف لذريق بها، ودَنَّسَ عَفافَها، ذاهِلا عمَّا يوجِبُه عليه الشَّرفُ من حِمايتها كما يحمي إحدى بناته [66]، وزاد في بَشاعةِ الجريمةِ، أنَّ زوجَ يوليانَ كانت بنت غيطشة، فكان في فِعْلة لذريق تلطيخٌ للشرفِ الملَكي بالعار. وقد كتبت الفتاةُ إلى أبيها حينما شعرت بجَسَامة الكارثةِ، ودَعتْ غلامًا تثِق به وأَوْصَتْه أن يُسْرِع بالكِتاب، وأن يصل ليلَه بالنار حتى يضَعَه في يدِ أبيها، ثم مَنَّتْهُ الأماني .[67]

ولم يكن يوليان يحبُّ لذريق، لأن صِلَته بالملك المعزولِ أو المقتول على الأرجح [68]، صدَّته عن الميلِ إلى الغاصِب؛ ثم جاء العبَثُ بشرفِ ابنته، فزاد نارَ حِقده اشتِعالا، وأغْراه بالكَيدِ والانتِقام. وقد استطاع أولَ الأمر أن يقفَ في وجهِ غاراتِ العربِ، ولكنه عَزَم الآن على ألا يدفع عن مَملكة أثيمٍ ثَلَب عِرْضَ ابنَتِه، وصمَّم على أن يترُك العربَ يملكون أسبانيا إذا أرادوا. ثم زاد فقرر في قَرارةِ نفسه أن يرشِدَهم إلى الطريق، فأسرَع - وحبُّ الانتِقام يملأ صدْرَه - إلى لُذريق - بعد أن أسْكَتَ غَضَبه وأَخْفَى ما في نفسِه - فأحسَّ الملِك بشيء من النَّدَم، ووثِق في نفسِه من أن فلورندا كتمت سِرَّه وسِرَّها، وأخذ يَغْمُر يوليانَ بصُنوفٍ من الإجلالِ والتَّكْريم، ويستَشِيره في كلِّ ما يتَّصِل بحماية المملكةِ، ويَصِيخُ [69] إلى ما يُزَوّق من الخديعةِ والخُتْل [70]، حتى إنه أرسَل أكرَم خيُولِه وخير عَتادِه إلى الجنوب، لتكون تحت إِمْرة يوليان إذا هَجَم الفاتحون.

وغادَر الكونت [71] طُلَيْطُلَة ومعه ابنته، مَحْفُوفًا بعَطْف الملكِ ورِضاه، وطلب لذريق منه عند افتراقِهما أن يُرسل إليه نوعًا خاصًّا من البُزاة [72] المُعَلَّمة، فأجاب يوليان: بأنه سيرسل إليه بُزاةً لا عَهْدَ له بها؛ وبهذه الإشارة الخفِيَّة إلى قُدوم العربِ، عاد أدْراجَه إلى سَبْتَة.

وما كاد يصِل إليها حتى زَارَ موسى بن نُصَيْر [73]، الوالي من قِبَل الخليفةِ على شمال إفريقية، الذي طالما اشتَبكَتْ سيوفُه بسيوفِه في حروبٍ مشتعلةِ الأوَار [74]، فأخبره أن الحربَ بينهما قد وضَعَتْ أوْزَارَها [75]، وأنهما منذ اليومِ صديقان حَميمان، ثم أخذ يملأ أذُنَي القائدِ العربي بأحسنِ القَصصِ عمَّا في أسبانيا مِن الجمالِ والثروةِ، ويحكي عن أنهارِها ومُرُوجِها، وأعْنابها، وزَيتونها، وعظَمَة مُدُنِها وقصورها، وما فيها للقُوط من كنوز، ثم قال: إنها أرض تموجُ باللَّبَنِ والشَّهْدِ، وليس على موسى إلا أن يَخْطُوَ فينالها بقَبْضَتِهِ، وأخذ يوليان على نفسه أن يرشِدَه إلى الطريق، ويعدّ له السُّفُن. وكان القائد العربيُّ داهِيةً شديدَ الحذَرِ، فخَشِي أن تكون هذه الدعوةُ خديعةً واستهواءً إلى الوقوع في شَرَكٍ أو كَمِينٍ، لذلك أرسل إلى الخليفة [76] بدمشق رُسُلًا ليرى رأيه في الأمر، واكتفى فيما بين ذلك سنة 701م (91هـ) بإرسال خمسمائة رجل بقيادة (طَريف) [77] أبحروا على أربع سفنٍ ليوليان للإغارة على شاطئ الأندلس، ولم يرضَ مُوسى أن يعرِّض من رجاله للخطر أكثر من هذا العدد، لأن العرب لم يكونوا قد اعتادوا بعدُ الإبحار في بحرِ الرومِ.

عاد طريف في شهر يولية بعد أن نجَح في الغَرَضِ الذي أرسل من أجله، فقد أرْسَى سُفُنَه في المكان الذي لا يزال يُسمَّى باسمه، ونزل الجزيرةَ الخضراءَ [78] وانتهبَها، ورأى بعينهِ ما كفَى لاقتناعه بصِدْق ما قاله الكونت يوليان، من فُقْدانِ وسائلِ الدِّفاع بأسبانيا، وبأن إخلاصَه للفاتحين لا يقبلُ الشَّكَّ. ولكنَّ موسى على الرغم من هذا لم تَمِلْ نفسُه إلى المخاطَرة في سبيلِ فتحٍ جديدٍ، وجاء كتابٌ من الخليفة بدمشق يأمره بألا يقذِفَ بجيش المسلمين في أخطارٍ مجهولةِ العاقِبةِ، وعهِد إليه أن يكتفي بإرسالِ فِرقٍ قليلةٍ من آنٍ لآنٍ، للإغارةِ المفاجِئةِ.

ولكنه بعد أنْ ملأه نجاحُ طَريفٍ ثقةً بالنَّصرِ والتَّغلُّب، عزَم على أن يُوسِّع نِطاقَ غَزْوِه.

فحينَ علِم في سنة 711م (92هـ) أنَّ لذريق مقيمٌ بشمالي مملكته لقَمْع ثورة البشكنس [79]، أرسلَ أحدَ قُوَّادِه، وهو طارِقٌ البربري [80]، ومعه سبعة آلاف رجلٍ جُلُّهم مِن البربر للإغارةِ على الأندلس، فنال من هذهِ الإغارةِ فوقَ ما كان يتوقَّعُ، فإنَّه أرْسى سُفُنَه عند صَخْرةِ الأسدِ التي حملتْ اسمَه من ذلكَ الحينِ، فدُعِيَتْ: جبلَ طارقٍ. وبعد أن مَلَك «كارتية»، توغَّل في داخلِ البلادِ، ولم يَسِرْ بعيدًا حتى رأى جُيوشَ القُوطِ بقيادةِ لذريق تقترِب لِنزالِهِ؛ فالتقى الجيشان على شاطئ نُهَيْر سماه المسلمون: وادِي بَكَّة [81]، بالقرب من نَهرِ وادي لَكَّة [82] الذي يَصُبُّ في المضِيقِ عند رأسِ الطرَفِ الأَغَرِّ [83].

وتَقُصُّ علينا الأساطِيرُ: أنَّ الملِك لَذْرِيق قبلَ هذه الموقعةِ، كان جالسًا على سريرِ مُلْكِه بمدينة طُلَيْطلة فدخل عليه رجلان جَلَّل الشَّيْبُ رأسيهما، وهما في ثيابٍ بيضٍ من نَسْجٍ قَدِيمٍ، وكان حِزاماهما مُزَيَّنَيْنِ بِصُوَرِ مَواقِعِ النجوم وما لها من شأنٍ في تصْرِيفِ القَدَرِ، وقد عُلِّق بهما كثير من المفاتيح. فلمَّا مَثُلا بين يدي المِلك قالا له: اعلم أيها الملكُ: أنَّ هرقلَ منذ زمنٍ قديمٍ، وحين نَصَب صنمَه عند مضِيق البحر، أنشأ حِصْنًا قويًّا بالقرب من طُلَيِّطُلة القديمة، وأخْفَى فيها طِلَسْمًا [84] جعَلَ عليه بابًا من الحديد ثَقيلا، له أَقْفالٌ من الصُّلْبِ توكيدًا لحِفْظِه؛ ثم إنه أَمَرَ أن يقوم كلُّ مِلِكٍ جديدٍ؛ بإضافة قُفْل جديدٍ لهذا البابِ، وأنذَرَ بالوَيْلِ والثُّبُورِ كلَّ مَن يَهُمُّ بكَشْفِ هذا الطِّلَسْم. وقد قُمنا وقام أسلافُنا بحراسَة بابِ الحصْن منذ أيامِ هِرَقْلَ إلى هذه الساعةِ، وعلمنا أنَّ بعضَ الملوكِ، حاولَ كشفَ هذا الطِّلَسْم، فكانت عاقبةُ أمرِهم الموتَ أو الجنونَ، ولم يصِل واحدٌ منهم إلى أبعدَ مِن عتبةِ بابِهِ، وقد جِئنا الآن أيها الملكُ، لنرجوكَ أن تضَع قُفْلَك على بابِ الحِصْنِ كما فعلَ جميعُ الملُوكِ قبلَكَ. ثم انصَرف الشَّيْخَانِ.

وحينما فكَّر لُذْريق فيما قالاه، ثارتْ في نفسه الرغبةُ في دخولِ هذا الحصنِ المسْحُورِ، على الرغم مِن تحذِيرِ بطارِقَتِه ووُزَرائه الذين قالوا له: إن كنت تظنُّ أنَّ به مالا فقدِّرْه، ونحن نجمَعُ لك من أموالِنا نَظِيرَه، ولا تُحْدِثْ علينا بفتْحِه حادِثًا لا نعرِف عاقِبته، وقد علِمتَ أن قيصر الأكبرَ [85] على جُرْأَته لم يحاول دخولَه...

ولن يُفْتَحَ الحصْنُ إلا لمن		قضى اللهُ في مُلكه بالزَّوالِ
مــمالِكُه زال سُلْطــانُها		بنَشْرِ الفساد وكَيْدِ الرِّجال
فنالت مِن الله شرَّ انتِقام		وآبَ بَنُوها بِشَرِّ المآل

ولكن الملِك أَصَرَّ وصمَّم على الرغم من هذه النصيحة، فركِب يومًا مع فُرسانه إلى الحِصن، وكان فوقَ صَخْرةٍ عاليةٍ تُحيطُ به مَهَاوٍ سَحيقةٌ [86]، وكانت حِيطانهُ من المرْمَرِ الذي إذا واجهته الشمسُ كاد شُعاعُه يذهب بالأَبْصَارِ. وكان مدخَلُه في طَريقٍ مَنْحُوتٍ في الصَّخْرِ، وقد أُغْلِق عليه بابٌ عظيم من الحديدِ، غُطِّي بالأقْفَالِ الصَّدِئة من عَهْدِ هرقلَ إلى أيام غيطشة.

ووقفَ الحارسان إلى جانبي البابِ، وحاول فُرسانُ الملِكِ وبعضُ الحرَّاسِ فَتْحَه، فاستطاعوا بعد لَأْيٍ [87] فكَّ أغْلاقِه قُبَيلَ الغروبِ، ودخل الملِكُ وحاشيتُه من الباب، إلى بَهْوٍ في نهايته بابٌ آخرُ، وقف أمامَه تمثالٌ من البرُنْزِ ضَخْمٌ هائِلُ المنظرِ، بيَدهِ رُمْحٌ عظيمٌ أخذ يحرِّكه ويضرب به ما حَوْله من الأرضِ.

ولما رأى لذريق هذا التمثال، هالَه منظَرُه، وأخذَه البَهْرُ، وتملّكَتْه الدهشة، ولكنه لما قرأ ما كُتِب على صدْرِه وهو: «إنِّي أقوم بواجبي» استردَّ شجاعته، وأمرَ التمثال أن يُفْسِح له الطريقَ، زاعمًا أنه لم يأتِ لاستباحةِ حُرْمَةِ المكان، وإنما جاء ليعرِف سِرَّ ما فيه، فهدأت عندئذ ثائرةُ التمثالِ ورفَع رُمْحَه، فمرَّ الملكُ ومرت حاشيتهُ من تحته إلى حُجرةٍ ثانيةٍ، فوجدوا جُدْرَانها مُغَطَّاةً بكريمِ الأحْجارِ، ورأوا في وَسَطها مائدةً عظيمةً من ذهبٍ وفضةٍ، مُكَلَّلةً بالجواهر، وعليها تابوتٌ من الفُولاذِ، به قُفْلٌ عُلِّقَ به مِفتاحه، وقد كُتِب عليه: «في هذا التابوت طِلَسْمُ الحِصْنِ، ولن تفتَحَه إلا يدُ مَلِك، ولكن ليحذَرْه هذا الملِكُ، فإنَّ أشياءَ عجيبةً ستصوِّر له ما يحصُل له قبلَ موته».

وحين فتح الملكُ التابوتَ لم يجِد به سِوى رَقٍّ به صُوَرُ فرسانٍ عابِسي الوجوه مسلَّحين بالقِسِيِّ [88] والخناجِر، وقد كُتِب فوق هذه الصور: «انظر أيها الطَّائشُ الأرْعَنُ [89] إلى هؤلاء، فإنَّهم سيثُلُّون عرشَك ويُخْضِعُون مملكتك». وبينما كان الملِك وأصحابُه يُحَدِّقون في الصُّوَرِ، إذ سمعوا زَمازِمَ الحرب ولَجَبَها، ورأوا أن الصُّوَر طفِقت تتحرَّك كأنَها في غَمَامٍ، حتى أخذت هيئةَ حربٍ في مَيْدانٍ [90].

رَأَى لُذْرِيقُ في هَوْلٍ وحُزْنٍ		بهذا المنظَرِ السِّحْرِيِّ حَرْبَا
عَواقِبُها تراها العينُ جَهْرًا		وإن كانت مِن القدرِ المخَبَّا

ثم أبصروا ميدانًا عظيمًا يتفانَى فيه النصارى والمسلمون في موقِعةٍ طاحنةٍ، وسمِعوا أصواتَ جري الخيلِ ووَقْعِ حَوافِرِها، وزَعْقِ الأبْواقِ والصُّنُوجِ، وما يَصُمُّ الآذانَ مِن ضربِ آلافٍ من الطُّبول، بين بَريقِ السُّيوف والقُضُبِ وحَفِيف السِّهام وصَلِيلِ الرِّماح [91]؛ ورأوا أنَّ النصارى يتضاءلون أمام أعدائهم الذين تَدَفَّقوا عليهم كما يتدفَّق السَّيْلُ، فتبدَّدَ شَمْلُهم، وسَقط إلى الأرضِ بَيْرَقُ الصَّلِيبِ، ودِيس عَلَمُ أسبانيا تحتَ الأقدام، وامتلأ الجوُّ بصيحاتِ الانتصارَ يخالِطُها صُراخُ الغضَبِ وأَنِينُ [92] المُحتَضَرِين.

ورأى الملك لُذريق بين هذه الفِرق الفارَّة من الميدان، فارسًا مُتَوَّجًا. كان ظهرُه إليه، ولحظ أنَّ سِلاحَ هذا الفارس وعُدَّتَه، تُشْبِهُ سِلاحه وعُدَّته، وأنه كان يركَب جَوَادًا أَشْهَب، يُشْبِه جَوَادَه «أورِيلِيا».

ثم رأى أنَّ الفارِس بعد قليلٍ سَقَط عن جَوَادِه في هَرْجِ الحرب ومَرْجِها فلم يَعُد يُرى، وأن أورِيلِيا أخَذ يَعْدُو في الميْدان بغير راكِب.

وحينما خرج الملكُ وحاشِيتُه من الحصنِ دَهِشِين خائفين، اختفى التمثالُ من الوجود، وسقَط الشَّيْخان الحارِسان ميِّتَيْن عند مَدْخَل الحِصن، وكان مِن إرْهاصِ الطبيعةِ الغاضبةِ أن الْتَهَمَت النارُ الحصنَ، فتأَجَّج كلُّ حَجَرٍ فيه وآضَ [93]

رَمادًا تذْرُوه الرياح. ويقول القَصَّاصون: إنه كلما سقَط رَمادٌ من هذه الأحجار في مكان، وُجِد بجانبه نُقطة من الدَّمِ المسْفُوك.

أُولِعَ مؤرخو العُصور الوُسْطى مِن النصارى والعرب بالإفاضة في هذه الحادثةِ [94]، وإمْدادِها بكثيرٍ من صُوَرِ الخيال، وضُروبِ الإرْهاص كما قيل:

كم مِن رُؤًى وأَساطِيرٍ مُزَوَّقَةٍ		بها وَعِيدٌ وإرْهاصٌ وإنْذارُ
فيها تَلاقَى خَيالُ العُرْبِ مازَجَه		ما خَيَّلَتْهُ لأَهْلِ القُوطِ أَشْعَارُ

وكم قرأنا أنَّ كِلا الفريقين قُبَيْلَ المؤقِعة، كان ينْشَرِحُ صدْرُه أو ينقَبِضُ بالفَألِ والطِّيَرة، وزعموا أن النبيَّ نفسَه، ظهر لطارقٍ في المعرَكة وحثَّه على الإِقْدام، وأمرَه أن يضْرِب ويغْلِب [95]، إلى غيرِ ذلك من أمثالِ هذه الرواياتِ. وكيفما كانت رُؤى الجيشين وأحلامُ رِجالها، فإنَّ نتيجةَ القِتالِ حينَ وقفَ الجيشانِ بالقُرب مِن وادي لَكة، كان لا يَشُوبُها شَكٌّ... نعم إنَّ طارقًا أُمِدَّ بخمسةِ آلافِ مُقاتِلٍ منَ البَرْبَرِ، فبلَغ جيشُه الصغير اثني عشَرَ ألفًا، حينما كان جيشُ لُذْرِيق يبلُغ ستةَ أمثالِه في العدد. لكنَّ الفاتِحين كانوا شُجعانًا مَغَاوِيرَ أَشِدَّاءَ، مَرَنوا على الحروبِ، وكان قائِدُهم بَطلا بَاسِلا، بينما كان الإسبان خَلِيطًا من العَبيد المستَضْعَفين في الأرض، وكان بين قُوَّادِهم بعضُ الخوَنةِ مِنَ الأَشْرَاف، فإنَّ أقرِباء غيطشة - وإن أطاعوا لُذْرِيق في ظاهِرِ الأمرِ وحضروا المعركة - كانوا عازِمين على الانضِمام إلى الأعداء عندما ينكشِف لهم وَجْهُ القِتال، ولم يخطر لهم ببالٍ أنَّ في فِعلهم هذا خيانة لأسبانيا؛ فقد ظنُّوا واهِمين أنَّ الغُزاة لم يقصدوا إلا إلى النَّهْب والغَنِيمة، وأنهم عند انتِهاء الغارَةِ وحُصولهم على الأَسْلاب يذهبون توًّا إلى إفريقية، فتعودُ سُلالة غيطشة إلى عَرْشِها [96] القديم المغْصُوبِ؛ وبهذا الظَّنِّ الخاطئ عَاوَنوا مِنْ حيثُ لا يشعرون على وَضْعِ أجملِ ولايات أسبانيا نحو ثمانية قرون تحت حكمِ العرب.

وقد سقطت قلوبُ المسلمين بين جُنُوبِهم ذُعْرًا، حينما رَأَوا الجيشَ اللُّهَام [97]، الذي أعدَّه لذريق لنِزالهم، وحينما رَأَوا الملِك في دِرْعِه الفاخرةِ وفوقه المظلة الملَكِيَّة؛ ولكن طارقًا صاح في رجاله: «أيها الناس: العدو أمامَكم والبحرُ وراءكم، وليس لكم واللهِ إلا الجَلَدُ والصَّبرُ» [98]؛ فاستَنْجَد المسلمون بشجاعتهم وصاحوا: «إنا وراءكِ يا طارق» ثم هجَموا خلفَ قائدهم يقذِفون بأنفسِهم في وَطِيسِ الحربِ وأَتُونِها. واستمرت المعركةُ أسبوعًا، أظهَر فيه الفريقانِ كثيرًا من ضُروب الشَّجاعة والإقْدام، وكان لُذريق يستَحِثُّ قومَه مرةً بعد أخرى، ولكنَّ فِرار أتْباعِ غيطشة رَجَّح كِفَّة الميزانِ، فصار الميْدَانُ صورةً مُحزِنة للدَّمارِ والهزيمةِ.

ومُزِّقَ جيشُ لذريق وخارت		بمَن فِيهِ العزائمُ والثُلُوبُ

وحِين رَأى الهزيمةَ فَرَّ يَعْدُو		وَحِيدًا مُسْتَكِينًا لا يَؤُوبُ
عليهِ مِن غُبَار الحربِ ثَوْبٌ		ومن لَوْنِ الدِّماء به لَهِيبُ
وتَحمِل كفُّه سيفًا خَضِيبًا		كمِنشارٍ أَفَلَّتْهُ الحرُوبُ
فَلَأْمَةُ صدْرِه فيها شُقُوقٌ		وخُوذة رَأْسِه فيها ثُقُوبُ
أَطَلَّ بقِمَّةٍ فَرأى دَمارًا		له كادت حُشَاشَته تَذُوبُ
وأَعلامًا ممزَّقةً تَبَدَّتْ		وكلٌّ بالدَّمِ القاني خَضِيبُ
وجَالَ بسَمْعِه للعُربِ صوتٌ		بنصْرِ اللهِ ردَّده السُّهُوبُ
رأى قُوَّادَه فرّوا وأَبْقَوْا		جَرِيحًا أو قَتِيلا لا يُجِيب
وأَنَّى عينُه لمحت مكانًا		بدا للعينِ فيه دمٌ صَبِيبُ
فقال وقد بكى: قد كنتُ ملِكًا		وماذا ينفعُ الآنَ النَّحِيبُ؟
ونِمتُ الأمسَ فوقَ فِراشِ عِزٍّ		وفَرشِي اليومَ تَجْفُوه الجنُوبُ
جَثَا الخُدَّام أمسِ أمامَ عَرشي		وليس اليومَ لي منهم عَرِيبُ
فَيَوْمُ ولادَتي يومٌ عَبُوسٌ		ويومُ ولايتي يومٌ عَصِيبُ
فما أشقى نهاري حين أَرْنو		لشمسِ الأُفْقِ يَحْجُبها المغِيبُ!
فَعَجِّلْ أيها الموتُ المرجَّى		فما لي اليومَ في الدنيا حَبيبُ

هكذا تقولُ الأُنْشُودة الإسبانية، ولكن نهايةَ لذريق بَقِيَتْ سِرًّا خَفِيًّا إلى اليومِ، فقد وُجِد فَرَسُه وخُفّاه عند شاطئ النهرِ بعد يوم من المعرَكة ولم يظهَرْ له أثَرٌ. ومن المحقَّق أنه غَرِق، وأنَّ النهر حمَل جُثَّته إلى المحيط [99]. ولكنَّ الإسبان يَأْبُون أن يُصَدِّقوا هذا، فقد أَلْبَسوا الملِكَ الرَّاحِلَ حُلَلا قُدُسِيةً خَفِيَّةَ الأَسْرارِ، لم يَخْلَعوها عليه في حَياته، وجعلوا منه مَعِينًا فيَّاضًا لكثيرٍ من القصصِ والرِّواياتِ، وخلَعوا عليه صفاتِ المنقِذِ المخلِّص، كما فعلَ الإنجليزُ بالملكِ آرْثَر [100]؛ فاعتقدوا أنه سيعودُ مرةً أخرى من مَقَرِّه في بعضِ جزائرِ المحيطِ، بَرِيئًا من جِراحِه ليقُودَ النصارى لقتالِ الملْحِدين.

وجاء في أَسَاطِيرِهم أنَّه قضَى بَقِيَّة حياتِه في أعمالِ الخيرِ والإنَابة، وأنَّ ثَعابينَ أخذتْ تَبتَلعُه شيئًا فشيئًا، عقابًا لما كان يقْتَرِفُ من إِثْمٍ، حتى مُحِيت ذُنوبه «فإِنَّ عِقاب البدَنِ ينْقِذُ الرُّوحَ من الآلام» ثم إنه حُمِلَ إلى الجزيرة

الهادئةِ المطمئِنة، ولا يزالُ رجالهُ منذ ذلك الحينِ ينتظرون أَوْبَته [101] إليهم، كما يَؤُوبُ الظّافِر المنتَصِر.

آخِر أيام القُوط

بقيتْ بلادُ العربِ آمنةً مطمئنَّة لا يُدَاسُ لها عَرِينٌ [102]، ولا يُبَاحُ حِماها [103]، عندما كانت جيُوش الإسكندرِ الأكبرِ تُغِير على الإمبراطوريات الشَّرقية القديمة [104]؛ فلزِم سُكَّانُ شِبه الجزيرةِ العربيةِ صحراءَهم في عُزلة وأَنَفة، ولا يبْعثون إلى الفاتِح العظيمِ رُسُلا، ولا يُقَدِّمون إليه طاعةً ولا خُضوعًا، وعَقَد الإسكندرُ العزيمةَ على إذْلالِ هؤلاءِ العربِ المستَكْبِرين، وأخَذَ الأُهْبَة لغَزْوهم ووَطْئِهم تحت قدمَيْه [105]؛ وما كاد يَهُمُّ بذلك حتى أدركته المنِيةُ [106]، فحالت دون أُمْنِيَّته، وبقي العرب أعِزَّاءَ لا يُغْلَبون.

كان ذلك قبلَ مولدِ السيد المسيح [107] بأكثر من ثلثمائة سنةٍ، والعربُ من ذلك الحين وقبله أعِزَّاءُ مستَقِلُّون بصَحْرائهم الواسعة، لا يخضَعون لسَطْوَةِ فاتِحٍ جبَّار. وقد مرَّ بهم زُهَاءُ ألفِ سنةٍ في هذه العُزْلة الهادئة التي قَلَّ أنْ يكون لها مَثيلٌ بين بِقاعِ الأرض، وقامت مِن حولهم إمبراطوريات جديدة: فأنشأ خلفاءُ الإسكندرِ المملكةَ السُّورِيَّة، وكان بها السلوقيون (The Seleucids) [108] وأبناءُ الأسرةِ المِصريَّة من البَطَالِسة [109]. وتُوِّجَ أغسطس [110] إمبراطورًا لرومة. وأصبح قُسْطَنْطين [111] أوَّلَ إمبراطورٍ مسيحِيٍّ لِبيزنطة [112]، وخضَع حُشود البرْبَر لإمبراطورية القَيَاصِرة البعيدة الأطْراف واندَمَجوا فيها. كلُّ ذلك والعربُ متحَصِّنون بشِبه جَزيرتِهم، لا يُزَعْزَع لهم أمنٌ، ولا يَطرُقُهم طارِقٌ، ولا يحاوِل غَزْوَهم فاتِحٌ؛ وإذا دانَتْ بعضُ مَشارِف بلادِهم وثُغورِها بشيء من الطاعة أحيانًا لأكاسِرة الفُرْس [113] وقَياصِرة الروم [114]، وجاسَتَ [115] بعضُ الفِرَقِ الرومانيةِ بين الحينِ والحينِ خلال بعض مَفاوِزها [116] فإنَّ شيئًا من ذلك كان ضَئِيلا متقَطِّعًا، لم يمسَّ استِقلالَ البلادِ ولم ينلْ من عِزَّتِها.

وهكذا رَبَضَ [117] العربُ في جزيرتهم لا تُزْعِجُهم صائِحةٌ [118]، وطَفِقُوا [119] وقد أحاطَت بهم الممالكُ الضَّارِية [120] الظامِئة إلى الغَزوِ والفُتُوح، وادِعين [121] بصَحْرائهم مستَلْئِمين بشَجاعَتهم التي لا تُقْهَر. وبقي لذلك تاريخُ العربِ مَغْمُورًا [122] منذ أزْمانٍ بعيدةٍ في القدم إلى القرنِ السابعِ الميلاديِّ، فلم يُعْرَف عنهم إلا أنَّ لهم وجودًا، وإلا أنَّ أحدًا مِن الغُزاة لم يحاولْ غَزْوَهم، إلا قَعَدَتْ به الوساوسُ وساوَرَه [123] خوفُ الهزيمةِ. ثم حدَث فُجاءةً في أخلاقِ العربِ تطوُّرٌ جديدٌ، فلم يعودوا يرغَبون في العُزْلة كما كانوا، بل انطلقوا يَجْبَهون الدنيا، وأخذوا في جِدٍّ وحَزْم يحاولون غَزْوَ العالَم.

نشأ هذا التطورُ من عزيمةِ رجلٍ واحدٍ هو محمَّد بن عبد الله، فإن هذا النبيَّ العربيَّ شرَع في طَلِيعة القرنِ السابعِ يَنْشُر الإسلامَ، فلقِيَتْ دعوتُه آذانًا

واعِية [124]، وعَظُم تأثيرُها في قلوبِ العربِ، فأثارت في طبائِعهم وأخلاقِهم ثورةً عنيفةً شامِلةً. وكان ما يدعُو إليه محمدٌ سَهْلا حَنِيفًا [125]، قريبًا إلى النفوس، يتفق مع شَريعة اليهودِ التي كان لها أَحْبارٌ [126] بالجزيرة، وقد أبطَلَ كثيرًا من الأحكام والعادات، وأضاف أحكامًا جديدة كان العرب في حاجَةٍ إليها، ودعا إلى الوَحْدانية، فكان ذلك فتحًا جديدًا بين قوم مَرَدوا [127] على عبادَةِ الأوثان.

ويصعُب علينا في هذه الأيام أن ندرِكَ التأثيرَ الشديدَ الذي بعثه هذا الدين الهادِئ في قلوبِ العربِ؛ ولكننا نعرفُ أنَّ هذا التطورَ الدينيَّ قد تمَّ فِعلا، وأنَّ للأنبياءِ الصادقين دائمًا قوةً غريبةً في اجتذابِ النفوس. ولقد كان محمدٌ حين دعا قومَه صادِقًا، ولقد بلَّغ دينَه الذي يراه الدينَ الحقَّ أمينًا مُثابِرًا [128]، ولقد كان في الدِّين من السُّمُوِّ، وفي النبيِّ وأصحابِه من الرَّغْبة الحافِزة في نشرِه - ما أثار مَوْجَةً مَلَكَتْ على العربِ شُعورَهم، وأَجَّجَ [129] في نُفوسِهم جُذَوَةً [130] يسمِّيها النَّاسُ اليومَ بالتَّعصُّب الدِّيني [131].

وكان العربُ قبلَ بَعثة محمد أَشْتَاتًا [132] من شعوب وقبائلَ مُتَطاحِنة، تَتَنَافس في الشَّجاعة الوَحْشِيَّة، والكَرَم، والبُطُولة، وتعيشُ من الغارات وانتِهاب الغَنائِم، فحوَّلهم النبيُّ في طَرْفة عَيْنٍ إلى قوم مسلِمين [133]، وملأ قلوبَهم بحماسة الشُّهَداء، ووصَل حُبَّهم الفطْريَّ للدنيا والمغانمِ، بِطُموحٍ نبيلٍ هو تبليغُ الدين إلى الناس كافَّةً [134].

خضَعت جزيرةُ العربِ كلُّها لمحمدٍ قبلَ أن يلاقي ربَّه، وانتشرت القبائلُ التي وحَّد كلمتها في الممالك المجاورةِ للجزيرةِ، وألْقى أهلَها لهم القِيادَ دَهِشِين مَشْدُوهين [135]، ثم اكتَسَحَتْ جيوشُ خُلَفائه بلادَ الفُرس، ومصر، وشمال إفريقية، حتى بلَغوا منه المكانَ المعروفَ بأعمدةِ هِرَقْلَ [136]، وردَّدَ المؤذِّنون أذانهم مِن وراء نَهْر جَيْحُون [137] بآسيا الوسطى إلى شواطئ المحيط الأطْلنطيِّ.

وصَدَّت الهجومَ العربيَّ بآسيا الصُّغرى قواتُ إمبراطورِ الرومِ، ولم يُتَحْ للمسلمين أن ينالوا من هذه البلاد حَظًّا إلا في القرنِ الخامسَ عشرَ، حين بلغوا ما طال إليه تَشَوُّقُهم مِن فتح القُسْطَنْطِينِيَّة [138]، التي دَكَّتْ حُصونَها شجاعةُ التُّركِ العثمانيين وشِدةُ مِراسِهم [139]. وفي النهايةِ المقابلةِ من بحرِ الرومِ، صَدَّ أحدُ قُوَّاد الرومِ تيارَ العربِ إلى حينٍ، فاتَّجه العربُ الفاتحون إلى ممالكِ شَماليِّ إفريقية، وكَبَحوا جِماحَ أُمَّة البربر الشَّامِسة [140] العَنِيدة بعد جِهادٍ عنيفٍ، وأخضَعُوها لسُلْطانهم، ولم يَقِفْ في وجُوهِهم إلا قلاعُ سَبْتَةَ وحُصُونُها. وكانت سَبْتَةُ كغيرها مِن بلاد جنوبيِّ بحر الروم، تحت حكم

إمبراطورِ الرومِ، غير أنَّها لبُعدِها من القسطنطينية كانت تتوجَّه إلى مَمْلَكةِ أسبانيا بطلَبِ المعُونة، فهي تابعة للروم من حيث الحُكْمُ، مُضافةٌ في الحقيقة إلى مَلِكِ طُلَيْطُلَة لحمايتها والدِّفاع عنها. ولم يكن في حكمِ الظَّن أن تكون معاوَنَةُ أسبانيا لها كافيةً لصَدِّ أمواجِ العرب الفاتحين، على أنَّه حدَث فوق هذا أنْ كان هناك شِقاقٌ بين «يولْيَان» [141] حاكم «سَبْتة» و«لُذْرِيق» [142] ملك أسبانيا، ففتح هذا الشِّقاقُ البابَ واسِعًا لدخولِ العرب، وذَلَّل سبيلَ الفتحِ للغُزاة.

كان يحكم أسبانيا في ذلك الوقتِ القُوطُ الغربيون [143]، وهم قبيلةٌ متوحِّشة كغيرِها من القبائلِ التي اكتَسَحَتْ ممالِكَ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ، إبَّانَ تَرَنُّحِها للسُّقوط، أمَّا القوطُ الشرقيون [144]: فقد احتلُّوا إيطاليا، وتركوا أبناء عُمومَتهم من القوطِ الغربيين يأخذون مكانَ بعضِ القبائلِ الجِرمانيةِ [145] الجافيةِ، ويدُقُّون أطْنابَ حُكْمِهم بأسبانيا في القرنِ الخامسِ الميلاديِّ.

وكانت أسبانيا عندما دخلها القوطُ، مُنْحَلَّةَ العُرَا، غارِقةً في ألوانٍ من التَّرَفِ الفاجِر، والنَّعِيم الذي يسلُب الرُّجولةَ، وبمثل هذا العبثِ وذلك الفُجور، ذهبت ريحُ دولةِ الرُّومان قبلَهم؛ فإنَّ الرومان كغيرهم من رجال الحروب، حينما انتهوا مِن غَزَوَاتِهم الكثيرة المتعاقبة بالنَّصْرِ والغَلَب، ورَأَوْا الدنيا تحت أقدامِهم - انصرَفوا إلى الرَّاحة بعد الجُهْدِ الشَّاقِّ، والجِهاد المُضْني، وأَلْقَوا بأنفسهم في أحْضَان النَّعيم، وناموا في ظِلٍّ ظليلٍ من الغِنى الواسِعِ والأمنِ الشَّامل، فذهبتْ أخلاقُهم، وماتت فِيهم حَمِيَّة آبائهم الشُّجْعانِ البُسْلِ، الذين كانوا يَرْضَوْن بالكَفافِ [146] ويتركُون آلةَ الحَرْثِ ليُجَرِّدوا السُّيوفَ ماضِيةً بَتَّارةً، إذا دَعاهم أحدُ القياصِرة لحماية بلادهم، أو لغَزْوِ قارَّةٍ جديدةٍ.

كانت الطبقةُ الغَنِيَّةُ بأسبانيا في عَهْدِ الرُّومان، قد خلَعت العِذَارَ [147] لأنواع التَّرَفِ والشَّهَواتِ، حتى لكأنَّها لم تُخْلَق إلا للطعامِ والشرابِ، واللَّهْوِ والقِمار، ولكلِّ ما يُثير النفسَ العابِثة [148] ويُرْضِي نَزَعاتِها؛ وكانت الطبقةُ الدنيا تشملُ العَبِيدَ وأَحْلَاسَ الأرضِ الذين أَخْلَدوا إلى زراعتها، حتى كأنهم قطعةٌ منها لا يفارقونها حياتَهم، فإذا انتقلت إلى مالِكٍ جديدٍ، انتقلوا إليه معها.

وبين هاتين الطبقتين - طبقةِ الأثرياءِ، وطبقةِ العبيد والأحلاس - كانت الطبقةُ الوسطى مِن سُكَّان المدن الأحرار، تُلاقي من سُوء الحالِ وضَنْكِ العَيْشِ ما كان شرًّا مما يلاقي العبيدُ وأَشَدَّ نُكْرًا، فعليهم كان يقعُ عِبْءُ الإنفاقِ على الدولة، فهُم الذين يؤدُّون الضَّرائبَ، ويقومُون بخدمة الدولة وما تتطلَّبُه المدنُ من الأعمال، وهم الذين يجمعون الأموالَ للأغنياء ليبعْثِروها في لذائِذهم. وبديهيٌّ أنَّ دولةً تُصاب بهذا الفسادِ وذلك الضعفِ، لن تكون بها مُنَّةٌ [149] على صَدِّ فاتح بَطَاشٍ شديدِ الشَّكِيمة [150].

كان النُّبلاءُ والأغنياءُ - وهم في غَمْرةِ النعيم ورفاهة العيش - لا يسمعون ما يَلْغَطُ به الناسُ من اقترابِ الأعْدَاءِ، وكانت سيُوفهم قد صَدِئَتْ من طولِ ما مَكَثَتْ في أَغْمادِها، وكان العبيدُ لا يأبَهون لتغَلُّبِ حاكمٍ على حاكمٍ، لأنهم وصلوا إلى حالٍ من الذُّل والبؤسِ بحيثُ لا يستطيع حاكمٌ جديدٌ أن يصيبَهم بشَرٍّ منها، وكانت الطبقةُ الوُسْطى ساخطةً حانِقةً وقد بهظَها [151] ما كانت تَحْمِل من تكاليفِ الدَّولة وما كان يقَعُ عليها من الغُرْمِ من غيرِ أن تنالَ من الغُنْمِ [152] شيئًا.

وإنَّ شعبًا هَوَى [153] إلى هذه الهُوَّة، وتَدَهْوَر في هذا الدَّرْك لا يُستطاع في حكم البديهة أن يؤلِّف من رجاله جيشٌ قويٌّ مكافِحٌ، لذلك دخلَ القُوطُ أسبانيا واستولَوْا عليها بدون عَناءٍ، وفتحت لهم المدنُ أبوابَها عن طَواعِيةٍ، وخضعَتْ لهم الحضارةُ الرومانيةُ العلِيلةُ دون أن تَمُدَّ للدفاعِ كفًّا. وفي الحقِّ إنَّ طريق القُوط إلى الفتح كانت قد مُهِّدَتْ بمن نَزل قبلَهم بأسبانيا من متوحِّشِي الأللان والرندال والسوابي، فلم يُكَلِّفْهُم الغزوُ جُهْدًا، أو يحمِّلْهم عَنَتًا، فقد علم الرومانيون من سكَّان أسبانيا حقَّ العِلم، ما يجُر وراءَه غَزْوُ المتوحِّشين من نكَبات وأوْزارٍ، فكم رَأَوا مَدائنَهم والنار تَلْتَهمها التهامًا، وكم رَأَوا زوجاتِهم وأولادَهم يُسَاقون إلى الذُّلِّ والأَسْرِ، وكم رأوا قوَّادَهم يُقْتَلون صَبْرًا. رأوا عواقبَ هذهِ الحروبِ ولَعَناتِها، وما يتصل بأذْيالها مِن الطَّواعين والمجاعات والقَحْطِ وشُيُوعِ الفَوْضَى الضَّارِية، وعلَّمَتْهم هذه الكوارثُ درسًا لم يَنْسَوْه، فألقَوْا القِيادَ للقوط خاضِعين.

وكان للقوط بأسبانيا أكثرُ من مائتي سنة [154]، حينما وصل العربُ في أوائلِ القرن الثامن إلى شواطئ المحيط الأطلنطي بإفريقية، وعبروا بأبصارهم مَضِيقَ هِرَقْلَ، فشاهدوا من بعد ولايات أسبانيا المشرقة.

وكان للقوطِ منذ أن فتحُوا أسبانيا مُتَّسعٌ من الوقت لإصلاح ما فَسَد من شئونها، وبعثِ رُوحٍ جديدة في الشباب، وكان عليهم أن يستفِيدوا من مدنِيَّة الرومان، فكثيرًا ما استفادت العناصرُ المتوحِّشَة التي كملت فيها صفاتُ الرجولة، من اندماجها في المدنيات القديمة الذَّابلة. وكان هناك أسبابٌ خاصَّة تدعو القوط إلى إصلاح أحوالهم: فإنهم لم يكونوا شُجعانًا أشِدَّاءَ فحسْبُ، بل كانوا - فيما يزعمون - نصارى مخلِصين. والحقيقة أنهم عندما استولوا على أسبانيا لم تكن النصرانية فيها إلا صورةً ورسمًا، لأن قُسْطَنْطِين اكتفى بجعل النَّصْرانية دين الإمبراطورية الرومانية ولم يُعْنَ بتقويةِ دعائمها في الممالكِ الغربيةِ. وكان في حكم الظَّنِّ أن يكون هُبوطُ دينٍ جديدٍ على أمة جاهِلة كالقوط جديرًا بأن يثير حماستها، ويملأ صدورَها بالأملِ بعد أن رَزَحَت [155] تحت أثقال الوثنية طويلا، حتى لقد طَمِع قَساوِسة [156] الكاثوليك في أن يكون لهم ولكنائسهم في العَهْدِ الجديد شأنٌ مذكور، ولكن النتائجَ لم تُؤيِّد المقدِّمات،

فإنَّ القوط جعلوا من أعمالهم الدِّينية ذَرائعَ لغُفْرانِ ما يجترِحون من ذنوبٍ وآثام، وأَعَدُّوا لكل إثمٍ نوعًا من التوبة، واقْتَرفوا الذَّنبَ ليتوبوا منه مِن جديدٍ، دونَ أن يجِدوا لذلك في صدُورِهم حَرَجًا!

وجُملة القولِ أنهم كانوا كأشرافِ الرُّومان الذين سَبقوهم، عادةً وسوءَ خُلُق، ولم تدفعهم النَّصرانيةُ إلى شيء من الخيرِ والإصلاحِ، فكانت حالُ أحلاسِ الأرضِ الملازمين خِدْمتها، أسوأ مما كانت في عهد الرومان، لأنهم لم يكتفوا بإلزامهم خدمةَ أرضٍ بِذاتِها، أو سيِّد بعينه، بل حتَّموا عليهم ألا يتزوَّجوا إلا برضا السَّيِّد، وأنهم إذا أَصْهَروا [157] من ضيعة مجاورة قسمت ذريتهم بين صاحبي الضَّيْعَتَيْن. وحملت الطبقة الوُسْطَى - كما كانت الحال في حكم الرومان - عبْءَ الضرائب، فجَرَّ ذلك إلى خرابِ هذه الطبقة وإفلاسها. وكانت الأراضي في قبضةِ عددٍ من الأغنياءِ، يقوم على خدمتِها وزراعتها عددٌ عديدٌ من العبيدِ البائِسين، الذين يعيشون بلا أمل في الانتِعاش من كَبوَتِهم، أو حُلمٍ في الخلاصِ من بُؤْسِهم، وحسبُك أن رجالَ الدين الذين كانوا يخطُبون ويشيدون بالأُخُوَّة المسيحية بعد أن أثروا وملَكوا الضِّياعَ الواسعةَ، اتبعوا السياسةَ الموروثةَ، وعاملوا عبيدَهم وخَوَلَهم [158] بالعَسْف والشدة، كما كان يفعلُ أَثْرياءُ الرومان. ثم إنَّ أغنياءَ القُوط غرقوا في صُنوفٍ من النَّعيم أفقدَتْهُم الحِسَّ، ونافسوا الوثَنيِّين في الفُجور، فَلَجُوا [159] عليهم حتى أدرَكَهم ذلك السُّبات الذي أطاح بدولة الرومان.

يقول بعضُ المؤرِّخين - وهو يحاول تَمْحيصَ الأسبابِ التي أدَّت إلى تغلُّب المسلمين على المسيحيين -: «إن الملك ويتزا «غيطشة» علّم أسبانيا كيف تَقْتَرِفُ الآثامَ» ولكن أسبانيا كانت قد تعلَّمت ذلك على أحسنِ وجوهِ العلم قبل «غيطشة» بزمنٍ بعيدٍ، وربما لم يكن هذا الملِكُ أسوأَ من سابِقِيه، الذين أغرَقوا في الشَّهوات، وترخَّصوا في كلِّ ما أصاب الدولةَ من الفسادِ والتَّدَهْوُرِ. ولما كانت آثامُ القُوطِ المتوحِّشِين قريبةَ الشَّبَهِ جدًّا من مآثمِ الرُّومان الدَّائِلين [160]، لم تشعرْ المملكةُ عند انتقالِ الحكْم من الرُّومان إليهم بشيء جديد.

هكذا كانت أسبانيا حينما اقتربَ المسلمون مِن حُدُودِها. طبقةٌ فاسِدةٌ مُفْسِدة من الأغنياء، قَسَّمت الأرضَ بينها ليزرعها العبيدُ وأَحْلاسُ الأرضِ البائسون اليائسون، ثم طبقةٌ من سُكَّان المدن لم يُبقِ لها الظلم والعسف رطبًا ولا يابسًا [161].

هكذا كانت أسبانيا حينما كان جنود الإسلام يقيمون على الجانب الآخر من بَحْر الزُّقاق الذي عُرف فيما بعد: بمضيق جبل طارق - وهم قومٌ بُسْلٌ أَشدَّاءُ، تلتَهِب نفوسُهم حماسة لدينهم، وتتأجَّج شَوْقًا إلى ما في أرضِ الكفَّار الخصِيبة

من غنائمَ وخَيْراتٍ، وقد تدرَّبوا على السِّلاح منذ نعُومَة أظفَارهم، وعاشوا في صحرائهم عِيشَةً خَشِنة جافِية. وإنَّ موازنةً بين هذين الفريقين، لا تترك مجالا للشَّكِّ فيمن سيكون له النصرُ والغَلَب، على أنَّ الخيانة التي جاءت بعد ذلك فساعدت الفاتحين على اقتحام البلاد، أزالت كلَّ أثرٍ للشَّكِّ في انتصارهم.

خلَع لُذريق غيطشةَ مِن عرشهِ [162]، وبدأ حكمُه بُداءةً حسنةً، ولكنه خَضَع آخر الأمر لإغراءِ الثروة والقوةِ، وجمَح به النَّهَم في الشَّهَوات الدَّنيئة حتى نفِرت منه القلوبُ، وأصبح كلُّ ما حوله مستعِدًّا للاشتعال، لا ينتظر إلا شرارةً صغيرةً لينفَجِر ويذهبَ بمَمْلَكَتِه.

وكانت العادةُ بين أمراءِ المملكةِ أن يُرسِلوا بناتِهم وأبنائهم إلى القصر لتهذِيبهم وأخذِهم بكل ما يثَقِّفُ النفسَ ويَغْرِسُ الخلُقَ الكريمَ؛ فأرسل الكونت «يوليان» حاكم سَبْتَة، ابنته فلورندا إلى قصرِ لذريق بطُلَيْطُلَةَ، لتنال قِسْطًا من التربية بين وَصَائِفِ الملِكة. وكانت فلورندا غايةً في الجمال فشُغِف لذريق بها، ودَنَّسَ عَفافَها، ذاهِلا عمَّا يوجِبُه عليه الشَّرفُ من حِمايتها كما يحمي إحدى بناته [163]، وزاد في بَشاعةِ الجريمةِ، أنَّ زوجَ يوليانَ كانت بنت غيطشة، فكان في فِعْلة لذريق تلطيخٌ للشرفِ الملَكي بالعار. وقد كتبت الفتاةُ إلى أبيها حينما شعرت بجَسَامة الكارثةِ، ودَعتْ غلامًا تثِق به وأَوْصَتْه أن يُسْرِع بالكِتاب، وأن يصل ليلَه بالنار حتى يضَعَه في يدِ أبيها، ثم مَنَّتْهُ الأماني .[164]

ولم يكن يوليان يحبُّ لذريق، لأن صِلَته بالملك المعزولِ أو المقتول على الأرجح [165]، صدَّته عن الميلِ إلى الغاصِب؛ ثم جاء العبَثُ بشرفِ ابنته، فزاد نارَ حِقده اشتِعالا، وأغْراه بالكَيدِ والانتِقام. وقد استطاع أولَ الأمر أن يقفَ في وجهِ غاراتِ العربِ، ولكنه عَزَم الآن على ألا يدفع عن مَملكة أثيمٍ ثَلَب عِرْضَ ابنَتِه، وصمَّم على أن يترُك العربَ يملكون أسبانيا إذا أرادوا. ثم زاد فقرر في قَرارةِ نفسه أن يرشِدَهم إلى الطريق، فأسرَع - وحبُّ الانتِقام يملأ صدْرَه - إلى لُذريق - بعد أن أسْكَتَ غَضَبه وأخْفَى ما في نفسِه - فأحسَّ الملِك بشيء من النَّدَم، ووثِق في نفسِه من أن فلورندا كتمت سِرَّه وسِرَّها، وأخذ يَغْمُر يوليانَ بصُنوفٍ من الإجلالِ والتَّكْريم، ويستَشِيره في كلِّ ما يتَّصِل بحماية المملكةِ، ويَصِيخُ [166] إلى ما يُزَوّق من الخديعةِ والخُتْل [167]، حتى إنه أرسَل أكرَم خيُولِه وخير عَتادِه إلى الجنوب، لتكون تحت إِمْرة يوليان إذا هَجَم الفاتحون.

وغادَر الكونت [168] طُلَيْطُلَة ومعه ابنته، مَحْفُوفًا بعَطْف الملكِ ورِضاه، وطلب لذريق منه عند افتراقِهما أن يُرسل إليه نوعًا خاصًّا من البُزاة [169]

المُعَلّمة، فأجاب يوليان: بأنه سيرسل إليه بُزاةً لا عَهْدَ له بها؛ وبهذه الإشارة الخفِيَّة إلى قُدوم العربِ، عاد أدْراجَه إلى سَبْتَة.

وما كاد يصِل إليها حتى زَارَ موسى بن نُصَيْر [170]، الوالي من قِبَل الخليفةِ على شمال إفريقية، الذي طالما اشتَبكَتْ سيوفُه بسيوفِه في حروبٍ مشتعلةِ الأوَار [171]، فأخبره أن الحربَ بينهما قد وضَعَتْ أوْزَارَها [172]، وأنهما منذ اليومِ صديقان حَميمان، ثم أخذ يملأ أُذُنَي القائدِ العربي بأحسنِ القَصصِ عمَّا في أسبانيا مِن الجمالِ والثروةِ، ويحكي عن أنهارِها ومُرُوجِها، وأعْنابها، وزَيتونها، وعظَمَة مُدُنِها وقصورها، وما فيها للقُوط من كنوز، ثم قال: إنها أرض تموجُ باللَّبَنِ والشَّهْدِ، وليس على موسى إلا أن يَخْطُوَ فينالها بقَبْضَتِهِ، وأخذ يوليان على نفسه أن يرشِدَه إلى الطريق، ويعدّ له السُّفُن. وكان القائد العربيُّ داهِيةً شديدَ الحذَرِ، فخَشِي أن تكون هذه الدعوةُ خديعةً واستهواءً إلى الوقوع في شَرَكٍ أو كَمِينٍ، لذلك أرسل إلى الخليفة [173] بدمشق رُسُلًا ليرى رأيه في الأمر، واكتفى فيما بين ذلك سنة 701م (91هـ) بإرسال خمسمائة رجل بقيادة (طَريف) [174] أبحروا على أربع سفنٍ ليوليان للإغارة على شاطئ الأندلس، ولم يرضَ مُوسى أن يعرِّض من رجاله للخطر أكثر من هذا العدد، لأن العرب لم يكونوا قد اعتادوا بعدُ الإبحار في بحرِ الرومِ.

عاد طريف في شهر يولية بعد أن نجَح في الغَرَضِ الذي أرسل من أجله، فقد أرْسَى سُفُنَه في المكان الذي لا يزال يُسمَّى باسمه، ونزل الجزيرةَ الخضراءَ [175] وانتهبَها، ورأى بعينهِ ما كفَى لاقتناعه بصِدْق ما قاله الكونت يوليان، من فُقْدانِ وسائلِ الدِّفاع بأسبانيا، وبأن إخلاصَه للفاتحين لا يقبلُ الشَّكّ. ولكنَّ موسى على الرغم من هذا لم تَمِلْ نفسُه إلى المخاطَرة في سبيلِ فتحٍ جديدٍ، وجاء كتابٌ من الخليفة بدمشق يأمره بألا يقذِفَ بجيش المسلمين في أخطارِ مجهولةِ العاقِبةِ، وعهِد إليه أن يكتفي بإرسالِ فِرقٍ قليلةٍ من آنٍ لآنٍ، للإغارةِ المفاجِئةِ.

ولكنه بعد أنْ ملأه نجاحُ طَريفٍ ثقةً بالنَّصرِ والتَّغلُّب، عزَم على أن يُوسِّع نِطاقَ غَزْوِه.

فحينَ علِم في سنة 711م (92هـ) أنَّ لذريق مقيمٌ بشمالي مملكته لقَمْع ثورة البشكنس [176]، أرسلَ أحدَ قُوَّادِه، وهو طارِقٌ البربري [177]، ومعه سبعة آلاف رجلٍ جُلَّهم من البربر للإغارةِ على الأندلس، فنال من هذهِ الإغارةِ فوقَ ما كان يتوقَّعُ، فإنَّه أرْسى سُفُنَه عند صَخْرةِ الأسدِ التي حملتْ اسمَه من ذلكَ الحينِ، فدُعِيَتْ: جبلَ طارقٍ. وبعد أن مَلَك «كارتية»، توغَّل في داخلِ البلادِ، ولم يَسِرْ بعيدًا حتى رأى جُيوشَ القُوطِ بقيادةِ لذريق تقترِب لِنزالِهِ؛ فالتقى

الجيشانِ على شاطئ نُهَيْر سماه المسلمون: وادِي بَكّة [178]، بالقرب من نَهرِ وادي لَكَّة [179] الذي يَصُبُّ في المضِيقِ عند رأسِ الطرَفِ الأَغَرِّ [180].

وتَقُصُّ علينا الأساطِيرُ: أنَّ الملِك لُذْرِيق قبلَ هذه الموقعةِ، كان جالسًا على سريرِ مُلْكِه بمدينة طُلَيْطلة فدخل عليه رجلان جَلَّل الشَّيْبُ رأسيهما، وهما في ثيابٍ بيضٍ من نَسْجٍ قَدِيمٍ، وكان حِزاماهما مُزَيَّنَيْنِ بِصُوَرِ مَواقِعِ النجوم وما لها من شأنٍ في تَصْرِيفِ القَدَرِ، وقد عُلِّق بهما كثير من المفاتيح. فلمَّا مَثُلا بين يدي الملِك قالا له: اعلم أيها الملكُ: أنَّ هرقلَ منذ زمنٍ قديمٍ، وحين نَصَب صنمَه عند مضِيق البحر، أنشأ حِصْنًا قويًّا بالقرب من طُلَيْطُلة القديمة، وأخْفَى فيها طِلَسْمًا [181] جعَلَ عليه بابًا من الحديد ثَقيلا، له أَقْفالٌ من الصُّلْبِ توكيدًا لحِفْظِه؛ ثم إنه أَمَرَ أن يقوم كلُّ ملِكٍ جديدٍ؛ بإضافة قُفْل جديدٍ لهذا البابِ، وأَنذَرَ بالوَيْلِ والثُّبُورِ كلَّ مَن يَهُمُّ بكَشْفِ هذا الطِّلَسْم. وقد قُمنا وقام أسلافُنا بحراسَة بابِ الحصْن منذ أيامِ هِرَقْلَ إلى هذه الساعةِ، وعلمنا أنَّ بعضَ الملوكِ، حاولَ كشفَ هذا الطِّلَسْم، فكانت عاقبةُ أمرِهم الموتَ أو الجنونَ، ولم يصِل واحدٌ منهم إلى أبعدَ مِن عتبةِ بابِهِ، وقد جِئنا الآن أيها الملكُ، لنرجوكَ أن تضَع قُفْلَك على بابِ الحِصْنِ كما فعلَ جميعُ الملُوكِ قبلَكَ. ثم انصَرف الشَّيْخَانِ.

وحينما فكَّر لُذْريق فيما قالاه، ثارتْ في نفسه الرغبةُ في دخولِ هذا الحصنِ المسْحُورِ، على الرغم مِن تحذِيرِ بطارِقَتِه ووُزَرائه الذين قالوا له: إن كنت تظنُّ أنَّ به مالا فقدِّرْه، ونحن نجمَعُ لك من أموالِنا نَظِيرَه، ولا تُحْدِثْ علينا بفتْحِه حادِثًا لا نعرِف عاقِبته، وقد علِمتَ أن قيصر الأكبرَ [182] على جُرْأَته لم يحاول دخولَه...

ولن يُفْتَحَ الحصْنُ إلا لمن		قضى اللهُ في مُلكه بالزَّوالِ
مــمالِكُه زال سُلْطــانُها		بنَشْرِ الفساد وكَيْدِ الرِّجال
فنالت مِن الله شرَّ انتِقام		وآبَ بَنُوها بِشَرِّ المآل

ولكن الملِك أَصَرَّ وصمَّم على الرغم من هذه النصيحة، فركِب يومًا مع فُرسانه إلى الحِصن، وكان فوقَ صَخْرةٍ عاليةٍ تُحيطُ به مَهَاوٍ سَحيقةٌ [183]، وكانت حِيطانهُ من المرْمَرِ الذي إذا واجهته الشمسُ كاد شُعاعُه يذهب بالأبْصَارِ. وكان مدخَلُه في طريقٍ مَنْحُوتٍ في الصَّخْرِ، وقد أُغْلِق عليه بابٌ عظيم من الحديدِ، غُطِّي بالأقْفَالِ الصَّدِئة من عَهْدِ هرقلَ إلى أيام غيطشة.

ووقفَ الحارسان إلى جانبي البابِ، وحاول فُرسانُ الملِكِ وبعضُ الحرَّاسِ فَتْحَه، فاستطاعوا بعد لَأْيٍ [184] فكَّ أغْلاقِه قُبَيلَ الغروبِ، ودخل الملِكُ وحاشيتُه

من الباب، إلى بَهْوٍ في نهايته بابٌ آخرُ، وقف أمامَه تمثالٌ من البرُنْزِ ضَخْمٌ هائِلُ المنظرِ، بيَدهِ رُمْحٌ عظيمٌ أخذ يحرِّكه ويضرب به ما حَوْله من الأرضِ.

ولما رأى لذريق هذا التمثال، هالَه منظَرُه، وأخذَه البَهْرُ، وتملَّكَتْه الدهشة، ولكنه لما قرأ ما كُتِب على صدْرِه وهو: «إنِّي أقوم بواجبي» استردَّ شجاعته، وأمرَ التمثال أن يُفْسِح له الطريقَ، زاعمًا أنه لم يأتِ لاستباحةِ حُرْمَةِ المكان، وإنما جاء ليعرِف سِرَّ ما فيه، فهدأت عندئذ ثائرةُ التمثالِ ورفَع رُمْحَه، فمرَّ الملكُ ومرت حاشيتهُ من تحته إلى حُجرةٍ ثانيةٍ، فوجدوا جُدْرَانها مُغَطَّاةً بكريمِ الأحْجارِ، ورأوا في وَسَطها مائدةً عظيمةً من ذهبٍ وفضةٍ، مُكَلَّلةً بالجواهر، وعليها تابوتٌ من الفُولاذِ، به قُفْلٌ عُلِّقَ به مِفتاحه، وقد كُتِب عليه: «في هذا التابوت طِلَسْمُ الحِصْنِ، ولن تفتَحَه إلا يدُ مَلِك، ولكن ليحذَرْه هذا الملِكُ، فإنَّ أشياءَ عجيبةً ستصوِّر له ما يحصُل له قبلَ موته».

وحين فتح الملكُ التابوتَ لم يجِد به سِوى رَقٍّ به صُوَرُ فرسانٍ عابِسي الوجوه مسلَّحين بالقِسِيِّ [185] والخناجِر، وقد كُتِب فوق هذه الصور: «انظر أيها الطَّائشُ الأَرْعَنُ [186] إلى هؤلاء، فإنَّهم سيثُلُّون عرشَك ويُخْضِعُون مملكتك». وبينما كان الملِك وأصحابُه يُحَدِّقون في الصُّوَرِ، إذ سمعوا زَمازِمَ الحرب ولَجَبَها، ورأوا أن الصُّوَر طفِقت تتحرَّك كأنَها في غَمَامٍ، حتى أخذت هيئةَ حربٍ في مَيْدانٍ [187].

رَأَى لُذْرِيقُ في هَوْلٍ وحُزْنٍ		بهذا المنظَرِ السِّحْرِيِّ حَرْبَا
عَواقِبُها تراها العينُ جَهْرًا		وإن كانت مِن القدرِ المخَبَّا

ثم أبصروا ميدانًا عظيمًا يتفانَى فيه النصارى والمسلمون في موقِعةٍ طاحنةٍ، وسمِعوا أصواتَ جري الخيلِ ووَقْعِ حَوافِرِها، وزَعْقِ الأبْواقِ والصُّنُوجِ، وما يَصُمُّ الآذانَ مِن ضربِ آلافٍ من الطُّبول، بين بَريقِ السُّيوف والقُضُبِ وحَفِيف السِّهام وصَلِيلِ الرِّماح [188]؛ ورأوا أنَّ النصارى يتضاءلون أمام أعدائهم الذين تَدَفَّقوا عليهم كما يتدفَّق السَّيْلُ، فتبدَّدَ شَمْلُهم، وسَقط إلى الأرضِ بَيْرَقُ الصَّلِيبِ، ودِيس عَلَمُ أسبانيا تحتَ الأقدام، وامتلأ الجوُّ بصيحاتِ الانتصار يخالِطُها صُراخُ الغضَبِ وأَنِينُ [189] المُحتَضَرِين.

ورأى الملك لُذرِيق بين هذه الفِرق الفارَّة من الميدان، فارسًا مُتَوَّجًا. كان ظهرُه إليه، ولحظ أنَّ سِلاحَ هذا الفارس وعُدَّتَه، تُشْبِهُ سِلاحه وعُدَّته، وأنه كان يركَب جَوَادًا أَشْهَب، يُشْبِه جَوَادَه «أورِيلِيا».

ثم رأى أنَّ الفارِس بعد قليلٍ سَقَط عن جَوَادِه في هَرْجِ الحرب ومَرْجِها فلم يَعُد يُرى، وأن أورِيلِيا أخَذ يَعْدُو في الميْدان بغير راكِب.

وحينما خرج الملكُ وحاشِيتُه من الحصنِ دَهِشِين خائفين، اختفى التمثالُ من الوجود، وسقَط الشَّيْخان الحارِسان ميِّتَيْن عند مَدْخَل الحِصن، وكان مِن إِرْهاصِ الطبيعةِ الغاضبةِ أن الْتَهَمَت النارُ الحصنَ، فتَأَجَّج كلُّ حَجَرٍ فيه وآضَ رَمادًا تذْرُوه الرياح. ويقول القَصَّاصون: إنه كلما سقَط رَمادٌ من هذه [190] الأحجار في مكان، وُجِد بجانبه نُقطة من الدَّمِ المسْفُوك.

أُولِعَ مؤرخو العُصور الوُسْطى مِن النصارى والعرب بالإفاضة في هذه الحادثةِ [191]، وإمْدادِها بكثيرٍ من صُوَرِ الخيال، وضُروبِ الإِرْهاص كما قيل:

كم مِن رُؤًى وأَساطِيرٍ مُزَوَّقَةٍ		بها وَعِيدٌ وإِرْهاصٌ وإِنْذارُ
فيها تَلاقَى خَيالُ العُرْبِ مازَجَه		ما خَيَّلَتْهُ لأَهْلِ القُوطِ أَشْعَارُ

وكم قرأنا أنَّ كِلا الفريقين قُبَيْلَ الموْقِعة، كان ينْشَرِحُ صدْرُه أو ينقَبِضُ بالفَألِ والطِّيَرة، وزعموا أن النبيَّ نفسَه، ظهر لطارقٍ في المعرَكة وحثَّه على الإِقْدام، وأمرَه أن يضْرِب ويغْلِب [192]، إلى غيرِ ذلك من أمثالِ هذه الرواياتِ. وكيفما كانت رُؤى الجيشين وأحلامُ رِجالها، فإنَّ نتيجةَ القِتالِ حينَ وقفَ الجيشانِ بالقُرب مِن وادي لَكة، كان لا يَشُوبُها شَكٌّ... نعم إنَّ طارقًا أُمِدَّ بخمسةِ آلافِ مُقاتِلٍ منَ البَرْبَرِ، فبلَغ جيشُه الصغير اثني عشَرَ ألفًا، حينما كان جيشُ لُذْرِيق يبلُغ ستةَ أمثالِه في العدد. لكنَّ الفاتِحين كانوا شُجعانًا مَغَاوِيرَ أَشِدَّاءَ، مَرَنوا على الحروبِ، وكان قائِدُهم بَطلا بَاسِلا، بينما كان الإسبان خَلِيطًا من العَبيد المستَضْعَفين في الأرض، وكان بين قُوَّادِهم بعضُ الخوَنةِ مِنَ الأَشْرَاف، فإنَّ أقرِباء غيطشة - وإن أطاعوا لُذْرِيق في ظاهِرِ الأمرِ وحضروا المعركة - كانوا عازِمين على الانضِمام إلى الأعداء عندما ينكشِف لهم وَجْهُ القِتال، ولم يخطر لهم ببالٍ أنَّ في فِعلهم هذا خيانة لأسبانيا؛ فقد ظنُّوا واهِمين أنَّ الغُزاة لم يقصدوا إلا إلى النَّهْب والغَنِيمة، وأنهم عند انتِهاء الغارَةِ وحُصولهم على الأَسْلاب يذهبون توًّا إلى إفريقية، فتعودُ سُلالة غيطشة إلى عَرْشِها [193] القديم المغْصُوبِ؛ وبهذا الظَّنِّ الخاطئ عَاوَنوا مِنْ حيثُ لا يشعرون على وَضْعِ أجملِ ولاياتِ أسبانيا نحو ثمانية قرون تحت حكمِ العرب.

وقد سقطت قلوبُ المسلمين بين جُنُوبِهم ذُعْرًا، حينما رَأَوا الجيشَ اللُّهَام [194]، الذي أعدَّه لذريق لنِزالهم، وحينما رَأَوا الملِكَ في دِرْعِه الفاخرةِ وفوقه المظلة الملَكِيَّة؛ ولكن طارقًا صاح في رجاله: «أيها الناس: العدو أمامَكم والبحرُ وراءكم، وليس لكم واللهِ إلا الجَلَدُ والصَّبرُ» [195]؛ فاستَنْجَد المسلمون بشجاعتهم وصاحوا: «إنا وراءكِ يا طارق» ثم هجَموا خلفَ قائدهم يقذِفون بأنفسِهم في وَطِيسِ الحربِ وأَتُونِها. واستمرت المعركةُ أسبوعًا، أظهَر فيه الفريقانِ كثيرًا من ضُروب الشَّجاعة والإقْدام، وكان لُذريق يستَحِثُّ قومَه

مرةً بعد أخرى، ولكنَّ فِرار أتْباعِ غيطشة رَجَّح كِفَّة الميزانِ، فصار الميْدَانُ صورةً مُحزِنة للدَّمارِ والهزيمةِ.

ومُزِّقَ جيشُ لذريق وخارت		بمَن فِيهِ العزائمُ والثُلُوبُ
وحِين رَأى الهزيمةَ فَرَّ يَعْدُو		وَحِيدًا مُسْتَكِينًا لا يَؤُوبُ
عليهِ مِن غُبَار الحربِ ثَوْبٌ		ومن لَوْنِ الدِّماء به لَهِيبُ
وتَحمِل كفُّه سيفًا خَضِيبًا		كمِنشارٍ أَفَلَّتْهُ الحرُوبُ
فَلَأْمَةُ صدْرِه فيها شُقُوقٌ		وخُوذة رَأْسِه فيها ثُقُوبُ
أَطَلَّ بقِمَّةٍ فَرأى دَمارًا		له كادت حُشَاشَته تَذُوبُ
وأَعلامًا ممزَّقةً تَبَدَّتْ		وكلٌّ بالدَّمِ القاني خَضِيبُ
وجَالَ بسَمْعِه للعُربِ صوتٌ		بنصْرِ اللهِ ردَّده السُّهُوبُ
رأى قُوَّادَه فرّوا وأَبْقَوْا		جَرِيحًا أو قَتِيلا لا يُجِيب
وأَنَّى عينُه لمحت مكانًا		بدا للعينِ فيه دمٌ صَبِيبُ
فقال وقد بكى: قد كنتُ مِلِكًا		وماذا ينفعُ الآنَ النَّحِيبُ؟
ونِمتُ الأمسَ فوقَ فِراشِ عِزٍّ		وفَرشِي اليومَ تَجْفُوه الجنُوبُ
جَثَا الخُدَّام أمسِ أمامَ عَرشي		وليس اليومَ لي منهم عَرِيبُ
فَيَوْمُ ولادَتي يومٌ عَبُوسٌ		ويومُ ولايتي يومٌ عَصِيبُ
فما أشقى نهاري حين أَرْنو		لشمسِ الأُفْقِ يَحْجُبها المغِيبُ!
فَعَجِّلْ أيها الموتُ المرجَّى		فما لي اليومَ في الدنيا حَبيبُ

هكذا تقولُ الأُنْشُودة الإسبانية، ولكن نهايةَ لذريق بَقِيَتْ سِرًّا خَفِيًّا إلى اليومِ، فقد وُجِد فَرَسُه وخُفّاه عند شاطئ النهرِ بعد يومٍ من المعرَكة ولم يظهَرْ له أثَرٌ. ومِن المحقَّق أنه غَرِق، وأنَّ النهر حمَل جُثَّته إلى المحيط [196]. ولكنَّ الإسبان يَأبُون أن يُصَدِّقوا هذا، فقد ألْبَسوا الملِكَ الرَّاحِل حُلَلا قُدُسِيةً خَفِيَّةَ الأَسْرارِ، لم يَخْلَعوها عليه في حَياته، وجعلوا منه مَعِينًا فيَّاضًا لكثيرٍ من القصصِ والرِّواياتِ، وخلعوا عليه صفاتِ المنقِذِ المخلِّص، كما فعلَ الإنجليزُ بالملكِ آرْثَر [197]؛ فاعتقدوا أنه سيعودُ مرةً أخرى من مَقَرِّه في بعضِ جزائرِ المحيطِ، بَرِيئًا من جِراحِه ليقُودَ النصارى لقتالِ الملْحِدين.

وجاء في أسَاطِيرِهم أنَّه قضَى بَقِيَّة حياتِه في أعمالِ الخيرِ والإنَابة، وأنَّ ثَعابينَ أخذتْ تَبتَلعُه شيئًا فشيئًا، عقابًا لما كان يقْتَرِفُ من إِثْمٍ، حتى مُحِيت ذُنوبه «فإنَّ عِقاب البدَنِ ينْقِذُ الرُّوحَ من الآلام» ثم إنه حُمِلَ إلى الجزيرة الهادئةِ المطمئِنة، ولا يزالُ رجالهُ منذ ذلك الحينِ ينتظرون أَوْبَته [198] إليهم، كما يَؤُوبُ الظَّافِر المنتَصِر.

مَوْجَةُ الفتح

«لم يكن هذا فتحًا كغيره من الفتوح يا أميرَ المؤمنين، فإنَّ الوَقْعةَ كانت أَشْبَه باجتماع الحشْرِ يوم القيامة» [199]..

هكذا كتب موسى بن نصير أمير إفريقية إلى الخليفةِ الوليدِ في وَصْفِ انتصارِه بموقِعة وادي لَكة.

وليس عجيبًا أن يَدْهَش المسلمون لنصْرِهم المؤزَّر الحاسِم، أو أن يتملَّكَهم الزَّهْوُ بهذا الفتح المبين، لأننا إذا ألقينا جانبًا الأساطيرَ والأَوْهام التي لَفَّقها مؤرِّخو الإسبان حولَ سقوط لذريق، ورجعنا إلى التاريخِ المُتَّئِد غير المتحَيِّز، رأينا أن انتصار المسلمين في وادي لكة ألقى بأسبانيا كلِّها في أيدي العرب. فقد رَبِح طارق ومن معه من الاثني عَشَرَ ألف بربريٍّ الجزيرةَ جميعها، ولم يكن في حاجة إلا إلى قليلٍ من الجهد ليقضي على المقاومة الخائرة [200] في بعض المدن.

ولم يضع طارق وقتًا في متابعة انتصاره، فقد تقدَّم هذا القائدُ المجْدُودُ [201] بلا تردد، متحدِّيًا أمرَ موسى، الذي كان يتحرّق حَسَدًا لما ناله جنديُّه البربري من المجدِ الذي لم يكن يخطِر له بِبالٍ [202]؛ وقسّم طارق قوّته ثلاث فِرقٍ أو كتائبَ، وبثَّها جميعًا في شبه الجزيرة، فأخضَع مدينةً إِثْرَ مدينة، بعد مقاومة لا تكاد تُذْكَر.

وأرسل مُغِيث بنَ الحارثِ [203] على سَبعِمائة فارسٍ لامتلاكِ قُرطبةَ، فأخفى جنودَه، حتى إذا جاء الليلُ تقدَّم نحو المدينة، واتُّفِق في ذلك الحين أنْ سقط هاطِلٌ من البَرَدِ أخفى وَقْعَ سَنابِكِ الخيل [204]، فعَدَّ المسلمون ذلك عِنايةً من الرحمن، والتقوا براعي غنمٍ أرشَدَهم إلى ثَغْرة في سُورِ المدينة، فعزموا أنْ يجعلوا منها منفَذًا لهجومهم؛ وتَسَلَّق رجلٌ منهم كان أكثرهم نشاطًا وأشدهم حَمِيَّة شجرةَ تينٍ كانت تحتَ الثَّغْرة؛ ثُم وَثَب منها إلى السُّور حتى إذا استقَرَّ به، خلَع عِمامَته، وأرسَل بطَرَفها إلى بعض أصحابه، ثم جذَبهم إليه واحدًا واحدًا، حتى إذا نَزلوا من السُّور إلى داخل المدينة دَهَموا حُرَّاسَ الأبوابِ، ففتحوها للفاتحين؛ وتَمَّ الاستيلاءُ عليها دُون عَناءٍ.

وعندما دخل المسلمون قُرطبةَ، التجأ حاكمها وحرسُها إلى دِيرٍ يَعْصِمُهم من العَدُوِّ، ولَزِموه ثلاثة أشهُرٍ محاصَرين. حتى إذا انتهى أمرهم إلى التّسْلِيم بقِيت المدينة بأيدي اليهود الذين أَثْبتوا صِدْقَ إخلاصِهم للمسلمين، فنالوا عَطْفَهم ورعايتهم، ونظر العرب إليهم نظرتَهم إلى الصَّديق، فلم يَضْطَهِدوهم كما اضطهدهم قَساوسة القُوطِ، إلَّا في العهْدِ الأخيرِ، فحيثما اتَّجه سِلاح

المسلمين سار اليهود من ورائه متابعين متزاحِمين؛ فالعرب يحاربون واليهود يَتَّجِرون، حتى إذا أَلْقت الحربُ سِلاحَها، رأيتَ اليهودَ والعربَ والفرسَ وقد اجتمعوا على إنماء التعليم، والفلسفة، والآداب، والعلوم، إلى غير ذلك، مما ميز حُكْم العربِ، وأرسل شُعاعَه في العصور الوسطى مُنيرًا وهَّاجًا [205].

وجَرت فتوح طارق شَوْطًا بعيدًا بمعاونةِ اليهود، وشِدَّة فَزَعِ الإسبان، فاستولى على أرشُذونة [206] دون أن يَلْقَى مقاومةً، وفَرَّ سُكَّانُها إلى التِّلال، وأَلْقَت القيادَ مالَقةَ [207]، وعَصَفَت الحربُ بإلبِيرة [208] (بالقرب من مكان غَرناطة الآن).

ودافع تُدمير [209] (Theodemir) حِينًا عن شِعابِ جبل مُرسية [210] بشجاعة وصبرٍ، ولكنه دُفِع إلى تَرْكِ مَعقِلِه، والاشتباك مع العرب في مَوقعةٍ طاحنة حُطِّم فيها جيشُه تحطيمًا، وفرَّ مع خادِم له إلى مدينة أوريولة [211]؛ وهناك فكَّر في أنْ يلقَى مطارِديه بخَدِيعةٍ بارعةٍ؛ فإنه حينما رأى أنَّ الحربَ لم تكَدْ تُبْقي على رجل بالمدينة، لسُقُوط شُبَّان مرسية في المعركة جميعًا، جمع النساء وألبَسَهُنَّ ثيابَ الرجال ووضع الخُوذَ على رءوسهن، وسَلَّحهُنّ بقَصَبٍ يُشبه الرِّماح، وأمرَهُنَّ أن يضَعن شعورَهن فوق الذُّقون كاللِّحَى، ثم وزَّعهُنَّ على أسوار المدينة. فلما اقترب المسلمون من دَغَشِ الشَّفَق [212]، سُقِط في أيديهم لما رأوا من قوة الدفاع عن المدينة؛ وبعدئذ حمَل تُدمير بيده رايةَ الهُدْنة، وألبَس خادِمه عباءة يلبَسُها السُّفراء، وذهبا لمفاوضة القائد المسلم الذي لم يعرف الأميرَ الإسبانيَّ، فأحسَن استِقبالهما، ثم قال له تُدمير: «لقد قدِمتُ نائبًا عن حاكم المدينة لأفاوض في شروطٍ تَلِيق بعظِيم تسامُحِك، وشرفِ منزلته! فأنت ترى أن المدينة جديرة بأن تثبُت أمامَ حصار طويل، ولكن الحاكم شديدُ الرغبة في الإبقاء على حياة جنودِه، فعِدْني بأن يغادروا المدينة أحرارًا دون أن يمسَّهم سوء أسَلِّمْها إليك غدًا بغير حَرب، وإلَّا فقد وَطَّدْنا العزْمَ على القتال إلى آخر رجل» [213] فقبِل القائدُ ما عرضَه عليه.

ثم وُضِعت شروطُ التسليم كما أحَبَّ. وبعد أن ختَمها القائدُ وأمضاها تُدمير، التفت إلى القائد قائلًا: «انظر إليّ فأنا حاكم المدينة».

وعند الفجر فُتِحتْ أبوابُ المدينة، واتجه المسلمون ليروا الحامِية القوية خارجةً منها؛ ولكنهم لم يروا إلا تدمير وخادمه في دِرْعٍ محطَّمة، وخلفهما جَمْعٌ من الشُّيوخ والنساء والأطفال، فسأله القائد العربي: «أين الجنودُ ورجالُ الحامية الذين رأيتُهم حولَ الأسوارِ البارحةَ؟» فأجابه: «ليس لديَّ من الجندِ أحدٌ؛ أما رجال الحامية فها هم أولاءِ أمامَك، فانظر إليهم، فبهؤلاء النِّسوة حَصَّنْتُ أسواري؛ أما هذا الخادمُ فهو سَفيري وحارسي وحاشيتي» [214].

فأخذ القائدَ العجبُ من جُرْأته، وسُرَّ من بَراعةِ حِيلته، فعيَّنه حاكمًا لمقاطعة مرسية التي سماها العرب بعد ذلك باسمه. وتدل هذه القصة على كرم العرب ورِقَّة طِباعهم. ولا ريب فقد كانوا مُثلا عاليةً للفروسية الحقَّة التي طالما ازْدَانت بها أعمالهم، وكانوا يمتازون بالعَفْو عند المقدرة، وبكثير مِن صفات البُطولة والنَّجدة، التي حملت الإسبان بعد تغلُّبهم عليهم على أن يلقبوهم «بفوارِسِ غَرناطة، وبالغَطَارفة وإن كانوا عَربًا».

وفي هذه الأثناء، كان يَضْغَطُ طارقٌ على طليطلة [215] قصبةِ القُوط، لأنه كان يجِدُّ في طلب أشرافِ القُوط، فقد بحث عنهم في قرطبة ففَرُّوا قبل جِيئَتِه. ولما دخل طُلَيْطلة التي أسلمها إليه اليهودُ، لم يجد بها للأشراف أثرًا، فقد غادروا المدينة قبل دخوله، والتجئوا إلى صخرة أشتورش (أستورياس) [216] ولم يَبْقَ بطُلَيْطُلَة إلا الخونة من أسرتي غيطشة ويوليان الذين كُوفِئوا بمناصبَ في الدولة، أما سَراةُ المملَكَة فقد هَجَروها وأسْلَموها للعرب، فصارت ولايةً تابعةً للدولة الأموية، التي جعلت مَقَرَّ حُكمِها بدِمَشْقَ ووسَّعت رُقْعة مَمَلَكتها من جِبال الهندِ إلى أعمِدة هِرَقْلَ.

وتُرِك لموسى بن نصير إخضاعُ ما بقي من الأندلس، فإنه حينما سمِع بفَوْزِ طارقٍ المطَّرِد [217]، عبَر المضِيق على عَجَلٍ بجيش من العرب في صيفِ سنة 93هـ (712م)، لينال نصيبَه كاملًا من المجْد، وكان عددُ رجاله ثمانيةَ عشرَ ألفًا، فاتصل بطارق في طليطلة بعد أن أَخْضَع قَرْمونة [218] وإشبيلية [219] ومارِدة [220]. ولم تكن مقابلةُ القائدِ الأعلى للفاتح مقابَلة وُدٍّ وصَداقة؛ فإنَّ طارقًا حينما سارَع إلى لقاء موسى في حَفاوة وتَكْرِمة، عاجَله هذا بالسَّوْط، وأخذ يُقَرِّعه ويُعنِّفُه على مُجاوَزة أوامره، مُعْلِنًا أنه لن يستطيع أن يضمَن سلامةَ المسلمين، في يدِ قائدٍ مُخاطِرٍ مِثْلِه، ثُم زَجَّ به في غَيابة السِّجْن [221]، ولما علِم الخليفة الوليد بما وقَع لطارق وما أصابه من الظلم، الذي أثارته الغَيْرة وصَبَّه الحَسَدُ - استدعى موسى إلى دِمشق، وأعاد طارِقًا إلى القِيادة بأسبانيا.

وقبل أن يعودَ موسى إلى الشام، كان قد بلغ جِبال البرت (البرانس) [222] وأَطَلَّ منها، فجَالَتْ بخياله صورةٌ لفتح أوربا كلِّها، ولكن دعوةَ الخليفةِ عاقَتْه عن الاستِمرار في تَقَدُّمه، فقام بهذا الأمر غيرُه [223].

ذلك أن حاكمًا [224] عربيًّا تملَّك في سنة 719م (101هـ) القسم الجنوبيَّ من الغال [225] المسمى: «سبتيمانيا» بما فيه من مدينة قرقشونة [226]، وأربونة [227]... وأخذ من هذين المركزين يُغِير جيشَه على برغاندى، وأقيتانية [228] غير أنَّ يوديس دوق أقيتانية استطاع قَهْرَ العرب عندَ أسوارِ طَلوشة (تولوز) [229] سنة 721م (103هـ)، فلم يَفُتَّ هذا الغَلَبُ من عَضُدِهم، بل حَفَزَهم إلى الاتجاه نحوَ الغربِ، فنَهَبُوا بونة [230]، وفرضوا الضرائبَ والإتاواتِ على سان [231]، واستَوْلَوْا على أفينون [232] سنة 730م (112هـ) وتوالت غاراتهُم على الولايات المجاوِرة.

وقد وَطَّد العَزْم عبدُ الرحمن حاكِمُ أربونة الجديدُ، على التغلُّب على كل بلاد الغال، فإنه بعد أن وَقفَ تَقدُّمَ يوديس الذي حاول بعد انتصاره في طلوشة أن يغزو أرض المسلمين، هجَم على طَركونة [233] وفتح أقيتانية، وهزم يوديس عند شاطئ الجارون.

واستولى على برديل (بوردو) عَنوة، عندما سمِع بالكُنوز المذْخورة بدِير القِدِّيس مارتن، وقابل شارل بن بيبين [234] الذي كان في الواقِع ملِك فرنسا الفِعليِّ، لأن مَلِكَها كان ضعيفَ العَزْم، يكاد يكون مَحْجُورًا عليه من رئيسِ القَصْر.

وتقدَّم المسلمون إلى الغزو فَرِحين مستَبْشِرين، ظانِّين أنهم سيُلاقون من النصر ما لاقوا في موقعة وادي لكة، وتوقعوا أن يروا فرنسا الجميلة من كاليه إلى مرسيليا، وقد سقطَت فَرِيسةً في أيديهم. وفي الحقِّ أن مصير أوربا كان في الميزان، حتى لقد عُدَّت هذه الموقعةُ من المواقِع الخَمْسَ عشرةَ الفاصلة في حياةِ البشرِ، وكان السؤالُ العظيمُ الذي كان جوابه في شِفارِ السُّيوف وأسِنَّة الرِّماح، هو: «أتُصْبِح أوربا مسيحية أم مسلمة؟ أتكون نوتردام التي لم تُبْنَ بعدُ كنيسةً أم مسجدًا؟ أتُرَدِّدُ كنيسة سنت بول تراتيلَ المسيحية، أم تدوّي بها أصواتُ المصلين من المسلمين؟» ذلك أنه لم يكن هناك من سَببٍ يدعو مُطلَقًا إلى وقوف الفاتحين عند ساحلِ المنش إذا لم تُصَدَّ جيوشُهم عند تور [235]؛ ولكن قَضَت الأقدار بأنَّ مَدَّ الغزوِ الإسلاميِّ قد بلَغ غايته، وأن الجُزُر أخذت تبدو مظاهِرها للعِيان.

لم يكن شارلُ والإفرنج من أتباعه من الصِّنف الخائِرِ العزيمة، الضعيف المخنَّث، كبقايا الإسبان والرومانيين والقُوط، بل كانوا في الشجاعة والشِّدَّة أَكْفَاءً للعرب أنفسهم وأمثالا، وكان لهم من بَسْطة الجسم، وعُنْفُوان القوة، ما كان له أكبرُ الأثر في أعدائهم.

وقد قضى الجيشان ستة أيام في المناوَشة، واشتد الالتحام في السابع وحَمِي الصِّدامُ، فاخترقَ شارل صُفوف العربِ بصَوْلَةٍ لا تُقَاوَم، ثم أخذ يرسِل يمينًا وشمالا ضَرَباتِه القويةِ التي سُمِّي من أجلِها: بشارل مارتل، أو إن شئت: «شارل المِرْزَبَّة أو المِطْرَقة» وسَرَت رُوحه في جنوده، فانقَضُّوا على المسلمين بقوَّة ساحِقةٍ، فتمزَّق جيشُهم ولاذوا بالفِرار، ودُعِي بين الحزن والذُّعْرِ مكانَ هذه الموقعةِ ببلاطِ الشُّهَداء حِينًا من الدَّهْر طويلا.

زال الخطرُ عن غرب أوربا لأن كارثةَ العربِ كانت فادِحةً، حتى إنهم لم يفكروا طوال القرون التي حكَموا فيها في الجنوب أن يغزوا فرنسا. نعم إنهم احتفَظوا بأربونة وبالجهات المشارِفة للسُّفوح الشمالية لجبال البرت (البرانس) حتى سنة 797م (181هـ)؛ ثم خاطروا بإرسالِ غَزَواتٍ على بروفانس [236] - ولكن طُمُوحَهم لم يصِل بهم إلى أبعدَ مِن هذا، فإنَّ موقعة «تور» حققت استِقلال فرنسا، ووقفت سدًّا أمام الفتوحِ العربيةِ.

لقد غَمَرت حُشُودُ العربِ الأرضَ كما يَغْمُرها مَدُّ البحر. وكانت جيوشهم تملأ كلَّ مكان، ولكنهم الآن بعد هزيمتهم الساحِقة أصبحوا يَسْمعون صوتًا غريبًا يَرِنُّ في آذانِهم صائحًا: «هنا ستقِفون، وهنا ستستقِرُّ أمواجُكم المزْهُوّة المغرورة».

وكان ملوك فرنسا مع كل هذا يثِقون بشجاعةِ جِيرانهم العربِ، ويخشَوْن بأسَهم حتى إنهم- وإن فرِحوا أحيانًا بانتصارهم عليهم في وقائعَ صغيرة -لم يحاوِلوا إخضاع أسبانيا إلا مرة واحدة. ذلك حينما فقد قارله (شارلمان) [237]- الذي شبَّهوه بالإسكندر- راحتَه وأحسَّ بقلقه لشدة مَناعَة العرب في الجانب الآخرِ من جبال البرت، وظنَّ أنَّ من واجب المسيحي، أن يستَأصِل شَأفَةَ الملْحِدِين، ورأى أنه وهو الملِك العظيم المظَفَّر، لا يجمُل به أن يحتَمِل إلى جانبه دولةً مستقِلَّةً بالأندلس. وقد سَنَحت له الفرصةُ في النهاية، حينما ثار بأسبانيا بعضُ القبائلِ لتوليةِ أوَّلِ أميرٍ أموِيٍّ [238]، وقد دَأَبَت القبائل طِيلَةَ أيام العرب بالأندلس على السُّخْطِ والهِيَاج. فدُعي شارلمان للتدَخُّل في الأمر وطَرْدِ الأميرِ الغاصِب.

ويزعُم مؤرِّخو الإسبان: أن ألفنسو ملك أشتورش (أستورياس) هو الذي استَنْجَد بملِك فرنسا، ولكن الأرجح أنَّ الدعوة جاءت من بعضِ زُعماء المسلمين [239]، الذين خابت آمالهم، وانعكست مطامِعُهم في عبد الرحمن الداخل الأموي، حتى أصبحوا يُؤْثِرُون الخضوعَ لعدوِّ الإسلام اللَّدُود على قَبول هذا الأميرِ الجديد.

وكان ما طلبوه من شارلمان محبوبًا إلى نفسه، ملائمًا للفرصة التي كان يتوقَّعُها، وكان الدهرُ في هذا الحينِ مبتسِمًا لشارلمان لأنه أتم إخضاعَ

السكسون [240] ونفى زعيمهم «وتكند» وأقبلت الألوفُ من أصحابِه إلى بادربون للدخول في المسيحية زُمَرًا. وأصبحت يدُ الفاتِح حُرَّةً طَلِيقة، تَتَّجِه أنَّى شاءت للغَلب والانتصار.

فتمَّ الاتفاقُ بين المتآمِرين على أن يغزُوَ شارلمان أسبانيا، في حين يعمل الزعماء الساخطون على توجيه الجيش العربي إلى ثلاثِ جهاتٍ متباعدةٍ. وكان من حُسْن طالِع أميرِ قرطبةَ أنَّ هذا الاتفاقَ الخَطِر لم يتمَّ منه شيء، فإنَّ حُلَفاء شارلمان أخطئوا في حُسْبان الزَّمَن، ثم تنازعوا وصاحت صائحة الحربِ بينهم. فلمَّا اخترَق شارلمان البرت سنة 777م (161هـ) لم يجد ناصرًا ولا معينًا، فأخذ يُحَاصِر سرقسطة [241]، وبينما هو عند أسوارها، إذ وصلت إليه الأخبارُ بأن «وتكند» عاد وأثار السكسون وتقدَّم بهم حتى وصل إلى كولون، فلم يجِد شارلمان بُدًّا من أن يَعُودَ أدْراجَه لحماية مملكته، فاقتَحَم بجيشِه شِعابَ الجِبال. وفي شِعب رونسفال [242] نزلت بمؤخِّرته كارثةٌ فادِحةٌ قضَت عليها، فإن البشكنش - وقد أَحْرَقَت صدُورَهم العَداوةُ القديمةُ الدائمة للإفرنج - وضعوا لهم كَمينًا في أَغْوار صُخور البرت، وانتظروا، حتى إذا مرَّت مقدِّمةُ الجيش من الشِّعب انقَضُّوا على المؤخِّرة، وكانت بطيئة السَّيْرِ محمَّلة بالأثْقال، فاستَأْصَلوا رِجالها حتى لم يكَدْ يفِرُّ منهم أحدٌ من يدِ الموتِ.

ويقُصُّ علينا المؤرِّخون المسيحِيُّون ما تَقْشَعِرُّ له الأَبْدَان من مَذَابِح هذا اليومِ. ويذكرون أن المسلمين وفُرسان ليون تعاوَنوا على تَحْطِيم جيش الإفرِنج. وتصوِّر لنا أُنْشُودَةٌ إسبانية كيف أنَّ البطل برناردو كان يقودُ فُرسان ليون في مذبَحةِ جيش الإفرنج فتقول:

مشَى بِرنارد في جيشٍ ضَخَامٍ		يسُوق إلى الفِرنج به أُسُودا
ليحمِي أرضَ أسبانيا ويُعْلي		شِعار «بلاي» والشرفَ التَّلِيدا
وإنا سادةُ الأحرارِ لكن		رَضِينا أن نكونَ له عَبِيدا
نتابع رِيش خُوذَتِه ونمضي		قريبًا كان يقصِد أو بَعِيدا
وعاهَدْناه أنْ نَفْنَى جميعًا		وإنَّا خيرُ من حَفِظَ العُهودا
أَنُلْقِي بالبَنِين لمستَبِدٍّ		يُطِيحُ بهم ويُرْهِقُهم صَعُودا
وبَينَ ضُلوعِنا قلبٌ جَرِيءٌ		يمُدُّ إلى العِدا زَنْدًا شديدا؟
أيطمَعُ شارلُ أن يَبْقَى مَلِيكًا		لعَرْشِ ليون جبارًا عَنِيدا؟
لقد كذبت أمانيه فإنَّا		سنحصُد جمعَه حتى يَبِيدا

ويبقى شَعْب ألفونسو شَريفًا		ويبقَى مُلْك ألفونسو مَجِيدا

حارب العرب كَتِفًا إلى كَتِف لاستِئْصال الإفْرِنج، مع أبطال لِيون الذين أَبَوا أن ينضَمُّوا إلى أمير أستورياس في خُضُوعه لشارلمان، ويحدِّثنا أبسيدو ترْبن في تاريخه القَصَصي لشرلمان وأرلاندو «بهجوم ثلاثين ألفًا مِن العربِ على جيشِ المسيحيِّين، وقد امتلئوا غَضَبًا وحِقْدًا. وكان المسيحيُّون مُجْهَدين يَتَرَنَّحون للسُّقوطِ لِطُولِ ما قَاتَلوا مِن قَبْلُ، فحصَد المسلمون رجالَهم، ولم يُبْقوا منهم على أحَدٍ، فمنهم من نَفِذت الرِّماحُ من أحْشائِه، ومنهم مَنْ هَشَمَتْهُ القُضْبان، ومِنهم مَن طاح رأسُه بالسَّيْف، ومنهم من سُلِخ حيًّا، ومنهم من شُنِق فتدَلَّى من الأشجار».

كانتِ المذبحةُ مُفْجِعَةً، ولم تُمْحَ ذِكرى هذا اليومِ من أَخْيِلة سُكَّان هذه الجهةِ على طُولِ الدَّهْرِ، حتى إنَّ الجيشَ الإنجليزيَّ حينما تعقَّب قُوَّاد نابليون في شِعْب رونسفال سمِع الناسَ يَتَغَنَّوْن بالأُنْشُودة القديمة التي قِيلَت في هذه المعرَكةِ الطَّاحِنة. وأخَذ شُعَراء أسبانيا الجَوَّالون يُضِيفون إليها كثيرًا مِن الحوَادِث، إنْ صِدْقًا وإنْ كَذِبًا. ومن أشهرِ الأناشيدِ أُنْشودةُ أميرِ البحرِ جارينو -التي سمِعها الدُّون كيشوت وشانكو بانزا تُغَنَّى بتوبوسو- وهي:

يا فرنسا قد كان يومُك حقًّا		عند رونسيسفال يومًا عَصِيبا
كان برناردُ فيه سيفًا فَوَلَّى		وسِنانًا لشارلمان صَلِيبَا
وجرينو قد كَبَّلَتْه قُيودٌ		فهو يدعو فلا يُلاقي مُجِيبَا
حوله سبعةٌ مِن العُرْب أبطَا		لٌ يُرى بينهم أَسِيرًا غَرِيبَا

وهكذا تمضي الأُنْشُودة، فتقُصُّ علينا قصَّةَ أسْرِ جارينو، ثم انتقامَه بذبحِ آسِرِه في المبارَزة، ثم فِرارَه إلى فرنسا.

وكان ممن ذُبِحوا في هذا اليوم الأَيْوَمِ، رولند الشجاعُ [243]، وهو من قُوَّاد شارلمان الاثني عَشَرَ وقائدُ حُدودِ بريتاني. وقد صَوَّره خيالُ الشُّعراءِ بَطَلًا في قِصَّة شارلمان، ونُسِب إليه من أعمال الفروسية والشَّجاعة ما يتردَّد العقلُ في قَبوله.

فقد قيل: إنه حارب طُولَ اليوم، وقَذَف بنفسِه في أشدِّ مواقِع المعركةِ التِحامًا، ضارِبًا بسيفِه «ديورندا» إلى اليمين وإلى الشمال، ولكنَّ شجاعته لم تُغْنِ عنه شيئًا، ولم تُكْسِبْه المعركةَ، فارتمى إلى الأرض جريحًا مُحاطًا برِجاله وأخَذَ يَجُود بنفسه. ويقولون: إنه قَبْل أن يُسْلِم الرُّوحَ اسْتَلَّ سيفَه الأمينَ من قِرَابه، وكان به ضَنِينًا، يُؤثِر أن يفقِد الذِّراع التي جَرَّدَتْه على أن يَفْقِدَه وشَرَع يقول:

«أيَّها الحُسامُ الذي لم يماثِلْه سيفٌ في بَرِيقِه وصَفاءِ مائه، وعَظَمَته ولِينهِ، ثمَّ في قَبْضَتِه العاجِيَّة البيضاءِ المزَيَّنة بصَلِيبٍ ذهبيٍّ فاخِرٍ، فوقه تُفاحةٌ زَبَرْجَدِيَّة، حُفِر بها اسمُ اللهِ الأَقْدسُ؛ لقد مُنِحْتَ مَضاءً، واستَأْثَرْتَ بمزايا ليست في سِواك، مَن ذا الذي سيُشْهِرُك في المعاركِ بعدي؟! ومَن هذا الذي سيكونُ لك صاحبًا؟ فإنَّ مالِكَكَ لا يُغْلَبُ، ولا تُرهبه الأعداءُ، ولا تُخِيفه الأوهامُ.فإذا صَحِبك وصَحِبَتْه معونةُ الله. حَطَّم المسلمين، وأعلى كلمةَ المسيحِ، وبلَغ قمةَ المجْدِ».

«يا أيها السيفُ السَّعيدُ، يا أَمْضَى المواضِي، لقد عَزَّ لك النَّدِيدُ والنَّظيرُ، فإنَّ [القَيْن] [244] الذي طبَعك لم يَطْبَعْ لك أخًا، وإذا ضربت لم يستطع الفرار من ضَرْبَتِك أحَدٌ» ثم ضرَب به صخرةً قَسَمَتْه نِصفين مخافةَ أن يسقُط في يد جَبانٍ أو مسلِمٍ. ثم نفَخ بجمْع قُوَّته في بُوقه الذي كان صَوْته يحطِمُ الأبواق، حتى انفجرت أَوْدَاجُه:

وأرسل بُوقَه المحزونُ صَوْتًا		فردَّد فونترابيان صَدَاه

ووصَل الصَّوتُ إلى أُذُنِ شارلمان وهو في مُعَسْكَرِه على ثمانيةِ أَمْيالٍ، غيرُ عالم بالمصيبةِ التي حلَّت بمؤخِّرةِ جيشه، وكاد الملِكُ يَهُمُّ بنَجْدَة صاحب البُوقِ المستَصْرِخ، لولا أنَّ أحدَ الخَوَنة أخبرَه بأنَّ رولند ينفُخُ في بُوقِه للصَّيْدِ. وهكذا لم يُسْعِفْ شارلمان قائدَه الأمينَ، الذي فاظَ بعد أنْ رَتَّل صلاته وأدَّى اعتِرافَه. ثم أسرَع بولدوين إلى شارلمان -وكان من نُبلاء فرنسا- وأخبره بما حاق بمؤخِّرة الجيشِ وبموت رولند وأوليفر. عندئذ حوّل الملِكُ عِنانَ فَرسِهِ وعاد بجيشِه إلى رونسفال، فرأى الجثثَ مبعثرةً في الميدان، ورأى جثةَ البطلِ ممدُودةً على هيئةِ الصَّلِيب، وبُوقه وسَيْفه المحطَّمُ إلى جانبه، فوقف ينْدُبُه في حزن وأَسًى، وهو يُرَدِّدُ الزَّفَرات، ويُعْوِل إِعْوال الثَّكَالَى، ويضرِب كفًّا بكَفٍّ، وينتِفُ لحيتَه، ويقول:

«يا يدي اليمنى،ويا فَخْر الإفرنج، ويا سيفَ العدْلِ، ويا رمحًا لا يلين ودرِعًا لا تُحَطَّم، يا تُرْس الطُّمَأْنِينة والسلام، يا حامي المسيحيةِ وسَوْطَ عذابِ الإسلام، يا حائطَ القَساوِسة، وصديقَ الأَرامِل واليتامَى، يا أمينَ الرأي، ويا صادق الحُكْم، ويا أَشْرف قومِك، ويا أشجَع قائدٍ لجيش، لِمَ تركتُكَ هنا؟ لتموت؟ كيف أراك ميتًا ولا أموتُ بعدك؟ لماذا تركتني حزينًا وحيدًا، وخَلَّفْتَني ملِكًا بائسًا مِسْكِينًا؟ ولكنك رُفِعْتَ إلى السماء وأصبحتَ تَسْعَد بصُحْبَةِ الملائِكة والشُّهداء».

وهكذا ظل شارلمان يبكي رولند ويندُبُه طِيلَةَ حياتِه، ثم أقام الجنود في البُقعةِ التي ماتِ بها، وضَمَخوا جَسدَه بالبَلْسَمِ والطِّيبِ، وسَهِر الجيشُ على حِراسته يُرتِّلُ الأَدْعِية ويَتْلُو الأناشيد، ويُوقِدُ النيران على قِمم الجبال حوله، ثم

حَملَه الجنودُ معهم، واحتفلوا لدفنه كما يُحتَفَل للملوك. وهكذا انتهى هذا اليومُ الأسودُ..

حيث رونسسفال كانت		للفرنجِ الحُمْس لَحْدا
أليفر لاقى بها الحتـ		ـف ورولند تَردّى

ولم يُشِد التاريخُ بعملٍ قليلِ الشأن كما أشاد بهذه المعركة، حتى لقد جعلها مَنْبَعًا لأساطيرِ البطولة وأناشيد الشعراء، فهي ثرموبيلي [245] جبال البرت (البرانس) في التغني بها وطولِ الحديث عنها، وإن لم يكن لها ذلك المجدُ، ولا هذا المغزى.

الأندلسيُّون

وضَعَ انتصارُ شارل مارتل سنة 733م (115هـ) سَدًّا أمام غَزو المسلمين لأوربا، فلم يعودوا يفكرون في دَفْع فُتوحهم إلى الأمام، واتجهوا إلى توحيد المملكةِ التي افتَتَحوها وجَمْع أطْرافِها، وبعد أن وقعت الواقعةُ بجيش شارلمان، عاشوا في بلادهِم آمنين لا ينازِعُهم مُنازِعٌ مدةَ ثلثمائة سنة. نعم إنَّ أبناء القوط المنهزِمين تمسَّكوا باستِقلالهم في المقاطعات الجبلية الشمالية، وأخذوا من آنٍ لآن يستردُّون أجزاءً من مملكتهم القديمة، ولكن هذه الغارات، وإن ضاقت بها صُدُور العربِ، لم تكن إلى الآن خَطَرًا عليهم، لأنهم كانوا يَقْطُنون القِسمَ الأعظمَ من أسبانيا في رَخاء وبُلَهْنِية [246]، ولم يتحققْ خَطرُ المقاطعاتِ إلا في القرنِ الحادي عشَرَ.

وقَبِل الفاتِحون أولَ الأمرِ الاعترافَ باستِقلال هذهِ المقاطعاتِ، وعَدُّوا ذلك شرًّا لا بد منه، لأن انتزاعها من أيدي الإسبان كان يكلِّفهم دماء أغلى مما تستحق؛ فتركوا للمسيحيين جليقيَّة (غاليسية) [247]، وليون [248]، وقشتالة [249]، ومقاطعات غسقونية [250]، وقَنَعوا بأحسنِ قِسمٍ في أسبانيا، وأرْغَموا المسيحيِّين على التمتُّع بمفاوِز الشَّمال الموحِشة الباردة، وصخورهِ القاسيةِ الجافِيةِ، على ألَّا يَطْمحوا أو يَمُدُّوا أعينَهم إلى ما يَنْعَمُ به العربُ، من الولايات الجنوبية والشرقية الدَّفيئة الخَصِيبة.

ومنذ نهاية القرنِ الثامن -حينما وقفتْ حدودُ مملَكة العربِ عند غايةٍ، إلى أن زحفَ المسيحيُّون على ممالكِ الإسلامِ في القرن الحادي عَشرَ- كان الحدُّ بين المسلمين والمسيحيِّين على التقريب، عند امتدادِ شاراتِ وادي الرَّمْل [251]، التي تمتدُّ في اتجاه شماليّ شرقيٍّ من قُلمرية [252] في البرتغال إلى سَرَقُسْطَة، ويمكن أن يُعَدَّ نهرْ إِبْرة حدًّا تقريبيًّا. فكان المسلمون ينعَمون بالسُّهول الخَصِيبة لأنهارِ تاجة، ووادي يانة، والوادي الكبيرِ، وهو الاسم الذي سَمَّى به العربُ هذا النَّهْر لِعِظَمِه، وكانوا يملِكون إلى جانب مُدُن الأندلسِ الشهيرةِ مزايا الثروة، ورَوَاجَ التجارة، واعتدالَ الجوِّ إلى غير ذلك مما اشتُهر به هذا القسمُ مِن عُهود الرُّومان. وهذا التقسيمُ طبيعيٌّ، فقد تميز القسمان تميزًا جغرافيًّا منذ القِدَم، لاختلافِ أجوائهما، فالشمال مُوحِش مُعرَّضٌ للرياح الهُوجِ، والأمطارِ الهاطِلة، والبردِ الشديدِ، وهو على جَوْدةِ بعض المرُوجِ والمراعي به، لا يصلُح كثيرٌ من أراضِيه للزراعةِ أما الجنوبُ، وإن كان مهدَّدًا بالرياح الحارة التي تهُبُّ من إفريقية، فمزدَهِرٌ، كثيرُ المياه، صالحٌ للزراعة. وبين القسمين مساحةٌ واسعةٌ، كان المسلمون ينتَفِعون بها على الرغم مِنْ أن مِلْكِيَّتَها كانت مَوْضِع شَكٍّ وجِدالٍ، وأبغَضَ العربُ وهم عُشَّاقُ الشمس المتألِّقة

هذه المساحةَ الباردةَ، فتركوها لقبائلِ البربر أصحابِ طارقٍ، وكان هؤلاء دائمًا موضِع زِرايةِ العربِ الخلّص الذين جَنَوا ثمراتِ الفتوح.

ملَك المسلمون ثلثي شِبه الجزيرة وسمَّوْها بالأندلس [253]، وأنشئوا بها مملَكةَ قرطبة العظيمة، التي كانت أعجوبةَ العصور الوسطى، والتي حمَلَت وحدها في الغربِ شعلة الثقافةِ والمدَنِيَّة مؤتَلِقة وهَّاجة، وقت أن كانت أوربا غارِقةً في الجَهالة البربرية، فَرِيسةً للشِّقاق والحروب.

ويجبُ ألا يجُول ببالِ أحدٍ أن العربَ عاثوا في البلاد أو خَرَّبوها بصُنوف الإرْهاق والظلم، كما فعل قُطْعان المتوحِّشِين قبلَهم، فإن الأندلسَ لم تُحْكَم في عَهْدٍ من عُهودها بسماحةٍ، وعَدْلٍ، وحكمة، كما حُكِمت في عهد العربِ الفاتحين.

وقد يسألُ المرءُ نفسَه دَهِشًا: من أين جاء لهؤلاء العرب كلُّ هذه المواهبِ الساميةِ في الإدارة والحكم؟ فقد جاءوا من صحرائهم العربية ولم تترك لهم فتوحُهم المتوالية مِن الزمن إلا قليلا، لدراسةِ فنونِ سياسة الأمم المغلُوبةِ. نعم إنَّ بعض رجال دولتهم كانوا من اليونان والإسبان، ولكنَّ هذا لا يُبْطِل العجَب، لأن هؤلاء لو تُرِكوا وحدَهم، أو عملوا في ميدان آخر بعيدٍ عن العرب، لعجَزوا عن أن يكون لهم أمثالُ هذه النتائج الباهرة. وكل ما هُيِّئ للعقول الإسبانية من القدرة الإدارية، لم يَكْفِ لجعل الحياة أيامَ دولةِ القُوطِ محتَملَةً هنِيئة، ولكنَّ الأمة الإسبانية على النقِيض من ذلك كانت في ظِلال حُكْمِ العرب راضيةً هانئِة كما يمكن أن يَرْضَى ويهنَأ شَعْبٌ مغلوب يحكمُه غاصب، بل إنها كانت أسعدَ حالا وأرْخَى بالا، مما كانت عليه حين كان حُكَّامُها القوط يدينون بدينها الذي تراءوا باسمه دون حقيقته فإنَّ اختلاف الدين كان في الحق أقلَّ المصاعب التي لاقاها العرب في أول حُكمهم، وإنْ أصبحَ بعد ذلك مَثار عَنَتٍ واضطراب؛ لأن مُيول الإسبانيين للمسيحية كانت لا تقِلُّ عن مُيولهم للوثنية، فقد فَرَض عليهم قُسْطَنطين المسيحيةَ فرضًا، فبقيَ الناسُ متشَبِّثين برومانيتهم، ولم يترك الدين في نفوسِهم إلا أثرًا ضَئيلا، وهم في الواقع لم يكونوا في حاجة إلى دينٍ جديدٍ، بل كانوا في أشدِّ الحاجةِ إلى القدرةِ على أنْ يعيشوا حياتَهم في أمْنٍ ورَغَدٍ. وقد منَحهم ساداتُهم المسلمون هذين.

وفي بُدَاءة الفتح، مَرَّ بالأندلس وقتٌ قَصِيرٌ مضْطَرب، شَوَّهَتْه حوادثُ الإحراقِ والقتلِ والمصادَرة. غير أنَّ حُكَّام العربِ أسرعوا إلى وقف كلِّ ذلك، ورأت الرعيةُ بعد أن استقرت الأمور في نِصابها أنَّ حياتَها على كلِّ حالٍ لن تكون أسْوَأ مما كانت عليه من قَبلُ، ثم أخذ الناسُ بعدَ قليلٍ يشعرون بأنهم أفادوا مِن تغيُّر الحُكْم، فقد كان للإسبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقُضَاتِهم [254]، وعُيِّن لهم حُكَّامٌ من أنفسهم يُدِيرون المقاطعاتِ ويجمعون الضرائبَ ويفصِلون فيما شجَر بينهم مِن خِلافٍ، وأصبح سُكَّان المدن لا يُكَلَّفون إلا

الجزيةَ والخراج [255] -إنْ كانت لهم أرضٌ تُزْرَع- بعد أن كانوا في عهدِ القُوطِ يحمِلون وحدَهم عِبْءَ الضَّرائبِ والأموال التي تُنْفَق على الدولة، وكانت الجزيةُ مُتَدَرِّجةً على حسب منزلةِ المطالِبين بها: فكانت تبتدِئ من اثني عَشَرَ دِرهمًا إلى ثمانيةٍ وأربعين في العام، أو من نحوِ ثلاثة جنيهات إلى اثني عَشَرَ، وقد قسمت اثني عشرَ قِسطًا، يُجْتَى قِسْطٌ في كلِّ شهرٍ للتخفيفِ عن الرعيةِ، وقَصَرت الجزيةُ على المخالفِين في الدين من النَّصارى واليهود. أما ضريبةُ الأراضي التي كانت تتفاوت على حسَبِ قدْرَة إنتاجِ الأرضِ، فإنها فُرِضَت بَعْدلٍ ومُساواة على النَّصارى واليهودِ والمسلمين جميعًا، ولم تمتدَّ يدُ المسلمين في الغالب إلى أملاك المدن والأهْلِين التي كانت لهم قَبْلَ الفَتْح، نعم إنَّ أملاكَ الكَنائسِ صُودِرَت، وكذلك الأملاكُ التي فَرَّ أصحابُها إلى جبالِ الشمال، ولكنَّ العربَ تركوا عبيدَ هذه الأراضي يعمَلون بها، على أن يُؤدُّوا إلى ساداتِهم المسلمين نِسبةً من الحاصِل تتفاوتُ بين الثُلُثِ وأربعةِ الأخماسِ، وعُومِل بعضُ المدن كماردة، وأريولة معاملةً خاصةً، وفازت مِن الفاتحين بخيرِ الشُّروط؛ فاحتفَظ السُّكَّان فيها ببضائعهم وأراضيهم، على أن تؤدَّي إلى الحاكم إتاوة في كلِّ عامٍ. ولم يكن المسيحيون على أسوأِ الفُروضِ مُلْزَمين دَفع ضرائبَ أكثرَ مما كان يَدْفَعُ جيرانُهم المسلمون، على أنهم قد ظَفِروا بحقٍّ لم يكن لهم أيام مُلوك القوط، فأصبحوا في عهد الإسلام قادرِين على نَقْلِ مِلكِيَّة أَرَاضِيهم لغيرهم. أما التَّسَامحُ الدِّينيُّ فلم يدَع للإسبانيين سببًا للشكوى، فقد تركهم العرب يعبُدون كما يشاءون مِن غيرِ أن يَضْطَهِدوُهم أو يُلْزِموهم اعتِناق عقيدةٍ خاصةٍ، كما كان يفعل القوط باليهود. وكانت الجزيةُ كبيرةَ الفائدةِ لِخزانةِ الدَّولة، حتى إنَّ بعضَ أمراءَ قُرْطُبة كانوا يميلون لتَثْبِيط عزائم المتحَمِّسِين من المسلمين الذين أَخَذُوا يدعون إلى الإسلام، لأن هذهِ الدعوةَ كانت تَحْرِم الدولةَ مَنْبعًا غَزيرًا من مَوارِد جِبَايَتِها.

وكان من أثَرِ هذه المعاملةِ وذلك التسامح، أنْ رَضِي المسيحيون بالنظامِ الجديدِ، واعترفوا في صراحةٍ أنهم يُؤْثِرون حُكْمَ العربِ على حُكمِ الإفرنج أو القُوط، حتى إنَّ القساوسة أنفسَهم لم يكونوا شديدي التألم لحكمِ العربِ كما يدلُّ على ذلك التاريخُ المنسوبُ إلى «إيزيدور» الباجي [256] الذي كتب بقرطبة سنة 754م (137هـ) فإنَّ هذا الراهِب الصالح لم يتحرَّج من تدوين تلك الصِّلَة غير الجائزة من زَواج أَرْمَلة لُذْرِيق بابن موسى بن نُصير [257]. وأَسْطَعُ الأدِلَّة على رضا المسيحِيِّين عن حُكَّامهم الجُدُد، أنَّ ثورةً دينيَّة واحدةً لم تحدُث في خلال القرنِ الثامن.

أما فرحُ العبيدِ بما طَرَأَ على نِظام الحكْم من التغير فقد كان عظيمًا حقًّا، بعد أن لاقوا من ضروب العَسْف والقَسوة من القُوط والرُّومان ما تَقْشَعِرُّ له الأَبْدان، فإنَّ الرِّقَّ في رأي المسلمين الأخيارِ نظامٌ إنسانيٌّ رفيق، حتى إنَّ

النبيَّ حينما لم يجد بُدًّا من الإبقاء على هذا النِّظامِ العتيقِ الذي يعارِض مبادِئَ الإسلام، بذَل كُلَّ جُهْدٍ في تَخْفِيف وَيْلاتِه في كثيرٍ من الوصايا والأحاديث؛ فهو يقول في الأرِقَّاء: «إخوانُكم خَوَلُكم، جعلَهم اللهُ تحتَ أيدِيكم، فمن كان أخوه تحتَ يدِهِ فلْيُطْعِمْه مما يَأْكُلُ، ويُلْبِسْه مما يَلْبَس، ولا تُكَلِّفوهم ما يَغْلِبُهم، فإذا كَلَّفتُموهم فأَعِينُوهم» [258]. وعن أبي مَسْعودٍ الأنصاريِّ قال: «كنتُ أضرِبُ غلامًا لي فسَمِعْتُ مِنْ خَلفي صوتًا يقول: «اعْلَم أبا مسعود: اللهُ أقدرُ عليكَ منك عليه. فالتفتُّ، فإذا هو رسولُ الله ، فقلت: يا رسول الله، هو حُرٌّ لوَجْهِ الله.فقال: أَمَا لو لم تَفْعَل لَلَفَحَتْكَ النَّارُ» [259].

ولم يكن بين القُرَب التي يَتَقَرَّبُ بها المسلمون إلى اللهِ أَجَلُّ من إعْتاقِ العَبيدِ، وكثيرًا ما حَضَّ النبيُّ على تَحْريرهم، وقد جعَل الإسلامُ إعْتاقَهم كَفَّارة لبعض ما يُجتَرَحُ مِن الذُّنُوب.

سعِد العبيدُ بدخول العربِ، وأصبَحوا في رِقِّ المسلمين بمنزِلة صِغارِ الزُّرَّاع، فتركَهم ساداتُهم أحرارًا يزْرَعون الأرضَ كما يشاءون، على أنْ يؤدُّوا إليهم نَصِيبًا مِن الغَلَّةِ، لأنَّهم كانوا مشتَغِلين بالحروب، ولأنَّهم كانوا بطبيعتهم يَأْنَفون من أَعْمال الفِلاحة، أمَّا عَبيدُ المسيحيِّين الذين ظلُّوا يائِسين من التخَلُّص مِن الرِّق طُولَ حياتِهم: فقد مُهِّد أمامَهم اليومَ طريقٌ إلى الحريَّة من أَسْهَلِ الطُّرق وأهْوَنها. فليس عليهم إلا أنْ يذهَبوا إلى أقْربِ مُحتَسِب أو قاضٍ، وينطِقُوا أمامه بالشهادَتَيْن، فيُصْبحِوا أحرارًا، فإنَّ الحرية تَتْبع الإسلام، فليسَ عجيبًا إذًا أن نَجِد العبيدَ الإسبانيين مُسْرِعين إلى إعلانِ دينهم الجديدِ، ليتخَلَّصوا من رِبْقَة العبودِيَّة. ولم يَبْذُل القساوسة في الماضي إلا جُهْدًا ضَئيلا لغَرْسِ المسيحية في قلوبِ هؤلاء الأرِقَّاء، فقد كان لديهم مِن العملِ والإشرافِ على ضَيْعَاتهم ثُمَّ من العِناية الدِّينِيَّة بالنُّبَلاء، ما صَرَفَهُم عن الاهتِمام بهؤلاء الجُهَلاء، ثم إنَّ الانتِقال من مَزِيجٍ من الوثنِية والمسيحِية، إلى إدْرَاك ضَعِيفٍ للإسلام، لم يكُن صَدْمةً شديدةً للعقلِ المقَلِّد. ولم يكن العبيدُ وحدَهم هم الذين تَسابقوا إلى الدينِ الجديدِ، فقد أَسْلَم كثيرٌ من كِبار المُلَّاك والسَّراة، إمَّا للفِرار من الجِزْيَة، وإمَّا للمحافَظة على ضِيَاعِهم، وإما لأن نُفُوسَهم مالت مُخلِصةً إلى الإسلام، وأحبَّتْ ما في التوحيد من جَلال ويُسْر. وكان هؤلاء الدَّاخِلون في الإسلام أو المتَسَلِّمون [260]، سببًا لإثارة القَلاقِل في الدَّوْلة كما سيُتْلَى عليك بعدُ، فإنَّ إسلامهم وإنْ تَضَمَّن مساواتَهم بالمسلمين، لم يَصِل بهم إلى التمتُّع بحقوقِ المسلمين وميزاتِهم كاملةً، فقد حِيلَ بينهم وبين مَناصِبِ الدَّوْلة، ونظر إليهم نظرةَ اشتِباهٍ وحذَرٍ كما ينظُر إلى مَن يبيعُ نفسَه رَخيصةً يريد عرَضَ الحياة الدُّنيا. وقد زالت هذه الفروقُ في النِّهاية، ولكن بعد أنْ أَحْدَثت نِزاعًا خَطِيرًا، وثَوْراتٍ متعاقبةً [261].

كانَ فتحُ العربِ للأندلس في جُملته نِعمةً ورَخاءً على الأندلسيين المحكُومين، لأنه أبْطَلَ ما كان يملِكُه كِبارُ النُّبلاءِ ورجالُ الكَنِيسة من الضِّيَاع الواسِعة، وحوّلها مِلْكِيَّاتٍ صغيرةً، ثم رَفعَ عِبْءَ الضَّرائب عن الطبقة الوُسْطى، واقتَصرَ منها على الجزْيَةِ على غيرِ المسلمين، والخراج على المسلمين وسِواهُم، ثم حثَّ على تَحريرِ العَبِيدِ والرِّفْقِ بهم، وإصلاحِ أحْوالهم فأصبَحوا زُرَّاعًا مستقِلِّين في خِدمةِ ساداتِهم المسلمين.

وكان الفتحُ على النَّقِيضِ من ذلك شَرًّا وبلاءً على الحاكمِين، فليس هناك أبعدُ شَطَطًا من أنْ تَتَخَيَّلَ أنَّ العرب الذين انتشروا بهذه السُّرعة، فوق نصفِ العالَم المتمَدْيِن، كانوا مُتَّحِدِين على أي معنًى مَقبولٍ من معاني الاتِّحاد. فإنَّ ذلك لم يكُن صَحيحًا، وقد بذَل محمَّد جُهْدَه، وكَدَّ بِكل ما أُوتي مِن حِكْمة وحَزْمٍ وشخصيةٍ مَهِيبة عَجِيبة، ليحافِظ جُهْدَ المستَطِيع على صُورةٍ للوَحدةِ العربيةِ. لأنَّ العربَ كانوا شُعوبًا وقبائِلَ، وكان بين هذه القبائلِ حروبٌ وتِرَاتٌ دامِيةٌ استمرت طويلا، وكان للنُّعَرةِ القَبَلِيَّة التي لم تَنْطَفِئْ شُعْلَتُها بعد الإسلام، أكبرُ سُلْطانٍ على نُفُوسِهم، ولو بَقِيت دولةُ الإسلامِ في حُدود بلادِ العربِ ولم تتجاوزْها، ما بَقي شَكٌّ في سُرعةِ انتِقاضها وزَوَالها، لِكثرةِ ما كان يَقعُ بين القبائلِ من التَّنافُس والتَّحاسُد. وقد تَبِع وفاةَ النبي خروجٌ عامٌّ مِن القبائل. والحقُّ أنَّ الإسلام لم تَثْبُتْ أركانه، ولم يُصْبِح دينَ الدُّنيا، إلا حينما سَلَّح نفسَه وأصبَح دينًا محارِبًا، فنَجا مِن الانتِكاس بتوالي انتصاراتهِ لأنَّ العربَ إذ ذاك ألْقَوا إلى حينٍ تَحاسُدَهم المدمِّرَ القاتِل جانبًا، ليتعاونوا في اقتِناص الغَنائم. على أنَّه مِن المحقَّق أنَّ تَحمُّسَهم للفتُوح كان يُؤَجِّجُه عنصرٌ قَوِيٌّ من التَّعَصُّبِ للدِّينِ، والرغبةِ في نشرِه. فقد حاربوا لأنهم يقاتِلون أعداءَ اللهِ ورسولهِ، وحارَبوا لأنَّ مَثُوبَةَ الشُّهداءِ وكُؤوسَ السعادةِ والنَّعيم، كانت تَنْتَظِر مَن يُقْتَلون في سَبِيل الله. غير أننا لا نستطيع أن نُنْكِرَ أنَّ ثروةَ القَياصِرة والأكَاسِرة، والأراضي الخِصْبَة، والمدنِ العامِرة في الممالِكِ المجاورِة - كانت عامِلا كبيرًا في تحمُّسِ المسلمِين لنشرِ الإسلام.

وحينما استقرَّ لهم الملْكُ وهدَأتْ مَوْجَةُ الفتُوح، عادتْ إليهم الشَّحْناءُ، وتحرَّكت فيهم عَقارِبُ الحسَدِ والغَيْرة والتَّفْرِيق، التي كانت اسْتَلَّتْها جَلَبةُ الحروبِ وغنائمُ الفاتحين، فانطلقت بعد احتِباسِها مُنذِرَةً بالشَّرِّ والدَّمارِ، فإنَّ رُوح العُنْصُرِية القَبَلِية انتَشَر في كلِّ جزء من أجزاءِ الممْلَكة التي أخْضَعوها، وتأثَّر به الخلفاء بدِمَشْق فكان تَعيينُ الأمراء في الولايات يَتْبَعُ هذه النَّزْعَةَ القَبَلِيَّةَ، وكان اختلافُ القبائلِ وتعصُّبُها بالأندلس داعيةً لكثيرٍ مِن الفَوْضَى واضْطِراب الأمنِ والنِّظام، في أثناء الخمسين سنة الأولى مِن حُكْم العربِ، حينما كان حاكمُ إفريقية أو الخليفةُ نفسُه يُعيِّن أميرَ الأندلُس، فكان هؤلاءِ الأمراءُ يَبْقُون في مناصِبهم أو يُعْزَلُون أو يُقْتَلُون تَبَعًا لميْولِ بَعضِ العَشائِر والقَبائِل، الذين كانوا يُعارِضون مرةً في أنْ يكونَ الأميرُ مَدنِيًّا، ومرةً في أن

يكونَ قَيْسِيًّا، وثالثة في أنْ يكونَ يَمَنِيًّا، واستمرت هذه النَّعَرةَ تقْذِفُ سُمومَها طُولَ مُدَّةِ حكم العربِ بالأَنْدَلُس [262].

يُضَافُ إلى ذلك، أنَّ الأندلسَ كان بها إلى جانبِ العشائرِ العربيةِ المختلفةِ، حزبٌ آخرُ عظيمُ الخطَرِ يجبُ أن يُحْسَب له حِسابٌ، فإنَّ طَارِقًا لم يتِمَّ له فتحُ الجزيرةِ إلا بجيشٍ جَمْهَرَتُه من البَرْبَرِ، لذلك أصبحَ هؤلاء عنصْرًا عظيمَ الشأنِ في الحياةِ الجديدةِ، ولم تكن أمة البربر ضعيفةً خائِرةً كالإسبان الذين اصطَبَغوا بصِبْغة الرومان، ولكنهم كانوا ممتَلِئين حياةً وعَزْمًا وإقْدَامًا. وحينما غزا العربُ بلادَهم، قاومَهَم عديدٌ من قَبائِلهم الباسِلة في مَعاقِلهم الجبَلِيَّة، وفي السُّهول الممتدَّة من مصرَ إلى المحيطِ الأَطْلَنْطيِّ، مقاومةً عنيدةً كانت أشدَّ عُنفًا من مقاومةِ الفُرس وجنودِ رومة المدرَّبين. وكانوا يُشْبِهون العربَ في كثيرٍ مِن الوجُوهِ: فكان لهم قبائلُ كما لهؤلاء، وكانت مُيولهم السياسية دِيمقراطية كالعرَبِ، غير أنَّهم كانوا يُجِلُّون الأُسَرَ الشريفةَ إجلالا ذَهَب بخَطَرِ الديمقراطية بين قومٍ جَاهِلين، وكانت صِفاتُهم الحربيةُ عَربيةً في أكثرِ مَظاهِرِها، واستمرَّ القِتَال بين هذين الفريقين من الرُّعاة المنتَجِعين سبعينَ سنةً،حتى إذا تغلَّب عليهم العربُ في النهاية كان هذا الفوزُ عن رضًا من البربرِ أكثر من أن يكون هزيمةً محققة. فسمَح البربرُ للأميرِ العربيِّ أن يجعلَ دارَ حُكْمِه قريبةً من السَّاحل، ولكنهم حَتَّموا إبقاءَ حكُومَتهم القَبَلِيَّة، للفَصل في شُؤونهم كما كانت، وطَلَبوا أن يَكُونوا إخوانًا لا خَوَلا ولا عَبِيدًا للفاتحين. واستمرَّ هذا النظامُ الأجوفُ قائمًا مدةً من الزمن، وتسابق البربَرُ إلى الإسلامِ، وتحمَّسوا له حَماسةً تَفُوقُ تَحَمُّسَ العربِ أنفسهم، وبعد قليلٍ أصبحت بلادُهم عُشًّا للمَذاهِبِ الدينيَّة المبْتَدَعة [263]، التي بدّلت بالأصولِ الإسلاميةِ الفِطْرِية عناصرَ وَهْمِيَّةً مُثيرةً للعواطفِ، يَدُسُّها أصحابُ العقول البعيدةِ الخيالِ في كلِّ دينٍ، ووجَد المبتَدِعون بعد أن طُرِدوا من حَظِيرة الدِّين الحقِّ، في عُقول السَّذَّج من البربر أرْضًا خِصْبة لإنماء مذاهبهم. وقديمًا عُرِف البربرُ بسرعةِ قَبولهم لِما يُلْقَى عليهم من المذاهب الدينية، وبشِدَّةِ تأثُّرِهم بها وتحَمُّسِهم لها، ذلك التأثُّرُ الذي ذهب بهم أفواجًا إلى اعتِناق الإسلامِ، والذي مكَّن طارقًا واثني عشرَ ألفًا منهم مِن فتح الأندلس. وقد استغلَّ هذه السَّذَاجةَ في حركته السياسيَّة الدينيَّة زعيمُ المُرابِطِين [264]، الذي قدِم إلى المغرب ليبُثَّ في نُفُوس القومِ نُفوذًا أقوى من نُفوذ رؤساء قبائلهم، ويُخْضِعَهم بِسَطْوةٍ فوق سَطْوةِ حاكِمهم، ولم يكن يحتاجُ هذا الزعيمُ إلى أكثرَ من كراماتٍ زائفةٍ، ليسُوق قَطِيعًا من المصَدِّقين الدَّهِشِين إلى حَظِيرته.

وتحقَّق أحدُ حكَّام العربِ من رَوَاجِ هذا الدَّجَلِ بين قبائل البربرِ، حين رآهم يخضَعون لامرأةٍ تدَّعِي الولاية [265]، وتؤيِّد دَعْوَاها بألاعيبَ من الشَّعْوَذَة، فأخذ يُدَرِّبُ نفسَه على مثل هذه الألاعيبِ حتى بَرَع في أساليبِ الحُوَاة، فنال من

طاعة القومِ واستِسلامِهم فوقَ ما كان يَبتغِي، ومثلُ هؤلاء يتَّبِعون كلّ صائح، ويستَمِعون لكل داعٍ، ويُسْرِعون خِفافًا إلى الثَّوْرات العنِيفة التي يُشْعِلُها زعيمُهم بكلمةٍ واحدةٍ. وكان البربرُ سببًا لكل التطوُّراتِ التي حدثت في شمال إفريقية، فإنهم أقاموا دولةَ الفاطميين [266]، ثم لَحِقوا بجيُوشِ المُرابِطين فسارتْ منتصرةَ الأعلام حتى مَلَكَتْ بلادَ البربرِ وأسبانيا، ثم أسْقطوا المرابطين وأحَلُّوا محلَّهم الموحِّدين [267].

وشرعَ البربرُ في الأندلس منذ حُكْمِ العربِ يناصِبون الحكامَ العدَاءَ،حَدَث أنَّ أحدَ هؤلاءِ بالَغَ في إرْضاء مُيوله بالتمتُّع والإغراقِ في النَّعيم، مُرْهِقًا في سَبيل ذلك رعيته، فأغضَبَ ذلك العلماءَ والفُقَهاءَ، فأثاروا البربرَ عليه، فما كانت إلا لحظةٌ حتى دُهِي العربُ بالأندلس بهزيمةٍ نَكْراءَ، وأقبلَ من الشام ثلاثون ألفًا من الجنود لاستعادَة الولايات التي احتلَّها البربرُ، فحِيل بين معظمِ هؤلاء ومن انضَمَّ إليهم من العَرب بإفريقية والذَّهابِ إلى الأندلسِ، وأعمَل فيهم البربرُ السيفَ ذبحًا وتَقْتِيلا، وفرَّتْ فُلُولُهم إلى سَبْتة بأرْواحِهم، فكان يُهدِّدُهم في كل لحظةٍ عَدُوَّانِ من الجُوعِ والقَتْلِ.

وتأثَّر بربرُ الأندلس بوَثِيقِ اتصالهم بإخوانِهم في الساحِلِ الإفريقي بهذه الثورةِ، التي قامت بإفريقية سنة 741م (124هـ) وكان يتغَلْغَلُ في نُفوسهم حَسدٌ قديمٌ للعرب، لأنهم نالوا نصيبَ الأَسَد من غنَائم أسبانيا التي لم تَدْنُ قطوفها إلا بِقِسِيِّ البربر ورِماحِهم. ورَأَوا أنَّ العربَ الذين لم يدخلوا البلادَ إلا وقتَ اجتِناءِ ثمراتِ الفتحِ اختَصُّوا أنفُسَهم بكل الولاياتِ الخِصبة الباسمة من شبه الجزيرة، وتركوا لهم أبغضَ الأجزاءِ إلى النَّفْسِ: من سُهول استرامادور العُفْر، وجبال ليون الثلجية، فأقاموا بها مُرْغَمِين في جوٍّ قارِسٍ لا يحتمِلُه مَن عاش في حَرِّ إفريقية، ثم إنهم رأوا أنفسَهم في وَضعٍ يجعلُهم دائمًا حاميةَ دِفاع بين حُلفائِهم العرب ونَصارى الشمال.

تأثَّر البربرُ بكلِّ هذا. وقام «مونوسا» البربريُّ [268] -أحدُ قوَّادِ طارقٍ الذي تزوَّج بنت يوديس دوق أقيتانية- فأشعل نارَ الثورةِ لما أصاب إخوانه بإفريقية من الظُّلْم، وبعد أن فاز بربرُ إفريقيةَ بمطالبهم، هبَّت ثورةٌ عامَّة في الولايات الشمالية بأسبانيا، وحمَل السلاحَ بربرُ غاليسية، وماردة، وقورية، وتقدموا للهجوم على طُلَيْطلة، وقرطبة، والجزيرة الخضراء، وصمَّموا على أن يُبْحِروا منها إلى إفريقية للاتِّصال بأبناء وطنِهم.

وكان الموقفُ شديدَ الخطرِ عَصِيبًا، وجدَ فيه عبدُ الملك بن قَطَن الفِهريُّ [269] أميرَ الأندلس نفسه أمام مشكلةٍ تكاد تَسْتَعْصِي على الحلِّ، لأنه كان قد أبَى أن يمدَّ يَدَي المساعدة لجنود الشام بسَبْتة، فأصبح الآن أمام أمرين،

[أحلاهما] [270] مر وخيرهما شر: إمَّا أن يخضَع للبربرِ العُصَاةِ، وإمَّا أن يستَجْدِي معونةَ جنودِ الشامِ، الذين رَفض معاونتَهم، والذين قد يكونون إذا أذِن لهم بنزُول الأندلس، أشدَّ بَلاءً وشَرًّا من هؤلاء الذين جاءوا لطردِهم. ولكنه صمَّم آخرَ الأمر على إرسالِ سفُنٍ لنقل جنود الشامِ، بعد أن أخَذ عليهم عَهْدًا أن يعودوا من حيثُ أتوا بعدَ التغلُّبِ على البربر، وبعد أن قويَ جيشُ العربِ بهذا المدَدِ، كَرَّ على البربر، فاستَأْصَل شَأْفَتَهم، ثم تَعَقَّبهم في كلِّ مكانٍ وبيْنَ معاقِلِهم الجبَلِيَّة، كما يتعقَّبُ الصائدُ الوحوشَ الضارِيَة، حتى شَفَى نفسَه بنيْلِ الثَّأْرِ منهم.

غير أنَّ الخطَر الذي أرادَ عبدُ الملك أن يتوقَّاه ظهَر وأبْدَى ناجِذَيه، فقد أَبَى جنودُ الشام أن يستَبدِلوا بالمرُوجِ الخُضْرِ والحدائقِ الفِيْحِ بالأندلس، صحْراءَ إفريقيَّةَ القاحِلة، حيث تَنُوشُهم رِماحُ البربر المتغلِّبين، فتحَدَّوا عبدَ الملك وقتلُوه، واختاروا للأندلُس أميرًا منهم [271]، وكان من نتائج ذلك: أنْ شبَّ بين العربِ القدماءِ والجنودِ الدَّاخلين صِراعٌ عَنِيفٌ طويلُ المدَى، كثُرت فيه المذابحُ، وعَمَّ الدمارُ، ولم يَنْتَهِ هذا الصِّراعُ إلا بعد أن أرسَلَ الخليفةُ بدمشقَ أميرًا [272] قَدِيرًا فرق بين القبائل المتطاحِنة بإعطاءِ كلٍّ مِن الفريقَيْنِ مدنًا تبعُد عن مُدُنِ الآخر، ثم بِنَفْيِ أكثر زعماء الفريقين عنادًا وشغبًا: فنزل المصريون الذين كانوا بِجُنْدِ الشَّام مُرْسِية وسموها مِصر، ونزل الفِلَسْطِينِيُّون شُذُونة، وحَلَّ أهلُ الأُرْدُن بمالَقة، وأقام الدِّمَشْقِيُّون بغَرْناطة، واستقَرَّ أَهلُ قِنَّسْرين بجَيَّان. وبهذا الوضع زال سببٌ من أسبابِ النزاع الحزبي بالأندلس، ولكنَّ الرُّوحَ القبَلِية لم تضعُف سيطَرَتُها بعد، وبقِيَت الثورات تتغلَّب على الحكومات، وتستبِدُّ بها، واستمرت الحالُ على هذا، حتى نزل الأندلس حاكم من طابَعٍ جديدِ، سِلاحه الجلالُ والمهابةُ، يحمِل بينَ جَنْبَيْهِ عِزَّةَ الخُلَفاءِ الأُمويِّين، وتجري في عُروقِه دِماؤهم. قدِم إلى الأندلسِ ليحمِلَ صَوْلَجان الحُكْم في مملَكةٍ مضْطَربةٍ، مُنْحَلَّةِ الأَوَاصِرِ، وليجمَعَ في حِقبةٍ من الزمن كلَّ القبائل والعشائرِ تحتَ لواءِ أميرِ قرطبةَ... هذا الشابُّ: هو الأمير الجديد الذي جاء شارلمان لقتاله فآبَ بالخَيْبة.. هذا الشاب: هو عبد الرحمن الأُموي!!

الأندلسيُّون

وضَعَ انتصارُ شارل مارتل سنة 733م (115هـ) سَدًّا أمام غَزو المسلمين لأوربا، فلم يعودوا يفكرون في دَفْع فُتوحهم إلى الأمام، واتجهوا إلى توحيد المملكةِ التي افتَتَحوها وجَمْع أطْرافِها، وبعد أن وقعت الواقعةُ بجيش شارلمان، عاشوا في بلادهِم آمنين لا ينازِعُهم مُنازِعٌ مدةَ ثلثمائة سنة. نعم إنَّ أبناء القوط المنهزِمين تمسَّكوا باستِقلالهم في المقاطعات الجبلية الشمالية، وأخذوا من آنٍ لآن يستردُّون أجزاءً من مملكتهم القديمة، ولكن هذه الغارات، وإن ضاقت بها صُدُور العربِ، لم تكن إلى الآن خَطَرًا عليهم، لأنهم كانوا يَقْطُنون القِسمَ الأعظمَ من أسبانيا في رَخاء وبُلَهْنِية [273]، ولم يتحققْ خَطرُ المقاطعاتِ إلا في القرنِ الحادي عشَرَ.

وقَبِل الفاتِحون أولَ الأمرِ الاعترافَ باستِقلال هذهِ المقاطعاتِ، وعَدُّوا ذلك شرًّا لا بد منه، لأن انتزاعها من أيدي الإسبان كان يكلِّفهم دماء أغلى مما تستحق؛ فتركوا للمسيحيين جليقيَّة (غاليسية) [274]، وليون [275]، وقشتالة [276]، ومقاطعات غسقونية [277]، وقَنَعوا بأحسنِ قِسمٍ في أسبانيا، وأرْغَموا المسيحيِّين على التمتُّع بمفاوِز الشَّمال الموحِشة الباردة، وصخورهِ القاسيةِ الجافِيةِ، على ألَّا يَطْمحوا أو يَمُدُّوا أعينَهم إلى ما يَنْعَمُ به العربُ، من الولايات الجنوبية والشرقية الدَّفيئة الخَصِيبة.

ومنذ نهاية القرن الثامن -حينما وقفتْ حدودُ مملَكة العربِ عند غايةٍ، إلى أن زحفَ المسيحيُّون على ممالكِ الإسلامِ في القرن الحادي عَشرَ- كان الحدُّ بين المسلمين والمسيحيِّين على التقريب، عند امتدادِ شاراتِ وادي الرَّمْل [278]، التي تمتدُّ في اتجاه شماليّ شرقيٍّ من قُلمرية [279] في البرتغال إلى سَرَقُسْطَة، ويمكن أن يُعَدَّ نهرْ إبْرة حدًّا تقريبيًّا. فكان المسلمون ينعَمون بالسُّهول الخَصِيبة لأنهارِ تاجة، ووادي يانة، والوادي الكبيرِ، وهو الاسم الذي سَمَّى به العربُ هذا النَّهْر لِعِظَمِه، وكانوا يملِكون إلى جانب مُدُن الأندلسِ الشهيرةِ مزايا الثروة، ورَوَاجَ التجارة، واعتدالَ الجوِّ إلى غير ذلك مما اشتُهر به هذا القسمُ مِن عُهود الرُّومان. وهذا التقسيمُ طبيعيٌّ، فقد تميز القسمان تميزًا جغرافيًّا منذ القِدَم، لاختلافِ أجوائهما، فالشمال مُوحِش مُعرَّضٌ للرياح الهُوجِ، والأمطارِ الهاطِلة، والبردِ الشديدِ، وهو على جَوْدةِ بعض المرُوجِ والمراعي به، لا يصلُح كثيرٌ من أراضِيه للزراعةِ أما الجنوبُ، وإن كان مهدَّدًا بالرياح الحارة التي تهُبُّ من إفريقية، فمزدَهِرٌ، كثيرُ المياه، صالحٌ للزراعة. وبين القسمين مساحةٌ واسعةٌ، كان المسلمون ينتَفِعون بها على الرغم مِنْ أن مِلْكِيَّتَها كانت مَوْضِع شَكٍّ وجِدالٍ، وأبغَضَ العربُ وهم عُشَّاقُ الشمس المتألِّقة

هذه المساحةَ الباردةَ، فتركوها لقبائلِ البربر أصحابِ طارقٍ، وكان هؤلاء دائمًا موضِع زِرايةِ العربِ الخلّص الذين جَنَوا ثمراتِ الفتوح.

ملَك المسلمون ثلثي شِبه الجزيرة وسمَّوْها بالأندلس [280]، وأنشئوا بها مملَكةَ قرطبة العظيمة، التي كانت أعجوبةَ العصور الوسطى، والتي حمَلَت وحدها في الغربِ شعلة الثقافةِ والمدَنِيَّة مؤتَلِقة وهَّاجة، وقت أن كانت أوربا غارِقةً في الجَهالة البربرية، فَرِيسةً للشِّقاق والحروب.

ويجبُ ألا يجُول ببالِ أحدٍ أن العربَ عاثوا في البلاد أو خَرَّبوها بصُنوف الإرْهاق والظلم، كما فعل قُطْعان المتوحِّشِين قبلَهم، فإن الأندلسَ لم تُحْكَم في عَهْدٍ من عُهودها بسماحةٍ، وعَدْلٍ، وحكمة، كما حُكِمت في عهد العربِ الفاتحين.

وقد يسألُ المرءُ نفسَه دَهِشًا: من أين جاء لهؤلاء العرب كلُّ هذه المواهبِ الساميةِ في الإدارة والحكم؟ فقد جاءوا من صحرائهم العربية ولم تترك لهم فتوحُهم المتوالية مِن الزمن إلا قليلا، لدراسةِ فنونِ سياسة الأمم المغلُوبةِ. نعم إنَّ بعض رجال دولتهم كانوا من اليونان والإسبان، ولكنَّ هذا لا يُبْطِل العجَب، لأن هؤلاء لو تُرِكوا وحدَهم، أو عملوا في ميدان آخر بعيدٍ عن العرب، لعجَزوا عن أن يكون لهم أمثالُ هذه النتائج الباهرة. وكل ما هُيِّئ للعقول الإسبانية من القدرة الإدارية، لم يَكْفِ لجعل الحياة أيامَ دولةِ القُوط محتَملَةً هنِيئة، ولكنَّ الأمة الإسبانية على النقِيض من ذلك كانت في ظِلال حُكْمِ العرب راضيةً هانئِة كما يمكن أن يَرْضَى ويهنَأ شَعْبٌ مغلوب يحكمُه غاصب، بل إنها كانت أسعدَ حالا وأَرْخَى بالا، مما كانت عليه حين كان حُكَّامُها القوط يدينون بدينها الذي تراءوا باسمه دون حقيقته فإنَّ اختلاف الدين كان في الحق أقلَّ المصاعب التي لاقاها العرب في أول حُكمهم، وإنْ أصبحَ بعد ذلك مَثار عَنَتٍ واضطراب؛ لأن مُيول الإسبانيين للمسيحية كانت لا تقِلُّ عن مُيولهم للوثنية، فقد فَرَض عليهم قُسْطَنطين المسيحيةَ فرضًا، فبقيَ الناسُ متشَبِّثين برومانيتهم، ولم يترك الدين في نفوسِهم إلا أثرًا ضَئيلا، وهم في الواقع لم يكونوا في حاجة إلى دينٍ جديدٍ، بل كانوا في أشدِّ الحاجةِ إلى القدرةِ على أنْ يعيشوا حياتَهم في أمْنٍ ورَغَدٍ. وقد منَحهم ساداتُهم المسلمون هذين.

وفي بُدَاءة الفتح، مَرَّ بالأندلس وقتٌ قَصِيرٌ مضْطَرب، شَوَّهَتْه حوادثُ الإحراقِ والقتلِ والمصادَرة. غير أنَّ حُكَّام العربِ أسرعوا إلى وقف كلِّ ذلك، ورأت الرعيةُ بعد أن استقرت الأمور في نِصابها أنَّ حياتَها على كلِّ حالٍ لن تكون أسْوَأ مما كانت عليه من قَبلُ، ثم أخذ الناسُ بعدَ قليلٍ يشعرون بأنهم أفادوا مِن تغيُّر الحُكْم، فقد كان للإسبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقُضَاتِهم [281]، وعُيِّن لهم حُكَّامٌ من أنفسهم يُدِيرون المقاطعاتِ ويجمعون الضرائبَ ويفصِلون فيما شجَر بينهم مِن خِلافٍ، وأصبح سُكَّان المدن لا يُكَلَّفون إلا

الجزيةَ والخراج [282] -إنْ كانت لهم أرضٌ تُزْرَع- بعد أن كانوا في عهدِ القُوطِ يحمِلون وحدَهم عِبْءَ الضَّرائبِ والأموال التي تُنْفَق على الدولة، وكانت الجزيةُ مُتَدَرِّجةً على حسب منزلةِ المطالِبين بها: فكانت تبتدِئ من اثني عَشَرَ دِرهمًا إلى ثمانيةٍ وأربعين في العام، أو من نحوِ ثلاثة جنيهات إلى اثني عَشَرَ، وقد قسمت اثني عشرَ قِسطًا، يُجْنَى قِسْطٌ في كلِّ شهرٍ للتخفيفِ عن الرعيةِ، وقَصَرت الجزيةُ على المخالِفين في الدين من النَّصارى واليهود. أما ضريبةُ الأراضي التي كانت تتفاوت على حسَبِ قدْرَة إنتاجِ الأرضِ، فإنها فُرِضَت بَعْدلٍ ومُساواة على النَّصارى واليهودِ والمسلمين جميعًا، ولم تمتدَّ يدُ المسلمين في الغالب إلى أملاك المدن والأَهْلِين التي كانت لهم قَبْلَ الفَتْح، نعم إنَّ أملاكَ الكَنائسِ صُودِرَت، وكذلك الأملاكُ التي فَرَّ أصحابُها إلى جبالِ الشمال، ولكنَّ العربَ تركوا عبيدَ هذه الأراضي يعمَلون بها، على أن يُؤدُّوا إلى ساداتِهم المسلمين نِسبةً من الحاصِل تتفاوتُ بين الثُلُثِ وأربعةِ الأخماسِ، وعُومِل بعضُ المدن كماردة، وأريولة معاملةً خاصةً، وفازت مِن الفاتحين بخيرِ الشُّروط؛ فاحتفَظ السُّكَّان فيها ببضائعهم وأراضيهم، على أن تؤدِّي إلى الحاكم إتاوة في كلِّ عامٍ. ولم يكن المسيحيون على أسوأِ الفُروضِ مُلْزَمين دَفع ضرائبَ أكثرَ مما كان يَدْفَعُ جيرانُهم المسلمون، على أنهم قد ظَفِروا بحقٍّ لم يكن لهم أيام مُلوك القوط، فأصبحوا في عهد الإسلام قادرِين على نَقْلِ مِلكِيَّة أَرَاضِيهم لغيرهم. أما التَّسَامحُ الدّينيُّ فلم يدَع للإسبانيين سببًا للشكوى، فقد تركهم العرب يعبُدون كما يشاءون مِن غيرِ أن يَضْطَهدوُهم أو يُلْزِموهم اعتِناق عقيدةٍ خاصةٍ، كما كان يفعل القوط باليهود. وكانت الجزيةُ كبيرةَ الفائدةِ لِخزانةِ الدَّولة، حتى إنَّ بعضَ أمراءَ قُرْطُبة كانوا يميلون لتَثْبِيط عزائم المتحَمِّسِين من المسلمين الذين أَخَذُوا يدعون إلى الإسلام، لأن هذهِ الدعوةَ كانت تَحْرِم الدولةَ مَنْبعًا غَزيرًا من مَوارِد جِبَايَتِها.

وكان من أثَرِ هذه المعاملةِ وذلك التسامحِ، أنْ رَضِي المسيحيون بالنظامِ الجديدِ، واعترفوا في صراحةٍ أنهم يُؤْثِرون حُكْمَ العربِ على حُكمِ الإفرنج أو القُوط، حتى إنَّ القساوسة أنفسَهم لم يكونوا شديدي التألم لحكمِ العربِ كما يدلُّ على ذلك التاريخُ المنسوبُ إلى «إيزيدور» الباجي [283] الذي كتب بقرطبة سنة 754م (137هـ) فإنَّ هذا الراهِب الصالح لم يتحرَّج من تدوين تلك الصِّلَة غير الجائزة من زَواج أَرْمَلة لُذْرِيق بابن موسى بن نُصير [284]. وأَسْطَعُ الأدِلَّة على رضا المسيحيِّين عن حُكَّامهم الجُدُد، أنَّ ثورةً دينيَّة واحدةً لم تحدُث في خلال القرنِ الثامن.

أما فرحُ العبيدِ بما طَرَأَ على نِظام الحكْم من التغير فقد كان عظيمًا حقًّا، بعد أن لاقوا من ضروب العَسْف والقَسوة من القُوط والرُّومان ما تَقْشَعِرُّ له الأَبْدان، فإنَّ الرِّقَّ في رأي المسلمين الأخيارِ نظامٌ إنسانيٌّ رفيق، حتى إنَّ

النبيَّ حينما لم يجد بُدًّا من الإبقاء على هذا النِّظامِ العتيقِ الذي يعارِض مبادِئَ الإسلام، بذَل كُلَّ جُهْدٍ في تَخْفِيف وَيْلاتِه في كثيرٍ من الوصايا والأحاديث؛ فهو يقول في الأرِقَّاء: «إخوانُكم خَوَلُكم، جعلَهم اللهُ تحتَ أيدِيكم، فمن كان أخوه تحتَ يدِهِ فلْيُطْعِمْه مما يَأْكُلُ، ويُلْبِسْه مما يَلْبَس، ولا تُكَلِّفوهم ما يَغْلِبُهم، فإذا كَلَّفتُموهم فأَعِينُوهم» [285]. وعن أبي مَسْعودٍ الأنصاريِّ قال: «كنتُ أضرِبُ غلامًا لي فسَمِعْتُ مِنْ خَلفي صوتًا يقول: «اعْلَم أبا مسعود: اللهُ أقدرُ عليكَ منك عليه. فالتفتُّ، فإذا هو رسولُ الله ، فقلت: يا رسول الله، هو حُرٌّ لوَجْهِ الله.فقال: أَمَا لو لم تَفْعَل لَلَفَحَتْكَ النَّارُ» [286].

ولم يكن بين القُرَب التي يَتَقَرَّبُ بها المسلمون إلى اللهِ أَجَلُّ من إعْتاقِ العَبيدِ، وكثيرًا ما حَضَّ النبيُّ على تَحْريرهم، وقد جعَل الإسلامُ إعْتاقَهم كَفَّارة لبعض ما يُجتَرَحُ مِن الذُّنُوب.

سعِد العبيدُ بدخول العربِ، وأصبَحوا في رِقِّ المسلمين بمنزِلة صِغارِ الزُّرَّاع، فتركَهم ساداتُهم أحرارًا يزْرَعون الأرضَ كما يشاءون، على أنْ يؤدُّوا إليهم نَصِيبًا مِن الغَلَّةِ، لأنَّهم كانوا مشتَغِلين بالحروب، ولأنَّهم كانوا بطبيعتهم يَأْنَفون من أعْمال الفِلاحة، أمَّا عَبيدُ المسيحيِّين الذين ظلُّوا يائِسين من التخَلُّص مِن الرِّق طُولَ حياتِهم: فقد مُهِّد أمامَهم اليومَ طريقٌ إلى الحريَّة من أسْهَلِ الطُّرق وأهْوَنها. فليس عليهم إلا أنْ يذهَبوا إلى أقْربِ مُحتَسِبٍ أو قاضٍ، وينطِقُوا أمامه بالشهادَتَيْن، فيُصْبحِوا أحرارًا، فإنَّ الحرية تَتْبع الإسلام، فليسَ عجيبًا إذًا أن نَجِد العبيدَ الإسبانيين مُسْرِعين إلى إعلانِ دينهم الجديدِ، ليتخَلَّصوا من رِبْقَة العبودِيَّة. ولم يَبْذُل القساوسة في الماضي إلا جُهْدًا ضَئيلا لغَرْسِ المسيحية في قلوبِ هؤلاء الأرِقَّاء، فقد كان لديهم مِن العملِ والإشرافِ على ضَيْعَاتهم ثُمَّ من العِناية الدِّينِيَّة بالنُّبَلاء، ما صَرَفَهُم عن الاهتِمام بهؤلاء الجُهَلاء، ثم إنَّ الانتِقال من مَزِيجٍ من الوثنِية والمسيحِية، إلى إدْرَاك ضَعِيفٍ للإسلام، لم يكُن صَدْمةً شديدةً للعقلِ المقَلِّد. ولم يكن العبيدُ وحدَهم هم الذين تَسابقوا إلى الدينِ الجديدِ، فقد أسْلَم كثيرٌ من كِبار المُلَّاك والسَّراة، إمَّا للفِرارِ من الجِزْيَة، وإمَّا للمحافَظة على ضِيَاعِهم، وإما لأن نُفُوسَهم مالت مُخلِصةً إلى الإسلام، وأحبَّتْ ما في التوحيد من جَلال ويُسْر. وكان هؤلاء الدَّاخِلون في الإسلام أو المتَسَلِّمون [287]، سببًا لإثارة القَلاقِل في الدَّوْلة كما سيُتْلَى عليك بعدُ، فإنَّ إسلامهم وإنْ تَضَمَّن مساواتَهم بالمسلمين، لم يَصِل بهم إلى التمتُّع بحقوقِ المسلمين وميزاتِهم كاملةً، فقد حِيلَ بينهم وبين مَناصِبِ الدَّوْلة، ونظر إليهم نظرةَ اشتِباهٍ وحذَرٍ كما ينظُر إلى مَن يبيعُ نفسَه رَخيصةً يريد عرَضَ الحياة الدُّنيا. وقد زالت هذه الفروقُ في النِّهاية، ولكن بعد أنْ أحْدَثت نِزاعًا خَطِيرًا، وثَوْراتٍ متعاقبةً [288].

كان فتحُ العربِ للأندلس في جُملته نِعمةً ورَخاءً على الأندلسيين المحكُومين، لأنه أبْطَلَ ما كان يملِكُه كِبارُ النُّبلاءِ ورجالُ الكَنِيسة من الضِّيَاع الواسِعة، وحوّلها مِلْكِيَّاتٍ صغيرةً، ثم رَفعَ عِبْءَ الضَّرائب عن الطبقة الوُسْطى، واقتَصرَ منها على الجِزْيَةِ على غيرِ المسلمين، والخراج على المسلمين وسِواهُم، ثم حثَّ على تَحرِيرِ العَبِيدِ والرِّفْقِ بهم، وإصلاحِ أحْوالهم فأصبَحوا زُرَّاعًا مستقِلِّين في خِدمةِ ساداتِهم المسلمين.

وكان الفتحُ على النَّقِيضِ من ذلك شَرًّا وبلاءً على الحاكمِين، فليس هناك أبعدُ شَطَطًا من أنْ تَتَخَيَّلَ أنَّ العرب الذين انتشروا بهذه السُّرعة، فوق نصفِ العالَم المتمَدْيِن، كانوا مُتَّحِدِين على أي معنًى مَقبولٍ من معاني الاتِّحاد. فإنَّ ذلك لم يكُن صَحيحًا، وقد بذَل محمَّد جُهْدَه، وكَدَّ بِكل ما أُوتي مِن حِكْمة وحَزْمٍ وشخصيةٍ مَهِيبة عَجِيبة، ليحافِظ جُهْدَ المستَطِيع على صُورةٍ للوَحدةِ العربيةِ. لأنَّ العربَ كانوا شُعوبًا وقبائِلَ، وكان بين هذه القبائِلِ حروبٌ وتِرَاتٌ دامِيةٌ استمرت طويلا، وكان للنُّعَرةِ القَبَلِيَّة التي لم تَنْطَفِئْ شُعْلَتُها بعد الإسلام، أكبرُ سُلْطانٍ على نُفُوسِهم، ولو بَقِيت دولةُ الإسلامِ في حُدود بلادِ العربِ ولم تتجاوزْها، ما بَقي شَكٌّ في سُرعةِ انتِقاضها وزَوَالها، لِكثرةِ ما كان يَقعُ بين القبائلِ من التَّنافُس والتَّحاسُد. وقد تَبِع وفاةَ النبي خروجٌ عامٌّ مِن القبائل. والحقُّ أنَّ الإسلام لم تَثْبُتْ أركانه، ولم يُصْبِح دينَ الدُّنيا، إلا حينما سَلَّح نفسَه وأصبَح دينًا محارِبًا، فنَجا مِن الانتِكاس بتوالي انتصاراتهِ لأنَّ العربَ إذ ذاك ألْقَوا إلى حينٍ تَحاسُدَهم المدمِّرَ القاتِل جانبًا، ليتعاونوا في اقتِناص الغَنائم. على أنَّه مِن المحقَّق أنَّ تَحمُّسَهم للفتُوح كان يُؤَجِّجُه عنصرٌ قَوِيٌّ من التَّعَصُّبِ للدِّينِ، والرغبةِ في نشرِه. فقد حاربوا لأنهم يقاتِلون أعداءَ اللهِ ورسولهِ، وحارَبوا لأنَّ مَثُوبَةَ الشُّهداءِ وكُؤوسَ السعادةِ والنَّعيم، كانت تَنْتَظِر مَن يُقْتَلون في سَبِيل الله. غير أننا لا نستطيع أن نُنْكِرَ أنَّ ثروةَ القَياصِرة والأكَاسِرة، والأراضي الخِصْبَة، والمدنِ العامِرة في الممالِكِ المجاورِة - كانت عامِلا كبيرًا في تحمُّسِ المسلِمين لنشرِ الإسلام.

وحينما استقرَّ لهم المُلْكُ وهدَأتْ مَوْجَةُ الفتُوح، عادتْ إليهم الشَّحْناءُ، وتحرَّكت فيهم عَقارِبُ الحسَدِ والغَيْرة والتَّفْرِيق، التي كانت اسْتَلَّتْها جَلَبةُ الحروبِ وغنائمُ الفاتحين، فانطَلقت بعد احتِباسِها مُنذِرَةً بالشَّرِّ والدَّمارِ، فإنَّ رُوح العُنْصُرِية القَبَلِية انتَشَر في كلِّ جزء من أجزاءِ المَمْلَكة التي أخْضَعوها، وتأثَّر به الخلفاء بدِمَشْق فكان تَعيينُ الأمراء في الولايات يَتْبَعُ هذه النَّزْعَةَ القَبَلِيَّةَ، وكان اختلافُ القبائلِ وتعصُّبُها بالأندلس داعيةً لكثيرٍ مِن الفَوْضَى واضْطِراب الأمنِ والنِّظام، في أثناء الخمسين سنة الأولى مِن حُكْم العربِ، حينما كان حاكمُ إفريقية أو الخليفةُ نفسُه يُعيِّن أميرَ الأندلُس، فكان هؤلاءِ الأمراءُ يَبْقُون في مناصِبهم أو يُعْزَلُون أو يُقْتَلُون تَبَعًا لمِيْولِ بَعضِ العَشائِر والقَبائِل، الذين كانوا يُعارِضون مرةً في أنْ يكونَ الأميرُ مَدنِيًّا، ومرةً في أن

يكونَ قَيْسِيًّا، وثالثة في أنْ يكونَ يَمَنِيًّا، واستمرت هذه النَّعَرةَ تقْذِفُ سُمومَها طُولَ مُدَّةِ حكم العربِ بالأَنْدَلُس [289].

يُضَافُ إلى ذلك، أنَّ الأندلسَ كان بها إلى جانبِ العشائرِ العربيةِ المختلفةِ، حزبٌ آخرُ عظيمُ الخطَر يجبُ أن يُحْسَب له حِسابٌ، فإنَّ طارِقًا لم يتِمَّ له فتحُ الجزيرةِ إلا بجيشٍ جَمْهَرَتُه من البَرْبَرِ، لذلك أصبحَ هؤلاء عنصُرًا عظيمَ الشأنِ في الحياةِ الجديدةِ، ولم تكن أمة البربر ضعيفةً خائِرةً كالإسبان الذين اصطَبَغوا بصِبْغة الرومان، ولكنهم كانوا ممتَلِئين حياةً وعَزْمًا وإقْدَامًا. وحينما غزا العربُ بلادَهم، قاومَهَم عديدٌ من قَبائِلهم الباسِلة في مَعاقِلهم الجبَلِيَّة، وفي السُّهول الممتدَّة من مصرَ إلى المحيطِ الأَطْلَنْطيِّ، مقاومةً عنيدةً كانت أشدَّ عُنفًا من مقاومةِ الفُرس وجنودِ رومة المدرَّبين. وكانوا يُشْبِهون العربَ في كثيرٍ مِن الوجُوهِ: فكان لهم قبائلُ كما لهؤلاء، وكانت مُيولهم السياسية دِيمقراطية كالعرَبِ، غير أنَّهم كانوا يُجِلُّون الأُسَرَ الشريفةَ إِجلالا ذَهَب بخَطَرِ الديمقراطية بين قومٍ جَاهِلين، وكانت صِفاتُهم الحربيةُ عَربيةً في أكثرِ مَظاهِرِها، واستمرَّ القِتال بين هذين الفريقين من الرُّعاة المنتَجِعين سبعينَ سنةً،حتى إذا تغلَّب عليهم العربُ في النهاية كان هذا الفوزُ عن رضًا من البربرِ أكثر من أن يكون هزيمةً محققة. فسمَح البربرُ للأميرِ العربيِّ أن يجعلَ دارَ حُكْمِه قريبةً من السَّاحل، ولكنهم حَتَّموا إبقاءَ حكُومَتهم القَبَلِيَّة، للفَصل في شُؤونهم كما كانت، وطَلَبوا أن يَكُونوا إخوانًا لا خَوَلا ولا عَبِيدًا للفاتحين. واستمرَّ هذا النظامُ الأجوفُ قائمًا مدةً من الزمن، وتسابق البربَرُ إلى الإسلامِ، وتحمَّسوا له حَماسةً تَفُوقُ تَحَمُّسَ العربِ أنفسهم، وبعد قليلٍ أصبحت بلادُهم عُشًّا للمَذاهبِ الدينيَّة المبْتَدَعة [290]، التي بدّلت بالأصولِ الإسلاميةِ الفِطْرِية عناصرَ وَهْمِيَّةً مُثيرةً للعواطفِ، يَدُسُّها أصحابُ العقول البعيدةِ الخيالِ في كلِّ دينٍ، ووجَد المبتَدِعون بعد أن طُرِدوا من حَظِيرة الدِّين الحقِّ، في عُقول السُّذَّج من البربر أرْضًا خِصْبة لإنماء مذاهبهم. وقديمًا عُرِف البربرُ بسرعةِ قَبولهم لِما يُلْقَى عليهم من المذاهب الدينية، وبشِدَّةِ تأثُّرِهم بها وتحَمُّسِهم لها، ذلك التأثُّرُ الذي ذهب بهم أفواجًا إلى اعتِناق الإسلامِ، والذي مكَّن طارقًا واثني عشرَ ألفًا منهم مِن فتح الأندلس. وقد استغلَّ هذه السَّذَاجةَ في حركته السياسيَّة الدينيَّة زعيمُ المُرابِطِين [291]، الذي قدِم إلى المغرب ليبُثَّ في نُفُوس القومِ نُفوذًا أقوى من نُفوذ رؤساء قبائلهم، ويُخْضِعَهم بِسَطْوةٍ فوق سَطْوةِ حاكِمهم، ولم يكن يحتاجُ هذا الزعيمُ إلى أكثرَ من كراماتٍ زائفةٍ، ليسُوق قَطِيعًا من المصَدِّقين الدَّهِشِين إلى حَظِيرته.

وتحقَّق أحدُ حكَّام العربِ من رَوَاجِ هذا الدَّجَلِ بين قبائل البربر، حين رآهم يخضَعون لامرأةٍ تدَّعِي الولاية [292]، وتؤيِّد دَعْوَاها بألاعيبَ من الشَّعْوَذَة، فأخذ يُدَرِّبُ نفسَه على مثل هذه الألاعيبِ حتى بَرَع في أساليبِ الحُوَاة، فنال من

طاعة القومِ واستِسلامِهم فوقَ ما كان يَبتغِي، ومثلُ هؤلاء يتَّبِعون كلّ صائح، ويستَمِعون لكل داعٍ، ويُسْرِعون خِفافًا إلى الثَّوْرات العنِيفة التي يُشْعِلُها زعيمُهم بكلمةٍ واحدةٍ. وكان البربرُ سببًا لكل التطوُّراتِ التي حدثت في شمال إفريقية، فإنهم أقاموا دولةَ الفاطميين [293]، ثم لَحِقوا بجيُوشِ المُرابِطين فسارتْ منتصرةَ الأعلام حتى مَلَكَتْ بلادَ البربرِ وأسبانيا، ثم أسْقطوا المرابطين وأحَلُّوا محلَّهم الموحِّدين [294].

وشرعَ البربرُ في الأندلس منذ حُكْمِ العربِ يناصِبون الحكامَ العدَاءَ،حَدَث أنَّ أحدَ هؤلاءِ بالَغَ في إرْضاء مُيوله بالتمتُّع والإغراقِ في النَّعيم، مُرْهِقًا في سَبيل ذلك رعيته، فأغضَبَ ذلك العلماءَ والفُقَهاءَ، فأثاروا البربرَ عليه، فما كانت إلا لحظةٌ حتى دُهِي العربُ بالأندلس بهزيمةٍ نَكْراءَ، وأقبلَ من الشام ثلاثون ألفًا من الجنود لاستعادَة الولايات التي احتلَّها البربرُ، فحِيل بين معظمِ هؤلاء ومن انضَمَّ إليهم من العَرب بإفريقية والذَّهابِ إلى الأندلسِ، وأعمَل فيهم البربرُ السيفَ ذبحًا وتَقْتِيلا، وفرَّتْ فُلُولُهم إلى سَبْتة بأرْواحِهم، فكان يُهدِّدُهم في كل لحظةٍ عَدُوَّانِ من الجُوعِ والقَتْلِ.

وتأثَّر بربرُ الأندلس بوَثِيقِ اتصالهم بإخوانِهم في الساحِلِ الإفريقي بهذه الثورةِ، التي قامت بإفريقية سنة 741م (124هـ) وكان يتغَلْغَلُ في نُفوسهم حَسدٌ قديمٌ للعرب، لأنهم نالوا نصيبَ الأَسَد من غنَائم أسبانيا التي لم تَدْنُ قطوفها إلا بِقِسِيِّ البربر ورِماحِهم. ورَأَوا أنَّ العربَ الذين لم يدخلوا البلادَ إلا وقتَ اجتِناءِ ثمراتِ الفتحِ اختَصُّوا أنفُسَهم بكل الولاياتِ الخِصبة الباسمة من شبه الجزيرة، وتركوا لهم أبغضَ الأجزاءِ إلى النَّفْسِ: من سُهول استرامادور العُفْر، وجبال ليون الثلجية، فأقاموا بها مُرْغَمِين في جوٍّ قارِسٍ لا يحتمِلُه مَن عاش في حَرِّ إفريقية، ثم إنهم رأوا أنفسَهم في وَضعٍ يجعلُهم دائمًا حاميةَ دِفاع بين حُلفائِهم العرب ونَصارى الشمال.

تأثَّر البربرُ بكلِّ هذا. وقام «مونوسا» البربريُّ [295] -أحدُ قوَّادِ طارقٍ الذي تزوَّج بنت يوديس دوق أقيتانية- فأشعل نارَ الثورةِ لما أصاب إخوانه بإفريقية من الظُّلْم، وبعد أن فاز بربرُ إفريقيةَ بمطالبهم، هبَّت ثورةٌ عامَّة في الولايات الشمالية بأسبانيا، وحمَل السلاحَ بربرُ غاليسية، وماردة، وقورية، وتقدموا للهجوم على طُلَيْطلة، وقرطبة، والجزيرة الخضراء، وصمَّموا على أن يُبْحِروا منها إلى إفريقية للاتِّصال بأبناء وطنِهم.

وكان الموقفُ شديدَ الخطرِ عَصِيبًا، وجدَ فيه عبدُ الملك بن قَطَن الفِهريُّ [296] أميرَ الأندلس نفسه أمام مشكلةٍ تكاد تَسْتَعْصِي على الحلِّ، لأنه كان قد أبَى أن يمدَّ يَدَي المساعدة لجنود الشام بسَبْتة، فأصبح الآن أمام أمرين،

[أحلاهما] [297] مر وخيرهما شر: إمَّا أن يخضَع للبربرِ العُصَاةِ، وإمَّا أن يستَجْدِي معونةَ جنودِ الشامِ، الذين رَفض معاونتَهم، والذين قد يكونون إذا أذِن لهم بنزُول الأندلس، أشدَّ بَلاءً وشَرًّا من هؤلاء الذين جاءوا لطردِهم. ولكنه صمَّم آخرَ الأمر على إرسالِ سفُنٍ لنقل جنود الشامِ، بعد أن أخَذ عليهم عَهْدًا أن يعودوا من حيثُ أتوا بعدَ التغلُّبِ على البربر، وبعد أن قويَ جيشُ العربِ بهذا المدَدِ، كَرَّ على البربر، فاستَأْصَل شَأْفَتَهم، ثم تَعَقَّبهم في كلِّ مكانٍ وبيْنَ معاقِلِهم الجبَلِيَّة، كما يتعقَّبُ الصائدُ الوحوشَ الضارِيَة، حتى شَفَى نفسَه بنيْلِ الثَّأْرِ منهم.

غير أنَّ الخطَر الذي أرادَ عبدُ الملك أن يتوقَّاه ظهَر وأبْدَى ناجِذَيه، فقد أَبَى جنودُ الشام أن يستَبدِلوا بالمرُوجِ الخُضْرِ والحدائقِ الفِيْحِ بالأندلس، صحْراءَ إفريقيَّةَ القاحِلة، حيث تَنُوشُهم رِماحُ البربر المتغلِّبين، فتحَدَّوا عبدَ الملك وقتلُوه، واختاروا للأندلُس أميرًا منهم [298]، وكان من نتائج ذلك: أنْ شبَّ بين العربِ القدماءِ والجنودِ الدَّاخلين صِراعٌ عَنِيفٌ طويلُ المدَى، كثُرت فيه المذابحُ، وعَمَّ الدمارُ، ولم يَنْتَهِ هذا الصِّراعُ إلا بعد أن أرسَلَ الخليفةُ بدمشقَ أميرًا [299] قَدِيرًا فرق بين القبائل المتطاحِنة بإعطاءِ كلٍّ مِن الفريقَيْنِ مدنًا تبعُد عن مُدُنِ الآخر، ثم بِنَفْيِ أكثر زعماء الفريقين عنادًا وشغبًا: فنزل المصريون الذين كانوا بجُنْدِ الشَّام مُرْسية وسموها مِصر، ونزل الفِلَسْطِينِيُّون شُذُونة، وحَلَّ أهلُ الأُرْدُن بمالَقة، وأقام الدِّمَشْقِيُّون بغَرْناطة، واستقَرَّ أهلُ قِنَّسْرين بجَيَّان. وبهذا الوضع زال سببٌ من أسبابِ النزاع الحزبي بالأندلس، ولكنَّ الرُّوحَ القبَلِية لم تضعُف سيطَرَتُها بعد، وبقِيَت الثورات تتغلَّب على الحكومات، وتستبِدُّ بها، واستمرت الحالُ على هذا، حتى نزل الأندلس حاكم من طابَعٍ جديدِ، سِلاحه الجلالُ والمهابةُ، يحمِل بينَ جَنْبَيْهِ عِزَّةَ الخُلَفاءِ الأُمويِّين، وتجري في عُروقِه دِماؤهم. قدِم إلى الأندلسِ ليحمِلَ صَوْلَجان الحُكْمِ في مملَكةٍ مضْطَربةٍ، مُنْحَلَّةِ الأَوَاصِرِ، وليجمَعَ في حِقبةٍ من الزمن كلَّ القبائل والعشائرِ تحتَ لواءِ أميرِ قرطبةَ... هذا الشابُّ: هو الأمير الجديد الذي جاء شارلمان لقتاله فآبَ بالخَيْبة.. هذا الشاب: هو عبد الرحمن الأُموي!!

الأندلسيُّون

وضَعَ انتصارُ شارل مارتل سنة 733م (115هـ) سَدًّا أمام غَزو المسلمين لأوربا، فلم يعودوا يفكرون في دَفْع فُتوحهم إلى الأمام، واتجهوا إلى توحيد المملكةِ التي افتَتَحوها وجَمْع أطرافِها، وبعد أن وقعت الواقعةُ بجيش شارلمان، عاشوا في بلادهِم آمنين لا ينازِعُهم مُنازِعٌ مدةَ ثلثمائة سنة. نعم إنَّ أبناء القوط المنهزِمين تمسَّكوا باستِقلالهم في المقاطعات الجبلية الشمالية، وأخذوا من آنٍ لآنَ يستردُّون أجزاءً من مملكتهم القديمة، ولكن هذه الغارات، وإن ضاقت بها صُدُور العربِ، لم تكن إلى الآن خَطَرًا عليهم، لأنهم كانوا يَقْطُنون القِسمَ الأعظمَ من أسبانيا في رَخاء وبُلَهْنِية [300]، ولم يتحققْ خَطرُ المقاطعاتِ إلا في القرنِ الحادي عشَرَ.

وقَبِل الفاتِحون أولَ الأمرِ الاعترافَ باستِقلال هذهِ المقاطعاتِ، وعَدُّوا ذلك شرًّا لا بد منه، لأن انتزاعها من أيدي الإسبان كان يكلِّفهم دماء أغلى مما تستحق؛ فتركوا للمسيحيين جليقيَّة (غاليسية) [301]، وليون [302]، وقشتالة [303]، ومقاطعات غسقونية [304]، وقَنَعوا بأحسنِ قِسمٍ في أسبانيا، وأرْغَموا المسيحيِّين على التمتُّع بمفاوِز الشَّمال الموحِشة الباردة، وصخورِه القاسيةِ الجافِيةِ، على ألَّا يَطْمحوا أو يَمُدُّوا أعينَهم إلى ما يَنْعَمُ به العربُ، من الولايات الجنوبية والشرقية الدَّفيئة الخَصِيبة.

ومنذ نهاية القرن الثامن -حينما وقفتْ حدودُ مملَكة العربِ عند غايةٍ، إلى أن زحفَ المسيحيُّون على ممالكِ الإسلامِ في القرن الحادي عَشرَ- كان الحدُّ بين المسلمين والمسيحيِّين على التقريب، عند امتدادِ شاراتِ وادي الرَّمْل [305]، التي تمتدُّ في اتجاه شماليّ شرقيٍّ من قُلمرية [306] في البرتغال إلى سَرَقُسْطَة، ويمكن أن يُعَدَّ نهرْ إِبْرة حدًّا تقريبيًّا. فكان المسلمون ينعَمون بالسُّهول الخَصِيبة لأنهارِ تاجة، ووادي يانة، والوادي الكبيرِ، وهو الاسم الذي سَمَّى به العربُ هذا النَّهْر لِعِظَمِه، وكانوا يملِكون إلى جانب مُدُن الأندلسِ الشهيرةِ مزايا الثروة، ورَوَاجَ التجارة، واعتدالَ الجوِّ إلى غير ذلك مما اشتُهر به هذا القسمُ مِن عُهود الرُّومان. وهذا التقسيمُ طبيعيٌّ، فقد تميز القسمان تميزًا جغرافيًّا منذ القِدَم، لاختلافِ أجوائهما، فالشمال مُوحِش مُعرَّضٌ للرياح الهُوجِ، والأمطارِ الهاطِلة، والبردِ الشديدِ، وهو على جَوْدةِ بعض المرُوجِ والمراعي به، لا يصلُح كثيرٌ من أراضِيه للزراعةِ أما الجنوبُ، وإن كان مهدَّدًا بالرياح الحارة التي تهُبُّ من إفريقية، فمزدَهِرٌ، كثيرُ المياه، صالحٌ للزراعة. وبين القسمين مساحةٌ واسعةٌ، كان المسلمون ينتَفِعون بها على الرغم مِنْ أن مِلْكِيَّتَها كانت مَوْضِع شَكٍّ وجِدالٍ، وأبغَضَ العربُ وهم عُشَّاقُ الشمس المتألِّقة

هذه المساحةَ الباردةَ، فتركوها لقبائلِ البربر أصحابِ طارقٍ، وكان هؤلاء دائمًا موضِع زِرايةِ العربِ الخلّص الذين جَنَوا ثمراتِ الفتوح.

ملَك المسلمون ثلثي شِبه الجزيرة وسمَّوْها بالأندلس [307]، وأنشئوا بها مملَكةَ قرطبة العظيمة، التي كانت أعجوبةَ العصور الوسطى، والتي حمَلَت وحدها في الغربِ شعلة الثقافةِ والمدَنِيَّة مؤتَلِقة وهَّاجة، وقت أن كانت أوربا غارِقةً في الجَهالة البربرية، فَرِيسةً للشِّقاق والحروب.

ويجبُ ألا يجُول ببالِ أحدٍ أن العربَ عاثوا في البلاد أو خَرَّبوها بصُنوف الإرْهاق والظلم، كما فعل قُطْعان المتوحِّشِين قبلَهم، فإن الأندلسَ لم تُحْكَم في عَهْدٍ من عُهودها بسماحةٍ، وعَدْلٍ، وحكمة، كما حُكِمت في عهد العربِ الفاتحين.

وقد يسألُ المرءُ نفسَه دَهِشًا: من أين جاء لهؤلاء العرب كلُّ هذه المواهبِ الساميةِ في الإدارة والحكم؟ فقد جاءوا من صحرائهم العربية ولم تترك لهم فتوحُهم المتوالية مِن الزمن إلا قليلا، لدراسةِ فنونِ سياسة الأمم المغلُوبةِ. نعم إنَّ بعض رجال دولتهم كانوا من اليونان والإسبان، ولكنَّ هذا لا يُبْطِل العجَب، لأن هؤلاء لو تُرِكوا وحدَهم، أو عملوا في ميدان آخر بعيدٍ عن العرب، لعجَزوا عن أن يكون لهم أمثالُ هذه النتائج الباهرة. وكل ما هُيِّئ للعقول الإسبانية من القدرة الإدارية، لم يَكْفِ لجعل الحياة أيامَ دولةِ القُوطِ محتَملَةً هنِيئة، ولكنَّ الأمة الإسبانية على النقِيض من ذلك كانت في ظِلال حُكْمِ العرب راضيةً هانئِة كما يمكن أن يَرْضَى ويهنَأ شَعْبٌ مغلوب يحكمُه غاصب، بل إنها كانت أسعدَ حالا وأرْخَى بالا، مما كانت عليه حين كان حُكَّامُها القوط يدينون بدينها الذي تراءوا باسمه دون حقيقته فإنَّ اختلاف الدين كان في الحق أقلَّ المصاعب التي لاقاها العرب في أول حُكمهم، وإنْ أصبحَ بعد ذلك مَثار عَنَتٍ واضطراب؛ لأن مُيول الإسبانيين للمسيحية كانت لا تقِلُّ عن مُيولهم للوثنية، فقد فَرَض عليهم قُسْطَنطين المسيحيةَ فرضًا، فبقيَ الناسُ متشَبِّثين برومانيتهم، ولم يترك الدين في نفوسِهم إلا أثرًا ضَئيلا، وهم في الواقع لم يكونوا في حاجة إلى دينٍ جديدٍ، بل كانوا في أشدِّ الحاجةِ إلى القدرةِ على أنْ يعيشوا حياتَهم في أمْنٍ ورَغَدٍ. وقد منَحهم ساداتُهم المسلمون هذين.

وفي بُدَاءة الفتح، مَرَّ بالأندلس وقتٌ قَصِيرٌ مضْطَرب، شَوَّهَتْه حوادثُ الإحراقِ والقتلِ والمصادَرة. غير أنَّ حُكَّام العربِ أسرعوا إلى وقف كلِّ ذلك، ورأت الرعيةُ بعد أن استقرت الأمور في نِصابها أنَّ حياتَها على كلِّ حالٍ لن تكون أسْوَأ مما كانت عليه من قَبلُ، ثم أخذ الناسُ بعدَ قليلٍ يشعرون بأنهم أفادوا مِن تغيُّر الحُكْم، فقد كان للإسبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقُضَاتِهم [308]، وعُيِّن لهم حُكَّامٌ من أنفسهم يُدِيرون المقاطعاتِ ويجمعون الضرائبَ ويفصِلون فيما شجَر بينهم مِن خِلافٍ، وأصبح سُكَّان المدن لا يُكَلَّفون إلا

الجزيةَ والخراج [309] -إنْ كانت لهم أرضٌ تُزْرَع- بعد أن كانوا في عهدِ القُوطِ يحمِلون وحدَهم عِبْءَ الضَّرائبِ والأموال التي تُنْفَق على الدولة، وكانت الجزيةُ مُتَدَرِّجةً على حسب منزلةِ المطالبِين بها: فكانت تبتدِئ من اثني عَشَرَ دِرهمًا إلى ثمانيةٍ وأربعين في العام، أو من نحوِ ثلاثة جنيهات إلى اثني عَشَرَ، وقد قسمت اثني عشرَ قِسطًا، يُجْنَى قِسْطٌ في كلِّ شهرٍ للتخفيفِ عن الرعيةِ، وقَصَرت الجزيةُ على المخالفِين في الدين من النَّصارى واليهود. أما ضريبةُ الأراضي التي كانت تتفاوت على حسَبِ قدْرَة إنتاجِ الأرضِ، فإنها فُرِضَت بَعْدلٍ ومُساواة على النَّصارى واليهودِ والمسلمين جميعًا، ولم تمتدَّ يدُ المسلمين في الغالب إلى أملاك المدن والأَهْلِين التي كانت لهم قَبْلَ الفَتْح، نعم إنَّ أملاكَ الكَنائسِ صُودِرَت، وكذلك الأملاكُ التي فَرَّ أصحابُها إلى جبالِ الشمال، ولكنَّ العربَ تركوا عبيدَ هذه الأراضي يعمَلون بها، على أن يُؤدُّوا إلى ساداتِهم المسلمين نِسبةً من الحاصِل تتفاوتُ بين الثُلُثِ وأربعةِ الأخماسِ، وعُومِل بعضُ المدن كماردة، وأريولة معاملةً خاصةً، وفازت مِن الفاتحين بخيرِ الشُّروط؛ فاحتفَظ السُّكَّان فيها ببضائعهم وأراضيهم، على أن تؤدِّي إلى الحاكم إتاوة في كلِّ عامٍ. ولم يكن المسيحيون على أسوإِ الفُروضِ مُلْزَمين دَفع ضرائبَ أكثرَ مما كان يَدْفَعُ جيرانُهم المسلمون، على أنهم قد ظَفِروا بحقٍّ لم يكن لهم أيام مُلوك القوط، فأصبحوا في عهد الإسلام قادرِين على نَقْلِ مِلكِيَّة أَرَاضِيهم لغيرهم. أما التَّسَامحُ الدّينيُّ فلم يدَع للإسبانيين سببًا للشكوى، فقد تركهم العرب يعبُدون كما يشاءون مِن غيرِ أن يَضْطَهِدوُهم أو يُلْزِموهم اعتِناق عقيدةٍ خاصةٍ، كما كان يفعل القوط باليهود. وكانت الجزيةُ كبيرةَ الفائدةِ لِخزانةِ الدَّولة، حتى إنَّ بعضَ أمراءَ قُرْطُبة كانوا يميلون لتَثْبِيط عزائم المتحَمِّسِين من المسلمين الذين أَخَذُوا يدعون إلى الإسلام، لأن هذهِ الدعوةَ كانت تَحْرِم الدولةَ مَنْبعًا غَزيرًا من مَوارِد جِبَايَتِها.

وكان من أثَرِ هذه المعاملةِ وذلك التسامح، أنْ رَضِي المسيحيون بالنظامِ الجديدِ، واعترفوا في صراحةٍ أنهم يُؤْثِرون حُكْمَ العربِ على حُكمِ الإفرنج أو القُوط، حتى إنَّ القساوسة أنفسَهم لم يكونوا شديدي التألم لحكمِ العربِ كما يدلُّ على ذلك التاريخُ المنسوبُ إلى «إيزيدور» الباجي [310] الذي كتب بقرطبة سنة 754م (137هـ) فإنَّ هذا الراهِب الصالح لم يتحرَّج من تدوين تلك الصِّلَة غير الجائزة من زَواج أَرْمَلة لُذْرِيق بابن موسى بن نُصير [311]. وأَسْطَعُ الأدِلَّة على رضا المسيحيِّين عن حُكَّامهم الجُدُد، أنَّ ثورةً دينيَّة واحدةً لم تحدُث في خلال القرنِ الثامن.

أما فرحُ العبيدِ بما طَرَأَ على نِظام الحكْم من التغير فقد كان عظيمًا حقًّا، بعد أن لاقوا من ضروب العَسْف والقَسوة من القُوط والرُّومان ما تَقْشَعِرُّ له الأَبْدان، فإنَّ الرِّقَّ في رأي المسلمين الأخيارِ نظامٌ إنسانيٌّ رفيق، حتى إنَّ

النبيَّ   حينما لم يجد بُدًّا من الإبقاء على هذا النِّظامِ العتيقِ الذي يعارِض مبادِئَ الإسلام، بذَل كُلَّ جُهْدٍ في تَخْفِيف وَيْلاتِه في كثيرٍ من الوصايا والأحاديث؛ فهو يقول في الأرِقَّاء: «إخوانُكم خَوَلُكم، جعلَهم اللهُ تحتَ أيدِيكم، فمن كان أخوه تحتَ يدِهِ فلْيُطْعِمْه مما يَأْكُلُ، ويُلْبِسْه مما يَلْبَس، ولا تُكَلِّفوهم ما يَغْلِبُهم، فإذا كَلَّفتُموهم فأَعِينُوهم» [312]. وعن أبي مَسْعودٍ الأنصاريِّ قال: «كنتُ أضرِبُ غلامًا لي فسَمِعْتُ مِنْ خَلفي صوتًا يقول: «اعْلَم أبا مسعود: اللهُ أقدرُ عليكَ منك عليه. فالتفتُّ، فإذا هو رسولُ الله ، فقلت: يا رسول الله، هو حُرٌّ لوَجْهِ الله.فقال: أَمَا لو لم تَفْعَل لَلَفَحَتْكَ النَّارُ» [313].

ولم يكن بين القُرَب التي يَتَقَرَّبُ بها المسلمون إلى اللهِ أَجَلُّ من إعْتاقِ العَبيدِ، وكثيرًا ما حَضَّ النبيُّ على تَحْريرهم، وقد جعَل الإسلامُ إعْتاقَهم كَفَّارة لبعض ما يُجتَرَحُ مِن الذُّنُوب.

سعِد العبيدُ بدخول العربِ، وأصبَحوا في رِقِّ المسلمين بمنزِلة صِغارِ الزُّرَّاع، فتركَهم ساداتُهم أحرارًا يزْرَعون الأرضَ كما يشاءون، على أنْ يؤدُّوا إليهم نَصِيبًا مِن الغَلَّةِ، لأنَّهم كانوا مشتَغِلين بالحروب، ولأنَّهم كانوا بطبيعتهم يَأْنَفون من أَعْمال الفِلاحة، أمَّا عَبيدُ المسيحيِّين الذين ظلُّوا يائِسين من التخَلُّص مِن الرِّق طُولَ حياتِهم: فقد مُهِّد أمامَهم اليومَ طريقٌ إلى الحريَّة من أسْهَلِ الطُّرق وأهْوَنها. فليس عليهم إلا أنْ يذهَبوا إلى أقْربِ مُحتَسِب أو قاضٍ، وينطِقُوا أمامه بالشهادَتَيْن، فيُصْبحِوا أحرارًا، فإنَّ الحرية تَتْبع الإسلام، فليس عجيبًا إذًا أن نَجِد العبيدَ الإسبانيين مُسْرِعين إلى إعلانِ دينهم الجديدِ، ليتخَلَّصوا من رِبْقَة العبودِيَّة. ولم يَبْذُل القساوسة في الماضي إلاَ جُهْدًا ضَئيلا لغَرْسِ المسيحية في قلوبِ هؤلاء الأرِقَّاء، فقد كان لديهم مِن العملِ والإشرافِ على ضَيْعَاتهم ثُمَّ من العِناية الدِّينِيَّة بالنُّبَلاء، ما صَرَفَهُم عن الاهتِمام بهؤلاء الجُهَلاء، ثم إنَّ الانتِقال من مَزِيجٍ من الوثنية والمسيحِية، إلى إدْرَاك ضَعِيفٍ للإسلام، لم يكُن صَدْمةً شديدةً للعقلِ المقَلِّد. ولم يكن العبيدُ وحدَهم هم الذين تَسابقوا إلى الدينِ الجديدِ، فقد أسْلَم كثيرٌ من كِبار المُلَّاك والسَّراة، إمَّا للفِرارِ من الجِزْيَة، وإمَّا للمحافَظة على ضِيَاعِهم، وإما لأن نُفُوسَهم مالت مُخلِصةً إلى الإسلام، وأحبَّتْ ما في التوحيد من جَلال ويُسْر. وكان هؤلاء الدَّاخِلون في الإسلام أو المتَسَلِّمون [314]، سببًا لإثارة القَلاقِل في الدَّوْلة كما سيُتْلَى عليك بعدُ، فإنَّ إسلامهم وإنْ تَضَمَّن مساواتَهم بالمسلمين، لم يَصِل بهم إلى التمتُّع بحقوقِ المسلمين وميزاتِهم كاملةً، فقد حِيلَ بينهم وبين مَناصِبِ الدَّوْلة، ونظر إليهم نظرةَ اشتِباهٍ وحذَرٍ كما ينظُر إلى مَن يبيعُ نفسَه رَخيصةً يريد عرَضَ الحياة الدُّنيا. وقد زالت هذه الفروقُ في النِّهاية، ولكن بعد أَنْ أَحْدَثت نِزاعًا خَطِيرًا، وثَوْراتٍ متعاقبةً [315].

كان فتحُ العربِ للأندلس في جُملته نِعمةً ورَخاءً على الأندلسيين المحكُومين، لأنه أَبْطَلَ ما كان يملِكُه كِبارُ النُّبلاءِ ورجالُ الكَنِيسة من الضِّيَاع الواسِعة، وحوّلها مِلْكِيَّاتٍ صغيرةً، ثم رَفعَ عِبْءَ الضَّرائب عن الطبقة الوُسْطى، واقتَصرَ منها على الجِزْيَةِ على غيرِ المسلمين، والخراج على المسلمين وسِواهُم، ثم حثَّ على تَحرِيرِ العَبِيدِ والرِّفْقِ بهم، وإصلاحِ أحْوالهم فأصبَحوا زُرَّاعًا مستقِلِّين في خِدمةِ ساداتِهم المسلمين.

وكان الفتحُ على النَّقِيضِ من ذلك شَرًّا وبلاءً على الحاكمِين، فليس هناك أبعدُ شَطَطًا من أنْ تَتَخَيَّلَ أَنَّ العرب الذين انتشروا بهذه السُّرعة، فوق نصفِ العالَم المتمَدْيِن، كانوا مُتَّحِدِين على أي معنًى مَقبولٍ من معاني الاتِّحاد. فإنَّ ذلك لم يكُن صَحيحًا، وقد بذَل محمَّد جُهْدَه، وكَدَّ بِكل ما أُوتي مِن حِكْمة وحَزْمٍ وشخصيةٍ مَهِيبة عَجِيبة، ليحافِظ جُهْدَ المستَطِيع على صُورةٍ للوَحدةِ العربيةِ. لأنَّ العربَ كانوا شُعوبًا وقبائِلَ، وكان بين هذه القبائلِ حروبٌ وتِرَاتٌ دامِيةٌ استمرت طويلا، وكان للنُّعَرةِ القَبَلِيَّة التي لم تَنْطَفِئْ شُعْلَتُها بعد الإسلام، أكبرُ سُلْطانٍ على نُفُوسِهم، ولو بَقِيت دولةُ الإسلامِ في حُدود بلادِ العربِ ولم تتجاوزْها، ما بَقي شَكٌّ في سُرعةِ انتِقاضها وزَوَالها، لِكثرةِ ما كان يَقعُ بين القبائلِ من التَّنافُس والتَّحاسُد. وقد تَبِع وفاةَ النبي خروجٌ عامٌّ من القبائل. والحقُّ أنَّ الإسلام لم تَثْبُتْ أركانه، ولم يُصْبِح دينَ الدُّنيا، إلا حينما سَلَّح نفسَه وأصبَح دينًا محارِبًا، فنَجا مِن الانتِكاس بتوالي انتصاراتِهِ لأنَّ العربَ إذ ذاك ألْقَوا إلى حينٍ تَحاسُدَهم المدمِّرَ القاتِل جانبًا، ليتعاونوا في اقتِناص الغَنائم. على أنَّه مِن المحقَّق أنَّ تَحمُّسَهم للفتُوح كان يُؤَجِّجُه عنصرٌ قَوِيٌّ من التَّعَصُّبِ للدِّينِ، والرغبةِ في نشرِه. فقد حاربوا لأنهم يقاتِلون أعداءَ اللهِ ورسولِهِ، وحارَبوا لأنَّ مَثُوبَةَ الشُّهداءِ وكُؤوسَ السعادةِ والنَّعيم، كانت تَنْتَظِر مَن يُقْتَلون في سَبِيل الله. غير أننا لا نستطيع أن نُنْكِرَ أنَّ ثروةَ القَياصِرة والأكَاسِرة، والأراضي الخِصْبَة، والمدنِ العامِرة في الممالِكِ المجاورِة - كانت عامِلا كبيرًا في تحمُّسِ المسلِمين لنشرِ الإسلام.

وحينما استقرَّ لهم الملْكُ وهدَأتْ مَوْجَةُ الفتُوح، عادتْ إليهم الشَّحْناءُ، وتحرَّكت فيهم عَقارِبُ الحسَدِ والغَيْرة والتَّفْرِيق، التي كانت اسْتَلَّتْها جَلَبةُ الحروبِ وغنائمُ الفاتحين، فانطلقت بعد احتِباسِها مُنذِرَةً بالشَّرِّ والدَّمارِ، فإنَّ رُوح العُنْصُرِية القَبَلِية انتَشَر في كلِّ جزء من أجزاءِ المملَكة التي أخْضَعوها، وتأثَّر به الخلفاء بدِمَشْق فكان تَعيينُ الأمراء في الولايات يَتْبَعُ هذه النَّزْعَةَ القَبَلِيَّةَ، وكان اختلافُ القبائلِ وتعصُّبُها بالأندلس داعيةً لكثيرٍ مِن الفَوْضَى واضْطِراب الأمنِ والنِّظام، في أثناء الخمسين سنة الأولى مِن حُكْم العربِ، حينما كان حاكمُ إفريقية أو الخليفةُ نفسُه يُعيِّن أميرَ الأندلُس، فكان هؤلاءِ الأمراءُ يَبْقُون في مناصِبهم أو يُعْزَلُون أو يُقْتَلُون تَبَعًا لميْولِ بَعضِ العَشائِر والقَبائِل، الذين كانوا يُعارِضون مرةً في أنْ يكونَ الأميرُ مَدنِيًّا، ومرةً في أن

يكونَ قَيْسِيًّا، وثالثة في أنْ يكونَ يَمَنِيًّا، واستمرت هذه النَّعَرةَ تقْذِفُ سُمومَها طُولَ مُدَّةِ حكم العربِ بالأَنْدَلُس [316].

يُضَافُ إلى ذلك، أنَّ الأندلسَ كان بها إلى جانبِ العشائرِ العربيةِ المختلفةِ، حزبٌ آخرُ عظيمُ الخطَرِ يجبُ أن يُحْسَب له حِسابٌ، فإنَّ طارِقًا لم يتِمَّ له فتحُ الجزيرةِ إلا بجيشٍ جَمْهَرَتُه من البَرْبَرِ، لذلك أصبحَ هؤلاء عنصُرًا عظيمَ الشأنِ في الحياةِ الجديدةِ، ولم تكن أمة البربر ضعيفةً خائِرةً كالإسبان الذين اصطَبَغوا بصِبْغة الرومان، ولكنهم كانوا ممتَلِئين حياةً وعَزْمًا وإقْدَامًا. وحينما غزا العربُ بلادَهم، قاومَهَم عديدٌ من قَبائِلهم الباسِلة في مَعاقِلهم الجبَلِيَّة، وفي السُّهول الممتدَّة من مصرَ إلى المحيطِ الأَطْلَنْطيِّ، مقاومةً عنيدةً كانت أشدَّ عُنفًا من مقاومةِ الفُرس وجنودِ رومة المدرَّبين. وكانوا يُشْبِهون العربَ في كثيرٍ مِن الوجُوهِ: فكان لهم قبائلُ كما لهؤلاء، وكانت مُيولهم السياسية دِيمقراطية كالعرَبِ، غير أنَّهم كانوا يُجِلُّون الأُسَرَ الشريفةَ إجلالا ذَهَب بخَطَرِ الديمقراطية بين قومٍ جَاهِلين، وكانت صِفاتُهم الحربيةُ عَربيةً في أكثرِ مَظاهِرِها، واستمرَّ القِتَال بين هذين الفريقين من الرُّعاة المنتَجعِين سبعينَ سنةً،حتى إذا تغلَّب عليهم العربُ في النهاية كان هذا الفوزُ عن رضًا من البربرِ أكثر من أن يكون هزيمةً محققة. فسمَح البربرُ للأميرِ العربيِّ أن يجعلَ دارَ حُكْمِه قريبةً من السَّاحل، ولكنهم حَتَّموا إبقاءَ حكُومَتهم القَبَلِيَّة، للفَصل في شُؤونهم كما كانت، وطَلَبوا أن يَكُونوا إخوانًا لا خَوَلا ولا عَبِيدًا للفاتحين. واستمرَّ هذا النظامُ الأجوفُ قائمًا مدةً من الزمن، وتسابق البربَرُ إلى الإسلامِ، وتحمَّسوا له حَماسةً تَفُوقُ تَحَمُّسَ العربِ أنفسهم، وبعد قليلٍ أصبحت بلادُهم عُشًّا للمَذاهِبِ الدينيَّة المبْتَدَعة [317]، التي بدّلت بالأصولِ الإسلاميةِ الفِطْرِية عناصرَ وَهْمِيَّةً مُثيرةً للعواطفِ، يَدُسُّها أصحابُ العقول البعيدةِ الخيالِ في كلِّ دين، ووجَد المبتَدِعون بعد أن طُرِدوا من حَظِيرة الدِّين الحقِّ، في عُقول السُّذَّج من البربر أرْضًا خِصْبة لإنماء مذاهبهم. وقديمًا عُرِف البربرُ بسرعةِ قَبولهم لِما يُلْقَى عليهم من المذاهب الدينية، وبشِدَّةِ تأثُّرِهم بها وتحَمُّسِهم لها، ذلك التأثُّرُ الذي ذهب بهم أفواجًا إلى اعتِناق الإسلامِ، والذي مكَّن طارقًا واثني عشرَ ألفًا منهم مِن فتح الأندلس. وقد استغلَّ هذه السَّذَاجةَ في حركته السياسيَّة الدينيَّة زعيمُ المُرابِطِين [318]، الذي قدِم إلى المغرب ليبُثَّ في نُفُوسِ القومِ نُفوذًا أقوى من نُفوذ رؤساء قبائلهم، ويُخْضِعَهم بِسَطْوةٍ فوق سَطْوةِ حاكِمهم، ولم يكن يحتاجُ هذا الزعيمُ إلى أكثرَ من كراماتٍ زائفةٍ، ليسُوق قَطِيعًا من المصَدِّقين الدَّهِشِين إلى حَظِيرته.

وتحقَّق أحدُ حكَّام العربِ من رَوَاجِ هذا الدَّجَلِ بين قبائل البربرِ، حين رآهم يخضَعون لامرأةٍ تدَّعِي الولاية [319]، وتؤيِّد دَعْوَاها بألاعيبَ من الشَّعْوَذَة، فأخذ يُدَرِّبُ نفسَه على مثل هذه الألاعيبِ حتى بَرَع في أساليبِ الحُوَاة، فنال من

طاعة القومِ واستِسلامِهم فوقَ ما كان يَبتغِي، ومثلُ هؤلاء يتَّبِعون كلّ صائح، ويستَمِعون لكل داعٍ، ويُسْرِعون خِفافًا إلى الثَّوْرات العنِيفة التي يُشْعِلُها زعيمُهم بكلمةٍ واحدةٍ. وكان البربرُ سببًا لكل التطوُّراتِ التي حدثت في شمال إفريقية، فإنهم أقاموا دولةَ الفاطميين [320]، ثم لَحِقوا بجيُوشِ المُرابِطين فسارتْ منتصرةَ الأعلام حتى مَلَكَتْ بلادَ البربرِ وأسبانيا، ثم أسْقطوا المرابطين وأحَلُّوا محلَّهم الموحِّدين [321].

وشرعَ البربرُ في الأندلس منذ حُكْمِ العربِ يناصِبون الحكامَ العدَاءَ،حَدَث أنَّ أحدَ هؤلاءِ بالَغَ في إرْضاء مُيوله بالتمتُّع والإغراقِ في النَّعيم، مُرْهِقًا في سَبيل ذلك رعيته، فأغضَبَ ذلك العلماءَ والفُقَهاءَ، فأثاروا البربرَ عليه، فما كانت إلا لحظةٌ حتى دُهِي العربُ بالأندلس بهزِيمةٍ نَكْراءَ، وأقبلَ من الشام ثلاثون ألفًا من الجنود لاستعادَة الولايات التي احتلَّها البربرُ، فحِيل بين معظمِ هؤلاء ومن انضَمَّ إليهم من العَرب بإفريقية والذَّهابِ إلى الأندلسِ، وأعمَل فيهم البربرُ السيفَ ذبحًا وتَقْتِيلا، وفرَّتْ فُلُولُهم إلى سَبْتة بأرْواحِهم، فكان يُهدِّدُهم في كل لحظةٍ عَدُوَّانِ من الجُوعِ والقَتْلِ.

وتأثَّر بربرُ الأندلس بوَثِيقِ اتصالهم بإخوانِهم في الساحِلِ الإفريقي بهذه الثورةِ، التي قامت بإفريقية سنة 741م (124هـ) وكان يتغَلْغَلُ في نُفوسهم حَسدٌ قديمٌ للعرب، لأنهم نالوا نصيبَ الأسَد من غنَائم أسبانيا التي لم تَدْنُ قطوفها إلا بِقِسِيِّ البربر ورِماحِهم. ورَأَوا أنَّ العربَ الذين لم يدخلوا البلادَ إلا وقتَ اجتِناءِ ثمراتِ الفتحِ اختَصُّوا أنفُسَهم بكل الولاياتِ الخِصبة الباسمة من شبه الجزيرة، وتركوا لهم أبغضَ الأجزاءِ إلى النَّفْسِ: من سُهول استرامادور العُفْر، وجبال ليون الثلجية، فأقاموا بها مُرْغَمِين في جوٍّ قارِسٍ لا يحتمِلُه مَن عاش في حَرِّ إفريقية، ثم إنهم رأوا أنفسَهم في وَضعٍ يجعلُهم دائمًا حاميةَ دِفاع بين حُلفائِهم العرب ونَصارى الشمال.

تأثَّر البربرُ بكلِّ هذا. وقام «مونوسا» البربريُّ [322] -أحدُ قوَّادِ طارقٍ الذي تزوَّج بنت يوديس دوق أقيتانية- فأشعل نارَ الثورةِ لما أصاب إخوانه بإفريقية من الظُّلْم، وبعد أن فاز بربرُ إفريقيةَ بمطالبهم، هبَّت ثورةٌ عامَّة في الولايات الشمالية بأسبانيا، وحمَل السلاحَ بربرُ غاليسية، وماردة، وقورية، وتقدموا للهجوم على طُلَيْطلة، وقرطبة، والجزيرة الخضراء، وصمَّموا على أن يُبْحِروا منها إلى إفريقية للاتِّصال بأبناء وطنِهم.

وكان الموقفُ شديدَ الخطرِ عَصِيبًا، وجدَ فيه عبدُ الملك بن قَطَن الفِهريُّ [323] أميرَ الأندلس نفسه أمام مشكلةٍ تكاد تَسْتَعْصِي على الحلِّ، لأنه كان قد أبَى أن يمدَّ يَدَي المساعدة لجنود الشام بسَبْتة، فأصبح الآن أمام أمرين،

[أحلاهما] [324] مر وخيرهما شر: إمَّا أن يخضَع للبربرِ العُصَاةِ، وإمَّا أن يستَجْدِي معونةَ جنودِ الشامِ، الذين رَفض معاونتَهم، والذين قد يكونون إذا أذِن لهم بنزُول الأندلس، أشدَّ بَلاءً وشَرًّا من هؤلاء الذين جاءوا لطردِهم. ولكنه صمَّم آخرَ الأمر على إرسالِ سفُنٍ لنقل جنود الشامِ، بعد أن أخَذ عليهم عَهْدًا أن يعودوا من حيثُ أتوا بعدَ التغلُّبِ على البربر، وبعد أن قويَ جيشُ العربِ بهذا المدَدِ، كَرَّ على البربر، فاستَأْصَل شَأْفَتَهم، ثم تَعَقَّبهم في كلِّ مكانٍ وبيْنَ معاقِلِهم الجبَلِيَّة، كما يتعقَّبُ الصائدُ الوحوشَ الضارِيَة، حتى شَفَى نفسَه بنيْلِ الثَّأْرِ منهم.

غير أنَّ الخطَر الذي أرادَ عبدُ الملك أن يتوقَّاه ظهَر وأبْدَى ناجِذَيه، فقد أَبَى جنودُ الشام أن يستَبدِلوا بالمرُوجِ الخُضْرِ والحدائقِ الفِيْحِ بالأندلس، صحْراءَ إفريقيَّةَ القاحِلة، حيث تَنُوشُهم رِماحُ البربر المتغلِّبين، فتحَدَّوا عبدَ الملك وقتلُوه، واختاروا للأندلُس أميرًا منهم [325]، وكان من نتائج ذلك: أنْ شبَّ بين العربِ القدماءِ والجنودِ الدَّاخلين صِراعٌ عَنِيفٌ طويلُ المدَى، كثُرت فيه المذابحُ، وعَمَّ الدمارُ، ولم يَنْتَهِ هذا الصِّراعُ إلا بعد أن أرسَلَ الخليفةُ بدمشقَ أميرًا [326] قَدِيرًا فرق بين القبائل المتطاحِنة بإعطاءِ كلٍّ مِن الفريقَيْنِ مدنًا تبعُد عن مُدُنِ الآخر، ثم بِنَفْيِ أكثر زعماء الفريقين عنادًا وشغبًا: فنزل المصريون الذين كانوا بِجُنْدِ الشَّام مُرْسية وسموها مِصر، ونزل الفِلَسْطِينِيُّون شُذُونة، وحَلَّ أهلُ الأُرْدُن بمالَقة، وأقام الدِّمَشْقِيُّون بغَرْناطة، واستقَرَّ أهلُ قِنَّسْرين بجَيَّان. وبهذا الوضع زال سببٌ من أسبابِ النزاع الحزبي بالأندلس، ولكنَّ الرُّوحَ القبَلِية لم تضعُف سيطَرَتُها بعد، وبقِيَت الثورات تتغلَّب على الحكومات، وتستبِدُّ بها، واستمرت الحالُ على هذا، حتى نزل الأندلس حاكم من طابَعٍ جديدٍ، سِلاحه الجلالُ والمهابةُ، يحمِل بينَ جَنْبَيْهِ عِزَّةَ الخُلَفاءِ الأُمويِّين، وتجري في عُروقِه دِماؤهم. قدِم إلى الأندلسِ ليحمِلَ صَوْلَجان الحُكْمِ في مملَكةٍ مضْطَربةٍ، مُنْحَلَّةِ الأوَاصِرِ، وليجمَعَ في حِقبةٍ من الزمن كلَّ القبائل والعشائرِ تحتَ لواءِ أميرٍ قرطبةَ... هذا الشابُّ: هو الأمير الجديد الذي جاء شارلمان لقتاله فآبَ بالخَيْبة.. هذا الشاب: هو عبد الرحمن الأُموي!!

الخليفة العظيم

قد يشعر القارئ بشَيء من خَيْبة الأَمَل، حين يرى أننا قد بلغنا هذا القدرَ من الكِتاب ولم نَسْرُد له إلا قليلا من أعمال البطولة وأحاديث الحروب. وأننا بدَل أن نَقُصَّ عليه سِيرَ الأبطال، طَغَى بنا القلم إلى الإسهاب في اضطراب حركاتِ الأجناس، وثَوْرات الأَدْيانِ. نعم إننا بدأنا بُداءة تَسْتَثِير العاطفة وتحْبِس الأنفاس، بذكر طارقٍ وجُنْده من البربر، الذين لم تكن فتوحُهم اللامعة من أساطِير الخيال، ولم تكن في صحة حوادثها أقل من تاريخ القرنِ التاسعَ عشرَ. وقَفَّيْنا على ذلك بذكر الموقعةِ الكُبرى الفاصلة، موقعة طلوشة (تولوز) وهي حقًّا من الوقائع المؤثِّرة وإن أَعْوَزها كثير من الإسْهاب التاريخي. ثم أَلْمَمْنا بموقعة العرب مع الإفرنج، وبمعركة رونسفال التي أبعد وصفُها في الخيال، وغَشَاها غَمامٌ من خطَرات الأوهام، ومرَّ على هذه المعركة مائةُ عامٍ، فوصلنا إلى مقتل يولوجيوس، وإلى خُمود حركة الاستشهاد الدينية.

ولم نكن في غُضون هذا القرن نقرأ في تاريخ الأندلس إلا صِراعًا عنيفًا بين العشائر والمذاهب الدينية المختلفة، التي تمثِّل الشعب الإسباني. ومهما يكن من شيء، فإنَّ أعمال البطولة نادرة دائمًا، وكثيرًا ما تكون من خَلْقِ الشعراء، فإنَّ عقولَهم الرُّوحانية كثيرًا ما تُلْبِس بعض حوادث الحرب العادية أثوابًا من البطولة لا تُدْرِكها الأَفْهام، في حين أنَّ الصِّراع بين قَبِيل وآخر، أو مذهب وآخر، هو كل ما شَهِدته الدنيا منذ وجد الإنسان، فمن الحق إذًا ألا ننساق مع أنفسنا في اعتقاد أنِ تاريخ الحركات العظيمة خالٍ من الرَّوْعة، لأنه خَالٍ مما يَسْحَر النَّفْسَ من أعمال البطولة الفردية، فقد كان لكثير من المغْمورين من الرجال والنساء في غُضُون عصر الاستشهاد الديني، إخلاصٌ وجهادٌ وبطولةٌ تَفُوق أعمال الفرسان في ساحة القتال، لأنه من السَّهْل أن تكون شجاعًا في معركة تغلي فيها الدماء، أمَّا أنْ تُبْصِر نُذُرَ الهلاك، وتحتمل السجن الطويل المدَى، وتنتظِر بشجاعةٍ وجَلَدٍ يوم الإعدام، وأنتَ ثابتُ القلبِ رابِطُ الجَنان - فشيء فوق طاقةِ كثيرٍ من الناس.

أخطأ شهداءُ المسيحيِّين في رأيهم جادَّة الصواب، وقذَفوا بأرواحهم في غير مَقْذَف، ولكن شجاعتهم مع هذا كانت جديرةً بالإعجاب، كما كانت عقولُهم جديرةً بالرحمة.

كانت فلورا بطلةً حقًّا، كما لو ضَحَّت بحياتِها في سبيلٍ حَقِيقٍ بالتضحية، وخُلِق يولوجيوس من طِينة الأبطال، على الرغم من تعصُّبه وتزَمُّته، وكم في كل هذه الثَّوْرات السياسية والدينية التي مرَّت بنا من أعمالٍ تَجَلَّى فيها

الإخلاصُ والثبات والعزمُ والاحتِمال، وهذه - وإن فرَّت مِن عينِ المؤرِّخ - لا تقِلّ عن أعمال البطولة اللامعة في ميادين القتال.

إنَّ أشقَّ واجبات الإنسان لا يظهَر غالبًا إلا في صِغارِ حوادث البطولة، وإنَّ في المعارك والتِحام الجيوش فُرصًا لا تُعَدُّ لتكوين الأبطال. ويسهُل جدًّا أن ترى البطولة واضحةً في شخص، من أنْ تراها في شعب أو مدينة، وها نحنُ أولاء بصدَدِ حياة رجل، يُعَدُّ بين قليل مِمَّن قَرُبوا من المثل الأعلى في عظمة المُلك وقوة السلطان.

إن الملِك العظيمَ أَثَرُ الحاجةِ الملِحَّة والخَطْبِ العظيمِ، فإذا اشتدت آلام الأمة وطال بأسُها، وازدحمت أيامها بالكوارث، ورَفَّ غُرابُ الدَّمار بجناحيه في الأُفُق - جاء الملِك العظيم لينقذ قومَه من بين بَراثِنِ الخطَر، وليعيد إليهم الرفاهيةَ والهدوءَ والأمنَ، ولِيحكُم مملكةً كُتِب لها أن تنهض بهِمَّتِه ومساعِيه إلى القوة والسعادة، بعد الضَّعف والانتِكاس. وقد كانت الحاجةُ بالأندلس إلى مثل هذا الملِك شديدةً في طلِيعة القرن العاشر، فقد تَلَتْ ثورةَ المسيحية التي اشتعلت بقرطبة ثوراتٌ، وانتشر العِصيان في ولاياتِ الأندلس، وتناوَبَ عرشَ المملكةِ أمراءُ لا خيرَ فيهم، ولا غَناءَ عندهم [327]، وقضي على السياسة النشيطة العاملة التي قام بها المنذِرُ، الذي خلف أباه في سنة 886م (273هـ) بقتله في سنة 888م (275هـ) وجاء بعده أخوه عبد الله، الذي دبَّر مقتلَه، فكان أضعفَ من أن يقف على قدميه في وجه الخطَر الذي كاد يَذْهَب بملكه، لأنه كان متقلِّبًا مضطربًا، وكان يناوِب بين الشِّدَّة والاستِخْذاء فلم ينجَح في كليهما، وكان حقيرًا قاسِيًا شِرِّيرًا، فأجمعَ الناسُ لأول مرة على كراهيته ونبْذِ طاعته، ولم تمض ثلاثُ سنواتٍ من حكمه، حتى كان القسمُ الأعظمُ من الأندلس مُستَقِلا فإن الأحزاب المختلِفة التقت على معارضته، واهْتَبلَ كلُّ نَبيلٍ أو زعيمٍ من العرب، أو البربر، أو الإسبان، فرصةَ ضَعْفِه وسُوء حُكْمِه، وما أصبحت فيه الأندلسُ مِن الفَوْضى الطَّخْوَاء [328] الشاملة -فاختص نفسه بقِسم من المملَكة، وقام يتحدَّى الأميرَ من وراء حُصُونه.

وكان عظماء العرب من أبناء الفاتحين قليلي العدَدِ، فلم يمنعْهم ضَعْفُهم، ولم تَقْعُد بهم قِلَّتهُم، عن أن يَقْلِبُوا للأمير ظَهْرَ المجَنِّ، فاستولَوْا على بعض إماراتٍ منها إشبيلية، التي أصبحت منافِسًا مُخِيفًا لقرطبة، أمَّا في المدائن الأخرى وحيث كان العربُ أضعفَ من أن يُقاوموا الأميرَ، فإنَّهم خضَعوا له خُضُوعًا صُورِيًّا، واستقلَّ حَاكِمَا لورقة [329]، وسرقسطة، استِقلالا حقيقيًّا، ولم يبقَ للأمير مَن يستَنْصِر به إلا الجنودُ المرتزِقة الذين أخضَعوا له أهلَ قرطبة إخضاعًا ظاهريًّا، بحيث إذا جاوز المرءُ قرطبَةَ لم يجد عربيًّا واحدًا يُرْجَى منه أن يَنْصُر الأميرَ أو يدافع عن الدولة الأُمويَّة.

وكان البربرُ أكثرَ عددًا من العرب، وأشبَهَ بهم في السُّخْطِ والعِصيان، فخلَعوا رِبْقَة الطاعةِ للأمير، وعادوا إلى نظام القبائل، واستقلُّوا بالولايات الغربية مثل: اسْتَرامادُور، وجَنوب البُرتُغال، واحتلُّوا مراكز عظيمة الشأنِ في الأندلس نفسِها كمدينة جَيَّان [330]. وكانت أسرةُ ذي النون البربرية تتألَّف من أبيهم موسى وهو شِرِّير كبير ولِصٌّ بغِيضٌ، ثم مِن أولادِه الثلاثةِ الذين أشبهوه في قُوته وقَسْوته [331] فدَهَمَت هذه الأسرةُ الأندلسَ كلَّها بالسَّيف والنار، وعاثَت بالفسادِ في جميع نواحيها تحرِق وتنهَب، وتقتل أينما سارت.

وكان الإسبانُ المتسلِّمون الذين صَقَلْتُهم مَدنِيَّة العرَب بعض الصَّقْلِ، أقلَّ وَحْشيةً من البربر وإن لم يَقِلُّوا عنهم في بُغضِ الحكومة، فاستولَوْا على وِلاية الجُرْف [332] في الزاوية الجنوبية الغربية مِن شبه الجزيرة، ومَلَكوا عَددًا عَدِيدًا من المدن والولايات المستقِلَّة بالأندلُس، وفي الحقِّ أنَّ معظم المدنِ العظيمةِ كانت في ثورةٍ مُقَنَّعة أو سَافِرة: فقد اتَّحد حكامُ العربِ، وزعماءُ البربر والإسبان المتسلِّمين، على معارضةِ الأميرِ والاستهانة بأمره، وكان ابن حَفْصُون أكثرَ هؤلاء قوةً وأَشَدَّ مِراسًا، وهو مسيحيٌّ [333] أثار سكَّان الجبال بغَرْناطة، وأقام في حصانة مَعْقِلِه ببَشْتَر [334] «بوباسترو» يحكُم ويشرِّعُ للبلاد حوله، وطالما جرَّد الأميرُ عليه جيوشًا فآبتْ بالخُذْلان والهزيمة، ثم التجأ الأميرُ آخرَ الأمر إلى مصالحته وملاينته، ولكنَّ ابن حفصون كان في هذه الناحيةِ أوسعَ منه حِيلةً وأشدَّ مَكْرًا [335]، وكانت مُرْسِية مستقلة يحكمها أمير متسلِّم، حكمًا رفيقًا حازمًا، فأحبَّتْه رعيتُه، ولم يغفُلْ مع ولُوعِه بالشعر والأدب عن تحصِين مملكته بجيش عظيم، عِدَّتُه خمسةُ آلاف فارسٍ، وكانت طليطلة كعادتها ثائرة صاخِبة، ولم يَعُقْ نَصارى الشَّمال عن الاستيلاء عليها واستِرْداد مُلْكِهم المسْلُوب، إلا ما شَجَرَ بينهم من خلافٍ وانقِسام.

هكذا كانت حالُ الأندلس، وهذا ما آل إليه أمرُها، فقد أصبحت ممزَّقةَ الأَشْلاءِ مُنْبَتّةَ الأَواصِر، تبعثرت فيها المقاطَعات المستقِلَّة التي صارت أشبهَ بالضِّياع منها بالولايات التي تُكَوِّن دولةً قوية، وصارت أعْجَزَ مِن أن تقِف في وجهِ فاتح قويٍّ عَزُوم.

وكانت تلْتَمِع أحيانًا أشعةٌ مِن النُّور في ظلامِ هذه الفَوضى القاتِمة، فقد ذكرنا آنِفًا: أنَّ حاكم مُرْسِية كان أديبًا مُثقَّفًا، كما كان يشتهر حاكم قَسْطَلُونة بإغْداقِه على الشُّعراء ورجالِ الفُنون، وكان يعيشُ في قصرٍ فوق أَعْمدةٍ من الرُّخام، غُطِّيَتْ حِيطانُه بزخارِفَ من المرْمَرِ والذهب، واشتمل على كل ما تَشتَهِي النفسُ من النعيم.

أما ابن حجَّاج [336] حاكمُ إشبيلية: فإنه اضْطَرَّ الأميرَ إلى مصالحته ومصادَقته وحَمَلَ أعباءَ الحُكْم كريمًا نَبِيلا، وأخذ رعيَّته بالرِّفْق، فرفرف فوقها علم السلام

والطّمَأنينة، وعاقب المجرمين بعدْلٍ وصَرامة، وأقام مَراسِم الملْكِ في جلال وعَظَمة، وبلغ حرسُه خمسمائةِ فارسٍ، وكان رداؤه الملكيُّ من الحرير المنسُوج بخيوط الذهب والفِضَّة، كتب عليه اسمه وألقابه بالذهب الخالص، وذاعتْ شُهْرته فراسَلَه الملوك من وراء البحر وبعثوا إليه بهداياهم، وتوافَد عليه العلماءُ والفُقهاء من المدينة المنورة، وازدَان قصرُه بأشهَرِ المغَنِّين من بغداد، وكانت جاريته «قمر» [337] البغدادية شاعرةً رائعةَ الحُسْنِ، بديعةَ الصوتِ، فصيحة اللسانِ، مُرْهَفةَ الحِسِّ، وهي التي تقول فيه:

ما في المغارب مِن كرِيمٍ يُرْتَجَى		إلَّا حَليفُ الجودِ إبراهيمُ
أنَّى حَلْلتَ لديه منزلُ نِعمةٍ		كلُّ المنازِل ما عدَاه ذَمِيمُ

وقد اجتذَب إلى قصرِه الشعراءَ، فأَمَّه جميعُهم، حتى شعراءُ قرطبةَ الذين وَثِقوا من كَرَمه. وأعرَضَ مرةً عن شاعِرٍ وأنَّبه، لأنه أراد أن يَسُرَّه بهجاء منافسيه من أشرافِ قُرْطُبَةَ، وكان مِنْ قولِه له: لقد كَذَبَتْكَ نَفْسُك يا هذا إنْ ظننتَ أنَّ رجلا مِثلي يَهَشُّ لسماع هذا الهِجاء الدَّنِيء.

ولكنَّ كلَّ هذه الأشعةِ اللامعةِ من الحياة الأدبيةِ والثقافيةِ، لم تُخَفِّفْ إلا قليلا من اضْطِراب الفَوْضى العامة، التي شَمِلت رُبُوعَ الأندلسِ، وصَيَّرَتْها فريسةً للكوارِثِ التي منها ضَعْفُ حكومةِ قُرطبةَ، وخُروجُ كثيرٍ مِنْ حُكَّام الأقاليم عن الطَّاعة، وانتشارُ عِصاباتِ اللُّصوص وقُطَّاع الطرقِ بالبلاد. حتى صارت المملَكة إلى حالٍ تَسْتَنْزِف الدَّمْع من الشئون، وأصبحت قرطبة نفسُها - وقد توالت عليها غاراتُ ابنِ حَفْصُون ورجال عَصَائِبه - في حُزن مُقْعَدٍ مُقيم، وكانت - وإنْ لم تحاصَر بالفِعل - تُقَاسي ما هو شَرٌّ مِن الغزو وأشدُّ من الحِصار. ويقول مؤرِّخو العرب:

«كانت حالُ قرطبةَ تُشْبِه حالَ ثَغْرٍ تَعرَّضَ لهجَمات الأعداءِ: فكثيرًا ما فَزِع سُكَّانُها من نَوْمهم في جوف الليل لصِياح الزُّرَّاع على شاطئ النهر، وقد وثَب عليهم لُصوصُ الطرق يُغْمِدون سيوفهم في رِقابهم» [338].

وكتب بعض مَن حضر هذا العهدَ يقول: «لقد أُصيبت المملكةُ بانحلال شامِل، فقد تَلت المصائبُ المصائبَ فهي لا تنقطِع، واستمر النَّهْبُ والسَّرِقات، وجُرَّتْ زَوْجَاتُنا وأولادُنا قسرًا إلى الأسر والعبودية».

وعَمَّت الشِّكَاية مِن تَهاوُنِ الأميرِ وضعفه وضَعَتِه، وتَذَمَّرَ الجنود لمنع أُعْطِياتهم، وضَنَّت الولاياتُ بإرسال حاصلاتها، وخَلَتْ خزائنُ الدولة من المال فأصبحت قَفْرًا يَبَابًا [339]، وكلُّ ما استطاع الأميرُ أن يقتَرِضه من المال رَشَا به بعضَ العربِ الذين كانوا يُراءونه ويَصْطَنعون له الإخلاص، وأظهَرَ خَلاءُ الأسواقِ من الأَقْواتِ ما أصابَ التِّجارةَ من الضَّرَر الفادِح والبَوَار، وأصبح ثَمنُ الخبزِ

فوقَ مُتَناوَل الخيالِ، وعاد الناسُ - وقد ملَكَهم اليأسُ - لا يفكِّرون إلا في يومهم؛ أما الفقهاءُ والمتزَمِّتون: فقد عدُّوا ذلك من سُخْط السماء، وأنَّ ابنَ حفصون لم يكن إلا آلةً لِنِقْمةِ الله وغضبه، ثم أخذوا يَنْشُرون بين الناس تَكَهُّناتٍ مُفْجِعةً محزِنةً، وكم صاحوا يقولون:

«ويلٌ لكِ يا قرطبة... ويلٌ لكِ يا بُؤرةَ الفساد ونذِيرَ الزَّوال... يا موطنَ الفجائِع والاضْمِحْلال، لقد أصبحتِ بلا صديقٍ أو حَلِيفٍ، ستحِلُّ مصيبتُك حينما يصل إلى أبوابك القائدُ الكبيرُ الأنفِ، الدَّميمُ الوجهِ، الذي يحرسُه المسلمون من أمامه والكافرون مِن خَلْفه، فإن في وصول ابنِ حفصون إلى أسوارِك القضاءَ المبْرَمَ والفناءَ المحتومَ!!».

وحينما ازدادت الأمور حُلْكةً وظلامًا، سطَع شُعاعٌ من الأمل لليائسين من سُكَّان قرطبةَ، فإن الأمير عبدَ الله الذي تملكه اليأس كما تملك رَعيته، حاول أول مرةٍ أن يعزِم على عمل سياسيٍّ جرِيءٍ، وأن يخرُج من المأزِق الذي وضع فيه نفسه، فنهَض بما عزَم [340] على الرغم من تَثْبِيط أتباعِه له وكثرةِ عدد الأعداء المحيطين به مِن كلِّ جانِبٍ، ولكنه بعد قليل عمل خيرًا من كل هذا، عمل ما كان يجب أن يعمله لأمته من زمن بعيد... ذلك أنه مات في الخامسَ عشرَ من أكتوبر سنة 912م (300هـ) بعد أن بلَغ الثامنةَ والستين، وبعد أن قضى في الحكم أربعةً وعشرين عامًا كُلُّها حزنٌ وشَقاءٌ، فقد رأى بعينيه مِن تَدَهْوُرِ سُلطان الأمويين - وكان تدهوُرًا سريعًا مفاجِئًا - ما يصعُب عِلاجُه على المصْلِحين، ولكنَّ اللهَ قدر لحكم خليفَتهِ أن يرى أيضًا لهذا السلطان بَعثًا سريعًا مفاجئًا، كاملًا شاملًا.

كان الخليفةُ عبدُ الرحمن الناصر حفِيدًا لعبد الله، وقد ولي الحكمَ في الحاديةِ والعشرين مِن عمره، وكان يظُنُّ أن يزاحِمه عمُّه وأقاربه على الإمارة وهو في هذه السِّنِّ، وفي هذا الوقتِ العَصِيبِ، ولكنَّ شيئًا من ذلك لم يكن، واستقبلتِ الأُمَّة ولايته بصَيْحاتِ الاستِبْشار والرضا من كل ناحية.

وكان الخليفةُ الجديدُ محبوبًا من الشَّعْب ورجالِ القصر، تَضَافرت وَسَامة طَلْعَتِهِ، وحُسْنُ سَمْتِه، وكَرَمُ أخلاقِه، وقوةُ إِدْراكه، على أن تجعلَ منه خليفةً تَعْشَقُه الجماهير، وأحَسَّ القرطبيون - وهم البقِيَّة الباقية من رعيَّته - بتجدُّد الأملِ فيهم وهم يَرْقُبون بَواكِيرِ أعماله.

ولم يحاولْ عبدُ الرحمن إخفاءَ مَرامِيه ومآرِبه، فقد هجَر سياسةَ جدِّه إلى غيرِ عَوْدة، وكان تناوحها [341] بين الضَّعْف والقوة سببًا في دَمار البلاد، وأعَلن مكانها في صراحة: أنه لن يسمَح بأيِّ عِصيانٍ في أيِّ جزءٍ من أجزاء المملكة الأمَوية، ثم دعا الساخِطين ورؤساءَ القبائلِ إلى الخُضُوعِ لسلطانه بعد أن أرسلَها كلمةً صريحة بأنه لن يترك جزءًا من مملَكتِه يتحكَّم فيه العُصاة، وكان

في بَرْنامَجه من الجُرْأة ما يُنْعِش آمالَ أكثرِ المتفائلين، وإن خاف كثير منهم مِن أن هذا البرنامجَ قد يؤَلِّب العُصاةَ في جميع أنحاء المملكة، ويجمعهم عُصبة واحدة لسَحْقِ هذا الأميرِ الشابِّ العنيدِ، ولكن عبد الرحمن كان يعرِف أخلاقَ أهلِ مملكتهِ. فلم يكن في جُرأته عابِثًا أو متهوِّرًا.

لقد مضى جِيلٌ منذ أن رَفع ابنُ حفصون وأشياعُه علمَ الثورة، واعتقد أكثر الناس أنَّ فيما نالهم من أَوْزارها ما يكفي، وفوق الذي يكفي [342]، وبَردَت تلك النارُ التي كانت تتأجَّج في قلوب الإسبان المتسلِّمين والمسيحيين، وتدفعهم إلى الكفاح في سبيل الاستِقلال. وأمثال هذه البَدَوَات لن تعيش إلا إذا بلَغت غايةَ الفوزِ عند أول اشتعالها. لقد كان الزعماءُ الآن بين مَلْحودٍ [343] لا يعود، وشيخٍ لا يُرْجَى، فهدأت الروح الثائرةُ في نفوس أتباعهم، وأخذ الناس يُسائلون أنفسهم عما حصلوا عليه من جَرَّاء ثَوْراتهم؟ إنهم لم يُطَهِّروا الأندلسَ من الكفار، ولكنَّهم على النَّقِيضِ أسلموها إلى أكثرَ مِن الكفار شرًّا: إلى زعماء اللُّصوص والمجرمِين المخاطِرين. فقد مُنِيَت المملكةُ في جميع جِهاتِها بعِصاباتٍ من اللُّصوص أَتْلَفت الزَّرْع والكُرُوم، وتركت الأراضي وراءها قَفْرًا يَبَابًا، وأَحَسَّ الناس أنَّ كلَّ شيءٍ كيفما كان، خيرٌ من تحَكُّم هذه العصابات، وأنَّ الأمير لن ينقل الأمور إلى أسوأ مما هي عليه، لذلك اتَّجهوا إليه ينظُرون إلى ما يستطيع عمله لإصلاحِ هذه الحال.

وكان من أَثَر كلِّ هذا، أن الخليفة حينما هَبَّ يقودُ جيوشَه لمحاربة الولاياتِ الخارجةِ عليه، رأى أنَّ أكثرها أقربُ إلى الخضوع من العِصْيان، وزاد في حَماسة جُنوده أنْ رأوا أميرَهم الشابَّ الشُّجاعَ في مُقدِّمتهم، وهو شيء لم يَعْهَدوه من عبدِ الله جدِّه، فساروا وراءه معجَبين مستَمِيتين. وأخذت المدنُ بالأندلس تَفْتَح للأمير أبوابهَا واحدةٌ إِثْرَ واحدةٍ: فسلمت الولايات التي في جنوب قرطبة أولا، ثم أَلْقت إشبيلية بِقِيادِها، وأُجْبِر البربرُ في الغرب على الطاعة، وأسرع أميرُ الجرف بإرسالِ الإتاوة. ثم تقدَّم الأميرُ لقتالِ النَّصارى بمُقاطَعة ريّة [344] (ريو) حيث يسكُن منذ ثلاثين عامًا رَعايا ابنِ حفصونَ الشُّجْعانُ في مَعاقِلهم الجبَلِية، وكان عبد الرحمن أعرَفَ الناس بأنَّ مِثل هذه المعاقِلِ لن يُنالَ بِظَفَر سَرِيع، لذلك خَطَا خُطواتٍ مُتَّئِدةً، حتى أخضَعها لسُلْطانه، فسلَّم إليه مَعْقلٌ بعد مَعْقِلٍ، بعدما رأى أعداؤه ما بهَرهم مِن عدْلِه وشرفه، وأنه قد حافَظ على مُعاهَدَته مع النصارى أَكْرَم محافظة، وأنه أظهَر غايةَ الحِلْم والصَّفْح لكل مَن سَلَّموا إليه. ولكنَّ ابنَ حَفْصُونَ بقي في مَعقِله متحدِّيًا مُغالِبًا كعادته، غير أنَّه كان قد شاخ فأدرَكته المنِيَّة، وأصبح استيلاءُ الخليفةِ على حِصن «ببشتر» أمرًا هَيِّنًا مَوْكُولا إلى الزَّمان.

وحينما وَقفَ الأميرُ على مشارِف هذا الحصنِ المنيعِ بعد استيلائه عليه، ونظر مِن بُعْدِه الشَّاهِقِ إلى القِمَم الشديدةِ الانحدارِ التي تُحيط به، ثار

وِجْدانُه، وغَمَرَتْه عَواطِفُه، فسجَد لله شكرًا على هذا الفتح المبين، وبقي مدةَ إقامته بالحصنِ صائمًا، وشَمِل أعداءَه بالصَّفْحِ والغُفْران.

ثم ألْقَت مُرْسية بالقِياد، وخضَعت للخليفةِ. أما طُلَيْطُلة فبقِيت على تحدِّيها وعِصيانها، ورفضت في كِبرياءَ وغُرورٍ ما عرَضه عليها عبد الرحمن من الهدْنة، وانتظرت الحصارَ بصَبر وجَلَد. ولم يخطِر ببال أهلِ المدينة أنهم مُنُوا بأميرٍ يخالف طابَعه مَن عرفوهم من القوَّاد الضُّعفاء، الذين طالما آبُوا بالعار والخَيْبة أمام حصُونها المنيعة.

هجمَ الخليفة على طليطلة، ووقَف بجيشه لحصارها ثم أراد أن يفهم من لم يكن يفهم أن هذا الحصار لم يكن مَحْضَ تهديد، فأمر أن تُبْنَى مدينةٌ صغيرة فوق الجبل المقابِل لها سمَّاها: «الفتح» ورَبَضَ ينتظِر عواقبَ الحِصار. فلما اشتدَّ الجُوع بالسكَّان سَلَّمت المدينةُ ودخلَها عبد الرحمن، فكانت آخرَ مدينةٍ دانت له بالطاعة في المملكة التي ورِثها من سَمِيِّه عبد الرحمن الداخل، والتي بلغت الآن في سنة 930م (318هـ) غاية امتدادها. وقد اقتضته إعادة ما ضيَّعه أسلافُه من المملكة ثمانيةَ عشرَ عامًا، غير أنه فاز بما أراده وأتمَّه، وعادت سُلْطَته قويةَ الدَّعائم بين العرب والبربر والإسبان والمسلمين والمتسلِّمين. ومن هذا الحين أبَى أن يَخُصَّ أيَّ حزبٍ من رعيَّته بميزة أو يرفعه فوق غيره، وشدَّد الضغطَ على زُعماء العرب، فابتهَج الإسبانُ بإذلالهم، وأصبحَ المُلكُ اليوم خالصًا للخليفة وحده، فحكَم مستقِلَّ الرأيِ مستبدًّا، وقابلت الأمةُ استبدادَه بسُرور وغِبْطة بعد عدة سنوات قضَتْها في الاضطراب والفَوضى، وبعد أن استراح الناس من العِصابات التي كانت تُغِير على زُرُوعِهم وكُرُومهم.

وإذا كان الخليفةُ مستبِدَّ السُّلطانِ، فإنه لم يتجاوز الحدَّ في استبداده الذي أعاد الناسَ إلى حياةِ الأَمْنِ والثروة، وأطلَق عِقالَهم لينالوا من الغِنَى ورَغَدِ العَيْشِ ما يشتهون، على النحو الذي يَشْتَهون.

الخليفة العظيم

قد يشعر القارئ بشَيء من خَيْبة الأَمَل، حين يرى أننا قد بلغنا هذا القدرَ من الكِتاب ولم نَسْرُد له إلا قليلا من أعمال البطولة وأحاديث الحروب. وأننا بدَل أن نَقُصَّ عليه سِيرَ الأبطال، طَغَى بنا القلم إلى الإسهاب في اضطراب حركاتِ الأجناس، وثَوْرات الأَدْيانِ. نعم إننا بدأنا بُداءة تَسْتَثِير العاطفة وتحْبِس الأنفاس، بذكر طارقٍ وجُنْده من البربر، الذين لم تكن فتوحُهم اللامعة من أساطِير الخيال، ولم تكن في صحة حوادثها أقل من تاريخ القرنِ التاسعَ عشرَ. وقَفَّيْنا على ذلك بذكر الموقعةِ الكُبرى الفاصلة، موقعة طلوشة (تولوز) وهي حقًّا من الوقائع المؤثِّرة وإن أَعْوَزها كثير من الإسْهاب التاريخي. ثم أَلْمَمْنا بموقعة العرب مع الإفرنج، وبمعركة رونسفال التي أبعد وصفُها في الخيال، وغَشَاها غَمامٌ من خطَرات الأوهام، ومرَّ على هذه المعركة مائةُ عامٍ، فوصلنا إلى مقتل يولوجيوس، وإلى خُمود حركة الاستشهاد الدينية.

ولم نكن في غُضون هذا القرن نقرأ في تاريخ الأندلس إلا صِراعًا عنيفًا بين العشائر والمذاهب الدينية المختلفة، التي تمثِّل الشعب الإسباني. ومهما يكن من شيء، فإنَّ أعمال البطولة نادرة دائمًا، وكثيرًا ما تكون من خَلْقِ الشعراء، فإنَّ عقولَهم الرُّوحانية كثيرًا ما تُلْبِس بعض حوادث الحرب العادية أثوابًا من البطولة لا تُدْرِكها الأَفْهام، في حين أنَّ الصِّراع بين قَبِيل وآخر، أو مذهب وآخر، هو كل ما شَهِدته الدنيا منذ وجد الإنسان، فمن الحق إذًا ألا ننساق مع أنفسنا في اعتقاد أنَ تاريخ الحركات العظيمة خالٍ من الرَّوْعة، لأنه خَالٍ مما يَسْحَر النَّفْسَ من أعمال البطولة الفردية، فقد كان لكثير من المغْمورين من الرجال والنساء في غُضُون عصر الاستشهاد الديني، إخلاصٌ وجهادٌ وبطولةٌ تَفُوق أعمال الفرسان في ساحة القتال، لأنه من السَّهْل أن تكون شجاعًا في معركة تغلي فيها الدماء، أمَّا أنْ تُبْصِر نُذُرَ الهلاك، وتحتمل السجن الطويل المدَى، وتنتظِر بشجاعةٍ وجَلَدٍ يوم الإعدام، وأنتَ ثابتُ القلبِ رابِطُ الجَنان - فشيء فوق طاقةِ كثيرٍ من الناس.

أخطأ شهداءُ المسيحيِّين في رأيهم جادَّة الصواب، وقذَفوا بأرواحهم في غير مَقْذَف، ولكن شجاعتهم مع هذا كانت جديرةً بالإعجاب، كما كانت عقولُهم جديرةً بالرحمة.

كانت فلورا بطلةً حقًّا، كما لو ضَحَّت بحياتِها في سبيلٍ حَقِيقٍ بالتضحية، وخُلِق يولوجيوس من طِينة الأبطال، على الرغم من تعصُّبه وتزَمُّته، وكم في كل هذه الثَّوْرات السياسية والدينية التي مرَّت بنا من أعمالٍ تَجَلَّى فيها

ُ

الإخلاصُ والثبات والعزمُ والاحتِمال، وهذه - وإن فرَّت مِن عينِ المؤرِّخ - لا تقِلّ عن أعمال البطولة اللامعة في ميادين القتال.

إنَّ أشقَّ واجبات الإنسان لا يظهَر غالبًا إلا في صِغارِ حوادث البطولة، وإنَّ في المعارك والتِحام الجيوش فُرصًا لا تُعَدُّ لتكوين الأبطال. ويسهُل جدًّا أن ترى البطولة واضحةً في شخص، من أنْ تراها في شعب أو مدينة، وها نحنُ أولاء بصدَدِ حياة رجل، يُعَدُّ بين قليل مِمَّن قَرُبوا من المثل الأعلى في عظمة المُلك وقوة السلطان.

إن الملِك العظيمَ أَثَرُ الحاجةِ الملِحَّة والخَطْبِ العظيمِ، فإذا اشتدت آلام الأمة وطال بأسُها، وازدحمت أيامها بالكوارث، ورَفَّ غُرابُ الدَّمار بجناحيه في الأُفُق - جاء الملِك العظيم لينقِذ قومَه من بين بَراثِنِ الخطَر، وليعيد إليهم الرفاهيةَ والهدوءَ والأمنَ، ولِيحكُم مملكةً كُتِب لها أن تنهض بهِمَّتِه ومساعِيه إلى القوة والسعادة، بعد الضَّعف والانتِكاس. وقد كانت الحاجةُ بالأندلس إلى مثل هذا الملِك شديدةً في طلِيعة القرن العاشر، فقد تَلَتْ ثورةَ المسيحية التي اشتعلت بقرطبة ثوراتٌ، وانتشر العِصيان في ولاياتِ الأندلس، وتناوَبَ عرشَ المملكةِ أمراءُ لا خيرَ فيهم، ولا غَناءَ عندهم [345]، وقضي على السياسة النشيطة العاملة التي قام بها المنذِرُ، الذي خلف أباه في سنة 886م (273هـ) بقتله في سنة 888م (275هـ) وجاء بعده أخوه عبد الله، الذي دبَّر مقتلَه، فكان أضعفَ من أن يقف على قدميه في وجه الخطَر الذي كاد يَذْهَب بملكه، لأنه كان متقلِّبًا مضطربًا، وكان يناوِب بين الشِّدَّة والاستِخْذاء فلم ينجَح في كليهما، وكان حقيرًا قاسِيًا شِرِّيرًا، فأجمعَ الناسُ لأول مرة على كراهيته ونبْذِ طاعته، ولم تمضِ ثلاثُ سنواتٍ من حكمه، حتى كان القسمُ الأعظمُ من الأندلس مُستَقِلا فإن الأحزاب المختلِفة التقت على معارضته، واهْتَبلَ كلُّ نَبيلٍ أو زعيمٍ من العرب، أو البربر، أو الإسبان، فرصةَ ضَعْفِه وسُوء حُكْمِه، وما أصبحت فيه الأندلسُ مِن الفَوْضى الطَّخْوَاء [346] الشاملة -فاختص نفسه بقِسم من المملَكة، وقام يتحدَّى الأميرَ من وراء حُصُونه.

وكان عظماء العرب من أبناء الفاتحين قليلي العدَدِ، فلم يمنعْهم ضَعْفُهم، ولم تَقْعُد بهم قِلَّتهُم، عن أن يَقْلِبُوا للأمير ظَهْرَ المجَنِّ، فاستولَوْا على بعض إماراتٍ منها إشبيلية، التي أصبحت منافِسًا مُخِيفًا لقرطبة، أمَّا في المدائن الأخرى وحيث كان العربُ أضعفَ من أن يُقاوموا الأميرَ، فإنَّهم خضَعوا له خُضُوعًا صُورِيًّا، واستقلَّ حَاكِمَا لورقة [347]، وسرقسطة، استِقلالا حقيقيًّا، ولم يبقَ للأمير مَن يستَنْصِر به إلا الجنودُ المرتزِقة الذين أخضَعوا له أهلَ قرطبة إخضاعًا ظاهريًّا، بحيث إذا جاوز المرءُ قرطبَةَ لم يجد عربيًّا واحدًا يُرْجَى منه أن يَنْصُر الأميرَ أو يدافع عن الدولة الأُمويَّة.

وكان البربرُ أكثرَ عددًا من العرب، وأشبَهَ بهم في السُّخْطِ والعِصيان، فخلعوا رِبْقَة الطاعةِ للأمير، وعادوا إلى نظام القبائل، واستقلُّوا بالولايات الغربية مثل: اسْتَرامادُور، وجَنوب البُرتُغال، واحتلُّوا مراكز عظيمة الشأنِ في الأندلس نفسِها كمدينة جَيَّان [348]. وكانت أسرةُ ذي النون البربرية تتألَّف من أبيهم موسى وهو شِرِّير كبير ولِصٌّ بغِيضٌ، ثم مِن أولادِه الثلاثةِ الذين أشبهوه في قُوته وقَسْوته [349] فدَهَمَت هذه الأسرةُ الأندلسَ كلَّها بالسَّيف والنار، وعاثَت بالفسادِ في جميع نواحيها تحرِق وتنهَب، وتقتل أينما سارت.

وكان الإسبانُ المتسلِّمون الذين صَقَلْتُهم مَدنِيَّة العرَب بعض الصَّقْلِ، أقلَّ وَحْشيةً من البربر وإن لم يَقِلُّوا عنهم في بُغضِ الحكومة، فاستولَوْا على وِلاية الجُرْف [350] في الزاوية الجنوبية الغربية مِن شبه الجزيرة، ومَلَكوا عَددًا عَدِيدًا من المدن والولايات المستقِلَّة بالأندلُس، وفي الحقِّ أنَّ معظم المدنِ العظيمةِ كانت في ثورةٍ مُقَنَّعة أو سَافِرة: فقد اتَّحد حكامُ العربِ، وزعماءُ البربر والإسبان المتسلِّمين، على معارضةِ الأميرِ والاستهانة بأمره، وكان ابن حَفْصُون أكثرَ هؤلاء قوةً وأَشَدَّ مِراسًا، وهو مسيحيٌّ [351] أثار سكَّان الجبال بغَرْناطة، وأقام في حصانة مَعْقِلِه ببَشْتَر [352] «بوباسترو» يحكُم ويشرِّعُ للبلاد حولَه، وطالما جرَّد الأميرُ عليه جيوشًا فآبتْ بالخُذْلان والهزيمة، ثم التجأ الأميرُ آخرَ الأمر إلى مصالحته وملاينته، ولكنَّ ابن حفصون كان في هذه الناحيةِ أوسعَ منه حِيلةً وأشدَّ مَكْرًا [353]، وكانت مُرْسِية مستقلة يحكمها أمير متسلِّم، حكمًا رفيقًا حازمًا، فأحبَّتْه رعيتُه، ولم يغفُلْ مع ولُوعِه بالشعر والأدب عن تحصِين مملكته بجيش عظيم، عِدَّتُه خمسةُ آلاف فارسٍ، وكانت طليطلة كعادتها ثائرة صاخِبة، ولم يَعُقْ نَصارى الشَّمال عن الاستيلاء عليها واستِرْداد مُلْكِهم المسْلُوب، إلا ما شَجَرَ بينهم من خلافٍ وانقِسام.

هكذا كانت حالُ الأندلس، وهذا ما آل إليه أمرُها، فقد أصبحت ممزَّقةَ الأَشْلاءِ مُنْبَتَّةَ الأواصِر، تبعثرت فيها المقاطَعات المستقِلَّة التي صارت أشبهَ بالضِّياع منها بالولايات التي تُكَوِّن دولةً قوية، وصارت أعْجَزَ مِن أن تقِف في وجهِ فاتح قويٍّ عَزُوم.

وكانت تلْتَمِع أحيانًا أشعةٌ مِن النُّور في ظلامِ هذه الفَوضى القاتِمة، فقد ذكرنا آنِفًا: أنَّ حاكم مُرْسِية كان أديبًا مُثقَّفًا، كما كان يشتهر حاكم قَسْطَلُونة بإغْداقِه على الشُّعراء ورجالِ الفُنون، وكان يعيشُ في قصرٍ فوق أَعْمدةٍ من الرُّخام، غُطِّيَتْ حِيطانُه بزخارِفَ من المرْمَرِ والذهب، واشتمل على كل ما تَشتَهِي النفسُ من النعيم.

أما ابن حجَّاج [354] حاكمُ إشبيلية: فإنه اضْطَرَّ الأميرَ إلى مصالحته ومصادَقته وحَمَلَ أعباءَ الحُكْم كريمًا نَبِيلا، وأخذ رعيَّته بالرِّفْق، فرفرف فوقها علم السلام

والطّمَأنينة، وعاقب المجرمين بعدْلٍ وصَرامة، وأقام مَراسِم الملْكِ في جلال وعَظَمة، وبلغ حرسُه خمسمائةِ فَارسٍ، وكان رداؤه الملكيُّ من الحرير المنسُوج بخيوط الذهب والفِضَّة، كتب عليه اسمه وألقابه بالذهب الخالص، وذاعتْ شُهْرته فراسَلَه الملوك من وراء البحر وبعثوا إليه بهداياهم، وتوافَد عليه العلماءُ والفُقهاء من المدينة المنورة، وازدَان قصرُه بأشهَرِ المغَنِّين من بغداد، وكانت جاريته «قمر» [355] البغدادية شاعرةً رائعةَ الحُسْنِ، بديعةَ الصوتِ، فصيحة اللسانِ، مُرْهَفةَ الحِسِّ، وهي التي تقول فيه:

ما في المغارب مِن كرِيمٍ يُرْتَجَى		إلَّا حَليفُ الجودِ إبراهيمُ
أنَّى حَلْلتَ لديه منزلُ نِعمةٍ		كلُّ المنازِل ما عدَاه ذَمِيمُ

وقد اجتذَب إلى قصرِه الشعراءَ، فأَمَّه جميعُهم، حتى شعراءُ قرطبةَ الذين وَثِقوا من كَرَمه. وأعرَضَ مرةً عن شاعِرٍ وأنَّبَه، لأنه أراد أن يَسُرَّه بهجاء منافسيه من أشرافِ قُرْطُبَةَ، وكان مِنْ قولِه له: لقد كَذَبَتْكَ نَفْسُك يا هذا إنْ ظننتَ أنَّ رجلا مِثلي يَهَشُّ لسماع هذا الهِجاء الدَّنِيء.

ولكنَّ كلَّ هذه الأشعةِ اللامعةِ من الحياة الأدبيةِ والثقافيةِ، لم تُخَفِّفْ إلا قليلا من اضْطِراب الفَوْضى العامة، التي شَمِلت رُبُوعَ الأندلسِ، وصَيَّرَتْها فريسةً للكوارِثِ التي منها ضَعْفُ حكومةِ قُرطبةَ، وخُروجُ كثيرٍ مِنْ حُكَّام الأقاليم عن الطَّاعة، وانتشارُ عِصاباتِ اللُّصوص وقُطَّاع الطرقِ بالبلاد. حتى صارت المملَكة إلى حالٍ تَسْتَنْزِف الدَّمْع من الشئون، وأصبحت قرطبة نفسُها - وقد توالت عليها غاراتُ ابنِ حَفْصُون ورجال عَصَائِبه - في حُزن مُقْعَدٍ مُقيم، وكانت - وإنْ لم تحاصَر بالفِعل - تُقَاسي ما هو شَرٌّ مِن الغزو وأشدُّ من الحِصار. ويقول مؤرِّخو العرب:

«كانت حالُ قرطبةَ تُشْبِه حالَ ثَغْرٍ تَعرَّضَ لهجَمات الأعداءِ: فكثيرًا ما فَزِع سُكَّانُها من نَوْمهم في جوف الليل لصِياح الزُّرَّاع على شاطئ النهر، وقد وثَب عليهم لُصوصُ الطرق يُغْمِدون سيوفهم في رِقابهم» [356].

وكتب بعض مَن حضر هذا العهدَ يقول: «لقد أُصيبت المملكةُ بانحلال شامِل، فقد تَلت المصائبُ المصائبَ فهي لا تنقطِع، واستمر النَّهْبُ والسَّرِقات، وجُرَّتْ زَوْجَاتُنا وأولادُنا قسرًا إلى الأسر والعبودية».

وعَمَّت الشِّكَاية مِن تَهاوُنِ الأميرِ وضعفه وضَعَتِه، وتَذَمَّرَ الجنود لمنع أُعْطِياتهم، وضَنَّت الولاياتُ بإرسال حاصلاتها، وخَلَتْ خزائنُ الدولة من المال فأصبحت قَفْرًا يَبَابًا [357]، وكلُّ ما استطاع الأميرُ أن يقتَرِضه من المال رَشَا به بعضَ العربِ الذين كانوا يُراءونه ويَصْطَنعون له الإخلاص، وأظهَرَ خَلاءُ الأسواقِ من الأقْواتِ ما أصابَ التِّجارةَ من الضَّرَر الفادِح والبَوَار، وأصبح ثَمنُ الخبزِ

فوقَ مُتَناوَل الخيالِ، وعاد الناسُ - وقد ملَكَهم اليأسُ - لا يفكِّرون إلا في يومهم؛ أما الفقهاءُ والمتزَمِّتون: فقد عدُّوا ذلك من سُخْط السماء، وأنَّ ابنَ حفصون لم يكن إلا آلةً لِنِقْمةِ الله وغضبه، ثم أخذوا يَنْشُرون بين الناس تَكَهُّناتٍ مُفْجِعةً محزِنةً، وكم صاحوا يقولون:

«ويلٌ لكِ يا قرطبة... ويلٌ لكِ يا بُؤرةَ الفساد ونذِيرَ الزَّوال... يا موطنَ الفجائعِ والاضْمِحْلال، لقد أصبحتِ بلا صديقٍ أو حَلِيفٍ، ستحِلُّ مصيبتُك حينما يصل إلى أبوابك القائدُ الكبيرُ الأنفِ، الدَّميمُ الوجهِ، الذي يحرسُه المسلمون من أمامه والكافرون مِن خَلْفه، فإن في وصول ابنِ حفصون إلى أسوارِك القضاءَ المبْرَمَ والفناءَ المحتومَ!!».

وحينما ازدادت الأمور حُلْكةً وظلامًا، سطَع شُعاعٌ من الأمل لليائسين من سُكَّان قرطبةَ، فإن الأمير عبدَ الله الذي تملكه اليأس كما تملكُ رَعيته، حاول أول مرةٍ أن يعزِم على عمل سياسيٍّ جرِيءٍ، وأن يخرُج من المأزِق الذي وضع فيه نفسه، فنهَض بما عزَم [358] على الرغم من تَثْبِيط أتباعِه له وكثرةِ عدد الأعداء المحيطين به مِن كلِّ جانِبٍ، ولكنه بعد قليل عمل خيرًا من كل هذا، عمل ما كان يجب أن يعمله لأمته من زمن بعيد... ذلك أنه مات في الخامسَ عشرَ من أكتوبر سنة 912م (300هـ) بعد أن بلَغ الثامنةَ والستين، وبعد أن قضى في الحكم أربعةً وعشرين عامًا كُلُّها حزنٌ وشَقاءٌ، فقد رأى بعينيه مِن تَدَهْوُرِ سُلطان الأمويين - وكان تدهوُرًا سريعًا مفاجِئًا - ما يصعُب عِلاجُه على المصْلِحين، ولكنَّ اللهَ قدر لحكم خليفَتهِ أن يرى أيضًا لهذا السلطان بَعثًا سريعًا مفاجئًا، كاملًا شاملًا.

كان الخليفةُ عبدُ الرحمن الناصر حفِيدًا لعبد الله، وقد ولي الحكمَ في الحاديةِ والعشرين مِن عمره، وكان يظُنُّ أن يزاحِمه عمُّه وأقاربه على الإمارة وهو في هذه السِّنِّ، وفي هذا الوقتِ العَصِيبِ، ولكنَّ شيئًا من ذلك لم يكن، واستقبلتِ الأُمَّة ولايته بصَيْحاتِ الاستِبْشار والرضا من كل ناحية.

وكان الخليفةُ الجديدُ محبوبًا من الشَّعْب ورجالِ القصر، تَضَافرت وَسَامة طَلْعَتِهِ، وحُسْنُ سَمْتِه، وكَرَمُ أخلاقِه، وقوةُ إِدْراكه، على أن تجعلَ منه خليفةً تَعْشَقُه الجماهير، وأَحَسَّ القرطبيون - وهم البقِيَّة الباقية من رعيَّته - بتجدُّد الأملِ فيهم وهم يَرْقُبون بَواكِيرِ أعماله.

ولم يحاولْ عبدُ الرحمن إخفاءَ مَرامِيه ومآرِبه، فقد هجَر سياسةَ جدِّه إلى غيرِ عَوْدة، وكان تناوحها [359] بين الضَّعْف والقوة سببًا في دَمار البلاد، وأعَلن مكانها في صراحة: أنه لن يسمَح بأيِّ عِصيانٍ في أيِّ جزءٍ من أجزاء المملكة الأَمَوية، ثم دعا الساخِطين ورؤساءَ القبائلِ إلى الخُضُوعِ لسلطانه بعد أن أرسلَها كلمةً صريحة بأنه لن يترك جزءًا من مملَكَتِه يتحكَّم فيه العُصاة، وكان

في بَرْنامَجه من الجُرْأة ما يُنْعِش آمالَ أكثرِ المتفائلين، وإن خاف كثير منهم مِن أن هذا البرنامجَ قد يؤَلِّب العُصاةَ في جميع أنحاء المملكة، ويجمعهم عُصبة واحدة لسَحْقِ هذا الأميرِ الشابِّ العنيدِ، ولكن عبد الرحمن كان يعرِف أخلاقَ أهلِ مملكتهِ. فلم يكن في جُرأته عابِثًا أو متهوِّرًا.

لقد مضى جِيلٌ منذ أن رَفع ابنُ حفصون وأشياعُه علمَ الثورة، واعتقد أكثر الناس أنَّ فيما نالهم من أوْزارها ما يكفي، وفوق الذي يكفي [360]، وبَردَت تلك النارُ التي كانت تتأجَّج في قلوب الإسبان المتسلِّمين والمسيحيين، وتدفعهم إلى الكفاح في سبيل الاستِقلال. وأمثال هذه البَدَوَات لن تعيش إلا إذا بلَغت غايةَ الفوزِ عند أول اشتعالها. لقد كان الزعماءُ الآن بين مَلْحودٍ [361] لا يعود، وشيخٍ لا يُرْجَى، فهدأت الروح الثائرةُ في نفوس أتباعهم، وأخذ الناس يُسائلون أنفسهم عما حصلوا عليه من جَرَّاء ثَوْراتهم؟ إنهم لم يُطَهِّروا الأندلسَ من الكفار، ولكنَّهم على النَّقِيضِ أسلموها إلى أكثرَ مِن الكفار شرًّا: إلى زعماء اللُّصوص والمجرمِين المخاطِرين. فقد مُنِيَت المملكةُ في جميع جِهاتِها بعِصاباتٍ من اللُّصوص أتْلَفت الزَّرْع والكُرُوم، وتركت الأراضي وراءها قَفْرًا يَبَابًا، وأَحَسَّ الناس أنَّ كلَّ شيءٍ كيفما كان، خيرٌ من تحَكُّم هذه العصابات، وأنَّ الأمير لن ينقل الأمور إلى أسوأ مما هي عليه، لذلك اتَّجهوا إليه ينظُرون إلى ما يستطيع عمله لإصلاحِ هذه الحال.

وكان من أَثَر كلِّ هذا، أن الخليفة حينما هَبَّ يقودُ جيوشَه لمحاربة الولاياتِ الخارجةِ عليه، رأى أنَّ أكثرها أقربُ إلى الخضوع من العِصْيان، وزاد في حَماسة جُنوده أنْ رأوا أميرَهم الشابَّ الشُّجاعَ في مُقدِّمتهم، وهو شيء لم يَعْهَدوه من عبدِ الله جدِّه، فساروا وراءه معجَبين مستَمِيتين. وأخذت المدنُ بالأندلس تَفْتَح للأمير أبوابهَا واحدةٌ إِثْرَ واحدةٍ: فسلمت الولايات التي في جنوب قرطبة أولا، ثم أَلْقت إشبيلية بِقِيادِها، وأُجْبِر البربرُ في الغرب على الطاعة، وأسرع أميرُ الجرف بإرسال الإتاوة. ثم تقدَّم الأميرُ لقتالِ النَّصارى بمُقاطَعة ريّة [362] (ريو) حيث يسكُن منذ ثلاثين عامًا رَعايا ابنِ حفصونَ الشُّجْعانُ في مَعاقِلهم الجبَلِية، وكان عبد الرحمن أعرَفَ الناس بأنَّ مِثل هذه المعاقِلِ لن يُنالَ بِظَفَر سَرِيع، لذلك خَطَا خُطواتٍ مُتَّئِدةً، حتى أخضَعها لسُلْطانه، فسلَّم إليه مَعْقلٌ بعد مَعْقِلٍ، بعدما رأى أعداؤه ما بهَرهم مِن عدْلِه وشرفه، وأنه قد حافَظ على مُعاهَدَته مع النصارى أكْرَم محافظة، وأنه أظهَر غايةَ الحِلْم والصَّفْح لكل مَن سَلَّموا إليه. ولكنَّ ابنَ حَفْصُونَ بقي في مَعقِله متحدِّيًا مُغالِبًا كعادته، غير أنَّه كان قد شاخ فأدرَكته المنِيَّة، وأصبح استيلاءُ الخليفةِ على حِصن «ببشتر» أمرًا هَيِّنًا مَوْكُولا إلى الزَّمان.

وحينما وَقفَ الأميرُ على مشارِف هذا الحصنِ المنيعِ بعد استيلائه عليه، ونظر مِن بُعْدِه الشَّاهِقِ إلى القِمَم الشديدةِ الانحدارِ التي تُحيط به، ثار

وِجْدانُه، وغَمَرَتْه عَواطِفُه، فسجَد لله شكرًا على هذا الفتح المبين، وبقي مدةَ إقامته بالحصنِ صائمًا، وشَمِل أعداءَه بالصَّفْحِ والغُفْران.

ثم ألْقَت مُرْسية بالقِياد، وخضَعت للخليفةِ. أما طُلَيْطُلة فبقِيت على تحدِّيها وعِصيانها، ورفضت في كِبرياءَ وغُرورٍ ما عرَضه عليها عبد الرحمن من الهدْنة، وانتظرت الحصارَ بصَبر وجَلَد. ولم يخطِر ببال أهلِ المدينة أنهم مُنُوا بأميرٍ يخالف طابَعه مَن عرفوهم من القوَّاد الضُّعفاء، الذين طالما آبُوا بالعار والخَيْبة أمام حصُونها المنيعة.

هجمَ الخليفة على طليطلة، ووقَف بجيشه لحصارِها ثم أراد أن يفهم من لم يكن يفهم أن هذا الحصار لم يكن مَحْضَ تهديد، فأمر أن تُبْنَى مدينةٌ صغيرة فوق الجبل المقابِل لها سمَّاها: «الفتح» ورَبَضَ ينتظِر عواقبَ الحِصار. فلما اشتدَّ الجُوع بالسكَّان سَلَّمت المدينةُ ودخلَها عبد الرحمن، فكانت آخرَ مدينةٍ دانت له بالطاعة في المملكة التي ورِثها من سَمِيِّه عبد الرحمن الداخل، والتي بلغت الآن في سنة 930م (318هـ) غاية امتدادها. وقد اقتضته إعادة ما ضيَّعه أسلافُه من المملكة ثمانيةَ عشرَ عامًا، غير أنه فاز بما أراده وأتمَّه، وعادت سُلْطَته قويةَ الدَّعائم بين العرب والبربر والإسبان والمسلمين والمتسلِّمين. ومن هذا الحين أبَى أن يَخُصَّ أيَّ حزبٍ من رعيَّته بميزة أو يرفعه فوق غيره، وشدَّد الضغطَ على زُعماء العرب، فابتهَج الإسبانُ بإذلالهم، وأصبحَ المُلكُ اليوم خالصًا للخليفة وحده، فحكَم مستقِلَّ الرأيِ مستبدًّا، وقابلت الأمةُ استبدادَه بسُرور وغِبْطة بعد عدة سنوات قضَتْها في الاضطراب والفَوضى، وبعد أن استراح الناس من العِصابات التي كانت تُغِير على زُرُوعِهم وكُرُومهم.

وإذا كان الخليفةُ مستبِدَّ السُّلطانِ، فإنه لم يتجاوز الحدَّ في استبداده الذي أعاد الناسَ إلى حياةِ الأَمْنِ والثروة، وأطلَق عِقالَهم لينالوا من الغِنَى ورَغَدِ العَيْشِ ما يشتهون، على النحو الذي يَشْتَهون.

حاضِرة الخِلافة

يقول أحد مؤرخي العرب: «إنَّ قرطبة عَرُوس الأندلس، بها من الجمال والزينة ما يُبْهِر العينَ ويَسُرُّ النفسَ، فأمراؤها المتعاقِبون تاجُ مجدِها، وقِلادتها نُظِمت من دُرَرٍ استخرجها شعراؤها من بحر اللغة الخِضَمِّ، وحُلَّتُها أعلام الآداب والعلوم، وأَهْدابُ حُلَّتها أصحاب الفنون والصناعات» [363].

وهكذا يصوِّر المؤرِّخ الشرقي مدينته المحبوبة بما شاء من خيال الشرق البعيد.

ولقد كانت قرطبة أيامَ الخليفة العظيم حاضرةً جديرةً بالفَخْر والإعجاب، وإذا استثنَيْنا بيزنطة فلن نجد في أوربا مدينة تُسامِيها في جمال أبنيتها، أو في حياتها الرَّخِية المتْرَفَة، أو فيما تَزْخَر به من أنواع العلوم وفنون الآداب.

إنَّ الموجَز الذي نحن بصددِ نقله عن مؤرخي العرب في وصف قرطبة، وما كانت فيه من نَهضة وازْدِهار ومَجْد، إنما يعود زمنُه إلى القرن العاشر، وإذا لحظنا أنَّ أسلافنا السكسون في هذا العهد كانوا يَسْكُنون الأكواخ ويفترِشون القَصِيل، وأن لغتنا لم تكن تكوَّنت بعد، وأن القراءة والكتابة كانتا محصورتين في عددٍ قليل من الرُّهْبان - عرفنا ما كان للعرب من مدَنِيَّة عجيبة، وحضارةٍ منقَطِعة النظير. وتظهَرُ المقابَلة جَلِية غريبةً بين حاضرة الأندلس وغيرها من المدن، إذا ذكرنا أنَّ أوربا كلها في هذا العهد كانت غارِقَةً في حَمْأةٍ من الجَهْل وخُشونة الأخلاق، وأنها لم يكن بها شيء مِن آثار المدنِية إلا ما بقي للإمبراطورية الرُّومانية من أطْيافٍ في القسطنطينية، وبعضِ أجزاء إيطاليا.

ويقول مؤرِّخ عربيٌّ آخر: «إن قرطبةَ مدينة حصِينة، تُحيط بها أَسْوارٌ من الحجَر ضخمةٌ شاهِقةٌ، وهي جميلةُ الشَّوارع، وكانت في الزمن القديم مقَرَّ سلاطِين الكفَّارِ، وكانت دُورهم داخل سورها المحيط بها، ويُشتَهر سُكَّانُها بالرِّقَّة والظَّرْف وكَرَم الخُلُق وحِدَّة الذكاء، ولهم الذَّوْق الكامِل في مآكِلِهم، وملابسهم، وانتِقاءِ خيُولهم، وإليها كانت الرحلة في رواية الشِّعر، إذ كانت مركَز الكُرَماء ومَيدان العلماءِ والشُّعراء، ولم تَزَل تُملأ الصُّدورُ منها والحقائبُ، ويُبارِي فيها أصحابُ الكتب أصحابَ الكتائبِ، ولم تَبْرح ساحتُها مَجَرَّ عَوَالٍ ومَجْرى سَوَابِق، ومَحَطَّ مَعَالٍ وحِمَى حَقائِق، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، والزَّوْر من الأسد» [364].

وهذا المديحُ الشَّرْقي عُرضَةٌ للمبالغة والإِغْراق، ولكن قرطبة كانت جَديرة بكل ما يُنثَر عليها من الإطْراء والثَّناء، ولن تستطيع إذا رأيتها الآن، أن تدرك ما كان لها من جمال رائع أيام الخليفة العظيم، فإنَّ شوارعها الضيقة، ودُورها

المبيَّضَة بالجَّصِّ، لا تَرسُم إلا صورةً ضَئِيلة لما كان لها من العظَمة واستِبحار العُمران، فقد تهدّم «القصر» واتخذ الإسبانُ أطلالَه بعد العِزِّ السامِق سجنًا للمجرمين، ولا تزال القَنْطَرةُ ماثِلةً فوق الوادي الكبير إلى اليوم، كما لا يزال المسجِد الجامع الذي بناه أول الأُمويين عجبًا من العَجب، ومصدر دهشةٍ للسائحين. ومن المحقَّق أنه كان أجملَ روعةً أيام عبد الرحمن الناصر أو بعدها بقليل، حينما زاد الوزير الأعظم (المنصور ابن أبي عامر) في بنائه [365].

واختلف المؤرخون في مقدار اتِّساع رُقْعة المدينة، والأرجحُ أنَّ طولَها لا يقِل عن عشَرة أميال، وكانت شواطئ الوادي الكبير متلألِئةً بالقصور المبنِيَّة بالرخام والمرْمَر، وبالمساجد والحدائق التي عُني فيها أشَدُّ عناية بالأزهار والأشجار النادرة، المجلُوبة من الممالك الأخرى، وأدخل العربُ بالأندلس نظامهم في الرَّيِّ الذي لم يصل الإسبانيون إلى مثلهِ من قبل ولا من بعد [366]،ونقل أول أمراء الأُمويين نخلَةً من الشام لتذكُّره بموطنه، ونظم فيها قصيدة محزنة يندُب فيها بُعدَه عن أهله ودياره، كما بعدت النخلَة عن أهلها وديارها، وقد غرسَها في حديقة حاكى بها حديقةَ جدِّه هشام بدمشق، التي كانت مَلْعَب لهوه في أيام صباه، وأرسل رسلًا في كل بِقاع الأرض ليجلِبوا إليه أنْدَرَ ما في البلاد من الشجر والنبات والبذور، وكان بستانيوه غاية في المهارة والذكاء، فنَمَت هذه الأنواع الغريبة، واعتادت الإقليم، وانتقلت من حديقةِ القصر إلى كلِّ بلادِ الأندلس، وعُرِف الرمَّان ونما وكثُر بالأندلس، بعد أن جاء في هدية لعبد الرحمن الداخل من دمشق، فأخِذت حبوبُه واستُنْبِتَت بحديقته [367]. «وكانت هذه الحديقة تُرْوَى بأنابيبَ من الرَّصاص، تَصبُّ الماء منها تماثيل مختلفة الأشكال، من الذهب الإبْرِيز، والفِضَّة الخالصة، والنُّحاسِ المموَّه، في أحواضِ الرُّخام الرومية المنقوشَة العجيبة، فترسله إلى البحيرات الهائلة، والبِرَكَ البديعة، والصَّهارِيج الغريبة».

ويحدثنا المؤرخون بكثيرٍ من أعاجيبِ قصور الأمير عبد الرحمن، وما كان بها من الأبواب الفاخرة، التي تفتح على الحدائق أو على النهر، أو التي يمر منها الأمير إلى المسجد الجامع، في طريقٍ فُرِشَت بالبُسُط الثمينة ليؤدي صلاةَ الجمعة.

وكان بعض هذه القصور يسمَّى «بالزاهر» [368]، وبعضها «بالمعشوق» [369]، وبعضها «بالمؤنس» [370]، ورابع «بقصر التاج» [371] وهكذا، في حين احتفظ قصر خامس باسم حاضرة الأمويين بالشرق وهو «دمشق» [372]، وكان يقوم على أعْمدةٍ من الرخام، وقد رُصِفت أرضُه بالفُسَيْفِساء وبلغ غايةَ الرَّوعة والجمال حتى ليقول فيه بعض الشعراء [373]: [374]،

كُلُّ قَصرٍ بعد الدِّمَشْقِ يُذَمُّ		فيه طاب الجنَى ولَذَّ المشَمُّ

وثَرًى عاطِرٌ وقصر أَشَمُّ		منظَر رائقٌ وماء نَمِير
عَنْبَرٌ أَشْهَبُ ومِسْكٌ أَحَمُّ[3]		بِتُّ فيه والليلُ والفجْرُ عندي

ولبعضِ بساتينِ قرطبةَ أسماءٌ مُغْرِيَة تدعو المرْءَ إلى الاضْطِجاع بجانب جَداوِلها المتدفِّقة، والتمتُّع بِشَذَا أزهارِها وأثمارها: «فمُنْيَة النَّاعورة» [375] توحي إليك بإحساسٍ نحو الراحة والنَّعيم، مُنْصِتًا إلى صَوْت الماء وهو ينصب من السَّاقية إلى حِياض البُستان، و«مَرْج الخَزِّ» [376] كان بلا شك بستانًا ساحِرَ المنظَر لأهل قرطبة، بأزهاره المختلِفة الألوان. وكان جَرَيانُ الوادي الكبير مصدَرَ بهجةٍ وسُرورٍ لهم، لأنَّ الشَّرقيين لا يحِبُّون شيئًا في الدنيا، أكثرَ مِن أنْ يَرَوا منظَرًا يَسْمَعون فيه تَمْتَمَة الأنهار. وعربُ أسبانيا شرقِيُّون في كل شيءٍ إلا في موقِعهم الجغرافيِّ.

وقد امتدَّ بين شاطئ النهر جِسرٌ فَخْم به سبعَ عشرةَ قَنْطَرة، وهو لا يزال ماثِلا إلى اليوم يشهَد بمهارة العرب في علومِ الهندسة، وكانت المدينة مزدَحِمةً بالدُّورِ الفَخْمة، قيل إنه كان بها أكثرُ من خمسين ألف قصر للعظماء ورجال الدولة، وأكثر من مائة ألف بيت للعامة، ونحو سبعمائة مسجد، وتسعمائة حمَّام [377].

وللحمَّامات شأنٌ كبيرٌ في المدن الإسلامية، لأنَّ النظافة عند المسلمين ليست من الإيمان فحسب، بل هي شرط لازم لأداء الصلوات والعبادات عامة، ذلك في حين أنْ كان مسيحيو العصور الوسطى ينهَون عن النظافة ويعدُّونها من عمل الوثنِيِّين، وكان الرُّهبان والراهبات يَفْخَرون بقَذَارتهم، حتى إنَّ راهِبةً دَوَّنَت ببعض مُذَكِّراتها في صَلَفٍ وعُجْب: أنها إلى سِنِّ الستين لم يَمَسَّ الماءُ منها إلا أناملها، عندما كانت تَغْمِسها في ماء الكنيسة المقدَّس [378]. نقول: بينما كانت القذارة من مميزات القداسة، كان المسلمون شديدي الحرص على النظافة، لا يجرؤون أن يَقِفوا لعبادةِ ربهم إلا إذا كانوا متطهِّرين، وحينما عادت أسبانيا إلى الحكم المسيحي، أمر فيليب الثاني زوج ماري ملكة إنجلترا بهدم كلِّ الحمامات العامة، لأنها من آثار المسلمين!

وكان لا يزال للمسجِدِ الجامع المنزلةُ الأولى بين مباني قرطبة الضخمة الجميلة، فقد أنشأه عبد الرحمن الداخل في سنة 784م (168هـ) وأنفق في بنائه ثمانين ألف دينار، حصل عليها من

غنائِمِ القُوطِ، ثم أتم هذا المسجدَ ابنُه التقيُّ هشامٌ في سنة 793م (177هـ) بما اغتنمه من حروب أربونة، وكان كلُّ أمير بعده يضيف جمالا جديدًا إلى هذا المسجد الذي يُعَدُّ أبدعَ مِثالٍ في العالَم للفن الإسلامي في أول عهوده. فمِن الأُمراء من صفَّح السَّواريَ والحِيطانَ بالذَّهب، ومنهم من أضاف إليه مِئْذنة، ومنهم مَن زاد في رُقْعته ليتَّسع للعدد الضخم من المصلِّين، وكان عددُ بواكيه [379] تسع عشرة من الشرق إلى الغرب، وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب، وبه واحد وعشرون بابًا طُلِيت بالنحاس الأصفر اللَّمَّاع، وثلاث وتسعون ومائتان وألف سارية، وقد أُجْرِيت الفِضة [380] في حِيطان مِحْرابه المزيَّن بالفُسَيْفِساء، وصُبَّ في سَوارِيه الذهبُ الإبريزُ واللازورد [381]. أما المنبرُ فقد صُنِع من العاجِ ونَفِيس الخشبِ، وهو مؤلَّفٌ من ستة وثلاثين ألفَ قطعةٍ منفصِلة، رُصِّع أكثرُها بالأحجار الكريمة وسُمِّر بمسامير من الذهبِ، وكان يصِل الماءُ من الجبال إلى الينابيع التي أُعِدَّت لوضوء المصلِّين، وكانت هذه الينابيعُ تَقْذِف بمائها ليلا

ونهارًا، وبُنِيت دُورٌ إلى الجانب الغربي من المسجد لنزول فُقراءِ المسافرين وأبناءِ السَّبِيل، وبالمسجدِ مِئاتٌ من الثُّرَيَّات [382] التي صُنِعت من نُحاسِ أَجْراسِ الكنائس للإضاءة ليلا، وكان به شُموعٌ ضخمة زِنَةُ الواحدة منها خَمسون رطلا [383]، كانت تشتعِلَ ليلا ونهارًا إلى جانبي الخطيب أو الواعظ في شهر رمضان وكان بالمسجدِ ثلثمائة خادم لإيقادِ البَخُور من العَنبر والعُود، ولإعداد الزَّيْتِ العَطِر لإضاءة عشرة آلاف فَتِيلٍ للقنادِيل، وقد بَقي كثيرٌ من جَمال هذا المسجد ماثلا إلى الآن، فإنَّ السائحين يقِفون اليوم دَهِشين أمام هذه الغابة من السَّواري، فيرُوعُهم فيها منظَرٌ لا يكاد يَنْتَهي مِن كلِّ جانب، ولا تزالُ سواري الصُّوان اللامِع والرخام المجزع في مَواضِعها، ولا يزال الزجاجُ الفاخرُ الذي استحضره صُنَّاعٌ ماهرون من بِيزَنطة يلمَع لمعانَ الجواهر، ولا يزال المحرابُ بقِبابه المتلاقية يملأ العيون والقلوب، ولا تزال أشجار البرتقال مُورِقَةً بصَحْن الجامع تُسايِر امتدادَ السَّواري، فإذا وقف المرءُ أمامَ عظَمة هذا المسجد وجماله، عادت به الذِّكْرى

إلى أيامِ مجدِ قرطبة وازدهارها، أيام الخليفة العظيم التي لن تعود.

وأَشدُّ بُعدًا في باب الغرابة مدينةُ الزَّهْراء [384] - وإن لم تكن أكثر من المسجد حسنًا - بناها عبد الرحمن الناصر في أحد أَرْباض قرطبة لأن إحدى زوجاته [385] - وقد كان مَشْغوفًا بها -تمنَّت عليه أن يبني لها مدينة باسمِها. وكان الخليفةُ العظيمُ كغيرِه من ملوكِ المسلمين مُولَعًا بالبناء والتجديد فأجاب طِلْبَتها، وأنشأ مدينةً في سَفْح الجبلِ المسمَّى بجبل العَرُوس على بِضعةِ أميالٍ من قرطبة [386] كان ينفِق عليها كلَّ سنة ثُلُثَ دَخْل الممَلَكة [387] مدة خمس وعشرين سنة، ثم استمر ابنه من بعده في الإنفاق عليها مدة عشر سنين، وكان عَدَدُ العمال في كل يوم عشرة آلاف، وكان جملة ما يُبنَى منها في كلِّ يوم من الصخر المنْجُور المعدَّل ستة آلاف صخرة، ويَعمَل في عمارتها في كل يوم نحوُ ثلاثة آلاف دابة، وأقيم بها من السواري أربعة آلاف كان كثير منها هدِيَّة من إمبراطور القسطنطينية [388] أو من رومة، أو قرطاجنة، أو سفاقس، أو غيرها، إلى جانب ما كان يُؤخَذ من مقاطِع طركونة والمرية.

وكان بالزهراء خمسةَ عشر ألف باب مُلَبَّس بالحديد أو النحاس الممَوَّه [389]، وكان سَقْفُ بَهْوِ الخليفة بالزهراء وحِيطانه من الرخام والذهب وبفَوَّارته تمثال عجيب أهداه إليه ملك الروم، وبعث إليه معه بدُرَّة نادرة، وفي وسَط البَهْو حوضٌ مَليء بالزئبق الرَّجْرَاج، إلى كل جانب منه ثمانية أبواب من العاج والآبنوس قد رُصِّعَت بالجواهر، فإذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب، ولاقت اهتزاز الزِّئبق، ملأت البهو ببريق يشبه لمعان البُروق، حتى لقد يحجُب رجال الدولة عُيونَهم بأيديهم لشدته [390].

ويجِد مؤلِّفو العرب مُتعةً في التحدُّث بعجائب الزهراء فيقول بعضهم: «لقد يمتد بنا الحديث إذا اقتصرنا على عدِّ ما بالزهراء من جَمالٍ وفنٍّ: فهناك الجداوِل الدافِقة، والأمواه المتعرِّجة، والبساتين الزاهرة، والقصور الفخمة لسُكْنى رجال الدولة، وهناك صفوفُ الجند والخدم والعبيد من كل بلد ومِلَّة، وهم في ملابس الحرير بين إقْبال وإدْبار، في شوارعها الفسِيحة، ثم هناك ازدحام القضاةِ والفقهاءِ والشعراء وهم يمشُون في وَقار ورَهبة في أَبْهاء القصر الفَخْمة وأفْنِيَته الكثيرة» [391].

وقد قُدِّر عَدَدُ الفِتيان من خَدَم القصر بخمسين وسبعمائة وثلاثة عشر ألفًا، يُصرَف لهم في كل يوم من اللحم نحو ثلاثة عشر ألف رطل، حاشا أنواع الطير والحوت، وقُدِّر عَددُ نساءِ القصر من كل جنس وطبقة بما في ذلك نساء الخليفة ووَصِيفَاتهن بأربع عشرة وثلثمائة وستة آلاف، وكان بالقصر من الخدَم

الصَّقالبة والخِصيان خمسون وثلثمائة وثلاثة آلاف، خُصِّص لهم من اللّحم أو الدَّجاج أو الطيور ثلاثة عشر ألف رطل، فمنهم من كان يصرف له عشرة أرطال، ومنهم ما كان يصرف له أقل من ذلك على حسَب منازلهم، وكان يُقْذَف لحيتانِ بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف رغيف في اليوم، غير ستة أَقْفِزة من الحِمَّصِ الأَسْود تُنْقَع لها في كل يوم.

وعجائب هذا القصر دُوِّنت بإسهابٍ في كتب مؤرخي هذا العهد، وخطَب بها الخطباءُ ونَظمها الشُّعراءُ الذين استَنْفَدوا كنوزَ البلاغة في أوصافهم «وقد أطْبق كلُّ مَن رأى قصرَ الزَّهراء على أنه لم يُبْنَ مِثله، في الإسلام ألْبتة، وما دخل إليه أحدٌ من سائر البلاد النائِية والنِّحَل المختلِفة، من مَلِك وارِدٍ، أو رَسولٍ وافِد، أو تاجر، أو جِهْبِذٍ - وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفِطْنة - إلا وكُلُّهم قَطَع أنه لم يَرَ له شَبيهًا، بل لم يسمَع، بل لم يكن يتوهَّم كَوْنَ مثله، ولو لم يكن فيه إلا السَّطْح الممَرَّد المشْرِف على الرَّوضة المباهي بمجلِس الذَّهب، والقُبَّة وعجيبِ ما تضمنته من إتقانِ الصَّنعة وفخَامة الهِمَّة وحُسْن المستَشْرَف وبراعة الأثاثِ والفُرُش والسَّجْفِ [392]، ما بين مَرْمَرٍ مَسْنُونٍ وذهب مَصُونٍ، وعُمُدٍ كأنها أُفْرِغت في القوالِب، نُقُوش كالرِّياض، وبِرَكٍ عظيمة مُحكَمَة الصَّنْعة، وحِياضٍ وتماثيلَ عجيبةِ الأشخاص، لا تهتدي الأَوْهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها - لكفاه بعضُ ذلك شرقًا ونُبْلا. فسُبحان الذي أَقْدَر هذا المخلُوقَ الضَّعيفَ على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنْحَلَّة، لكي يُرِيَ الغافِلين عنه من عباده مِثالا لما أعدّه لأهل [393] السعادة في دار المُقامة، التي لا يتسلَّط عليها الفَناء ولا تحتاج إلى الرَّمِّ، لا إله إلا هو المنفرد بالكرم» [394].

وقد استقبَل الخليفةُ بقصر الزهراء مَلِكة نافار وسانشو (شانجة) في حفْلٍ عظيم، وبه جلس ليُحَيِّي رُسُلَ ملك الروم الذين بعثهم إلى حضرته، وقعَد للقائهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول 338هـ (949م) في بهو المجلس الزاهر - قُعودًا حَسنًا نَبِيلا، وكان قد أمر كِبار رجال الدولة وقُوَّادَ الجيش، أن يُعِدُّوا لهذه المقابلة خَيرَ إعدَادٍ وأفخَمه. وكان

البَهْوُ في أكمل زِينةٍ، والعرشُ في وسَطه يلْمَعُ ذهبُه، وتتلألأ نفائِسُ جواهره، ووقف إلى يساره أبناؤه، فالوُزَراء [395] على مراتبهم يمينًا وشمالا، ثم الحُجَّاب [396] من أهل الخِدمة، وأبناء الوزراء والموالي ورجال خاصَّة القصر وغيرهم.

وقد فُرِشَ صَحنُ الدار بعِتَاقِ البُسُط وكَرائم الدَّرانِك، وظُلِّلتْ أبوابُ الدَّارِ وحَنَاياها بظُلَلِ الدِّيباج ورَفِيع الستور، فوَصَل رُسُلُ ملِك الروم حائِرين من بَهْجة المُلك وفَخامة السُّلطان، ثم تقدَّموا خُطوات وقدَّموا كتاب مَلِكهم صاحبِ القسطنطينية العظمى، قسطنطين بن ليون، وهو في ورق سماوِيِّ اللون كُتِب بالذهب بالخط الإغرِيقيِّ.

ولما احتفَل الناصرُ لدين الله هذا الاحتفال، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ليذكروا جلالة مَقْعَدِه وعظيمَ سُلطانه، ويَصِفُوا ما تهيأ من تَوْطِيد الخلافة في دولته.

وتقدَّم إلى الأمير الحَكَمُ [397] وابنهُ ووليُّ عهدِه، بإعداد من يقوم بِذلك من الخطباء، وقام خطيبٌ وأخذَ يحاول التكلُّم فهالَه وبَهَره هَوْلَ المَقام وأُبَّهة الخلافة، فلم يَهْتَدِ إلى لَفْظَة، وغُشي عليه وسَقط إلى الأرض. ثم قام آخر [398] فحمِد الله وأثنى عليه ثم انقطع به القولُ فوقف ساكِتًا مَبْهُوتًا [399]. وقد بذَل الخليفةُ جُهدَه في بناء الزهراء وإتقانِ قصورها وزَخْرفة مصانِعها، وانْهمَك في ذلك حتى عَطَّل شُهود الجُمعةِ بالمسجد الجامع ثلاثَ مرات متواليات، وحينما ذهب إلى المسجد بعد ذلك، أنذَره الخطيبُ بالعذابِ الأليم في نار الجحيم لتعطِيل الجُمَعِ [400].

ورَوْنَقُ قصورِ قرطبة وبساتِينُها - مع استِهْوائه القلوبَ - يُغرِينا بجمالٍ آخرَ لا يقِلُّ عن رَوْنَقِها الظاهر. فقد كانت عُقول أهلِ قرطبةَ كقصورِها في الحُسن والرَّوْعة، فإنَّ علماءها وأساتِذَتَها جعلوا منها مركَزًا للثقافة الأوربية، فكان الطَّلَبَة يَفِدون إليها من جميع أنحاء أوربا ليتَلَقَّوا العِلم عن جَهابِذَتِها الأعلام، حتى إن الرَّاهِبة «هروسويذا» وهي بعيدة في دِيرها السَّكْسُوني بجودرشيم - حينما أُخْبِرت بِشَنْق يولوجيوس لم تستطع إلا أن تُثْنِي على قرطبة وتسميها «ألْمعَ مَفخَرةٍ للدنيا». وكان يُدَرَّسُ بقرطبة كلُّ فَرعٍ للعلوم البَحْتَة، ونال الطبُّ بكشف أطباء الأندلس وجَرَّاحيها من النمو والازدهار نصيبًا أعظم مما ناله قبلهم منذ أيام جالينوس. وكان أبو الطيب خلف جَراحًا ذَائِعَ الصِّيْتِ في القرن

الحادي عشرَ وبعضُ عمليَّاته الجراحية يطابِق اليومَ العمليات الحديثة. وجاء ابن زُهر [401] بعده بقليل، فكَشَف عن أساليبَ كثيرة في العِلاج والجراحة. أما ابنُ البيطار [402] العالِم النَّبَاتي، فإنه سافر إلى كلِّ بِقاع الشرق للبحث عن العَقاقير الطِّبِّيَّة، وألَّف في ذلك كتابًا جامعًا. وكان الفيلسوف ابنُ رُشْدٍ [403] الحلْقة في السلسلة التي وَصَلت فلسفةَ قُدامَى اليونان بفلسفةِ أوربا في العصُور الوُسْطى. وكانت علوم الفَلَك، والجغرافيا، والكيمياء، والتاريخ الطبيعي، تُدْرَس بمثابَرة وجدٍّ بقرطبة، أما الأدب العربيُّ فإنَّ أوربا لم تر في عهدٍ من عهودها حفاوة بالأدب وأهلِه كما رأت في الأندلس، حين كان الناسُ من كل طبقة يَنظِمون الشعر. ويُظَن أن هذا الشعر هو الذي أَوْحى للشعراء المغنِّين بأسبانيا بأناشيدهم القصصية وأغانيهم، وهو الذي حاكاه شعراء «بروفانس» و«إيطاليا».

ولم تكن تُعَدُّ الخطبة أو الرسالة كاملة إلا إذا تضمَّنت أبياتًا تُرْتَجل أو تُخْتار من مأثور الشعر الرَّصِين، ويظهر أن العالم الإسلامي اتجه بِرُوحانيته إلى آلهة الفنون، فمِنَ الخليفة في عرشه، إلى النُّوتي في سفينته، كنتَ تسمعُ النَّظْم الفائِق في مَشاهِدِ الأندلس وجمال مُدُنِها، ثم في رَوعة خَرِير الأنهار وسِحر الليل السَّاجِي، وقد هدأت فيه النجوم، ثم في نَشْوة الحبِّ والخَمْر، ومجتَمَع الأُنْس، وقد اختَلَس المحِبُّ ساعة لقاءٍ بفاتِنَتِه التي تَرمي بقَوْس حاجِبها القلوبَ [404].

وقد بلغت الأندلس الغايةَ في الفنون، فبناءُ مدينةٍ كالزهراء، أو مسجد كالمسجد الجامع، ما كان ليَتِمَّ على هذا الوضع الرائع إلا إذا بلغ العُمَّال قِمة المهارة في صناعاتهم. وكانت صناعةُ الحريرِ من الصناعات الممتازةِ بالأندلس، فقد قيل إنَّ عَدَد النَّساجين بلغ في قرطبة وحدَها مائة وثلاثين ألفًا.

واشتُهِرت المَرِيَّة [405] بمنسُوجاتها الحرِيرِيَّة وبُسُطِها. ووصلت الفخارة في الإتقان حدًّا عجيبًا، فقد انتهى الفن بالصُّنَّاع بجزيرة ميورقة [406] إلى أن أبرزوا أوانيَ فُخَّارِية تلْمَع ببريقٍ معدِنيٍّ. ومنها استعارت إيطاليا اسم أوانيها التي دَعتها بالميورقية. وكانت تصنَع الأواني النُّحاسية والحديدية والزجاجية المزجَّجة والمذهَّبة بالمرِية، ولا يزال لدينا بعضُ نماذِجَ من العاجِ المحْفُور وقد كُتِب عليها أسماءُ عظماءِ قرطبة.

نعم إن هذه الفنون نُقِلت من الشرق بغير شكٍّ، ولكن صُنَّاع الأندلس كانوا تلاميذ نُجَبَاء لأساتذتهم من البيزنطيين، والفُرس، والمصريين. فوصلوا إلى درجة النُّبُوغ في صناعة الحُليِّ، وبقي من ذلك إلى اليوم أثَرٌ عجيب من آثار ابنِ الخليفةِ العظيم، لا يزال يحفَظه الإسْبانُ فوق المذْبَح الأعلى لكنيسةِ قُرطبة: وهو عُلْبَة مُلَبَّسة بالفِضة، مُرَصَّعة بالدُّرِّ، وقد كُتِب عليها بالعربية دُعاءٌ وتَمجيد

لأمير المؤمنين الحكَم المستَنصِر بالله. وهو دعاء يُعَدُّ غَرِيبًا فوق مذبَحٍ للمسيحية.

وكانت الحُلِيُّ ومَقابِض السيوف دقيقةَ الصُّنْع بارِعة الفنِّ،كما يدلُّ على ذلك سيفُ الأمير أبي عبد الله آخر أمراء غَرناطة [407]. واشتُهر المسلمون دائمًا بصِناعة المعادِن حتى إنَّ بعض الأشياء التافِهة كالمفاتِيح، كانت جميلة الصَّنْعة فائقة الحِلْيَة. والثُّرَيَّا البديعة التي صُنِعت لمسجد أميرِ غرناطة محمد الثالث [408] والتي لا تزال ماثلة بمجريط (مدريد) خير مثال لتفوق العرَب في نَقْش البُرنز وإتقان زخارفه.

ووصلت الأندلسُ إلى منزلةٍ في صناعة المخرّمات لم تَصِلْها إلا دمشقُ والقاهرة. ولا نزال نقرأُ في كثيرٍ من أمكنة غَرناطة تلك العبارة: «لا غالبَ إلا الله» وهي شِعار أمرائها [409]، وقد سبق أن تحدَّثْنا عن الأبواب النُّحاسية بقصور قرطبة، وبعضُ هذه لا يزال باقيًا إلى اليوم بكنائس أسبانيا.

وطالما سمِع الناس عن سيُوف طُلَيْطُلة، ومهارة أهلها في صناعة الصُّلْب، وهذه الصناعة - وإن كانت في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي - زادت تقدُّمًا في أيام الخلفاء والأمراء بقرطبة. واشتهرت المَرِية، وإشبيلية ومُرْسِية، وغَرناطة بصُنْع الدُّروع وآلات الحرب.

وجاء بوَصِيَّة الدون بدرو: «وأُوصِي أيضًا لابني بسيفي القشتالي الذي صنع بإشبِيلِية، ورُصِّع مَقْبِضُه بالذهب ونَفِيس الجوهر».

وقُصارَى القولِ: أن قرطبة كانت بحقٍّ «مفخرةً للدنيا»، في الفنون والعلومِ وأسبابِ المدنِيَّة جَمْعاء.

الحاجبُ العظيم

كَبيرُ الوزراء

كان عبدُ الرحمن الناصر آخرَ عظماء الأمراء من بني أُمية بالأندلس، وكان ابنُه الحكَم دودَةَ كُتُبٍ، ودُودُ الكُتبِ من الناس - وإن أفادوا جدًّا فيما اتجهوا إليه - قلَّما يكونون حُكَّامًا عظماء، فإنَّ منصِب الملك لا يهيئ لصاحبه أن يبلغ الذُّرْوَة في العلم، فقد يعرف الملِك كلَّ شيء تحت الشمس، وقد يصرف فراغَه كما كان يفعلُ ملوكُ قرطبة في الشِّعر والموسيقى، غير أنه يجب ألَّا يَدْفِن نفسه في خزائِن كتبه، أو أن يُعنَى بالمخطوطاتِ أكثرَ من عنايته بالحروب، أو أنْ يُؤْثِر تَجلِيدَ الكتب ورَتْقَها على رَتْقِ مَواطِن الألم من رعيته. وكان الحَكَم في شدة انصرافه إلى الكتب كذلك.

إنه لم يكن ضعيفَ القلب أو غافلا عن تَبِعاتِه الجِسام، ولكنَّ انهِماكَه في الدرس سَلَبه الاهتمامَ بالغَزْو، والتَّشَوُّق إلى الظَّفر في الحرب، فقد أغرَق في إلقاء العَنان لطبيعته الميَّالة إلى الاطلاع حتى تكوَّنت له أذواقٌ وميولٌ فنية، هي أثرُ الدراسات العلمية ونتيجتها.

ولم يَضُرَّ طبعُه الهادئُ ومِزاجُه العلميُّ مملَكَتَه كثيرًا، فقد كان ابنُ الخليفةِ العظيمِ حقًّا حينما كان يقود جيوشَه لمحاربة نصارى ليون، إذا نقَضوا عهُودَهم، وكان الرعب الذي غَرسه أبوه في القلوب عَظِيما، والشُّعور بقوَّة الخلافة شاملًا، حتى إنَّ أمراء نصارى الشمال ألْقوا بزِمام أمورهم إلى الحَكَم، وقَدِم أحدُهم إلى قرطبة يتوسَّل إليه ويَرْجوه في إعادته إلى عَرشه.

وتمَّ الصُّلْحُ بين النصارى والمسلمين، فاتَّسع الوقتُ للحَكَم، فعاد إلى جَمع الكُتب لخزائنِه. وكان يُرْسل رسلا إلى كل بِقاع الشرق ليبتاعوا له المخطوطات النادِرة، ويَعودوا بها إلى قرطبة، وكان رُسُلُه يُنَقِّبون عن الكُتبِ العزيزة المنال عند وَرَّاقي القاهرة، ودِمَشْقَ وبَغْدادَ، وإذا لم يستطع الحصولَ على كِتاب بأيِّ ثَمنٍ، أمَر بنَسْخِه؛ وكان يَسْمَع أحيانًا بكتاب لا يزال في دماغ مؤلِّفه، فيرسِل إليه بهدية ثمينة ويسأله أن يبعث بالنسخة الأولى إلى قرطبة، وقد جمَع بهذه الوسائل ما لا يقِلُّ عن أربعمائة ألف كتاب [410]، وذلك في وقت لم تُعرَف فيه الطباعة، وحين كان الخطَّاطون يلاقون عَنَتًا في كتابة الكتب بالخطِّ الواضح الجميل.

ولم يكتف الحَكَمُ بالحصول على هذه الكُتب، ولكنه خالَف جميع جَمَّاعي الكتب بقراءتها جميعًا والتعليق عليها، وكان واسعَ العِلم، حتى إن تعليقاتِه

كانت تُعَدُّ عند العلماء من أجَلِّ ما يُكْتَب وأنْفَسِه؛ وكان تدميرُ البربرِ لِقسم عظيم من هذه الخزائن كارثةً على الأدبِ العربيِّ.

وكان مما يطمَئِنُّ له الظَّنُّ، أن يسترِيح خَلَفُ الخليفةِ العظيم وينعَم بما جَناه له أبوه من ثِمار النصر، ويمتِّع نفسه بالدراسة الهادئة، بينما كان أعداؤه في الخارج يرقُبون غزوَه لبلادهم من حين إلى حين. لأنَّ العمل الذي أتمَّه عبد الرحمن الناصر لم يستطِع خليفةٌ واحدٌ أن ينقُضه، ولم ينتقِض إلا بعد أن تَدَاوله خليفتان بعده. حينذاك هَوى ذلك المُلْكُ الأَثِيل [411] إلى الأرض مرة أخرى.

حَكَم الحَكَمُ المستنصِر بالله أربعَ عشرةَ سنةً [412] وحين مات كان ابنُه هشامٌ المؤيَّد في الثانيةَ عشرةَ [413] حينما جلَس على العرش، ولا يستطيع حادِسٌ أن يقدِّر ما كان يكون عليه هذا الخليفةُ الصغيرُ، لو لقي ممن حوله حبًّا وإخلاصًا. والتاريخ يذكر له بعضَ المخايِل التي كانت تُبَشِّر بالذكاء وحُسن الرأي، وبأنه باستعداده جَدِير بأن يترسَّم خطواتِ جدِّه [414]، ولكن حياة (الحكَم) العلمية وتهاوُنَه، سلَبت ابنه ووليَّه أيةَ فُرصةٍ لقوة السُّلْطان، فإن الحكَم حينما كان في شُغْلٍ بجَمْعِ الكتب وتجلِيدها، كان عظماءُ القُوَّاد بمملَكته يتدرَّجون في النفوذ ورِفعة الشأن وغير ذلك من الأمور التي لو حدثت في أيام عبد الرحمن الناصر لوقَف تيارَها. وكان من آثار أعمالِ الحَكَم أيضًا أن أخذت زوجاتُه يفرِضْن نفوذَهن على رجال الحكومة.

إن عبد الرحمن بنى مدينةً لزوجته الزهراء، ولكنه كان يَدْهَش جدًّا لو أنها جَرُؤت على أن تقتَرِح عليه اسم شخص يولِّيه رياسة الشرطة. وحينما مات الحكَم، كان نفوذُ نِساءِ القصر عظيما، وكانت (صُبْح) [415] أم الخليفة هشامٍ أعظمَ مَن بالمملكة سُلْطانًا، وكان مِن صنائِعها شابٌّ قُدِّر له بعد حين أن يكون أبعدَ منها نفوذًا وشأنًا، ذلك هو ابن أبي عامر الذي سندعوه من الآن بالمنْصُور، وهو اللَّقب الذي اتَّخذه لنفسه بعد أن أحرَزَ انتصاراتٍ كثيرةً على المسيحيين.

بدأ المنصورُ حياتَه طالبًا مغمُورًا بجامعة قرطبة، وكان أبوه بها فَقِيهًا، ويرجع أصلُه إلى أسرة طيبة المنْبَت، وإن لم تكن ذاتَ نُفوذٍ، وقد عَزَفَت نفسُ الشَّاب عن أن يحْصُرَ مَطامحه في الوصول إلى المنزِلة التي رَضِيها أبوه لنفسه. وكان له وهو طالبٌ آمالٌ وأحلامٌ وطُموحٌ، حتى إنه هَمَس في أُذُنِ بعضِ إخوانه من الطَّلَبة بأنه سيكون في يومٍ حاكمَ الأندلس، ثم جاوَز الحدَّ في أحلامه، فسأل بعضَ الطلبةِ عما يختارون من المناصب لو أُلْقِيَت إليه أزِمَّةُ الحُكْمِ ووعدَهم بتحقِيقها، وقد صدَق وُعُودَه عندما تحققت آمالُه.

ونشأة المنصور مثالٌ رائع لما يمكن أن يعمَله الذكاءُ والشجاعة والأَثَرة، في مملكة إسلامية حيث كانت الطريق إلى المعالي مُمهَّدة للعبْقَرِيِّين كيفما كانت بدايتهم مُوئِسة مُثَبِّطة. فقد كان المنصور في أول أمره يعيش من كتابةِ

الرسائل لخدَم القصرِ، وما زال يتدرَّج بلَبَاقةٍ حتى اتصل بكبير الحُجَّاب، الذي كانت له في هذا القصر سُلْطَةُ رئيس الوزراء، فعُيِّن في مناصِبَ قليلةِ الشأنِ، اكتسَب فيها بسِحْر أخلاقه ومهارته في الملَق محبةَ نِساء القصر، وبخاصةٍ السيدةُ «صُبحُ» التي هامت به حبًّا، ثم ما زال يرقَى منزِلةً منزِلةً بإظهارِ الخضُوع للأميرات، وتقدِيم الهدايا النفِيسة إليهن، وكان يشترِيها أحيانًا مِن مالِ الدولة، حتى وصل إلى المناصِب الرفيعة. ولما بلغ الحادية والثلاثين كان يشغَلُ عِدَّةَ مناصبَ من بينها الإشرافُ على أملاك وليِّ العهدِ، وقضاءِ مدينةٍ أو مدينتينِ، والنَّظر في الزكاة والمواريث. وسحَر المنصورُ كلَّ مَن لَقيه برَفيع أدبِهِ وتَواضُعه، وكريمِ عَطائه، ورِقَّة إحساسه، ومساعدَتهِ للبائسين. وبذلك تمكَّن من اجتِذاب عددٍ عظيمٍ من الناس بينهم كثيرٌ من كِبار الدولة.

وحينما عظُم نفوذُ السيدة «صُبح» بموتِ الحَكَم، وأصبحت أمَّ الخليفة الصغير، وجَد المنصورُ الفرصةَ التي كان يترقَّبُها لتوسِيع مَدى سُلطانه، فعمِل الاثنان معًا، واستطاعا إِجْلاسَ الطِّفل هشامٍ على العرش بقَتل من كان يُنازِعه فيه [416]، ثم تمكن المنصور من القضاء على مؤامرةِ رجال القصر الصَّقالبة الذين كانوا يَأْبَون خلافة هشام.

وكان المصْحَفِيُّ [417] الحاجِبُ في هذه الفترة رئيسَ الحكومة، فأعان المنصور على الصُّعود والترقِّي في مناصب الحكم، وعمل المنصور في جِدٍّ وإخلاص على إنفاذ سياسته، وزاد في محبَّة الأُمَّة لهما ما تجرَّدا له من كسر شَوْكَة الصَّقالبة وتشتِيت كثيرٍ منهم. لأنها كانت تُبْغِض الجنودَ الغُرباء. ولكنَّ الوِفاق بين الرجلين لم يكن طويلَ الأَمَدِ، فإن المنصور كان ينتظِرُ أن يرى طريقه واضحةً للتخلُّص من الحاجِب، ويتحيَّن الفرصَ للقَضاء عليه من غير تَردُّدٍ أو خَشْيةٍ، لأنه كان يريد أن يَصِل إلى القِمَّة، وأن تَذِيعَ شُهرَتُه وترتفع مكانته بين الناس.

وقد لاحت له لائحةٌ فاقتَنَصَها في شَجاعةٍ وحَزْمٍ. ذلك أنَّ نصارى الشمال عادوا إلى الشَّغَب والمُغالاة بقوتهم، ولم يكن المصْحَفِيُّ جُنديًّا، فتحيَّر في اختيارِ مَن يَصُدُّ اعتداءهم، والمنصُور القاضي لم يكن أمْهَرَ منه في إدارة الحرب، ولكنه نَبَع من أسرة قويَّة النَّبْعة، إذ كان أحدُ أَسْلافِه من العربِ الذين صَحِبوا طارقًا في غَزْوِ أسبانيا، لذلك لم يتردَّدْ لحظَةً ولم يخالِجْه شكٌّ في كِفايته حينما طلب أنْ يقودَ الجيشَ بنفسه. وكانت غارَته على ليون موفَّقة، وكان إغْداقهُ على الجنود عظيمًا، حتى إنه حينما عاد إلى قرطبة لم يكن القائدَ المظفَّرَ فحسْبُ، بل كان مَوضِع محبَّة الجيشِ وإجلالِه.

ثم جُرِّدت حملةٌ أخرى على نصارى الشمال، وكانت القيادةُ في الحقيقة لغالِبٍ قائدِ الجنود الغُرباء، وكان شُجاعًا باسِلا اجْتَذَبه المنصورُ إليه معْتَزًّا بصدَاقته، فأعلَن غالبٌ في صراحة وجُرْأة أنَّهم ما فازوا في المعارك إلا

بعبقرية المنصور وذَكائه. وبالغَ في وصف مواهِبهِ وأغْرَق [418] حتى اعْتَقَد الناسُ جميعًا أنَّ تحت رِداء الفقيهِ القديمِ نبُوغًا عسكريًّا، وكان الأمرُ كذلك من غير شَكٍّ.

وحينما أحسَّ المنصورُ بالقوة بعد هذه الانتصاراتِ المتواليةِ، وبعد مُعاضَدة غالبٍ له واحتِطابه في حَبْلِه - أقدَم على عَزْل ابنِ المصْحَفِيِّ، وكان رئيسًا لشرطة قرطبة، وأحلَّ نفسَه مكانَه، فأحسن القيامَ على الشرطة حتى إن المدينة لم ترَ في عهُودها عَهدًا استَتَبَّ فيه النظامُ، وخضَع الناس فيه لأمر الحاكم كما رأت في عهده، لأنه كان شَديد العُنْفِ في الحق، حتى إنه ضرب ابنَه حتى مات حينما تعدَّى حُدودَ الشرعِ؛ وما أشبهه بجيونيس بروتس [419] الذي كان لا يتَجاوَز عن صغيرة في تنفِيذ القانون. وقد أعْلَت هذه السياسة من شأنه وزادت في محَامِده، لأنه بعد أن اكتسب قَبلَ ذلك محبَّة الجيشِ والأُمةِ، فاز برضا المتشدِّدين في أحكام الشريعة.

ونَضِجت الثمرةُ وآنَ له أن يضرِب ضربةً سياسية جديدة، فأخذ في مهارةٍ يلعب بغالِب والمصْحَفِيِّ ويُوقِع ما بينهما، حتى اتَّسعت شُقَّةُ الخُلْفِ بين القائد المحنَّك والمصْحفي رئيس الوزراء، وكانت الضَّرْبة القاصِمة أن أغرى القائد على العُدُول عن تَزْوِيجِ ابنتِه بالمصْحَفِيِّ، واتَّخذها زوجةً له. وفي سنة 978م (368هـ) بعد وفاةِ الحكم بسِنين رمى المنصور بآخر سَهْمٍ في كنانته، فاتَّهم المصْحَفِيَّ بالخِيانة والسرقة وأثبت عليه ذلك بأدِلة كثيرة، وألقاه في السِّجن حيث بقي به خَمْس سنوات في أسوأ عيش وأذلِّ مكانة، ثم مات أشنعَ مِيتةٍ مُسَجًّى برِداءٍ ممزَّقٍ للسَّجَّان، ويُقال: إن المنصور دَسَّ له السُّمَّ. وهكذا كانت نهاية كل مَن جَرُؤ على أن يقف في طريقِ مَطامِح المنصور، فقد آلَ تَعَسُ الطَّالِع بالمصْحَفي الحاجب إلى الفقر والعار، بمكايِد هذا الشابِّ المحدَث، الذي لم يقف خُمول أصله في وجه عبقريته، بعد أنْ وَصل الحاجبُ إلى قمةِ المجدِ والسلطان، وجَثَت الآلافُ من الرَّاجين عند قدميه، وحاول ملك ليون المعزول تقبيلَ يديه.

وفي اليوم الذي قُبِض فيه على المصْحَفِيِّ جلس المنصور في مكانه، فوصلَ إلى ذُروة القوة، وأصبح في الحقيقة حاكِمًا للملكة الإسلامية بالأندلس. وكانت تتألَّف حكومةُ الأندلس من الخليفة ووزرائه، ولكنَّ المنصور قصَرَ الخليفةَ بالقصر، وطوى الوُزراء بآرائهم ومَشُوراتهم في شخصيته العاتِية، وكان يحكُم المملكة كلَّها من قصره في أحدِ أرْباض [420] قرطبة [421]، وأصدر الكُتُب والأوامر باسمه، ودُعِي له على المنابر، وضُرِبت باسمه السِّكَّة [422]، ولبس الملابس المنسوجة بالذَّهب، وقد نُقِش اسمه عليها شأنَ الخُلَفاء. وكيفما استوى له الأمر فإنه لم يكن بنَجْوَة من كَيْدِ أعدائه، فإنَّ المطامِح لها خطرُها، ولابدَّ للمضْطَهَدِين الذين دِيسَ عليهم بالأقْدام أن يَثُوروا يومًا للأخذ

بثأرهم. وهكذا كانت حالُ المنصور، فإنَّ أحد الصَّقالبة الذين طَردَهم من القصر حينما رَفضوا تولية الخليفةِ الصغير حاول اغتيالَه فلم يُفْلِح، فقُبِض عليه مع كثير من كبارِ الدولة المتآمرين معه، وحُبِسوا ثم حُكِم عليهم بالموت فصُلِبوا [423].

وأصبحَ المنصورُ الحاكم الأعلى بقرطبة، لأن الخليفةَ الشابَّ لم يُبْدِ أيَّ اعتراضٍ على الوِصاية التي فُرِضت عليه، وكانت أمُّه «صُبْحُ» لا تزال صديقةً حميمةً للمنصور، ولم يكن في المملكة من يزعُم أنه يقارِع المنصورَ أو يدانيه في القوة إلا غالبٌ أبو زوجته... نعم إن الجيشَ أُعجِب بالمنصور وعَجِب من جُرْأته على قيادة الجيش دون أن يكون له سابقة في الجندية، ولكنه عَشِق غالبًا وفَني في محبته، لأنه كان شجاعًا حقًّا وجنديًّا بفطرته، وله من المهارة والتدابير في الحرب ما لا يُغْلَب، لذلك كان غالب منافسًا مُخِيفًا للمنصور، وكان يجب أن يزول من طريقه، فاتخذ كبير الوزراء العُدَّة لذلك بطريقته الناعمة، وعزيمته الهادئة.

وكلما حاول المنصورُ عملًا سار فيه بثَبات لا يتزَعْزَع، وإرادة من الحديدِ. ومن الأدلة الغريبة على أخلاقه: أنه كان مرة جالسًا في مجلس الوُزراء وكان القوم يتحدَّثون في بعض الشؤون العامة، إذ اشتَمَّ مَن بالمجلس رائحةَ لحمٍ يُشْوَى، وظهر لهم بعد ذلك أن الرئيس كان أحضرَ كَوَّاءً لِكَيِّ ساقِه بينما كان يناقِش زملاءه في هدوء وسَكِينة.

ومِثلُ هذا الرجل لن يصعُب عليه القضاءُ على أيَّةِ عَقَبة، ولو كانت القائدَ غالبًا، فقد دبَّر مَكايِدَه بعِناية فنجَحت جميعًا، وإذا رأى في وسائله من الشِّدَّة ما لا تَسْتَسِيغه الأُمَّة عمَد إلى تدبير آخر فيه رضاؤها واستعادةُ محبَّتها. فحينما أطفأ المؤامَرة التي قام بها عَدَدٌ من كبار الدولة لاغتِياله على النحو الذي سُقْناه آنِفًا، وأحَسَّ أنَّ له أعداءً بين الفُقَهاء ورجال الدين، أسرع إلى مُهادَنَتِهم، فدعا إلى عَقْد اجتماع من زُعَماء الفقهاء، وطلب إليهم أن يَكْتُبوا رَقًّا بأسماءِ كُتب الفلْسَفة التي يَرَوْن فيها خَطرًا على الدين وخروجًا عليه. وشُهْرة مسلمي الأندلس بشدةِ التحرُّج في الدين معروفة، فطالما لقي الفلاسِفة منها عَنَتًا. لذلك عَجَّل الفقهاءُ وقدّموا إليه قائمةً بالكُتب المقضِيِّ عليها بالإعدام. فأسرَع المنصورُ إلى إحراقِها عَلَنًا في الميادين. والمنصور كان من غَير شَكٍّ واسعَ الأُفُق، فسيحَ الصَّدْر للفلسفة، ولكنه فاز بهذه الوسيلة السهلة بأن يُدْعَى: حامي الإسلام، وبألا يَأْتمر به الفُقهاء مرة أخرى.

إن رجلا مثلَه واسعَ الحِيلةِ لن يَعجِز عن التخلُّص من غالب. فعمِد أولا إلى إحداث بعضِ الإصلاح في نظام الجيش، فحَدَّ من سُلطة القوَّاد واختلَس هذه السُّلطة لنفسه، ووصل إلى هذا باجتِلاب جنودٍ كثيرة من إفريقية ونصارى الشمال، الذين ما كانوا يأنَفون من بَيْع أنفسهم وسيوفهم لأيِّ قائدٍ مسلم،

فأحبُّوا المنصور وأخلَصوا له حينما رأوا سَخاءَه، وتوالت لديهم الأدلة على نُبوغِه الحربيِّ. وقد كان دائمًا قاسيًا: أمر مرة أن يُقْطَع رأسُ جنديٍّ بالسيف الذي كان يحمِله، لأنه لَمح وَمِيضَه وقت أن كان يجب أن يكون مُغْمَدًا، ولكنه كان في غير أمور النِّظام والتدريب أبًا لجنوده، ما داموا يُحسِنون القتال، ويفعلون ما يُؤْمَرون.

وكان تأثيرُه في جنده لا يحد: كان مرةً في خَيْمته فرأى جنودَه يفِرُّون في ذُعْر، والنصارى في أعقابهم، فرمى بنفسه من كُرسِيه وقذَف بخُوذَته بعيدًا، وجلس فوق التراب، ففهم الجند ما أبداه قائدهم من أمارات اليأسِ فعادوا أدْراجَهم، وهجَموا على النصارى فاستأْصَلوهم، وتتبَّعوا الفارِّين إلى شوارع ليون.

ثم إنَّ الجند لم يجِدوا من يَسُوقهم إلى مغانم كثيرة كالمنصور، الذي قادهم إلى النصر في أكثرَ من خمسين غزوةً [424] شنَّها على أمراء الشمال، لذلك ازداد تعلُّق الجيش به، وهوَى نَجم غالبٍ وأنصاره من المقيمين بالحدود.

ثم مات غالِب في إحدى المواقع، وظهر قائدٌ آخر هو جعفرٌ صاحب المسِيلة، الذي أزْعَج المنصورَ بشُهْرته العظيمة بين جنوده، فدعاه إلى بَهْوِ الرياسة وسَقاه الخمر حتى غلَبه السُّكْر، وحينما عاد إلى داره قُتِل في الطريق. ولهذه الفِعلة الشَّنيعة التي تدل على غَدر المنصور وتلَطُّخ يديه بالدماء أخواتٌ سَلَبَتْه صفةَ البطولة، بعد أن كان يستحِقُّها بأعماله اللامعة، وجعلت مَيلَ القُلوب إليه مُستحِيلا.

على أنَّ صلابته وإقدامه وصلا بالأندلس إلى قِمَّة من العِزِّ والصَّوْلة تبْعُد عن أيِّ خيال، حتى عن خيال الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر. فإن هذا الرجل الذي لا يَنال منه التعبُ ولا يمسُّه اللُّغوب، شَنَّ على إفريقية حربًا شَعْواء، فوسَّعَ رُقْعة الدولة على شواطئ البربَر، وغزا نصارى ليون وقشتالة كل عام مرتين، مرة في الربيع وأخرى في الخريف[425]، بينما كان يضغَط في قرطبة بيدٍ من حديد على العشائر المتنازِعة ويستَلُّ شَوْكَتها، وبينما كان يتقرَّب إلى نفوس الشَّعب بزيادة المسجد الجامع زيادةً فَخمةً رائعةً، حينما شعر بأنَّ الأُمَّة أخذت تغضَب للعُزلة التي ضربها على خليفتهم الشاب، وتنصَبُّ إلى إِغراء السيدة «صبح» ورجال القصر الذين سَئِموا المنصور وحَسَدوه.

وكان يُشرف بعين لا يفِرُّ منها شيء على كل قسم من أقسام إدارة الدولة، ويَهَبُ كثيرًا من وقته لإنْماء الأدبِ وإنْهاض الشِّعر - فقد كان أديبًا بطبعه، وكان يأخذ كتبه أينما ذهب بسيفه، ولم تكن كتبه إلا الشعراء الذين كانوا يصحبونه في غَزواته. ولم ينَل قائدٌ ما ناله المنصور من الانتصار في كلِّ موقعة، فقد قذَف نصارى الشمال بالحديدِ والنار، مُؤيَّدًا بجنوده الغُرباء الأشداء، وبكثير من

الجنود المسيحيين الذين جذَبتهم إليه كثرةُ ما يصيبون في ظِلِّ قيادته من مَغَانِمَ.

واستولى على ليون، وأتى على بُنْيان أَسْوارها الضَّخمة وقِلاعها من القواعد، وقَهَر برشلونة. والأَدْهى والأَمَرُّ أنه خاطر بنفسه وبجيشه في شِعاب غاليسية وجعل كنيسة شنت ياقوب [426] رُكَامًا، تلك الكنيسة الرائعة التي كانت مُلْتقى الحُجَّاج، والتي كان لها من المنزلة بأوربا ما يقرُب من منزلة الكعبة عند المسلمين.

ولم يمسَّ بسُوءٍ قبرَ القدِّيس يعقوب الذي يَنْسُب المسيحيون إلى ما فيه من آثار القديسين كثيرًا من الخوارق. ويُقال إن الفاتح حينما دخل المدينة بعد أن هجَرها أهلُها لم يجد بها إلا راهبًا جاثِيًا أمام القبر المقدَّس، فسأله المنصور: ماذا تعمل هنا؟ فأجاب الراهِب الهَرِم: إني أصلي [427] فامتنع المنصور عن قتله، ووضع حُرَّاسًا لحمايته وحمايةِ القبر من غضَب الجنود الذين انطلقوا يهدِمون كل شيء في المدينة.

وكان المنصور جديرًا بلقبه الذي ناله بحقٍّ بعد إحدى هذه المواقع، وبتوالي الغارات على الشمال.

بقي أمراءُ المسيحية مَغْلولي الأيدي، وخضَعت ليون والممالك المتاخِمة لها، وأدَّت الإتاوات إلى قرطبة، فقد تكرَّرت هزائم قشتالة، وبرشلونة ونافار، واستولى المنصور على ليون، وبنبلونة، وبرشلونة، وشنت ياقوب. وحمل مرة ملك نافار على أن يجثو أمامه ذليلا على ركبتيه، لأن الوزير - وهو لا يتجاوز عن شيء - علم أن امرأة مسلمة مَأسورة بمملكته، فأُطْلِقت في الحال مع كثير من ضُرَوب الذِّلَّة والاعتذار.

وحدث مرة: أنَّ المنصور كان يحارب في الشمال، فسَدَّ جيشُ النصارى عليه وعلى جيشه الطريق إلى قرطبة، واحتلُّوا موقعًا حصِينًا لا يُنال، فلم يَفُتَّ ذلك في عَضُده، وأمر جنوده أن يعيثوا بأرض الأعداء حولهم، وأن يجمعوا ما يستطيعون لبناء الخيام واستقرار الإقامة، ولم يجرؤ النصارى على منازلتهم، لأنهم وَثقوا من أنهم سييأسون ويُسَلِّمون، ولكنهم دَهِشوا حينما رأوهم يقيمون المعَسْكراتِ ويحرُثون الأرض ويزرَعونها. وحينما سألوهم في عجب واستِنكار عما يعملون، كان الجواب الهادئ: «إننا رأينا أن الوقت لا يتسع للعودة إلى قرطبة، لأن موعِد الغزوة الثانية أصبح قريبًا لهذا عزَمنا على الإقامة هذه الفترة القصيرة» [428] ففزع النصارى وهالَهم أن يكون احتلال المسلمين دائمًا، ونزلوا من مَعاقِلِهم، وفتحوا الطريق لهم ليعودوا إلى قرطبة آمنين محمَّلين بما نالوه مِن نَفْل، وزاد بهم الخوف فأعطوهم كثيرًا من الحقائِب والبِغال، ليحملوا عليها الغنائم...

إنَّ المنصورَ الذي لم تغلِبه الرجال غلَبه الموتُ!!

فإنه مرِض ومات بمدينة سالم [429] «حينما كان في آخر غزواته المظَفَّرة لقشتالة [430]، وتنفَّس النصارى الصُّعَداء لموته، ودلَّ على هذا الارتياح عبارةٌ موجَزة دَوَّنها أحدُ الرهبان في تقويمه، وهي: «في سنة 1002م مات المنصور ودُفِن في الجَحِيم» [431].

عَوْدة الْبَرْبر إلى الحكم

تتدلَّى أحسنُ الممالِك نِظامًا وأضبطُها حُكمًا إلى الفوضى والاضْطَراب، حينما تزولُ العزِيمة التي كانت تهديها سَواء السبيل، وبهذه الحقيقةِ وأمثالِها تمسَّك مَن يرون أن خيرَ أنواع الحُكْم أن يحكُم الشَّعْب نفسَه. وقد قيل: إنك إذا قُدْتَ الأُمَّة بخيَط فوَهَى أو انقَطع، فإنك لا تَدْرِي في أي طريق ستذهب الأُمَّة. وهذه النظرية صادقِةٌ على إطلاقها، فمِن الشعوب ما هو دائمًا في حاجة إلى خَيطٍ يقودُه، وليس في العالم شعبٌ يَسْتَغْني تمامَ الاستِغناء عن الاهتِداء بعقلٍ مُسَيْطِر. على أنَّ هذا الاستِغناء ليسَ في مَنْفَعة الشعوب في شيء إلا إذا عَدَّت الرُّكود مثلا في الحُكْم صحيحًا.

والأندلس في أية حال لم تستطع الاستِغناء عمَّن يقودُها، فإذا مات قائِدُها وحاكمُها سقطَت معه الدولة، فهي على حدِّ ما قيل: «حينما يَسقُط سيزار العظيم، فإنني وأنتَ وجميعُ الأُمَّة نَسْقُط معه»، ولم يكن ذلك في الأندلس عن محبَّةٍ للحاكم أو انعطاف نحوه، ولكن كان عَجْزًا وخَوَرًا، فإنَّ كثرة العشائر المتنازِعة والقبائل المتنافِسة، جعلت الوصول إلى ما يشْبِه الاستقرار في حكم الأندلس مستَحِيلا، ولن يكْبَح من جِماح هذه العشائر أو يُفلَّ من غَرْب [432] هذه القبائل إلا يدٌ قوية.

واعتبِر هذا بما تقرأ في تاريخ إرلندة عن العداوة المتأصِّلة بين سكَّان الشمال وسكان الجنوب - تَعْلَمْ أنَّ العرب ليسوا وحدَهم الذين رأوا أنَّ مِن الاستِحالة حكم أمة تختلف فيها العناصرُ والأديان بالسُّهولة التي تُحْكَم بها أمةٌ متماثلةُ الأفراد في الجنس والدين. وتاريخ الأندلس كما قصصنا عليك كان حوادِثَ متعاقبةً في صُعود وهبوط، فقد شهِدنا فيه أولَ الأمر غَارةً عنيفةً رائعةً لجنود موهوبين، انتهت بفتحٍ لم يكن منتَظرًا ولا مرتَقَبًا. وما كاد يتم فتح الجزيرة، حتى رأينا العشائِر المتنافرة التي تجمعت لهذا الفتح المبين تنطَلِق من عِقالها، وتدَمِّر ثمراتِ الفتح التي جَناها السيف واغتَصبها الإقْدام.

ثم نرى الشَّمَّرِي الذي خُلِق ليكون ملِكًا - وهو عبد الرحمن الداخل - فنرى الأندلس وقد عادت مرة أخرى إلى وَحدتها وقوتها.

وكان من عادةِ الفُرس عند البَدْءِ بمخاطَبة مُلوكهم أن يقولوا:

«أيها الملِك أبقاك الله» وهذا الدعاء يُوحِي إلى النفس بأنه لو صحَّ وتحقَّق لكان حَلًّا لكثير من المشكلات السياسية، على شريطة أن يكون المدْعُوُّ له بالخلود مَلِكًا صالحًا. وأول مَلِك بالأندلس لم يكن بطبيعة الحال خالدًا، وكان من أثر موتِه ما كان يحصُل دائمًا حينما يزولُ الضغط القويُّ الحازم، فارتَكَست

الأمة في الفَوضى والحروب الأهلية، ثم جاء ثانية الملِك المُلْهَم لإنقاذ الأمة مما هي فيه، وهو الخليفة العظيم، فألزم الناس القانون والنظام في جميع أرْجاء الأندلس، وهَزَم الواثِبين على المملَكة، وداسَ العُصاة بقَدَمَيه، وبقيت الأندلس خمسين عامًا في عهدِهِ فرْدَوْسَ سلامٍ وازدهار. ولو قُدِّر لعبدالرحمن الناصر أن يكون خالدًا في هذه الدنيا، لبقي السلام ورَفْرَفت الطمأنينة على رُبُوع الأندلس إلى اليوم، وما كنَّا نسمع بشيء مما حاق باليهود والعرب في دِيوان التَّفْتِيش مِن القتل والقسوة الوحشية، ولا بشيء من أخبار الكارلوسيين [433].

ومن المحزِن أنَّ هذا الدعاء ببقاء الملوك الصالحين لا يمكن أن يتحقق، ولكن الخليفة العظيم لم يترك المملكة خِلْوًا ممن يصلُح لقيادتها، فإن أسبانيا أنقِذت بالملوك مرتين، والآن يُنقِذها ويجمع شَتاتها كبيرُ الوزراء وهو المنصور الذي لا يُغلب، والذي نفِذَت سُلطته إلى كل زاوية من زوايا الأندلس. ولكنَّ المنصور أيضًا لم يكن خالدًا، وحينما مات «ودفن في الجحيم» كما كان يأمل الراهب المتبَتِّل - أصبحت الأندلس التي بلغت في عهده قمة الثروة والقوة، وعاشت في كنف السلامة والنظام، فريسةً للقُوى المتنافِرة التي دفنتها عزائمه وسطواته في جُحورها، ففي غُضون ثمانين سنة كان يمزِّق الأندلس تحاسُد الزعماء وظلم العُتاة من البربر والعرب والصَّقالبة والإسبان.

نعم إنَّ جذور الحزبية كانت قد اجتُثت من أصولها بمرور السنين، وذهب عهد التفاخُر بالأنساب والقبائل، لأن الناس نَسُوا أنسابهم، ومع ذلك بقي بالأندلس من التنافس الشخصيِّ والجنسيِّ والدينيِّ ما يكفي لجعلها جحيمًا أرضيًّا، من النوع الذي كان يتمنى الراهب المؤرِّخ أن يُدْفَن المنصور فيه.

واستطاع ابنُ المنصور وخليفته [434]، أن يصُون وَحدة المملكة في مدى ست سنوات، تلاها انهمار سيلٍ جارفٍ من الطامعين المخاطِرين، والخلفاء المتنافسين، والأدْعِياء الوَقِحين. وكان الإسبان الذين يمثلون جمهرة الأمة يؤثِرون أن يحكُمهم ملِك، ويحبون أن يتعاقب الملوك من أسرة واحدة، ويذكُرون بالإعجاب ما كان للدولة الأموية العظيمة من أثرٍ عظيم، ولم يكن من رأيهم في الحكومة أن يكون المسيطِر فيها وزيرًا كيفما كان عادلًا صالحًا، لأن الملِك في زعمهم يجب أن يحكُم الأمَّة بنفسه. لذلك رفعوا رايةَ العِصيان على ابنٍ ثان للمنصور [435]، وزاد في غضبهم أنه أعلَن حقه في وراثة العرش، فمضُوا إلى الخليفة هشام المؤيَّد وحتَّموا عليه أن يقبض على أزِمَّة الحُكْم بيديه الضعيفتين الواهنتين.

وقد صعُب على هشام المسكين أن يُنْزَع فجاءة من عُزلته في القصر. بعد أن قضى فيها ثلاثين عامًا، سجينا مغْتَبِطًا بسجنه، فتوسَّل إليهم ألا يطلبوا منه المستحيل، ولكنهم أصرُّوا على ما يطلبون، فأطاعهم على الرغم منه، غير أنه حينما ظهر للناس جميعًا أن هذا الرجل الكَهْل كان أضعف من طفل، طلبوا

إليه أن يعتزِل، وأحلّوا مكانه رجلا من أسرته، وكان سقوطه في الحقيقة نهاية الدولة الأموية بالأندلس.

ثم جلس على العرش خليفةٌ بعد خليفةٍ في مدى عشرين عامًا [436]، فكان أحدهم لُعبة في أيدي القرطبيين وآخر لعبة في أيدي الحُرَّاس من الصَّقالبة، وثالث لعبة في أيدي البربر، ورابع كان صورةً تُخفي وراءها مطامِح أمير إشبيلية [437]، ولكنهم كانوا جميعًا لُعَبًا لبعض الأحزاب، ولم يكن لهم مظهر من النفوذ. وقد شهد بَهْوُ القصر قتلًا بعد قتل كلَّما تلا خليفةٌ خليفةً، وأخفَى مرةً أحدُ هؤلاءِ الخلفاءِ المساكينِ البائسينَ نفسَه في فُرن حمَّامه، وحينما عُرِف مكانُه جُرَّ وذبح أمام الخليفة الجديد الذي لم يأت بعدُ دَوْرُه وإن كان قريبًا.

ثم أُلزِم هشام المؤيد المسكين - الذي نَشَّأه المنصورُ وأمه «صبح» في طفولة دائمة - أن يمثِّل دَوْرَه في صندوق الدنيا، فوُضِع على العرش ثم خُلِع، فبدّل بقيده الحريري في عزلته بين الفواتن من نساء القصر، حِيطانًا مظلمة لسجن حقيقي، ولا يُعْرَف إلى الآن ما جرى له بعد ذلك، فنساؤه يُعْلِنَّ أنه جاهد للفرار من سجنه والتجأ إلى آسيا أو مكة. لم يُغْرِ العرشُ ذلك الملك البائس بشيء من مُغرِياته، لأنه كان يعشَق العُزلة والانقطاع إلى العبادة، ولا بد أن يكون قد عرف أن بقاءه بالأندلس سيشجِّع مطامع أنصاره، وأن ذلك سيؤدي حتمًا إلى النزاع والتفرقة، فمن المعقول إذًا أن يكون قد آثر أن يقضي بقية أيامه بمكة للعبادة والتبتُّل.

ثم ظهر دَعِيّ يشبه هشاما تمام الشبه [438]، وزعم أنه هشام المختفي وادعى مُلْك إشبيلية، فاعترف به حاكمها لأنه رأى فيه لُعبة صالحة في يديه [439] ولكن هشامًا الحقيقي اختفى إلى الأبد ولم يسمع إنسانٌ عنه شيئًا بعد اختفائه.

والذي جرى لهشام المعتد بالله [440] عند عزله يصوِّر لنا ما وصل إليه خلفاء بني أمية التاعسون من الذِّلَّة والمهانة، بعد أن تركوا زمامهم للبربر المتوحِّشين، أو الصَّقالبة يلعبون بهم كما يُلْعَب بقِطع الشِّطْرَنج، فقد أمر رؤساء قرطبة أن يُجَرَّ هذا الخليفةُ الرفيقُ الرقيقُ العاطفةِ هو وأسرته إلى سجن تحت الأرض مظلم، متصلٍ بجامعِ قرطبةَ. فجلس الخليفة في هذا السجن الدَّامِس الظُّلمة يَرَّتَعِد من البرد ويتَسمَّمُ بهوائه الفاسد من العَطَن، وقد احتضن ابنتَه الصغيرة وأحاط به نساؤه يبكين ويُوَلْوِلْن ويُقَضْقِضْنَ في زَمْهَرير قارِس، وقد اشتدَّ الجوع بالسُّجَناء بعدَ أن تركهم السَّجَّانون القُساة ساعات دون أن يفكِّروا في إطعامهم، ثم جاء الشيوخ ليبلغوا هشامًا حكم المجلس الذي اجتمع في عجلة ليفصِل في أمره، ولكن الخليفة المسكين الذي كان يجهَد في أن يبعث شيئًا من الدِّفْء إلى ابنته التي كان يحمِلها بين ذراعيه قاطعهم قائلًا:

«نعم نعم. إني سأخضَع إلى حُكمهم كيفما كان، ولكني أسألكم الله تعالى أن ترسلوا إليَّ شيئًا من الخبز... إنَّ هذه الطفلة الصغيرة ستموت بين يدي من الجوع» فتأثر الشيوخ لأنهم لم يريدوا أن يعذِّب الخليفة هذا التعذيب، وأمروا فأُحضِر إليه الخبزُ، ثم استأنفوا الكلام قائلين: «يا مولانا إن المجلس قرر أن تُؤخَذ عند الفجر لتسجَن في قلعة كذا».

فأجاب الخليفة: «فليكن، وليس لي الآن إلا رجاء واحد، هو أن تأمروا لنا بمصباح، لأن ظُلْمة هذا المكانِ الموحِش تُزْعِجنا وتُخِيفنا»... وارحمتاه... لقد وصل الذُّلُّ والشدة بحاكم المسلمين الزمنيِّ والدينيِّ بالأندلس إلى هذا الحضِيض وهو أن يَسْتَجْدِي خبزًا وشمعة [441]!

وأمثال هذه الكوارث كانت كثيرة بقرطبة، فكلُّ ثورةٍ كان لها جَناها المرُّ من القتل والإرهاب، فإنَّ أهل قرطبة الذين ازداد عددُهم كانوا يَنْزِعون إلى الإستقلال وفرض إرادتهم على الحكَّام، وهذا الاعتداد بالنفس كان نتيجة ثروة الأُمَّة، ونمو التجارة والصناعة فيها.

فحينما أسقطوا أسرةَ المنصور من الحُكْم، ثار العامة كعادتهم وشَفُوا غليل غضبهم بنهب قصر المنصور البديع الذي بناه في رَبَض قرطبة ليكون مقرًّا له ولرجال حكومته. وبعد أن انتهبوا ما فيه من الكنوز التي لا تُقَدَّر بثمن، تركوه طُعْمة للنيران. واستمرت المذابح والنَّهب والاغتيال أربعةَ أيام لا يُنَهْنَهُ من حِدَّتها أحد، وأصبحت قرطبة مَجْزَرًا [442].

وحينئذ جاء دَوْرُ البربرِ، وانتهى حكم الصَّقالبة الجبارين بحكم البربر القُساة، الذين سَمِنوا ونَعِموا بانتهاب المدينة، فحيثما سار هؤلاء البربر سار القتل والنهب وسارت النار في إثرهم، فكم نهبوا من قصر ثم أحرقوه، وقد لاقت منهم مدينة الزهراء الجميلة التي كانت ريحانة الخليفة العظيم شرَّ ما يُلاقَى، فقد استولوا عليها بخيانة، ثم انتهبوها ثم أشعلوا فيها النيران [443]، ولم يبق منها من بدائع الفن الرفيع التي زيَّنها بها الخليفتان إلا كَوْمة من حِجارة سِفْعٍ، ووضعوا السَّيف في حاميتها وفَرَّ سكَّانُها معتصمين بالمسجد، ولكن البربر الذين خَوَت قلوبهم من الخشية والرحمة، أحاطوا بهم، وذبحوا في بيت الله الرجال والنساء والأطفال (سنة 1010م).

وفي هذا الوقت استقلَّت الولاياتُ التابِعة للخلافة، بعد أن حطَّم الصقالبةُ والبربر العاصمةَ، ووضعوا على العرشِ خليفةً بعد آخر، ونقلوا الخلافة من الأمويين إلى بني حَمُّود [444]، أو حاولوا تجربةَ حكم البلاد بمجلس يؤلَّف من الزعماء [445]، فأصبح لكل مدينة أو مقاطعة أميرٌ مستقِلٌّ، وذهبت في الهواء تلك الوَحدة التي جمع بها المنصور مختلف الأهواء والأحزاب. ولم يرتح الإسبانيون أنفسهم لهذا الانتقال السريع، وإلى تمزيق الدولة إلى ولايات

صغيرة، فرأوا والحزنُ مِلْءُ قلوبهم ما صارت إليه بلادهم، وكيف أصبحت نهبًا مقسمًا بين الغرباء. فقد نَعِم البربر بالجنوب، وأخضَع الصقالبةُ الشرقَ، أما البقية فقد سقطت بأيدي بعضِ مُحدَثي النعمة والنفوذ، أو بعض الأُسرِ القديمة التي نَجَت من ضربات عبد الرحمن الناصر أو المنصور القاصمة.

وكانت قرطبة وإشبيلية - وهما أعظم مدن الأندلس - تُحكمَان حكمًا جمهوريًّا في الصورة لا في الواقع، لأنَّ سلطة رئيس المجلس كانت تشبه سُلطة الإمبراطور كلَّ الشَّبه. وحَكَم في النصف الأول من القرن الحادي عشر نحو عشرين أسرة مستقلة، في نحو عشرين مدينة أو مقاطعة، ويسمَّى هؤلاء بملوك الطوائف، وبينهم: بنو عباد بإشبيلية، وبنو حمود بمالَقة والجزيرة، والأدارسة بغَرْناطة، وبنو هود بسَرُقَسْطَة. وكان أقوى هؤلاء بني ذي النون، الذين ملكوا طليطلة، وحكموا بَلَنْسِية، ومُرْسِية، والمرية.

وقد أحسن بعض هؤلاء الملوك الحُكْم وإن كان أكثرهم عُتاةً جبارين، غير أنه مما يعجب له، أنهم كانوا جميعًا غَطارفة مثقَّفين، يُعَضِّدون العلم والأدب، وكانت قصورهم مثابةً للشعراء والمغنِّين، فقد كان المعتَضِد [446] عالمًا أديبًا شاعرًا، ولكنه نصَب ببستانه خشبًا علق فوقها رءوس أعدائه الذين قضى عليهم، وكان يستَبْشِر ويبتهج برؤيتها كل يوم.

وقُصارى القول: أن المملكة كانت في حالة من الفوضى والاضطراب، تُشبه ما وصلت إليه عند تولية الخليفة الناصر. نعم إنه لم يقم بها عِصيان من المسيحيين كما كان من ابن حفصون أيام الناصر، ولكنَّ الفوضى كانت عامة، والخطر من سقوط الدولة وتحطُّمِها كان بارزًا للعِيَان. فإنَّ نصارى الشمال استجمعوا للوثوب، ورأوا الفرصة سانِحة فهَمُّوا لاهتِبالها، لأنَّ ألفونسو السادس (الأذفونش) [447] الذي وَحَّد تحت إمرته أستورياس، وليون، وقشتالة، كان قد فهم ما يجب أن يفعله تمام الفهم، فقد رأى أنه لم يكن عليه إلا أن يَمُدَّ حَبلَه لملوك الطوائف مدًّا كافيًا، ليشنقوا به أنفسهم، لأن هؤلاء الطغاة الذين لم ينظروا في العواقب، ولم يُعْنَوا إلا بأنفسهم، ولم يتركوا جُهدًا إلا بذلوه في إضعاف منافِسيهم - كانوا يَجْثُون عند قدمي ألفونسو لاستِجْداءِ معاونته كلَّما ضَعُفوا عن مقاومة إخوانهم المسلمين - لذلك تقربت كل الدويلات الإسلامية إلى ألفونسو بتقديم الإتاوات، وكان ألفونسو يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته، لأنها ثمن عطفه وحمايته، ولأنه كان يريد أن يرْضخ المسلمون من المال، ما يكفي لمحوهم ومَحو آثارهم من أسبانيا.

وقد بذَل ملوك الطوائف هذه الإتاوات للاستِعانة بجيوش ألفونسو، أو للخوف من غاراته العنيفة التي كان يشنُّها في كل مكان، حتى لقد وصلت جنوده إلى قادِس.

وكان شمال أسبانيا فقيرًا مُمْحِلا، وكان من أضاحِيك القدر، أن يجمع ألفونسو من ملوك المسلمين ما يَعُدُّ به العُدَّة لدمارهم، على أنه مهما اختلف هؤلاء الملوك وتحاسدوا، فقد كان لصبرهم على ألفونسو حدٌّ يقفون عنده، فإنهم تيقَّظوا من سُباتهم، وأحسوا بالخطر المحدِق بهم، وعملوا على دفع الكارثة عنهم، حينما علموا أن ألفونسو اخترق الأندلس على جواده آمنًا مطمئنًّا، حتى وصل إلى أعمِدة هرقل فنزل ليبْتَرِد في المحيط، وحينما رأوا أنه وضَع حامية تزيد على اثني عشر ألفًا من الجنود الشجعان في حصن ليط، وهو في وسط بلاد المسلمين، ومنه كانت تخرج جنوده لتعِيث وتنهَب وتُغِير، وحينما علِموا أن لذريق البيفاري أو السيد الكمبيدور [448] احتل بلنسية مع القشتاليين، ونهَب ما حولها من الأرض حتى صَيرَّها قَفْرًا يَبابًا. وحينما ظهر لهم جليًّا أن ألفونسو لا يقصِد إلا أن يعيد أسبانيا إلى المسيحية، وأن يستأصِل شَأفَة المسلمين.

ولكن ملوك الطوائف كانوا على الرغم من تفاقُم الخطْب أضعفَ من ذات خِمارٍ، وكانوا في يأسٍ من توحيد كلمتهم وتَواثُقِهم على مكافحة العدو، لكثرة ما بينهم من تَحاسُدٍ وتَنافُسٍ وغَيْرة. لذلك صاروا إلى ما ليس منه بُدٌّ، وهو دَعوة الغُرباء إلى عَونهم.

وقد رأى بعضهم ما في هذه الدعوة من الخطَر المُحِيق، ولكن المعتمِد بنَ عباد [449] أسكَتهم بقوله: «لأَن أكون سائق جِمال في صحراء إفريقية خَيْرٌ من أن أرعى الخنازير في قشتالة!!» [450]. ولم تكن المعونة التي التمسوها بعيدة عنهم، فقد شبَّت ثورة في شمال إفريقية انبثَق منها مذهب متعصِّب جديد، سمي أصحابه بالمرابطين، وقد تغلَّب هؤلاء المرابطون على المملكة جميعها من الجزائر إلى السَّنِغال، وكانوا من طابَع طارِق وأصحابه، وكانوا على أتمِّ أُهْبَةٍ لاجتياز البحر والتغلُّب على أسبانيا الخصيبة، وأظهروا للناس أن هذا الغزو مكرُمة منهم وجهاد في سبيل الله، ولم تبدُر منهم بادرة تدلُّ على رغبتهم في الأندلس. غير أنهم نزلوا بأسبانيا، ومن الهيِّن أن ندرك أنهم نزلوها لتكون دار إقامة.

وحينما وصل المرابِطون إلى الأندلس كأَرْجَال الجراد، ليَلْتهموا المملكة التي قدمت نفسها لهم طعامًا، كانت الطريق مُذَلَّلة أمامهم، وابتهج الأندلسيون حينما رأوا فيهم سَاعِدًا أزل مَفْتولا، جاء ليمحو الفوضى التي بددت هَناءتهم منذ أن مات المنصور العظيم. أما ملوك الطوائف أو صِغار الطغاة: فمنهم من دعاهم للإقامة ببلاده، ومنهم من لم يستطع مقاومتهم فصبر على مَضَض، ولكنهم اغتَبطوا جميعًا بكَبْح القشتاليين، وكَسْر شَوْكتهم. وعندما وصل يوسف بن تَاشَفين ملِكُ المرابطين [451] إلى الأندلس، وتملَّك مدينة الجزيرة لتكون ميناءً له وقاعدةً لجنوده، اخترق الولاياتِ بجيوشه حتى الْتقى بألفونسو

عند الزَّلَّاقة [452] بالقرب من بَطَلْيَوْس، في الثالث والعشرين من أكتوبر سنة 1086م (479هـ) وصاح ألفونسو حينما رأى جيش الإسبان اللّهام: «بمثلِ هؤلاءِ أحاربُ الشياطينَ والجِنَّ والملائكةَ». على أنه مع هذا التجأ إلى حِيلةٍ ليَدْهَم بها أعداءه مِن البربر والأندلسيين على غِرَّة، ولكن يوسف لم يكن من الهيِّن خِداعُه، فأحاط في مهارةٍ وحِذْقٍ بجيش القشتاليين من الأمام والخلف، ووضَعهم بين نارين، فتحطَّم القشتاليون وهُزِموا شَرَّ هزيمة، على الرغم من المقاومة العنِيفة وأساليب الحرب التي بَرَع فيها هؤلاء الجنودُ المدربون، وفَرَّ ألفونسو - وما كاد يستطيع الفِرار - بنحو خمسمائةِ فارسٍ، وترك آلافًا مؤلَّفة من خِيرَة جنوده في الميدان. وبعد هذا النصرِ المبين، عاد يوسف بن تاشَفين إلى إفريقية، وترك بالأندلس ثلاثة آلاف من جنوده لمعاونة الأندلسيين لأنه وَعد ألا يَضُمَّ الأندلسَ إلى مملكَتِه، وبَرَّ بهذا الوعد، إلا في جزيرة طَرِيف فإنه اختارها لنفسه.

فرِح الأندلسيون بمقدَمه وأَطْرَوا شجاعته، وابتَهجوا بِنَجاة بلادهم، وأُعجِبوا بسذَاجته وتَقْواه، إذ رأوا أنه لا يعمَل عملا إلا بعد استشارة الفقهاء، حتى إنه أَبْطل الضرائبَ بأسبانيا إلا ما أقرَّه عمرُ ابن الخطاب [453] في عهود الإسلام الأولى. ولكنَّ طَبقة المتعلمين بالأندلس كانت تسخَرُ من جَهْلِه وجَفْوة أخلاقه، فلم يكن يُحْسِن العربيةَ، ولم يكن يدرِكُ مَرامي الشعراء إذا أنشده شاعر قصيدةً في مَدْحه. وليس هذا بالنَّقصِ اليسير في رأي الأدباء الأندلسيين، الذين لا يَغْفُلون عن إنشادِ الشعر والاستشهاد به ولو كانوا في بحر من الدماء، فلم يكن يوسف في أعينهم إلا بَرْبَرِيًّا، غير أنَّ نَقْدَهم لثقافته لم يكن له وَزنٌ ما داموا في حاجة إلى سيفه؛ أما جمهرةُ الأندلسيين ففكَّروا في رفاهِيَتِهم أكثر مما فكَّروا في علمه، وكانوا على استعداد لقَبوله مسرورين مَلِكًا على الأندلس. وفي سنة 1090م (483هـ) استَجْدَى ملِك إشبيلية عَوْن المرابطين ليصُدُّوا عنه غَزَوات المسيحِيِّين الذين استمروا في عَدائِهم وطَفِقوا يرسلون غاراتٍ مستمرةً من حصن ليط [454].

أجاب ابنُ تاشَفين الدعوة مُظهِرًا التَّثاقُلَ وعدمَ الرغبة، ولكنه في هذه المرة وَجَّه هجُومه إلى مُلُوكِ الطوائف، وإلى نصارى قشتالة على السواء، وملأ الملوكُ الأغبياءُ أذنيه بشكوى بعضهم من بعض، وخِيانة بعضهم لبعضٍ، حتى عرفهم يوسف جميعًا، ولم يثِق بهم جميعًا. وكان يعتمد على الأمَّة وعلى الفقهاء الذين أَحَلُّوه سريعًا من عهده بألا يَضُمَّ إليه الأندلس، وغَالَوا فأدخلوا عليه: أنَّ مما يجب عليه - إرضاءً لرَبِّه - أن يُعِيدَ السلام والرفاهية إلى هذه البلاد المنكُوبة.

أطاع ابن تاشفين نصيحةَ الفقهاء، لما كان يخالجُه من الطّموح في مُلْك أسبانيا الذي كان يكتُمه ويخفيه، فشرَع في إخضاع أسبانيا قبل انتهاء سنة 1090م فدخل غرناطة في نوفمبر، ووزَّع على قواده الكنوز العجيبةَ التي لم يَرَوا مثلها أو ما يقرُب منها في حياتهم، من الماس والدُّرِّ والياقوت والجواهر الثمينة، والحُلِيِّ الذهبية والفضية، والكئوس الزجاجية وعِتَاق البُسُط، وغير ذلك مما لم يُسْمَع به من النفائس. ثم سقطت جزيرة طَرِيف في ديسمبر، وشهِدت السنةُ التاليةُ سقوطَ إشبيلية وغيرها من كِبار مدن الأندلس. وجرَّد ألفونسو جيشًا يَقُوده البرهانس فهزمه المرابطون، وأصبح القسمُ الجنوبيُّ في أيديهم إلا مدينة بَلَنْسِية التي لم تُفْلِح فيها محاولة، ما دام السيد الكمبيدور يتولّى الدفاعَ عنها، وفي سنة 1102م (495هـ) سقطت بلنسية بعد موته، فغَدَت الأندلسُ الإسلاميةُ كلُّها - حاشا مدينةَ طليطلة ورية - تابِعة لمملكة المرابطين بإفريقية.

رضِي جمهورُ الأندلسيين إلى حين - ولِحَاجةٍ في أنفسهم - عمَّا آلَت إليه البلاد بعد عَودة المرابطين إليها، ولكن قِلَّة من عظماء الأندلس والمثقفين، كانوا ساخطين على تلك الحال، فإنهم كانوا يُحْكَمون بطائفة من الدينيين المتزمِّتين [455] كما كانت تُحْكَم إنجلترا في أحد عُهودِها، ولكن إنجلترا ظَفِرت بملتون [456] شاعر هذا العهد، فخفَّف من شِدَّته وعُبوسه. اشَمأزَّ الشعراءُ من جَفْوة البربرِ وخُشونتهم وجَهْلِهم، فإنهم لم يَفْهَموا رَوائعَ أشعارهم، وإذا حاولوا التشَبُّه بمُلُوك الطوائفِ الأدباءِ البارعين في ذَوقهم المُرْهَف ونقدِهم الدقيق، أتوا بما يستَثِير الضَّحِك. ولم ير المفكرون في رجوع السُّلطة إلى الفُقهاء المتعصِّبين ما يبعَث على التفاؤل، فقد كان هؤلاءِ أصحابَ الرأي والشُّورَى عند المرابطين، فحاربوا كلَّ ما يتَّصِل بالفلسفة [457]، وجَمدوا على أن يفهموا القرآن من تفسير مُفسِّرٍ واحدٍ [458]. أما اليهود والنصارى فإنهم أدركوا سريعًا ما يفهم المرابِطون من معنى التسامح، فقد قَسَوا في اضطهادهم، وجَرَّدوا عليهم سِلاحين من القتل والنفي. وأما مَن بقي مِن الأُسَرِ القديمة ومن فَرَّ من السيف من مُلوك الطوائف، فإنهم كانوا في يأسٍ قاتل، حينما رأوا هذا الدَّخِيل يُعِيد إلى أذهانهم أعمال البربر الشَّنِيعة آخرَ أيام الخلفاء بقرطبة.

ولكن جمهور الأندلسيين كانوا في غِبطة وسُرور لاستيلاء المرابطين على الأندلس. فقد أمِنوا على أرْواحهم وأموالهم، وذلك شيء لم يستطيعوا تَخيُّلَه أيام كانت المملكة ممزَّقة إلى ولايات، وكان أقوى الملوك مَن يستطيع أن يحمي رعيَّته حولَ قلعتهِ، وأيام كانت الطُّرُق غاصَّةً بعصابات اللُّصُوص، وأيام كان النصارى يُغِيرون على القُرى وينهَبون البلاد. أما الآن فقد استَتَبَّ النظامُ والهدوء ولو إلى حين، وخضع الناس للقانون، وهُزِم النصارى فعادوا إلى حصونهم، وأخذ الناس مرة أخرى يحلُمون بالثروة والرفاهية.

ولكن هذا الحُلم كان وهمًا وخيالا باطلا، فإن القدَرَ لم يدَّخِرْ نجاحًا ولا سعادةً لرعيَّة المرابطين: فقد أصاب البربرَ ما أصاب الرومانَ والقُوطَ من قبلهم، فإنهم جاءوا إلى أسبانيا غِلاظًا شدادًا، لم يعتادوا النَّعيم والرَّفَه، يتفاخرون بالشجاعة والقوة، ولهم قلوب يملؤها تعصُّبٌ دينيٌّ غَضوب ساذَجٌ، ولكنهم لم يَلْبَثوا بها إلا [459] قليلًا مُتَمتِّعين بثمار انتصارهم، حتى أُصِيبوا بفسادِ الأخلاق وانحِطاط العزائمِ الذي أصاب جنودَ (هانيبال) حينما استَناموا إلى لذائذ الحياة في (كابو) [460]. فقد البربر الميلَ إلى الحرب، والإقدامَ على الأَخْطار، واحتمال ويلات القتال. أو قُلْ: إنهم فَقَدوا رجولَتهم في أقصر ما يتصور من زمن. فلم يكن لهم بعدَ عشرين عامًا جيش يُعَوَّلُ عليه في صَدِّ هجمات القشتاليين، بل كان جيشُهم حَشدًا غير مُنَظَّم من حُطامٍ آدَميٍّ، وكُسَالى بائسين أَدْمَنوا الخمر، وخَدَعوا فُتُوَّتَهم فبَدَّدُوها، وأصبَحوا عَبِيدًا لكل شَهوة تجعلُ الرجلَ جَبانًا رِعْدِيدًا.

وبدَلَ أن يَصُونوا النظام كانوا هم أولَ العابِثين بالنِّظام، فقطعوا الطريق على المسافرين وسَرقوا كلما لاحت لهم لائحةٌ، ووصل الضَّعف بحكَّامِهم أن صاروا تحت سيطرة العَواهِر من النساء، والطَّامِحين من الفُقهاء، فنقَضُوا اليوم ما أَبْرَموه بالأمس. ومثلُ هؤلاء لا يَطول بهم الحُكْمُ: فإن ثورةً جامِحة قامت بإفريقية للقَضاء على المرابطين، وجدَّد القشتاليون بقيادة ألفونسو «المحارب» غاراتِهم على الأندلس. ففي سنة 1125م عاثت جنودهم في الجنوب سنة كاملة. وفي سنة 1133م أحرقوا أَرْباضَ قُرطبةَ وإشبيلية وقَرَمونة، وانتهبوا شَرِيش وأشعلوا فيها النار. وامتدَّت غزوات النصارى من ليون إلى مَضِيق جبل طارق. أما الدولةُ الإسلاميةُ حِيالَ كلِّ هذا فلم تفعل شيئًا، لذلك غَضِب الأهلون وثارت جموعهم، وطَرَدوا المرابطين من البلاد.

ويقول مؤرِّخ عربيٌّ: «وفي النهاية... عندما رأى الأندلسيون تحطُّم دولةَ المرابطين لم ينتظِروا طويلا، فكشَفوا حجابَ الرِّياء وأظهروا العِصيان، وسمَّى نفسَه بالملكِ واتخذ شعارَ السلطان كلُّ حاكِمٍ صغيرٍ أو زعيمٍ، أو رجلٍ ذي شأن يستطيع أن يجْمَع حوله ثُلَّةً من الأنصار، أو تكون له قلعة يحتمي بها عند الحاجة. وصار الملوك في الأندلس بعدد ما فيها من مدن: فملك ابن حمدين قرطبة [461]، وابن ميمون قادس، وحكم ابن قسي [462] و«ابن وزير سيداري» [463] بالغرب، واللمتوني بغرناطة. وابن مردنيش [464] ببلنسية. وبعض هؤلاء من الأندلسيين، وبعضهم من البربر.

ثم اختفى جميعُ هؤلاء حينما ظهر عَلَمُ الموحِّدِين الذين أزاحوهم عن عروشهم، وأخضَعوا الأندلس جميعًا لحُكْمِهم».

وكان عبد المؤمن [465] قائدُ الموحِّدين، هو الذي أزال مُلْكَ المرابطين في إفريقية وأسبانيا.

السَّيّد المُبَارِز

لقد آن لنا أن نتَّجِه إلى أعداء العرب في الشمال، وقد ذكرنا آنفًا ما كان من أمر «بلاي»، وكيف أنه جمَع ما بقي من القُوط في كهفه الذي لا يُنال، ومَعقله بصخرة جبال (أستورياس) وكيف أنَّ هذه الفئة القليلة اجتازت بعد قليل حُدُودَها، وشجَّعها على التحدِّي والنِّضال ما شجَر من الخِلاف بين قبائل البربر، الذي انتهى بهزيمتهم عند الحدود الشمالية للدولة العربية.

جدَّد شيء من هذه الحياة في هذه الفئة وقوَّى من عَزْمِها، فاستعادت بالتدرِيج أكثرَ الأراضي التي في شمال جبال وادي الرمل [466]، وأسست مملكة ليون، ومقاطعة قشتالة. وكانت مملكة نافار تبعُد نحوَ الشَّرق عند سَفْح جبال ألبرت (البرانس). وذكرنا أيضًا كيف أنَّ هذه الممالك المسيحية كانت في حرب مستمرة مع جيرانها المسلمين، وأنه كان في باب الظنِّ أن تكون هذه الحروب خَطَرًا على العرب، لولا ذلك الانقسامُ المستمرُّ والخُلْفُ الدائم بين المسيحيين، مما حمل بعضَ ملوكهم أن يلتزم الحَيْدة ويتجَنَّب القتال. وكان من السَّهل اليسير على المسلمين أن يَصُونوا دولتهم مَهِيبة عزيزةَ الجانب، لو بقِيَت مملكة قرطبة قوِية غير متفرقة الأهواء.

ولكن حينما سَقطتِ قرطبة، وأصبحت الأندلس نَهْبًا مقسَّما بين ملوك الطوائف، الذين لم يفكِّروا إلا في أنفسهم أولا، ثم - إذا دعت الحال - في المملكة الإسلامية، تجرَّأ النَّصارى وتمكَّنوا من أن يستعِيدوا من العرب عددًا غيرَ قليل من البُلدان. وقد شهدنا كيف أنَّ النَّصارى زَحَفوا على أرض المسلمين بجيوشهم المظفَّرة، وضربوا الإتاوات على أعاظِم ملوكهم، حينما ازداد الاضطرابُ وعمَّت الفوضى في القرنِ الحادي عشرَ. وأصبح لكل مدينة دولة ولكل دولة أمير ووزراء... في هذا الوقت جمع فرديناند الأول القسمَ الأعظم من الشمال تحت رايته، فألَّف بين الولايتين المتعاديتين؛ ليون، وقشتالة، وأضاف إلى ملكه: أستورياس، وغاليسية، وكان في هذا الحين أقوى ملك بأسبانيا جميعها، وقد ضم إلى مملكته مدن البرتغال: لورميجو، وبازو [467]، وقلمرية، وأخذ الإتاوات من ملوك: سَرُقَسْطَة، وطُلَيْطُلة، وبَطَلْيَوْس، وإِشْبِيلِيَة.

نعم إن رأيه السَّقيم في تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة وبنتيه جَرَّ على الشمال بعد موته ويلاتٍ متصلةَ الحلَقاتِ من الحروب الأهلية، ولكن ألفونسو السادس «الشجاع» تمكَّن في النهاية من ضَمِّ أشتات المملكة، فانتعشت القوى المسيحية، وأصبح تغلُّبها على أعدائها من الحتم المحقَّقِ.

ولم يمنع المسيحيين من قهر الأندلس واستردادها في هذا الحين الذي ضَعُفت فيه العرب، إلا ما كان يبعَث به إليهم ملوكُ الطوائف من الرَّشا التي تأبى على الحَصْر، ليشتروا بها كَفَّهُم أو عَوْنَهم، وإلا ما كان يظهر في الأُفُق البعيد من جيوش المرابطين. وعلى أية حال لم يكن ملوك الطوائف حُكَّامًا مستقِلِّين، لأنهم وقعوا بين شِقَّي رَحا: من الخوف من ألفونسو، ثم من الخوف مما هو أعظم خَطَرًا من ألفونسو، وهو تغلُّب حلفائهم المرابطين، ولكنهم في النهاية اضْطُرُّوا إلى اللجوء إلى المرابطين.

ويظهر لنا في هذا الوقت تَدخُّلُ النصارى في أكثر شؤون المسلمين السياسية، ونرى التَّحالُف بين الفريقين مشتَبِكَ العُرا، وأنَّ كثيرًا من جنود النصارى المرتزِقة كانوا ينضَمُّون إلى جيوشِ العرب في حروب مُدَمِّرة للولايات المسيحية، وأنَّ كثيرًا من العرب كانوا يُعِينون جيوش النصارى على إخوانهم المسلمين...

وقد نخطئ خطأ بالغًا إذا قدَّرْنا لجنود ليون وقشتالة منزلةً تقرب من المثل الأعلى للبطولة والفروسية، وأكثر في باب الخطأ أن نتخيلهم رجالا مُهذَّبِين مثقفين. فإنَّ نصارى الشمال كانوا من كلِّ وجه على النقيض من منافسيهم العرب، لأن العرب - وإنْ قَدِموا الأندلس في جَفْوةِ طبائع القبائل وخُشُونتها - رَقَّت أخلاقُهم بالاختلاط بالأندلسيين وبمَيْلِهم الطبيعي إلى المرَح والطَّرَف، فوصلوا إلى قِمة المدنِيَّة وأُغْرِموا بالشِّعر والأدب وتجرَّدوا لطلب العلم، وأحبُّوا فوق ذلك أن يتمتعوا بكل لذائذ الحياة. وقد كان ذوقهم العقلي والأدبي مُرهفًا دقيقًا، وكان لهم ذلك الإحساس الذي لا يَشْعُر به إلا مَن نشأ نشأة سامية في العلم والأدب، وقد كانوا واسعي التصوُّر خياليين شِعريين مفكرين، يَمنَحون من المال على مَقطوعة شعرية رائعة، ما يكفي للإنفاق على فِرقة من الجنود. وكانوا ينظرون باحتقار إلى أقوى ملوكِهم وأشدهم بَطْشًا إذا لم يكن شاعرًا، أو لم يوهب له ذَوقُ فهمِ الفُكاهة الشعرية والبلاغة العربية. ومُنِح هؤلاء القومُ البارعون استعدادً طبيعيًّا في الموسيقى، والخطابة، ودقائق العلوم، والنقد، وإدراك التوريات البعيدة التي نَعُدُّها اليوم من مَيزْات الأُمَّة الفرنسية.

أما نصارى الشمال، فكانوا على الخلاف من ذلك بقدر ما يتَصور العقلُ من خِلاف: كانوا في بداوة الأمم الناشئة على الرغم من أنهم أَخْلَافُ أُمَّةٍ قديمة، فكانوا جُفَاةً غير مُثَقَّفِين، وقليل من أمرائهم من كان له حَظٌّ من مبادئ العلم، وكانوا من الفقر وعُسْر الحال، أعجزَ من أن يتمتعوا بفنون الرَّفَهِ التي يتمتع بها أمراء العرب... غير أنهم كانوا رجال حرب وجِلادٍ، لا يَقِلُّ نُزوعهم إلى القتال عن نُزوع أعدائهم المسلمين، وقد يفوقون هؤلاء في استعدادهم للنِّضال واحتمالهم الحرب الطويلة الأَمَدِ، وجُرْأتهم اليائسة المستَمِيتة.

لقد كانوا رجالَ سيفٍ ليسَ غيرُ، وطالما دفعهم الفقرُ وحَفَزتهم الحاجة إلى خدمة أي إنسان كيفما كان. فكانوا يبيعون شجاعتهم لمن يدفع أغلى ثمن، لأنهم يحاربون ليعيشوا.وتاريخ القرن الحادي عشرَ لأسبانيا مملوء بالوقائع التي حارب فيها أبطالُ النصارى تحت راية المسلمين، ولكن ليس بين هؤلاء الأبطال مَن نال شُهرة السَّيدِ بطلِ أسبانيا.

هذا السيدُ هو لذريق البيفاري؛ وقد سماه أتباعه من العرب بالسيد، وكان من أسمائه أيضًا: الكمبيدور ومعناها: البطل، أو المبارِز المتَحَدِّي [468]؛ لأن شجاعته الفائقة في الحروب جعلَته المبارِزَ المشهود له بالسّبْق في المبارَزات التي كانت تَسْبِق التحام الجيشين.

ولم يكن أحد أبعد شهرة وأكثر انتصارًا في المبارزات من لذريق، أو سيدي القنبطور «كما كان يحلو لأحد قُدامَى المؤرِّخين أن يدعوه» ومن السَّهْل الهيِّن أن نميِّز الصحيح مما شاع من الروايات عن ضُروب شجاعة السيِّد وإقدامه، التي امتلأ بها تاريخهُ العجيب.

وأكثر ما حبَّب السيدَ إلى نفوس القشتاليين، عُزوفُه عن طاعةِ الملِك ألفونسو وإن عَدَّ ذلك مُدَوِّنُ سِيرته عَيبًا يَحُطُّ من بطولته، فإنَّ صاحب هذه السيرة، أو المعِين على جمعها، وهو ألفونسو العالم، لم يستطِع أن يتجاوَز عن صَلَف السيد وتحدِّيه لسلفه ألفونسو السادس. لذلك نلحظ في ترجمة سوذي [469] لسيرة السيد -وهي غنية باستشهادات كثيرة من قصيدة السيد وغيرها - وقوفًا مقصودًا عن الاسترسال في الإطراء، وكَبْحًا فُجائِيًّا لجِماح الأناشيد، والقصص الموغِلة في الملَق والمديح. وبهذه السيرة إسهابٌ كثير فيما لا يُشَرِّفُ السيدَ، أو يَرْبَأُ به عن المذَمَّة، غير أنها تصوِّر أخلاق البطولة الحقَّة بما فيها من خيرٍ وشرٍّ، وتَعْرِضُ صورةً شائقة عجيبةً لهذا العصر المضْطَرِب، ومثالا رائعًا لهذا الفارس المعلَّم بين الفرسان الإسبانيين.

ولو قصدنا إلى سَرْدِ قصة السيد كاملة لملأنا بها مجلدًا ضخمًا، لذلك نرى من الخير أن نقصُر عَنان القَلم على اقتِطاف بعض فقرات من سيرته. ولسنا نعلم شيئًا عن بطلنا في أيام صباه. والذي نعلمه عنه: أن أول ورود لاسمه في التاريخ كان في سنة 1064م، حينما فاز بلقب المبارِز، لانتصاره في مبارزة أحد فرسان نافار، وأنه عُيِّن إثر ذلك قائدًا لجنود قشتالة، وكان فوق العشرين بقليل، ثم نعلم أنه ساعد سانشو أميرَ قشتالة على قَهرِ أخيه، بمفاجأة فيها كثيرٌ من معاني الغَدْر والخيانة، وإنْ عُدَّت من الحيل الحربية في هذا الزمن الجافي الخَشِن. وبعد أن قتل بليدو سانشو عند أسوار زمورة، لحق السيد بخدمة خَلَفه، وهو ألفونسو نفسه، الذي كان السيد سببًا في نفيه بعد انتصار أخيه سانشو عليه. وقد أحسن ألفونسو أول الأمر لقاء فارس قشتالة المظفَّر في قصره، وزوَّجه بنت عمه، ولكن حُسَّاد السيد ملئوا صدر ألفونسو بالسَّخائم

والحِقد عليه، ولم يكن منه سَليمَ دَواعي الصَّدْر، فنفاه من مملكته سنة 1081م (474هـ) وتقُصُّ علينا سيرتُه ما أصابه بعد ذلك فتقول:

«وبعث السيد إلى أصحابه وأقاربه وخدمه، وأخبرهم بما آل إليه حاله، وما كان من أمر الملك بنفيه، ثم سأل عمَّن يريد منهم أن يتبعه في منفاه، وعمَّن يريد منهم أن يقيم، فاتجه إليه القارڤانز «البرهانس» وهو من أبناء عمومته، قائلا: «إننا أيها السيد سنتبعك جميعًا حيثما ذهبت، ولن نَخْفِر لك عهدًا... إننا سنسير معك في البدو وفي الحَضَر، وسنبذُل في خدمتك بِغالنا، وخيولنا، وأموالنا، وثيابنا إن شئت، وسنبقى لك أوفياءَ مخلصين مدى الحياة». وأيَّد جميعُهم مقالةَ القارڤانز فشكر لهم السيد عطفهم ومحبتهم ثم قال: إن الفَلَك يدور، وإن الأيام قد تمكِّنه من توفية جزائهم.

«وعند رحيله أخذ يتلفَّت إلى داره، فغلبه الدمع وصاح: هذا من عمل أعدائي، فالحمد لله على السَّرَّاء والضَّرَّاء. وزاد في شجونه أن رأى بَهْوَه قَفْرًا، وصناديقه مبعثرة، وأبوابه مفتَّحة، ومشاجِبه مُلْقاة على الأرض، ومقاعِدَ فِناءِ الدار وقد رُفعت، والصُّقُور التي كانت تَعْلُو قِمَمها وقد طارت. ثم اتجه إلى الشرق وسَجَد وهو يتمتم: مريم... مريم.... أيتها الأم المقدَّسة... ويا أيها القديسون جميعًا. توسلوا إلى ربي أن يهَب لي القوة لاستِئصال الوثنيين، وأن يمنحني من غنائمهم ما يقدرني على مكافأة إخواني هؤلاء، ومكافأة كل مَن يتبعني ويعينني، ثم دعا القارڤانز وقال له: يا ابنَ العمِّ... إن الأُمَّة المسكينة لم يكن لها يد فيما رَزَأنا به الملك، فاعمل على ألا يُصاب أحدٌ منها بسوء في أثناء الطريق... ثم دعا بفرسه، وكانت امرأةٌ عَجوزٌ واقفة عند باب دارها، فمذ رأته أجْهَشَتْ بالبكاء وقالت: ارحل على الطائر الميمُون أيها السيد، وانهَب من الغنائم ما شئت. وبعد سَماع هذه الوصية الغالية، ركِب جوادَه وقال: أيها الأصدقاءُ. إننا سنعود بمشيئة الله إلى قشتالة متوَّجِين بالشرف، فائزين بالغُنْم الكثير. وعند رحيلِهم من بيڤار [470]، رأوا غرابًا سانِحًا، فلما وصلوا إلى برغش [471] رأوا غرابًا بارحًا.

«ولما دخل برغش كان برُفْقته ستون رجلا، فهُرِع الرجال والنساء لمشاهدته عن بعد وهم حَذِرون، وأطلَّ كثير من منافذ دُورِهم باكين مَحْسُورين، وصاحوا بصوت واحد: سبحان الله!! سبحان الله!! يا لَه مِن خادِمٍ كريم لو ظَفِر بسيد كريم!! وتمنَّوا أن يُضِيفوه في دُورِهم. ولكنهم لم يجرءوا، لأن ألفونسو في حِدَّةِ غضبه أرسلَ رَسائِلَ إلى أهل بُرغش يُحَذِّرهم فيها من إيواء السيد، ويُنذِر مَن يخالِفه بمصادَرة أمواله وسَمْلِ عينيه. واستولى الحزن والهمُّ على النصارى حينما شاهدوا هذه المرْزَأة من بعيد، وأخذوا يَخْتَفون حينما قرُب السيد منهم، لأنهم كانوا يَحْذَرون مشافهته والقرب منه. فذهب السيد إلى «بوسادا» وهو الخان الذي كان ينزل به، فرأى صاحبَ الخانِ قد

أسرعَ بإغلاق بابه خوفًا من الملِك، وعندما صاح رجاله بأبي المثوى أن يفتح الباب لم يجبهم أحد، فقرُب السيِّد من الخان، وخلَع قَدَمه من الرِّكاب، وضرَب الباب بها فلم يُفْتَح، لأنه كان وَثِيق الغَلْق، وعندئذ خرجت فتاة صغيرة في التاسعة مِن إحدى الدُّور وقالت: أيها السيد... لقد نهانا الملِك أن نُؤْوِيَك فلم نستطع أن نفتَح أبوابنا لاستقبالِك، ولو فعلْنا لفقدنا دُورَنا، وأموالنا، وأعيننا التي في رءوسنا... أيها السيد، إن مصيبَتنا بإيوائك لن تساعدك، ولكن الله وجميع القديسين معك.

«وعندما علم السيد بما أمر الملِك به، لَوَى عِنان جواده نحو كنيسة سنت ماري، وهناك ترجَّل وسجَد، وصلَّى بقلب خافِق يَفِيضُ رَهْبة وخشوعًا، ثم ركِب ثانية وغادَر المدينة. حتى إذا كان غيرَ بعيد من نهر أرلنسون، عرَّس ودقَّ أطْنابَه فوق الرمال، لأنَّ أحدًا لم يقبل أن يُضِيفه، فأقام بين أنصاره وصحبه كما لو كان مقيمًا بين الجبال التي خَلَت مِن دَبِيب الحياة.

«وأذنت الدِّيَكَة بأصواتها النَّدِية، وبدت تَباشِيرُ الصباحِ، عندما وصل السيد إلى دير سنت بدرو، وكان إذ ذاك راهبُ الدِّير الدون سبيوتو يؤدي صلاة الفجر، ومعه الدونة شيمانة زوج السيد، في خمس من وصائفها النبيلات، يدعون اللهَ والقديسَ بطرس أن يعين السيد ويَشُدَّ أَزْرَه. فلما سمِع الراهب صَوتَ البطل لدى الباب كان سُروره عظيمًا، فخرج هو ومَن معه إليه يحمِلون المشاعل والشُّموع، وحمِد الراهبُ اللهَ أن متَّعه بلقائه، وأخذ السيد يقُصُّ عليه كلَّ ما حدَث له، وما رماه به الملِك من النفي والاضْطِهاد. ثم منَحه لنفسه خمسين دينارًا، وأعطاه مائة دينار لزوجه وبنتيها وقال: أيها الراهب. إني أَكِلُ إلى رعايتك ابنتيّ هاتين، بعد أن أتركهما ورائي، فاخفِض لهما جناح الرَّحمة، واعطِف على زوجي ووصِيفاتها، فإذا نفِد هذا المال فأنفِق عليهن سَخِيًّا مبسوط اليد، فإن كل دينار يُصْرَف عليهن سيُردُّ إلى الدِّير أربعةَ دنانير. فوعدَه الراهبُ بأنه سيفعل ما يُؤمَر بمشيئة الله. ثم تقدَّمت شيمانة إلى زوجها وهي تحمل طفلتيها، كل طفلة فوق ذراع، وجثَتْ أمامه على ركبتيها وهي تبكي بُكاء شديدًا، وتومئ إلى يديه بالتقبيل، ثم قالت: انظر الآن كيف نبَت بك بلادُك وشَمَت بك الأعداء والحاسدون، وانظر الآن ما صار إليه أمري وأمر بنتيّ الصغيرتين، وكيف حُكِم علينا بالفراق ونحن أحياء؟! أقسم عليك بحقِّ مريم إلا ما أخبرتني عمَّا أفعل!! فحمَل السيد طفلتيه فوق ذراعيه وضمَّهما إلى قلبه، وانتحب طويلا، لأنه كان شديدَ الحب لهما وقال: إني سأحيا بمشيئة الله ومشيئة السيدة مريم، حتى أزوج ابنتيّ هاتين، وحتى أقوم بشرف خدمتك أيتها الزوجُ النَّبيلة التي أحببتها كنفسي. وأقاموا في هذا الدير وليمةً للبطل الكريم، وصدَحت أجراسُ الدير برَنَّات البهجة والسرور.

ومضت ستة أيام من المهْلَة التي منحها ألفونسو إياه لمغادَرة البلاد، وبقي منها ثلاثة.

«وكان ألفونسو صَلْبَ العُودِ عَنيدًا، فلو أنه بَقي في المملكة بعد انتهاء المهلة يومًا واحدًا، ما استطاع أن ينقِذه من بَراثنِه ذهبٌ ولا فِضة، وفي هذا اليوم أوْلم مع أصحابه، ثم وزَّع عليهم في المساء كلَّ ما يملك، فأعطى كل رجل على قدر منزلته، ثم أمرهم أن يتلاقَوا بالدِّير عند صلاة الفجر ليرحَلُوا معًا. وقبل أن يَصِيح الديكُ كانوا قد أخذوا أُهْبَتهم واجتمعوا بالدِّير، فأدى بهم الراهبُ الصلاةَ حتى إذا انفَتَلُوا منها أَعَدُّوا خيلهم للرحيل. وهنا أخذ السيدُ يعانق شيمانة وبنتيه ويدعو لهن، وكان فراقه لهن أشبهَ بنزع الظُّفْرِ من لَحمِ الأنامل. وعند مغادرة الدِّير طفِق يبكي ويكثر من التلفُّت وترديد الزَّفَرات، فقرُب منه القارقانز وقال: أين شجاعتُك أيها السيد؟؛ لقد وُلِدت سعيدَ الطالع مَجْدُودًا؛ فكِّر الآن في سفرنا، واعلم أنَّ هذه الأحزان ستنقَلِب في يوم سعادة وسرورًا».

عرض السيد نفسه على أمير سَرَقُسَطة [472]، وكان أقوى ملوك المسلمين في الشمال، فرحَّب به وبرجاله وضمَّهم إلى جيشه.

ومن هناك قاد السيد أتباعه إلى غارة بأراغون، وكانوا قد شُغِفوا به ورأوا الغُنْم في متابعته، وكان سريعَ الضَّرْبة في هذه الغارة خَفِيف الخُطَا، حتى لقد قطَع مسافاتٍ في خمسة أيام، وفرَّ بغنائمه قبل أن يشعر النصارى بمقدَمه. ثم قاد العرب لمحاربة كونت برشلونة ففاز فوزًا مبينًا، حتى اضطر الكونت إلى محالفته.

وأعظم أعمال السيد تغلُّبه على بَلَنْسِية. وقصة ذلك: أن أمير سرقسطة ندبَه لحماية أمير بلنسية [473]، بعد أن اضطرب بها حبلُ السِّياسة، وتفاقمت الأمور، فدخل المدينة أولَ ما دخلها مسالمًا، والسيرة تقول:

«فذهب السيد إلى بلنسية، واستقبلَه الأمير يحيى بن ذي النون [474] أحسنَ استِقبال، وعقَد معه ميثاقًا تعهَّد فيه: أن يمنحه كلَّ أسبوع أربعة آلاف مُرابطيٍّ [475] لقاء إخضاع أهل الحصن لطاعته، حتى يؤدوا إليه الإتاوة التي كانوا يؤدُّونها لأسْلافه من أمراء بَلَنسية، وعلى أن يحميه السيد من العرب والنصارى، وأن يتخذ بلنسية منزلا له ومُقامًا، وأن يجلِب إليها ما يَسْطُو عليه من الغَنائم لبيعه بها، وأن يتَّخِذ بها أهْراءه [476]. وقد دُوِّن هذا الميثاق حتى يكون حُجَّةً لكليهما. فأرسل السيد إلى مَن بالحصن يأمرهم أن يؤدُّوا الإتاوة إلى أمير بَلَنْسِية كما كانوا يفعلون من قبل فقبِلوا طائعين وتسابقوا إلى مَرْضاته».

ومذ ظفِر السيد بهذا المنصِب، شرع يقود جيوشَه المظفَّرة إلى الممالك المصاقِبة «فحارب دانية [477]، وشاطبة [478]، وأقام بها في أثناء الشتاء مدمِّرًا عاتِيًا فلم يدَع حَجرًا على حَجر من أريولة [479] إلى شاطبة، وكان يبيع غنائمه وأسْراه ببلنسية».

وفقد السيدُ سيطرته على بلنسية حِينًا من الدهر، في أثناء هذه الحروب والغارات: ذلك أن ألفونسو سنة 1089م (482هـ) عاد فرضِي عنه ومنحه حصونًا، وأقرَّه على جميع ما استولى عليه في غزواته، وبهذا الإقرار أصبح السيد أميرًا مستقلًّا، غير أنه لم يمضِ من الزمن إلا قليل، حتى عاد الملِك إلى الشَّكِّ في أمره، والأخذ فيه بالشُّبْهة، فاقتَنَص فرصةَ غَيْبته بالشمال، وأسرع فحاصَر بلنسية. وحينما علم الكمبيدور بذلك اشتعل غَضبًا، ووجَّه انتقامه إلى مقاطَعات ألفونسو، فدمَّر بالسَّيف والنار نافار، وقلهرة، ودك حصن لوكرني دكًّا. وجاء في بعض المدونات اللاتينية القديمة: «وعاث في الأرض جبَّارًا نهَّابًا ثم غادرها قَفْرًا يَبابا بعد أن احتَجن خيراتها» فاضْطُرَّ ألفونسو إلى رفع الحصار عن بلنسية، وعاد مسرِعًا لإنقاذ مملكتِه، ولكن السيَّد بعد أن نال مأرِبه من غزو ممالك ألفونسو، سلَك سبيلا أخرى إلى بلنسية، فوجد أبوابها مغلَقة دونه.

ومن ذلك الحين ابتدأ ذلك الحصار التاريخيُّ الذي لبِث تسعة أشهر، لاقى فيه أهلُ بَلَنْسِية الشدائدَ والمحَنَ، فاشتدَّ بهم الجُوع والظَّمَأ. كل هذا والسيد ورجاله محيطون بأسوارهم بقلوب أشدَّ صلابة من هذه الأسوار، لم تنفُذ إليها الرحمة، ولم تعرف في الحرب لِينًا ولا رفقًا، وآض أهل بَلَنْسِية في هذا الحصار القاتل أشباحًا هَزِيلة، خائرةَ القُوى، أخذَ منها السَّغَب [480] ونَهَكَتْها المخْمَصة [481]. وكان إذا وثَب أحدُهم من السور أو ألقاه أهلُ المدينة لأنه لا غَناء فيه، ولا مَعونة عنده، تلقَّفته سيوف أتباع السيد، أو أبقت عليه فبيع كما تُباع العبيد. ويقول مؤرِّخو العرب: إن السيد أحرق كثيرًا من هؤلاء أحياء. وتوجِز سيرته في وصف هذا الحصار فتقول:

«ولم يبق بالمدينة طعامٌ يباع، وأصبحَ الناس بها يترنَّحون بين أمواجِ الموت، وكثير منهم من سقط في الطُّرق ميتًا».

وسلمت المدينة في يونية سنة 1094م (487هـ) حين يئست من المقاومة، وحين لم يبق لها في قَوْس الصَّبر مَنْزَع، ووقف السيد مرة أخرى فوق حصونها وأسوارها مُؤزَّرًا منتصِرًا، ثم أملى على أهل بَلَنْسِية شروطًا قاسية [482]، وطرَد كثيرًا منهم من المدينة لتَخْلُو أمكِنتهم للقشتاليين. وفي الحق أنَّ السيد كان جافِيًا في مُعاملة المغلُوبين أشَدَّ الجَفْوَة، ناكِثًا بِعَهْدِه. ولكنه لم يُدَنِّسْ انتِصاره بحَصْدِ الأرْواح، وذَبْحِ مَن في المدينة، كما كان يفعَل كثيرٌ في هذا الزمان. نعم إنَّ مِن السُّكَّان مَن فَقَدوا ما يملكون، ولكنهم جميعًا نَجَوا بحياتهم، ولم يُقْتل إلا

قُوَّادُهم [483]. وأرسل السيد يستقدم زوجته وبنتيه من الدِّير، ودعا بنفسه مَلِكًا على بَلَنْسِية، وحاميًا للممالك حولها، وضرب إتاواتٍ فادِحةً على جيرانه، حتى بلغ دَخْلُه في السنة من بلنسية وحدها مائة وعشرين ألف دينار، ووصل إلى عشرة آلاف من ابن رزين صاحب السَّهْلة [484]، ومثلها من أمير البنت [485]، وإلى ستة آلاف من أمير مربيطر [486]، وهكذا...

وخَيَّلَت له الأحلامُ أن يستردَّ الأندلس كلَّها، فقد قال: إن لذريق خسِر أسبانيا وسيعيدها لذريق آخر. وحين حاربه المرابِطون شتَّت جموعهم، وبدَّد شمْلَهم في معركة حامِية.

ولكنَّ الحظوظ تَتَقَلَّب في الحروب، وكما تكونُ الأيام لك تكون عليك، فقد هزَم المرابطون جنودَ السيد في النهاية، فمات حُزنًا وغَمًّا في يولية سنة 1099م (493هـ). وحين مات حَنَّطُوا جُثَّته وأقاموا بجانبها حُراسًا، ثم أنفذوا ما أوصى به - كما تقول الأشعار القصصية - فأقْعدوه على جَواده الكريم «بابيكا»، وأحكموا شَدَّة السَّرْج، فجلس عليه معتَدِل القامة، لم يظهر بوجهه أثرُ الموت، وقد أبرقت عيناه الشَّهْلاوان، وأُرْسِلت لحيته إلى صدره، وقَبَضت يدُه على سيفه الأمين

«تيزونة» فبدا كأنه حيٌّ لا يتطرقُ في ذلك شكٌّ لرائيه. ثم أخذوا بلِجام فرسِه وخرجوا من المدينة، يتقدمهم بيروبرميودز، وهو يحمل علم السيد ومعه خمسمائة فارس لحراسته، وسارت خلفه شيمانة في صويحباتها وحاشيتها، فأخذوا

مملكة غَرناطة

أصبحت عودة أسبانيا إلى حُكْم المسيحِيين وفيهم من الجنود أمثال السيد ومن الملوك أشباه فرديناند وألفونسو - أمرًا مُتَوَقَّعًا بين يَدَي الزمان.

ومن الجليّ أنَّ لكل أمَّة مِيقاتا، وأن لكلِّ دولةٍ عهدَ نموٍّ ثم عهدَ ازدهار، يتبعها الذُّبول والهَرَم والانحلال. وكما سقطت دولة الإغريق، وكما سقطت رومة [487]، وكما سقطت كل مملكةٍ قديمة شهِدت الدنيا نهوضَها وقوتها - سقَط العرب في أسبانيا وشالَت نَعَامَتُهم، بعد أن دنا أجَلُهم وحان حينهم فقد ذهبت رِيحهم، وتفاقم الخِلاف وزادت الجَفْوة بين أمرائهم؛ قبل أن يتملَّكهم المرابِطون، ثم إنَّهم لم يكونوا أحسنَ حالا حينما دالت دولةُ المرابِطين، فما كاد هؤلاء يغادِرون الأندلسَ، حتى ظهر في الميدان عدوٌّ جديدٌ: ذلك أن الموحِّدين الذين ثلوا عرش المرابطين بإفريقية، راقَ لهم أن يُحاكُوهم في ضَمِّ الأندلس إلى مُلْكِهم، وذَلَّل أمامهم السبيلَ ما شَجَر من النزاع بين أمراء هذه المملَكة المنكُودة [488] التي طال على تَمزُّقها الأَمَدُ، فأخذ الموحِّدون الجزيرة الخضراء سنة 1145م (541هـ) وفي سنة 1146م (542هـ) نزلوا بإشبيلية ومالَقة، وبعد أربع سنوات أصبحت قرطبةُ وبقية القسم الجنوبيِّ من أسبانيا تحت رايتهم، وامتنع عليهم بعضُ الأمراء أولَ الأمر، ولكن الموحِّدين كانوا أعظم قوة وأشَدَّ بأسًا من أن يَقِفَ في وجوههم أمير أو زعيم.

ولم يفكِّر الموحِّدون في أن جعلوا من الأندلس قاعدةً لملْكِهم، بل لبِثوا بإفريقية، وأرسلوا مِن حَضْرَتِهم نُوَّابًا يقومون بالأمر فيها. وكان مِن أثر ذلك أن ضَعُفَت قَبْضَتُهم على الأندلس، وزُلْزِلَت أقدامُهم فيها. فإنَّ من الصعب العسير أن تَضْبِط ولاياتٍ مضطربة متنازِعة كولايات الأندلس، بنوَّاب يرسَلون من مراكش، أو ببعوث الجند ترسل بين الحين والحين لصَدِّ كرَّات الأعداء. نعم إنَّ الموحِّدين قوِيت شَوْكَتهم أولَ الأمر، حينما قدموا إلى الأندلس بعُدَّتهم وعَدِيدهم، فانتصروا انتصارًا مؤَزَّرًا في سنة 1195م (591هـ) بموقعة الأَرَك [489] بالقرب من بَطَلْيَوْس، وقتلوا آلافًا من أعدائهم، وظفِروا بغنائم يُخْطِئها العَدُّ، ولكن الحظَّ وهو متقَلِّبٌ مَلُولٌ، لَوَى عنهم وَجْهَه في مَوْقعة العُقَاب [490] المشئومة سنة 1212م (609هـ) التي قضت على مُلْكِهم بالأندلس. فقد كان جيشُهم ستمائة ألف مقاتل، لم يَنْجُ منهم إلا عدد قليل فرَّ لينبئ بهزيمتهم ودَحْرِهم. وسقطت مدينة إثر مدينة في أيدي المسيحيين. وضاعَف كارثةَ الموحدِين ما كان من الشَّغَب بين قبائل البربر بإفريقية، وما توالى من وَثَبات المنافسين لهم فيها، فتبدَّدت قُوَّتهم، وطمِع فيهم أمراء الأندلس الذين سَئِموا

حُكْمهم المتزَمِّت العَنِيف، فأزاحوهم عن الأندلس في سنة 1235م (633هـ) وأعلن ابن هود [491] نفسَه حاكِمًا لأكثر بلاد الجنوب، وتملَّك سَبْتة بإفريقية. وحين قضى نَحْبَه في سنة 1238م (636هـ) تحوَّل حكم الأندلس إلى بني نصر أمراء غرناطة [492].

وكانت مملكة غرناطة بقية ما ملَك العرب بأسبانيا، بعد أن تمزقت أَشْلاء مَمْلَكتهم، وَوقع أكثرُ المدن بأيدي المسيحِيِّين. فبين سنة 1238م (636هـ) و 1260م (658هـ) فتح فرديناند الثالث ملِك قشتالة، وجايم الأول ملك أراغون مدن بَلنسية [493]، وقرطبة [494]، وإشبيلية، ومرسية، وأصبح حُكْمُ العربِ محصورًا في مُقاطَعة غَرناطة، وهي الرُّقعة بين جبال نِيفادا [495] وساحل البحر، من المرِيَّة إلى جبل طارق، وقُدِّر للعرب بعد هذه الفتوحِ أن يستمِرَّ حُكْمُهم بغَرناطة قرنين ونصفَ قرنٍ.

وكان للعربِ جيشٌ ومَنَعة في هذه البُقْعة، التي أحاط بها أعداؤهم من كلِّ جانب، فإن الجنود الأشِدَّاء الذين فرُّوا من المدن بعد استيلاء النَّصارى عليها، هُرِعوا إلى الملِك الباقي من مُلوك المسلمين، ليقدِّموا سُيوفَهم وسواعدَهم لخدمته، وقد قيل: إنَّ خمسين ألفًا من العرب قَدِموا على سلطان غَرناطة، من بَلَنْسِية، وشريش [496]، وقادس [497]، ومع كلِّ هذه القوة وهذا السلطان كانت غَرناطة تومئ لملِك قشتالة بالطاعة، وتؤدي إليه الإتاوة كلَّ عام. وكان منشئ دولة بني نصر عربيًّا يُدْعَى ابنَ الأَحْمَر [498] لشُقْرة فيه، وكان شَديد المِراس قويَّ الأَسْرِ، غير أنه لم يستطع الوقوف في وجه النصارى، لأن أسبانيا كلَّها إلا قليلا أصبحت في أيديهم، فخضَع ابنُ الأحمر مُرغَمًا لهم، وأدى الإتاوة لفرديناند، ثم لابنه ألفونسو «العالم» وإن حاول مراتٍ أن يخلع نِيرَهم ويتحدَّى قوتهم. وفي غُضون هذه الفترة، ترك ملوكُ المسيحيَّة غَرناطة وشأنَها، لأنهم شُغِلوا بتوطيد دعائم الملك فيما فتحوه من البلاد، وبمكافحة كلِّ دَعِيٍّ في الملْك دَخِيلٍ.

وطالما حاول العرب في حروبٍ متعاقِبة أن يتغلَّبوا على المسيحيين، ويتفلَّتوا من أيديهم، ولكنهم قَنَعوا في النهاية بالمنزِلة التي وضَعهم فيها القدرُ. وكانت الإتاوة التي يؤدِّيها محمدٌ العاشرُ [499] إلى المسيحيين لصيانة مملكته في سنة 1436م (868هـ) اثني عشرَ ألف دوكات [500].

وكانت لغَرناطة منزلة قرطبة في إنهاض الآداب والعلوم، في أثناء هذا الهدوء السياسيِّ، فكان لبنَّائيها ومهندسيها شهرةٌ ذائعِةٌ في أرجاء أوربا، فهُم الذين بَنَوا الحمْراء [501] التي دُعِيت بهذا الاسم للون التربة التي أُنشئت عليها، وهم الذين مَوَّهوا حِيطانها بالزُّخْرف الذَّهبيِّ البديع، وزيَّنوها بالأشكال

المصْبوبة ذاتِ الهندسة العربية الفائقة التي لا تزالُ إلى اليوم مَوضِع عجَبِ الفنانين وإعجابهم في أنحاء العالم [502]. وتُعَدُّ غَرناطة نفسها ببُرْجَيها السامِقَين، لؤلؤةً في جِيدِ الزمان، فقد بُنِيَت عند نهاية المَرْج الممْرِع، وفي سَفْح جِبال القمر المتوَّجة بالثلوج (جبال نيفادا). وإذا أطلَّ المرءُ من إحدى قِمم غَرناطة أو الحمراء، التي تقِف دَيْدَبانًا في نهاية المرج، كما يقف الأكروبول في أثينا [503]، وسرَح نظرُه في فضاء المرج الأَفْيَح [504] وقد تعانَقت أشجاره، وتبسَّمت أزهارُه - رأى من الجداوِل والكُروم والبساتين وغِياضِ البرتقال ما يملأُ النَّفْس سُرورًا وبَهْجَةً. وفي الحقِّ أنّ غَرناطة تفضُل كل مدينةٍ بالأندلس، في جمال مناظِرها، واعتدال جَوِّها. فإنَّ النَّسيم الذي يَهُبُّ عليها من الجبال الثَّلْجية، يجعل أشدَّ أيام القَيْظِ فيها من أجملِ الأيام وألطفِها. أما تربَتُها، فمنقَطِعة النَّظير في الخِصْب وقوة الإنبات. وقد أُنْشِئ قصرُ الحمراء فوقَ شَرَفٍ من الأرض تُحِيط به قِممٌ عالية صعبة المنحَدَر، تتدفَّق في سَفْحِها الشماليِّ أَمْواه نهر حدرّو [505] (درّو) وقد حُصِّن القصرُ بأسوار غُطِّيَت بالمرْمَر، وشدت عند كل مسافة بحصون تُشرِف عليه. وتشبه الرُّقْعة التي قامت عليها الحمراء سِنَّ رُمْحٍ دقيقةَ الطَّرَف، عَرِيضَة الجانبين، يبلُغ طولها نِصفَ مِيلٍ من الشرق إلى الغرب [506].

ويمر الزائرُ من فِناء الحمراء بقُبَّة ضخمة برتقالية اللون، تضرب إلى الحُمرة فينتهي إلى باب دار العَدْل [507]، حيث كان يجلِس السلاطين للفصل بين الناس [508] كما كان يفعل قضاةُ اليهود. وهناك على قَوْسٍ من البناء لها شكلُ حِذاءِ الفَرَسِ، ترتفع إلى نحو ثمانٍ وعشرين قَدَمًا - صورتان نُحِتَتا في صخرتين عظيمتين، إحداهما لمفتاح رَمزيٍّ، والأخرى ليد ضخمة مرفوعة إلى السماء [509] فإذا اجتاز الداخلُ هذا البابَ، وصل إلى فِناءٍ مُرَبَّعٍ، فرأى إلى أحدِ جوانبه القصرَ الذي همَّ بإنشائه شارل الخامس [510] ولم يتمه. ثم يمر بالطريق الموصِّلة إلى الحمراء، فيرى بعض أطلالها، وينتهي إلى ساحةٍ تسمَّى: ساحة الرَّيْحان لكثرة ما بها مِن هذا النبات، ويخرُج من هذه الساحة ممرٌّ ضَيِّقٌ يوصِّل إلى فِناء البِرْكة، وطوله مائة وأربعون قَدَمًا وعرضُه نصفُ ذلك، وبه بِرْكةٌ من الرُّخام تتألَّق فوقَها الشَّمْس، بها كثيرٌ من السَّمك ذي الألوان. وتُزَيِّن جوانبَ هذا الفناء أعمدةٌ ومَشارفُ نادرةُ الصَّنْعة، ويظهَر إلى الشمال منه حصنُ «قمارش» تَيَّاهًا مخترِقًا الأُفُقَ، ويرفرِف السُّكون والهدوء على هذا الفِناء، حتى إن المرءَ لا يكادُ يسمع فيه للماء خَرِيرًا منطلق إلى البِرْكة. وما أجملَ تألُّق السمكِ الذهبيِّ الكثيرِ العَدَدِ بالبِرْكة إذا واجهته أشعةُ الشَّمس!! وما أَرْوَحَ أن يُحِسَّ المرء فيه بأنه في عُزْلةٍ عن الدنيا!! فإنَّ أثرًا من آثار الحياة الصَّاخِبة لا يصل إليه، إذْ كلُّ ما حولَه هدوءٌ مُطْلَقٌ لا يبعَثُ في النفس الملالة، فهو طَلَلٌ صامِتٌ رَزِينٌ هادِئ، يصور الموتَ والدَّمار، ولن يستطيع المرءُ وهو يراه إلا أن يشعُر بالعَطْف والإكبار والحبِّ لبُناة هذا القصر الأَوَّلين.

فإذا مررنا من فِناء البِرْكة، أو القاعة الزَّوْرَقِيَّة إلى بَهْو الرُّسُل (السفراء) تخيَّلْنا أيامَ ازدهار دولة المسلمين، وكِدْنا نُبصِر في صدرِها خليفةَ الأمويين جالِسًا على عرشه، في عظمته وجلاله.

فإذا أشرفْنا من النَّافذة المطِلَّةِ على سَهْل حدرّو ذكرنا كيف أن عائشة [511] زوجَ السلطان أبي الحسن [512]، أَدْلَت منها ابنها أبا عبد الله محمدًا [513] في زِنْبِيل [514] منذ خمسةِ قرونٍ، وكيف أنَّ شارل الخامسَ قال مرة وهو مُشرِف منها: «ما أَشْقَى مَن يفقِد كلَّ هذا!».

وفي أثناء بحثِنا عن التخطيط المشتبِك المعقَّد لهذه الأَطْلال، نجد أنفسنا في مَخدَع المِلِكة، الذي تُطِلُّ نوافذه على المرْج الفسيح الفَيَّاح، فتعود بنا الذِّكْرى إلى العهد القديم وما كان فيه من بُلَهْنِيَة ونَعِيم ورَفَهٍ، لأننا نرى بين صُفوف المرمرِ الذي رُصِفت به أرضُ المخدَع شُقوقًا وفُروجًا، بالقرب من مَدْخَلِه، يحدثنا القصَّاصون عنها أنَّ البَخور وأنواعَ الطِّيبِ كانت تُحْرَق تحت المخْدَع، فينفُذُ إليه شَذاها من هذه الشُّقوق، فتتعطَّر أرجاؤه. وإذا أطلَلْنا من إحدى نوافِذه، رأينا بُستان «لينداراجا» ورأينا بالقرب من حمامات السَّلاطين المدلة بنحتها الرائع، ورُسُومها العَبْقرية، وزَلِيجها الجميل.

وبهذه الحمامَات فَوَّارة كان يسيل منها الماء في صَوتٍ إيقاعيٍّ، كأنه يحاوِل الانسِجام مع رَنَّات الموسيقى التي كانت تهبِط من المشارِف، وقد جلس بها القِيَانُ يُغَنِّين ويعزِفْن لسيدات القصر، وهُنَّ يَنْعَمْن بالاستِحمام، أو يضْطَجِعن على الأرائك الذهبية. وقد نُقِر كُلُّ مستَحَمٍّ في صخرة عظيمة من المرمر، ووُضِع في غُرفة سقفُها من الزجاج المزَيَّن بالتَّهاويل، بينها صُوَرٌ من نجوم ووُرود ينفُذ النُّور من خلالها.

وقد يكون بَهْوُ السِّباعِ أشهرَ جزء وأبدَعَه في هذا القصر، وإنْ كان أقلَّ اتساعًا من ساحة الريحان. وبهذا البَهْوِ مائة وثمانية وعشرون عمودًا من المرمر، وُضِعت أجمل وَضْع، ونُسِّقَت أبدَع تَنْسِيقٍ، باجتماع كلِّ ثلاثةٍ ثلاثة، أو أربعة أربعة. وفوق هذه الأعمدة صُفُفٌ ليست سامِقةَ الارتفاع. والبَهْوُ غنِيٌّ بروائع الفن، مليء بنوادره.

ومن هذا البهوِ يصل الزائر من بابٍ أَبدَعت الصناعة رَسْمَه وزخرفه إلى قاعة بني سِراج. سميت بذلك لأن السلطان أبا عبد الله أمر بذَبْح بني سراج بها [515] ولا نزال اليومَ نرى على أرضِها نُقَطًا من الدَّم، يزعُم بعض الناس أنها بَقِيَّة ما سال من دمائهم.

ولن يتسع لنا الوقت إذا حاولنا مشاهدةَ جميع قاعات هذا القصر الفَخْم وأبهائه، وخير لنا أن نتَّجِه الآن إلى قصر آخر: يُسمَّى بجنَّة العَريف، وهو جَوْسَق القصرِ الأكبر، يصوِّر ظاهرُه بساطةَ الفنِّ الشرقيِّ. وقد أصابه الآن الدمار،

وحطّمته يدُ الدَّهْر والإنسان، حتى إنَّ نُقوشَه العربيةَ الدقيقةَ شُوِّهت بما لطختها به يدُ الجهل من طبقات المِلاط، واختفت تماثيلُه المنحوتة، وتولَّى جمالُه، وزالت نَضارتُه منذ حين.

لم يكن يتوقعُ العرب، والمملكة المسيحية القوية على مَرْمى سَهْم منهم، أن يعيشوا أكثر من قرنين في رَفاهة من العيش وقد هَمَست في آذانهم النُّذُرُ، وأحسُّوا قُربَ زَوالهم في الرُّبُعِ الثالثِ من القرنِ الخامسَ عشرَ، وكان اتحادُ أراغون وقشتالة بتزويج فرديناند بإيزابلا، أولَ ناعِقٍ بالفَناء. وكان يحكم غَرناطة في هذا الحين مَوْلاي علي أبو الحسن، وكان من أشجعِ الشُّجعان قوةً وجُرأةً، فصمَّم على أن يسبِق مَكايِدهما، وأن يناجِزهما الحربَ. وكانت بُداءة الشرِّ أن أبى أن يؤدِّيَ إليهما الإتاوة، حتى إذا وصل إلى حَضْرته رسولُ فرديناند يُلِحُّ في طلبها، ويُنْذِر ويوعد، أجابه أبو الحسن في صَلَف وكِبْرياء: «قل لمولاك: إن سَلاطين غَرناطة الذين اعتادوا أداء الإتاوات قد ماتوا، وإن دارَ الضَّرْب بغَرناطة لا تطبع الآن غيرَ السُّيوف» [516] ثم أرسل غارَة شَعْواءَ على المسيحيين بقلعة الصخرة ليعزِّز قوله بالعمل.

وقد قَصَّ علينا الكاتب الأمريكيُّ الموهوبُ واشنطون إيرفنج [517]، عُنْفَ هذه الغارة في كتابه «آخر حروب العرب بأسبانيا» فقال:

«في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف من الميلاد (886هـ) دُهِم أهلُ الصخرة بَياتًا وهم نائمون، وكان حارسُ القَلعة قد هجَر مكانه منها، والتجأ إلى كِنٍّ يَقِيه العواصفَ والأَنْواء التي اشتدَّ غضبُها، وثارت ثورتها منذ ثلاث ليالٍ متعاقبة، وقَرَّ في نفسه أن أحدًا من الأعداء لن يخرج في مثل هذه الليلة الليلاء، وغاب عنه أنَّ أرواح الشر أكثر ما تعمل في ظلام الليالي العاصفة.وفي منتصف الليل، ارتفَع الضَّجِيج في المدينة، فكان أشدَّ إرهابًا من صَخَبِ الأَنْواء، وصاح الإسبان مذعورين: العرب العرب، وسَرَت أصواتهم في كلِّ ناحية من المدينة، ممتزجة بصَلِيل السيوف وأنينِ القَتْلى، وصيحاتِ الظَّفَر والانتصار. وخُيِّل إلى أهلَ المدينة وقد شَدَهَهُم الذُّعْر، أنَّ شياطين الليل طارت إليهم على أجنحِة الريح، وسلَبتهم حصونهم ومعاقِلهم، وارتفعت صيحات القتال من كل مكان: نِداء يُرَجِّعُ نِداءً، وصوت يردد صوتًا، هذا من فوق، وهذا من تحت، وهذا من معاقل القَلعة، وهذا من طُرق المدينة. نعم كان العرب في كل مكان وقد لَفَّهم الظلام وستَرَتْهم الأَنْواءُ، غير أنهم مع كل هذا كانوا يعملون متعاونين على نِظام دَقيق وخُطَّةٍ مُحْكَمة. وباغت جنودُ أبي الحسن حُرَّاس الصخرة بعد أن هَبُّوا من نَوْمِهم، فطارت نفوسهم شَعاعًا، وأناخَ عليهم العربُ فاستَأصَلوهم قبل أن يُغادِروا ثُكُناتهم. وبعد فترة قصيرة انتهى الصِّدام والقتال، والتجأ مَن نجا من أهل المدينة إلى مخابئ دُورِهم، أو ذهب إلى الأعداء راضيًا بالذُّل والإِسار. وسكنت السيوف في أغمادِها، وسكَت صَلِيلُها ولكن العواصف ما

زالت تَزْأر وتَصْخَب، مختلِطة بأصوات العرب الذين خرجوا هائمين، يبحثون عن الغنائم والأَسْلاب. وبينما كان السكَّان يرتعدون فَرَقًا مما سيُصِيبهم، إذا صوتُ بُوقٍ يدوّي في أرجاء المدينة، داعيًا إياهم أن يجتَمِعوا عُزَّلا في الميدان الكبير، وهنالك أحاط بهم الجنْدُ لحراستهم حتى الصباح. وكان مما يثير الحزن والأسى، أن ترى، وقد انبثق الفجر، هذه الجموعَ الحاشدةَ التي كانت تعيش في تَرَفٍ ونعيم، وقد اختلَط حابِلُهم بنابِلِهم وشيوخُهم بأطفالهم، ونساؤهم برجالهم، وأغنياؤهم بفقرائهم، وليس على أجسامهم ما يَقِيهم قارِسَ البرد وعاصِف الأنْوَاء. وزاد الضَّجِيج وارتفعت أصواتُ التَّوَسُّل والرجاء، ولكن مولاي أبا الحسن القاسي سَدَّ أذنيه، وأغلق قلبَه دُون العطف والرحمة، وأمر بهم أن يُساقوا جميعًا إلى غَرناطة كما يُسَاق العبيد. وأبقى بالمدينة والقلعة حُرَّاسًا أشِدَّاءَ، وأمرهم أن يتيقَّظوا لكل طارقٍ، ثم قفَل إلى غَرناطة والانتصار ينفُخ خَياشيمه كِبرًا وزَهوًا. ودخلها على رأس جنده، ومعهم الغنائم والأسلاب، والبَيَارِق والأعلام. وفي أثناء ما أقيم من الولائم والأفراح لهذا الفتح المبين، قدِم أسرى الصخرة من الرجال والنساء والأطفال، وقد نهَكَهم التَّعب، وأكل قلوبَهم اليأسُ، فدخلوا المدينة كما يدخلها قَطِيعٌ من البقر، قد لَفَّه الليل بسواق حطم» [518].

وبُهِت أهلُ غَرناطة، وذُعِروا وتألموا لقسوة أبي الحسن، وشعر عقلاؤهم بسوء مَغَبَّة هذا التهوُّر، وسمَّوه: بداية النهاية، وصاحوا: «ويلٌ لغَرناطة؛ ويلٌ لها، لقد دَنت ساعتها، وستقَع أنقاضُ الصخرةِ فوق رءوسنا».

ولم يكن الانتقام بعيدًا، فقد استولى بعد قليل مركيز قادس على حصن الحملة غِيلَةً. وبهذا الاستيلاء تمكَّن النصارى من وضع حامية قوية في قلب بلاد المسلمين، وعلى مسافة قصيرة من غَرناطة نفسها. وكم حاول أبو الحسن أن يستردَّ هذا الحصن فلم يفلح، لأن مَن به من الجنود أظهروا شجاعةً نادِرة المثال، وصبروا وصابروا حتى جاءهم المدَد، وأدركتهم النجدة. وارتفع الصياح بغَرناطة: «ويل للحمة!! لقد سقطت الحمة وأصبح مِفتاح غَرناطة اليوم في أيدي الكفار».

ومن ذلك الحين أصبح هذا الحصن شَوكةً في جنوب ملوك العرب، فمنه خرج كونت تنديلة وعاث في المرج، وأكثر فيه الفساد.

حفَز الانتصار كلا الفريقين من المسلمين والنصارى إلى شَنِّ الغارات، التي لم يكن لها من أَثَرٍ إلا التخريب وإثارة الأحْقاد. وصمَّم النصارى آخر الأمر على أن يُذِيقوا العربَ النَّكال، ويَدْهَموهم بجيشٍ جَرَّارٍ. فعزموا على غزو ولاية مالَقة، وجمعوا كتائبهم بزعامة مركيز قادس وغيره من كِبار القوَّاد، ثم زَحَفوا على العرب بهذا الجيش المشئوم [519]. «وخرج الجيش مَزْهُوًّا بأبطاله

المدَجَّجِين من أبواب أنتقيرة [520] يوم الأربعاء، فمشى جنودُه ليلةً بنهارها في شِعاب الجبال، مبالِغين في إخفاء أنفسِهم، حتى يأخذوا العرب بَغْتَة.

ولم يصِلوا إلى الطريق الذي كانوا يقصِدون العَيْث والإفساد فيه إلا في اليوم التالي، وكان شِعْبًا ممتدًّا في أملاك العرب بالقُرب من ساحل بحر الروم، وفي هذا الشِّعْب لاقَوا من الأهوال والفَوادِح ما يعجِز عنه الوصفُ. فساروا فيه يستَحِثُّون الخُطَا، بين الجبال العابِسة السامِقة، والأوْعار والخوَانق. وطالما اعترَض طريقَهم مَهاوٍ عميقةٌ، وأوديةٌ صَلْدَة بعيدةُ الغَوْر قليلةُ الماءِ، بين صخورٍ تريد أن تنقَضَّ، وصخورٍ أسْقَطتها عواصِفُ الخريفِ، فعزّ اجتيازُها. وقد يمشون ساعاتٍ طويلة في أخادِيد، أو في مجرًى جافٍّ حفره السَّيْلُ بين الجبال، وغَمَره بالحَصا والأحجار. وكانت تُغطِّي هذه المهاوِي وتلك الأخادِيدَ قِممٌ عزيزةُ المرتَقَى صعبةُ المنحدَرِ، جعلت من هذا المكان مخبَأً صالحًا، كان يكْمُن فيه الجنود في أثناء الحروب بين العرب والمسيحيين، ثم أصبح بعد ذلك وَكْرًا للصوص يَثِبون منه على المسافرين.

وعند غروب الشمس، بلغ الفرسان قمةَ بعضِ الجبال، ونظروا إلى مَيامِنهم فرَأَوْا عن بُعدٍ قِسْمًا من مَرْجِ مَالَقةَ الوَسيم، وقد ظهر من ورائه بحر الروم. فاشتدَّ فرحُهم حتى كأنهم بقيةٌ من قوم موسى، ظفِروا بعد أينٍ بنَظْرةٍ إلى أرضِ المِيعاد، بَعد الفُرقة والشَّتات. وحين اعتَكَر الظلام وصلوا إلى بعض الأودية والدَّسَاكِر التي أطْبَقت عليها الجبال. ويُسمِّي العربُ هذه البقعةَ: بشرقية مالَقة، وفيها كُتِب لآمالهم أنْ تَخِيب، ولجيشهم أن يتمَزَّق: فإنَّ العربَ لما علِموا بقُرْبهم، ساقوا بَقَرهم، وحملوا أمتِعَتهم، والتجئوا بزَوْجاتهم وأولادهم إلى قُلَلِ الجبال ومعاقِلها.

واشتدَّ غضَبُ النصارى، وانصرفوا مسرعين طامِعين في أن يَقَعُوا في الطريق على غِنًى أعظمَ وأوْفَر. وأرسل الدُّون ألونز وآل أغيلار وغيره من القوّاد جنودَهم، فعاثوا فيما حولهم من الأرض، ودمَّروا ما شاء غيظُهم أن يدمروا، واستَلَبوا بعضَ البقر من زُرَّاع العرب في أثناء فِرارهم. وبينما كان هذا الفريقُ يعبَثُ ويدمِّر، ويشعِل النار في الدَّساكر [521] فتنِير الجبال، أمر صاحب سنتياغو [522] - وكان يقود ساقَة الجيش - أن يجتمع الفرسان صُفوفًا ليكونوا على استِعداد إذا صاحت بهم صائِحة.

وحاول بعض فرسان هذه الأُخُوَّة الدينية أن يَهِيموا في الأودية لاقتِناص الغنائم، فدعاهم وزَجَرهم.

ثم قادهم سوءُ الطَّالِع إلى شِعب في الجبل تقطعه الهُوَّات [523] والأخادِيد [524] البعيدة العُمْقِ، وتغطيه القمم، فكان مستحيلا أن يحتفظ فيه الجيشُ بنظامه، وضاق مجالُ الخيلِ عن المسيرِ فخرجت عن طَوْع فوارِسها. وكانت تتسلّق

من صخرة إلى صخرة، وتنزل غَوْرًا وتصعَد في نَجْد، وتنقل سَنابِكَها في مكان يضيق بفِرْسِن الوَعْل [525]. وحينما مرُّوا بإحدى القرى، كشفت لهم أضواؤها ما صاروا إليه من سُوءِ الحال، وتفاقُم الخَطْب، ووُعورة الطريق. وهنا بَصُر بهم العربُ الذين كانوا قد سَبقوهم إلى معاقِلهم الممْعِنة في الارتفاع، ورَأوا الفَخَّ الذي سقَطوا فيه، فصاحوا جَذِلين مستَبْشِرين ونزلوا من حصونهم، ورَبَضوا فوق قِمم الجبال التي تشرف على الهوّات التي ارتطم فيها المسيحيون، وأخذوا يصبُّون عليهم وابلا من السِّهام والأحجار.

وأطبق الليلُ بظلامه الدَّامس مرة أخرى على المسيحيين، وهم محبوسون في وادٍ ضيِّق يخترِقه جَدْوَلٌ عَمِيق، وتحيط به الجبال الذاهبة في السحاب وقد اشتعلت فوقها نيران الدعوة إلى الجهاد. وبينما هم في هذه الحال من اليأس، إذا صيحاتٌ مزْعِجة يتردَّد صَداها في جَنَبات الوادي: الزَّغَلَ الزَّغَل [526]!! فسأل صاحب سنتياغو: ما هذه الصيحات؟؟ فأجابه جندي قديم:هذه صيحات الزَّغَل قائد العرب، وهي تدلُّ على قدومه بجيشه من مالَقة. فالتفَت صاحب سنتياغو إلى فُرسانه وقال: فلنمُت ممهِّدين الطريق بقلوبنا، بعد أن عجَزنا عن تمهِيدها بسيوفنا. ولنخترِق الجبال إلى الأعداء. ولأن نبيع أنفسنا هنا غالية، خيرٌ من أن نُذبح مستسلِمين. وما كاد يتم قولته حتى لَوَى عنانه، وهمز فرسه متسلِّقًا الجبل يتبعه المشاة والفرسان، وقد وَقَر في نفوسهم أنهم إذا لم يستطيعوا الفرار، فلا أقل من أن ينالوا من أعدائهم بعضَ مَنالٍ. وبينما هم يتَسلَّقون، إذ دَهَمَهم من العرب سَيْلٌ من السِّهام والحِجارة. وكثيرًا ما كانت الصَّخرة تهوِي على جموعهم كالرعد القاصِف فتمزقهم تمزيقًا.

وكان يطمَح صاحب سنتياغو أن يجمع شَمْلَ مُشاتِه، وأن يهجم بهم على الأعداء. ولكن قومه من حوله ألَحُّوا في رجائه أن يَرْبَأ بنفسه عن التَّلَف، وقالوا له فيما قالوا: إنَّ في بقائك بين براثِن هؤلاء الأعداءِ موتًا محقَّقًا، لا يُدْفَع بسيف، ولا يَنْفَع فيه الإقدام. وإن في فِرارك إبقاءً على حياة قد تُنال في يوم أمنِية الانتقام. فخضَع القائد بعد لَأيٍ لنصحهم وقال: اللهم إنِّي أفِرُّ من غضَبك لا مِن هؤلاء الكفار، فإنهم لم يكونوا إلا آلة في يَدِك، أردتَ أن تُطَهِّرنا بها مِن ذنوبنا. ثم دعا بالأَدِلَّاء أن يتقدموه، ونخَس جَوادَه فوثَب فوق أخاديد الجبل، قبل أن يدركه العرب. ورآه جنوده فتفرقوا أيدي سبأ [527]، واقتفى بعضهم آثارَه ولكنهم ضَلُّوا الطريق وأخذَتهم الحَيْرة بين شِعاب الجبال المضَلِّلة، فذهبوا هنا، ثم ذهبوا هناك. ومات فريق منهم في الطريق، وذَبَح العربُ فريقًا، وأسَروا فريقًا» [528].

ولم ينسَ المسيحيون وشِيكًا هذه الويلاتِ، وويلاتِ جبال مالَقة، فكانوا يتحرَّقون للانتِقام، وقد ظفِروا بثأرِهم وشَفَوْا غُلَّتهم، وفازوا بانتصار باهِرٍ، حينما شَنَّ أبو عبد الله [529] على بلادهم غارةً شَعْواءَ. وكان في ذلك الحين قد

اغتَصَبَ مُلْك غَرْناطة من أبيه، فزحف بجنوده خِفْيَةً مُدَرَّعًا بالليل، ولكن النصارى علِموا بهذا الزحف، فأشعَلوا النيران في قِمم التِّلال للاستِغاثة، وقد تنَبَّه كونت قبرة [530] لهذه النيران وجمَعَ زُعماءَ قومِهِ وأتباعَهَ فعثَروا على العربِ بالقُرب من لشانة [531]، وتربَّصوا لهم في غابة هناك، ثم سقطوا عليهم فهزموهم شرَّ هَزِيمة. وحينما دخل فُلُولُ الفارِّين أبوابَ غَرْناطة، تعاظَم الأمرَ أهلُها فبَكى الباكون، وندَب النادبون قائلين: «غَرناطة يا أجمَلَ المدُنِ!! أين ذهب جمالُك وجلالُك؟!... لقد دُفِنَت زَهْرات مجدِك في أرضِ الأعداءِ، فلن يتردَّد في بَطْحَاءِ الرَّمْلَة بعد اليوم صَدَى سَنابِكِ الخيل، ولا صَيْحات الأبْواق. ولن يَزْدَحِم فضاؤها بعد اليوم بشَبابِك النُّبَلاء، وهم يستعِدُّون للمبارَزة والجِلاد.

غَرناطة يا أجملَ المدُن!!..لن تَسْريَ بعد اليوم نَغَماتُ العُودِ الناعمة في شوارِعك المقْمِرة، ولن تُسْمَع ألحانُ العُشَّاق تحتَ قُصورك العالية... وستخرُج دقَّات الصُّنُوج المرِحَة فوقَ تِلالِك الخَصِيبة... وستقِف رَقَصاتُ الزُمْبُرة الجميلة تحت عَرائشك الوَريفة.

غَرناطة يا أجملَ المدن!!.. لِمَ أَقْفَرتِ الحمراءُ من أهلِها وأصبحت يَبَابًا؟، إنَّ الريحانَ وأزهار البرتقال لا تزالُ تُرْسِل أرِيجَها بين غُرفها وفِراشِها الوَثِير!! ولا تزالُ البلابِلُ تَصْدَحُ في مُرُوجِها الفُيَّح، ولا تزال أعمِدة أبْهائها تَنْتَعِش برَشَاش الفَوَّارات يتساقط عليها، وتنعَم بخَرِير أمْوَاهِها كأنه صوتُ أمٍّ تُدَلِّل أطفالَها. واحسرتاه!! لن تشهَد بعد اليوم طَلْعة السلطان مشرِقَةً بين أبْهائها، لأنَّ نُور الحمْراء أُطْفِئ إلى الأبد».

قُبِض على أبي عبد الله في هذه الموقِعة، وأُرْسِل أسيرًا إلى قرطبة. وانقض فرديناند على المرْج يعِيث فيه فسادًا، بينما كان مولاي أبو الحسن - وقد عاد إلى مُلْكِه - شيخًا هرِمًا يحرق الأرم [532] غيظًا من وراء أسواره.

سُقوط غَرْناطة

كان أَسْرُ أبي عبدِ الله ضربةً قاصِمةً لحُكْم المسلمين بالأندلس. ولم يكن أبو عبد الله نفسُه بالرجل الذي يُؤْبَهُ له - وإن كان شجاعًا مِقْدامًا - لأنه كان ضعيفَ الرأي كثيرَ التَّرَدُّد، شديدَ الوساوِس والتَّطَيُّر. وزاده خَبالا أن استقر في نفسه: أن الدهر يعكِس آمالَه، وأنَّ القدَر يحاربه. فكان يَنْدُب دائمًا سُوءَ طالِعِه ونَحْسَ نَجْمِه. وعرَف الناسُ فيه ذلك فنبَزوه «بالشقيتو» أي الشَّقِيّ، وبالزُّغيبي. وكثيرًا ما كان يقول وهو يرى آماله تَئِيض رَمادًا: لقد كُتِب في لَوْح القدَر أن أكون مَشئوم الطَّالِع، وأن يكون زَوَالُ هذه المملَكة على يدي [533].

وكان من الهيِّن على النَّصارى أن يُطلِقوا سَراح أبي عبد الله، فقد كان فَسْلا مَسْلُوب القوةِ، ولكنهم رَأَوا أنَّه علي ضَعْفه قد يكون أداةً شديدةَ الخطَر في أيدي آخرين. وقد صدَّقت الحوادِثُ ظُنونَهم، فإنَّ خُضوعَ أبي عبد الله لفرديناند وبقاءه في قبضتِه، كان من أسباب سُقوط دولة المسلمين بالأندلس. وحينما وصل إلى قرطبة، استقبَله الملِكان الكاثوليكيان أحسنَ استقبال، وما زالا يأخذانه بضُروبِ الإغْراءِ الخبِيثة، ويشرَحان له سُوءَ أمرِه، ويُظْهِران له قوةَ بَطْشِهما وعَظمة مُلْكِهما، حتى ذَلّ عُنُقُه وأصبح آلة في أَيْدِيهما، وخادِمًا لهما أمينًا. وبعد أن وَثِقا منه طلبَا إليه أن يعود إلى غَرناطة، حيث يتحصَّن أبوه أبو الحسن بقِلاع الحَمْراء. فدخلَها أبوعبد الله مؤيَّدًا بأنصاره النازِلين منها برَبض البيازِين [534]، وامتلَك حِصنَ القَصَبة، وشنَّ على أبيه المتحصِّن قُبَالَته حَرْبًا عَوَانًا.

وبقي أبو عبد الله بحصن القَصبة مُدَّةً، تؤيِّده رِماحُ بني زُغْبة وسيوفهم. ولكن قوة أبي الحسن كانت فوق قوته، فاضطر إلى أنْ يلْتَجِئ إلى المرِيَّة، ومن ثَمَّ أصبح لغَرناطة سُلطانان: أحدهما أبو عبد الله المنْكُودُ الحظِّ في مَيْداني السياسة والحروب، البغيضُ إلى العرب، لأنه أصبَح أداةً في أيدي أَعْدائهم؛ والثاني أبو الحسن، أو هو على الأصح أخوه الزَّغَل «الشجاع» [535] لأن السلطان كان يقضي بقيةَ أيامه حزينًا كئيبًا لما أظهره ابنُه من العِصيان، ففَقَد بصره ثم مات. وأغلَبُ الظَّنِّ أنه مات مَسْمومًا.

أما الزغل: فهو آخر ملك عظيم أنبتته الأندلس، فقد كان شجاعًا ثابت الرأي، عَدُوًّا لَدُودًا شَدِيد المِراسِ قويَّ العَزمِ في محاربة المسيحيين. ولو لم يُفْسِد عليه ابنُ أخيه أمره [536]، لبقِيت غَرناطة في أيدي المسلمين مدةَ حياته، وإن لم يكن ثمة مَفَرٍّ من انتصار المسيحيين في النهاية.وقد أسرع سلاطينُ غَرْناطة بتنازُعهم وتكالُبهم على الملْك بتقريب هذه النهاية. وإذا حَكَمت الأقدارُ على مَلِك بالسقوط أخذت تُملي له، وتملأ رأسَه بالسَّخَف والغُرور. وهكذا نرى اليوم سَلاطين غَرْناطة وقد استبدَّ بعقولهم الشَّغَف بالانتحار - إن صحَّ أن

نسمِّي تخريبَهم بلادهم بأيديهم انتِحارًا-: ففي الحين الذي كان يجب أن يجتَمِعوا فيه ويتواثقوا لصَدِّ المسيحيين، نراهم يبددون قواهم في محاربة بعضهم بعضًا. ونرى بعضهم يَصُدُّ جيش أخيه وهو زاحف على الإسبان، ليكون هو وأخوه آخر الأمر طُعْمَةً للإسبان.وتفرَّق أهل غَرناطة شِيَعًا، فزاد ذلك في إشعال نار الغَيْرة والتَّحاسد بين السلاطين. ولم يكن من شيءٍ أحبَّ إلى الغرناطيين من إسقاط سلطان ونَصْبِ آخرَ مكانَه، لأنهم قوم مُتَقَلِّبون لا يصبِرون على حال، مُولَعون بالتغيير، سواء أكان للخير أم للشرِّ. وكانوا يبتَهِجون بالسلطان ويؤيدونه، ما دام سعيدًا موفَّقًا في حروبه، تعود جيوشه إليهم بالغنائم والأسْلاب. فإذا خاب مرة في شيء من هذا أغلَقوا أبواب المدينة دُونَه، ونادَوا بحياة السلطان الذي أعَدُّوه لساعته.وقد يكون هذا أبا عبد الله أو الزغل، أو أيّ رجل أسْعَدَه الحظُّ في هذه اللحظة بالفوز بحبهم الفَرُوك.

وبينما كان أبو عبد الله المشئوم يبذُل وُسْعَه في إحباط جُهود عمِّه الزّغل الباسل، كان المسيحيون يُضَيِّقون الدائرة المحيطة بالمملَكة المنكُوبة شيئًا فشيئًا. فأخذت تسقُط في أيديهم مدينةٌ بعد أخرى، وتملَّكوا حصن لورة [537] وغيره من الحصون سنة 1484م (889هـ) بنَسْفِها بالمدافع التي ابْتُكِرت حديثًا. وتبِع ذلك في السنة التالية سُقوطُ: ذكران [538]، وقرطمة [539]، ورندة [540]. وبذل الزّغل في هذه الوقائع ما يستطيع من جهد، ووَثَب على فُرسان قلعة رباح [541] من كَمِين فأَثْخن فيهم ضربًا وطَعْنًا. ومع هذا استمرَّ النصارى في سبيلهم إلى النصر فسقطت لوشة [542] في سنة 1486م (891هـ) واشترك في معركتها من غُزاة الإنجليز اللورد إسكيلز، وكان يقود فرقة من النَّبَّالة الإنجليز [543]. ثم تملَّك النصارى: إيلورة، ومكلين، فهال ذلك العربَ وردَّدُوا مَذْعُورِين: لقد عُوِرت عينُ غَرناطة اليمنى. فأجابهم النصارى: بل قولوا: لقد كَسر ملوك الكَثْلَكة جَناحَ النَّسْرِ العربيِّ الأيمنَ. وتمَّ استيلاءُ فرديناند ورجاله على القسم الغربي من المملَكة، وأصبحت غَرناطة تُنْقَص من أطرافها قليلا قليلا. وسَخِط الغرناطيون على الزغل لأنهم لم يحتمِلوا كلَّ هذه الهزائم، ودَعَوا أبا عبد الله مرة ثانية إلى مدينتهم، فصعُب عليه أن يثْبُت وحده أمام عمِّه فاستعان بالمسيحيين.

وكان فرديناند في هذا الحين يحاصِر بلش بالقربِ من مالَقة، فوصَل الخبر إلى غَرناطة فأثار غَضَبَ أهلِها وسُخْطَهم، فاستَنْهَضوا عزيمةَ الزّغل. وكان دائمًا على أُهْبة لمصافَحة سُيوف أعدائِه ومنازَلة الموتِ لاستِبقاء الحياة، فقاد جُنودَه في جُرْأة وإقْدام لتخلِيص بلش. وكان يعلَم حقَّ العلم أنَّ ابن أخيه الخائن سَيْهتَبِلُ فرصةَ غَيْبَته ويُوَطِّد مُلْكَه بغرناطة، ولكن الزَّغل لم يلَقَّب بالشُّجاع عَبَثًا، فجعل التفكيرَ في نفسه دُبُرَ أُذُنِه وتقدَّم لإنقاذ مالَقة. وكانت

خُطّته: أن يثبت المحصورون بالمدينة من الداخل، وأن يفجَأ هو وجيوشه أعداءه في الخارج. ولكن عدُوَّه كان عظيم المكْرِ شديد المحال، فقد وصلت هذه الخطَّة إلى يد فرديناند. فاتخذ لها عُدَّتها.

وفي ليلة رأى أَهْلُ بلش جُنودَ الزّغل مُصْطَفّين فوقَ شَرَفٍ قريب، فابتهجت نفوسُهم، ولكنهم في الصباح حينما ردَّدوا النظر لم يروا مِن هؤلاء الجنود أحدًا، لأنهم دُحِروا في أثناء الليل عند أسوار المدينة، وتمزَّق جيش الإنقاذ شَرَّ مُمزَّقٍ، وتبدَّد تبدُّد الضَّباب أمامَ هجَمات مركيز قادس العاتية. وحينما أخذت فُلولُ هذا الجيش تدخل في خِزْيٍ وعارٍ أبواب غرناطة، اشتد غضَبُ الغرناطيين، فثارت ثورتهم، وأسرعوا بخَلْع طاعة الزغل ونصْبِ أبي عبد الله سُلطانًا مكانه. وبعد قليل أقبل الزغل في بعض رجاله نحو الأبواب، فرآها مغلَقة في وجهه. ورفع رأسه فرأى علَم أبي عبد الله خَفَّاقًا فوق حصون الحمراءِ فارتدَّ حزِينًا مَحْسُورًا إلى مدينة وادي آش [544]، جعلَ بها حَضْرة مُلْكِه بعد أن أَغلَقت غرناطة أبوابها وقلوبها دُونه، ولَفِظَته في ساعة بؤسه كما تلْفَظ النَّواة.

ثم شرع النصارى يحاصِرون مالَقة، ولكنها كانت صعبةَ المنالِ شديدةَ المنَعة. لم يكن اقتِحامها أمْرًا يسيرًا، فقد أحاطت بها الجبالُ والأسوارُ الحصينةُ التي يَعْلُوها الحِصن الرابِض قِبَلَ جَبلِ فارو، حيث تستطيع حاميتُه أن تَصُبَّ القذائفَ على مَن بالسُّهول التي تكتنِف المدينة.وتطوع بالدفاع عنها في هذا الحين بطلٌ عَنِيدٌ، واسعُ الحِيلةِ، صُلْبُ العُودِ، يعرَف بحامِدٍ الزَّغْبِي كان يقود من قبلُ جيشَ رُندة، الذي حَطَّمه النصارى تَحطِيمًا، فلم ينسَ لهم بعدُ تغلُّبَهم عليه، وانتزاع القلاع الصخرية منه عَنوة. وهبّ هذا الجنديُّ الباسِلُ يبُثُّ في أهل المدينة وبين أنصاره من البربر رُوحًا من الجُرْأة والصبر والتَّحدِّي، حاول مُلُوك الكَثْلَكة جُهد استطاعتهم أن يُخمِدوها فلم يُفْلِحوا. فاستطاع حينما تمكن من جبل فارو أن يحمي المدينة، على الرغم من انحلال عزيمة بعض أهلها من التجار وأصحاب الأموال. وحاول الملِك أنْ يُرشِيه، فرد إليه رسولَه في أَنَفة وكِبْرياء. وحينما أنذر النصارى المدينة بوجوب التسليم، وألح عليه تجارها أن يُغْمِد السيف، أجابهم في شَمَم وإيجاز: لقد جئتُ هنا للدفاع عن المدينة لا لتسليمها. وحصَر فرديناند ضربَه في جبل فارو فغَطَّت مدافعُه المعروفةُ «بأخوات شيمينيس السبع» الحصنَ برِداء من الدُّخان والنار. واستمرت قَذائِفُ اللهيب تَضْطَرِم ليلا ونهارًا، وهمّ النصارى أن يأخذوا الحِصن عَنْوة، فصَبَّ عليهم الزُّغْبِيُّ وأنصارُه الأشِدَّاءُ حَمِيمًا من القَارِ والرَّاتِنج، وقذفوا فوق رءوسهم الأحجار والصخور وهم يحاولون تسلُّق سلالمهم، وسدَّدوا نحو صُدُورهم السِّهام فاضطروا إلى النُّكُوص مَدْحُورِين.

ثم أخذ النصارى في دَسِّ الأنْفاط (الألغام) تحتَ الأسوارِ فنَجَحوا، ونُسِفت بعضُ المعاقِل بالبارود لأول مرَّة في تاريخ الإسبان.واجتمع الفرسان المسيحيون حول أسوار مالَقة، وحضرت الملكةُ إيزابلا نفسُها فأثار حُضورُها رُوحَ الحماسة في الفرسان والجنود، ونُصِبت عَرائشُ من الخشَب لحمايةِ الجنودِ في أثناء وَضْعِهم الأنفاطَ تحتَ الأسوارِ. كلُّ هذا والزُّغبيُّ عَنِيد لا يُسَلِّم، قويٌّ لا يُغلَب. ولكن القَدَر المحتوم جَرَّ إليه في ذُيوله ما هو شرٌّ من المدافِع وأفتكُ من البارود: فقد اشتدت المجاعة بين سُكَّان المدينة، ففلَّت عزائمهم وصَيَّرتهم أكثرَ مَيْلا للإنصات إلى دعوة الصُّلْح التي يبُثُّها التجار، منهم إلى سَماع دعوة الصبر والمثابرة من الجنود المستميتين. ولم يكن هناك أمل في نَجدةٍ تَصِل لإنقاذِهم، فإنَّ الزغل هَمَّ مرة أخرى بإنقاذ المدينة، فجمَع ما بقِي من جَيْشِه، وزحف من وادي آش للنَّجْدة، ولكن ابن أخيه المشئوم الذي أكَّد بأعماله شؤم لَقبه، أدركَته الغَيْرة الكاذبة من عَمِّه، فأمر جنده أن يَصُدُّوا جيشَه ويُشَتِّتوه وهو ذاهب إلى مالَقة. وانتهت آخرُ جهود الزُّغبي بمذابِحَ شَنِيعةٍ وأضَرَّ السَّغَبُ بالسكان، وقذفت الأمهاتُ بأطفالهن أمامَ جَوادِ الحاكم باكياتٍ صائحاتٍ: بأنْ لم يَبْق لديهن فُتاتة مِن طعام يُغَذِّين بها أطفالَهن، وبأنَّهن لم تَعُدْ بِهِنَّ طاقة لسماعِ بُكائهم.

بعد ذلك سَلَّمت المدينةُ وأَجْبر الجنودُ قائدَهم الزُّغْبيَّ - وكان لا يزال متشبِّثًا بجبل فارو - أن يفتَح أبوابَ المدينة ففُتِحت. وكان جزاء هذا البطلِ الشجاعِ الباسلِ، أن يُقذَف به في جُبٍّ فلم يسمع عنه خبر إلى اليوم.

وعندما رُفِع الحصارُ عن المدينة، أخذ سكَّانُها المساكين يحارب بعضهم بعضًا لشراء الطعام من النصارى. وأَسَر الإسبانُ الحامية الإفريقيةَ للمدينة وكانت لا تزال تحتفِظ بشَمَمِها على الرغم مما أصابها من الإعياء والنَّصَب. أما بقيةُ السُّكَّان: فسُمِح لهم بأن يَفْتدوا أنفسهم، على شرط أن يسلِّموا جميع بضائعهم وأمتعتهم إلى الملِك، لتكونَ أولَ قِسْط من أقساط الفِدْية. وأنهم إذا لم يُؤَدُّوا الباقي بعد ثمانيةِ أشهرٍ عُدُّوا عبيدًا وبعد أن أُحْصِي عددُهم وفُتِّشَتْ منازِلُهم أُطْلِق سَراحُهم.

فكنتَ تَرى الشيوخ وقد نال منهم الهَرَم، والنساء وقد فَقَدْن الحامي والنصير، والفتيات في غَضاضةِ شَبابِهن، وكثيرٌ من هؤلاء مَن عاش في بَاحَة العِزِّ وبَيْن أكْناف النَّعيم - ترى هؤلاء جميعًا يمشون مِشية المتعَثِّر اليائس قاصدين القَصَبة. وحينما غادروا دِيارهم أخذوا يَدُقُّون صُدُورَهم حُزنًا، ويُقَلِّبون أَكُفَّهم أسفًا، ويرفعون أَعْينَهم الباكية إلى السماء في ألم وحَسْرة [545]. وتحدِّثنا الروايات أنهم كانوا يقولون وهم يندبون:

«يا مالَقة يا أجمل المدن وأبعدهن صِيتًا... أين منَعة حصنِك؟. وأين عظمةُ أبراجِك؟. وماذا أفادت أسوارُك القوية في حماية أبنائك؟. سيَرْثَى بعضُ هؤلاءِ

الأبناءِ لبعضٍ وهم غُرباءُ مشَتَّتون في أرض غير أرضهم... ولكن هذا الرِّثاء لن يَلْقى من النَّاس إلا سُخْرِيةً وهُزُوًا».

أُرسِل هؤلاء البؤساء إلى إشبيلية ليقوموا بخدمة الإسبان فيها، حتى انقَضَتْ ثمانيةُ الأشهر، وإذ لم يستطيعوا أداء ما بقي عليهم من الفِدْية، حُكِم عليهم جميعًا بالعُبودِيَّة، وكانوا زُهَاءَ خَمْسةَ عشرَ ألفًا. وهكذا نالت مَكايدُ فرديناند أُمنيَتها، وبلغ مكرُه السيِّئ غايتَه.

أصبحَ القِسمُ الغربيُّ من مملكةِ غَرناطة الآن في قَبضة النصارى، واحتلَّت حامِياتُهم قِلاعَ: رندة، ومالَقة الجميلة، وكان أبو عبد الله لا يزال يَحْكُم غَرناطة. وقد أسرَع بتهنئة سيده وسيدته على انتصارهما بمالَقة. أما الزَّغل فكان في الشَّرق يتحدَّى الفاتحين، وقد جَمع حول لوائه كُلَّ مَن بَقي في نفسِه شيء من الحَمِيَّة والتصميم من بين العرب القانِطين. وكان يملِك غيرَ مُنازَعٍ القِسْمَ من جَيَّان إلى المرِيَّة، وهي ثَغْرٌ عظيم الشأن على بحَرْ الروم. ويدخل في مُلْكه أيضًا بعض المدن العظيمة: كوادي آش، وبسطة، ثم السُّفوح الوَعِرة لجبال البشرات، وهي مَهْدُ قومٍ شِدادٍ صِلابٍ من الجَبلِيِّين، تُطِلُّ على عددٍ عَديدٍ من الأودية، التي تُسْقى بالماء الخصِر المنهَمِر من جبال نيفادا الثلجية، حيث تكثر المراعي والكروم، وغِياض البرتقال والرمان، والأُتْرُج والتُّوت. ومن هذه الخيرات وغيرها تتكوَّن ثروةُ هذا الإقليم.

وفي سنة 1148م (893هـ) وجَّه فرديناند سيفَه المنتَصِر إلى هذا الجزء الهادئ من مملكة الإسلام. فجمع جمُوعه في مُرْسِية، ثم زَحف إلى الغرب في مملكة الزّغل، وهجَم على بسطة فصدَمه الزغل صدمة عنيفة، لأن يدَه لم تفقِدْ بعد قوَّتها، ولأنَّ عقلَه لم يزل ثاقبًا بعيدَ مَدى الحِيلة، لم تذهب النكَباتُ بذكائه. فردَّ النصارى عن أبواب بسطة، وزاد فانتقَم لنفسه بالهجُوم على مملَكتهم. ولكنّ هذه الهزيمة لم تُضْعِف من عزيمة فرديناند، فجدَّد هجومَه على بسطة في السنة التالية، وبدَل أن يقذِف بجنوده في هجَمات خائِبة على المدينة، أَرْسَلَهم يعيثون ويُفْسِدون في الأرض الخَصِيبة حولَها، ليدفع الجُوعُ سُكَّانها إلى التسليم. واستمرَّ حِصارُ المدينة ستة أشهر، مات في خلالها من جنود النصارى نحو عشرين ألفًا من المرض والإقامة بالعَراء، ومن هَجَمات المسلمين [546]. ثم سقطت المدينة في سبتمبر سنة 1489م (894هـ) وبسقوطها تبدَّدت قوة الزَّغل وأَفَل نَجْمُه. وتلا ذلك أن خضعت القِلاع التي تحصِّن البشرات واحدةً بعد واحدةٍ لسيف فرديناند أو ذهبِه. وتجلَّت عند ذلك للزَّغل الحقيقة المحزِنة: وهي أَنَّ حُكْم المسلمين بالأندلس قُضِي عليه بالزَّوال. فأَلْقى القِياد على كُرْهٍ منه لفرديناند، وسلَّم إليه المرية، فأقطعه الملك قِطعةً من الأرض في البشرات، ومنحه لقب «أمير أندرش» [547] ولكنه لم يُقِم طويلا بهذه البلاد التي ذهب فيها مَجْدُه وتَوَلَّى سُلْطانه، فباعَ أرْضَه،

واجتاز البحرَ إلى إفريقية. وهناك قبَض عليه سلطانُ فاس فعذَّبه أشدَّ عذابٍ وَسمَل عينيه، فقضَى بَقيَّة أيامهِ هائمًا في الأرض بائِسًا طَرِيدًا. وما كان أشدَّ حُزنَ الناس على هذا البطلِ المِغْوَار وهو في أسْمالِهِ البالِيَة، وقد قَرءوا على رَقٍّ غَزال خَيْطٍ بِرِدَائه «هذا سُلْطانُ الأندلسِ العاثرُ الجَدِّ».

لم يبق للمسلمين غيرُ غَرناطة التي اغتبط أميرها أبو عبد الله أعظَم اغتباطٍ، وتشفَّى في عدوِّه القديم عمِّه أبي عبد الله الزَّغل، حينما سَلَبه مُلوكُ الكَثْلَكة مُلْكَه، وصاح من الفَرَح حينما بلَّغه الرسولُ الخبرَ: لنْ أَقْبلَ من الآن أن يُلَقِّبني أحدٌ بالزُّغَيْبيِّ، لأنَّ الحظَّ أَقْبَل عليَّ بوجهه. ولكنَّ الرسولَ أجابه في تُؤَدة: إنَّ الريحَ التي تَهُبُّ مِن أُفُقٍ قد تَهُبُّ مِن آخرَ، وإنه يَجْدُر بالسلطانِ أن يَكْبَح من فرحه وسروره حتى يستقِرَّ الجوُّ. وكان أبو عبد الله كثيرًا ما يسمَع سبَّه ولَعْنَه بأذنه في جميع شوارع غَرناطة، وكثيرًا ما يصِل إليه ما يرميه الناس به من خِيانة قومه ومحالفة أعدائه. ومع كلِّ هذا كان يعيش مطمئِنًّا هادئ البال، تامَّ الثقة بحلفائه، سعيدًا بزوال مُلْكِ عمِّه. وفي أثناء ما كان يحرِّضُ المِلِكَين عليه، عاهَدَهما على أنهما إنْ أفلَحا في الاستيلاء على مُلْكِ الزَّغل، وأخذا وادي آش والمرِيَّة، سلَّم إليهما غَرْناطة راضِيًا. ولكنه لم يلبث طويلا حتى أفاق من غَفْوته، فإن فرديناند كتب إليه ينبئه بأنَّ الشروط التي دُوِّنَت لتسليم غَرناطة قد تَمَّتْ من ناحيته، وأنه يحتم تَسليمُها على حسب نصوص المعاهدة التي دُوِّنَت بينهما. وألحَّ أبو عبد الله عَبَثًا أن يُرْجِئ فرديناند هذا الأمرَ قليلا، ولكن المِلِك لم يتحوَّل عما طلَب، وأنذَر بأنه إذا لم تُسَلَّم إليه المدينةُ أعادَ نَكْبَة مالَقة. فارتَبك أبو عبد الله ولم يَدْرِ ماذا يفعل. غير أنَّ أهلَ غَرناطة بزعامة موسى بن أبي الغسَّان الفارس الشجاع، أخذُوا الأمر في أيديهم، وبعثوا إلى فرديناند: بأنه إن أراد أسلِحتهم فليأت ليأخذها بنفسه.

وحينما وصَلت هذه العبارة الجريئة إلى أُذن فرديناند، كان مرْجُ غرناطة يَزْخَر بالحَبِّ والفاكهة، وقد عاد إليه الخِصْبُ والنَّماء بعد أن عاثَت فيه الحروب بين الزَّغل وأبي عبد الله. وبلَغ الزَّرعُ أَشُدَّه، وآن حصادُه، وتطلَّب المناجِلَ، فاقْتَنَصَ فرديناند هذه السَّانِحة ولجأ إلى طريقته المعتادَة فرمَى المرْجَ بخمسة وعشرين ألفًا من جنوده، غادروه بعد ثلاثين يومًا وهو أَقْفَرُ مِن كَفِّ اللئيم. واقتَنع فرديناند بهذا القدْرِ في هذا العام. ثم أرسل على المرْجِ في سنة 1490م (895هـ) غارةً مدمِّرَةً أخرى.ودفع أبا عبد الله إلى شجاعة يائِسة، فلَبِس لَأْمَةَ الحربِ وهجمَ على أعدائه مُستعينًا برَأْي موسى الذي كان نادِرَةً في الرجال. وحينما رأى العربُ الذين كانوا عاهدوا فرديناند من قبل على الطاعة سلطانَ غَرناطة وهو يقود جيوشه للجِهاد، وَثَبَتْ عزائمُهم مِن جديد، وأَلْقَوا بعُهودهم في الهواء وانضمُّوا إلى إخوانهم المحاربين. وكان يخيَّل إلى المرء أن أيامَ العزِّ الماضية قد عادت إلى غَرناطة، فإن المسلمين استردوا من النصارى بعضَ الحصون وعاثوا في تُخُوم بلادهم، ولكن كلَّ ذلك كان آخرَ شُعاعةٍ

للشمس عند المغِيب: فإن فرديناند وإيزابلا خرجا في أبريل سنة 1491م (896هـ) للحرب الصليبية التي اعتاداها كلَّ عام، وعزما ألا يعودا إلّا وغَرناطة في قَبْضَتَيْهما. فقاد الملِك جيشًا عِدَّته أربعون ألفًا من المشاة، وعشرة آلاف من الفُرسان. وعقد أبو عبد الله مجلسَ الحرب بالحمراء بينما كانت سُحُب غُبار الجيش الإسباني تُرى من نوافِذها. فرأى بعضُ رجالِ المجلسِ أن لا فائدة من المقاوَمة وأنَّ الخيرَ في التسليم. ولكنَّ موسى قام واستحَثَّهم أن يكونوا أبناءً بَرَرةً لآبائهم، وأن يَطْرُدوا عنهم اليأسَ ما دامت فيهم قوةٌ على القِتال، وما بَقِيت لهم جِيادٌ سريعةُ الوَثَبات. فانتقلت حماسَتُه إلى الناس، وصَمَّموا على الموت، ولم يكن يُسْمَع بغَرناطة إلا صَلِيلُ السِّلاح وأَبْواقُ الجنود.

وكان موسى قائدَ الدفاع وحارسَ أبواب المدينة. وكان أهلُ غَرناطة قد أحكموا إيصَادَها عندما ظهر جيش النصارى فأمر بفتحها وقال: سنسُدُّ الأبواب بأجسامنا. فأثارت هذه الكلماتُ وأمثالُها عزائمَ الشَّبابِ. وحين قال مرةً لجنوده: إننا لا نحارب لشيء إلا لصِيانة الأرضِ التي تحت أقدامِنا، فإننا إنْ فَقَدْناها فَقَدْنا بيوتَنا وممتلَكاتِنا - قذَفوا بأنفسهم للموت معه. ومن الحق أن ندوِّن هنا أنَّ فرسان العرب تحت لِواءِ هذا القائد الجريء، قاموا بأَرْوَعِ ضروب الشجاعة والإقدام.

وعَوَّل فرديناند في النهاية على اتِّباع أساليبه المعتادَة في قهر المدن. فخرج من معسكره الذي اتفق أن التَهَمَتْه النيرانُ، وشرَع في إفساد ما بقي في المرْجِ من نبات وثمار. وبذَل العربُ آخرَ ما في قلوبهم من شجاعة لحماية المزارِع والبساتين، وحارب موسى وأبو عبد الله أمام فرسانهما كما يحارِب الأبطالُ البُسَلاء، ولكنَّ المشَاة وقد كانوا ضِعاف القلوب هُزِموا وتقهقروا إلى أبواب المدينة، فتبِعهم موسى حزينًا وقد عزَم ألا يقذف بنفسه في موقعة حامية، وإلى ظهره أمثالُ هؤلاء الجبناءِ. وكانت هذه آخرُ حروب الغَرْناطيين، فقد لبِثوا عشر سنين يُناضِلون أعداءهم على كل شِبرْ من الأرض، وكلَّما وجدت أقدامهم مكانًا تقف عليه حاربوا الإسبان دونه، ثابتين غير مُزَعْزَعِين. غير أنهم الآن لم يبق لهم غير المدينة فحَبسوا أنفسهم بين أسوارها يائسين جازعين. وعزم فرديناند أن يسلم المدينة إلى الجُوع والسَّغَب، فاتبع طريقة عبد الرحمن الناصر في حصار طليطلة وبنى في ثمانين يومًا مدينة أمام غرناطة سماها: شنتفى [548] «الإيمان المقدس» ويقوم إلى اليوم بهذه المدينة تذكار أثري لهذا الحصار. وعمِل الجوع بأهل المدينة ما تعجِز عن مقاوَمته الشجاعةُ، فتوسَّل أهلُ غَرناطة إلى أبي عبد الله أن يُنْقِذَهم من هذا العذابِ، وأن يعقِد شروطًا للتسليم مع الفاتحين. فخضَع لهم السلطانُ الشقيُّ الطالِع في النهاية.

أما موسى فلم يرضَ بالتسليم، ولَبِس شِكّته [549]، وامْتَطَى جَوَاده، وخرج من المدينة إلى غير عَودة.

وفي الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة 1491م (897هـ) أمضيت شروط التسليم. وكان منها شرطٌ يحدِّد زَمنًا للهُدْنة، لا يجوز بعد انقضائه أن تصِل إلى المدينة أيةُ نَجْدَةٍ، وأن تُسَلَّم عند ذلك للمَلِكين. وترقَّب العربُ عبثًا وصول ما كانوا يُؤَمِّلون من النَّجَدات من مصر أو من سلاطين تركيا فلم تأتِ. وأرسل أبو عبد الله في آخر ديسمبر إلى فرديناند يطلب إليه أن يدخل المدينة ويستولي عليها، فتقدم جيشُ النصارى من مدينة شنتفى صفوفًا، واخترق المرْج، وعُيونُ العرَبِ الباكية تنظُر إليه في جزَع وحَسْرةٍ. ودخلت مقدِّمَتُه الحمراءَ، ونَصَبَت الصَّلِيب الفِضِّيَّ الأكبرَ فوق قِمَّةِ بُرْج المدينة إلى جانب بَيْرق الحواريِّ يعقوب، بين أصواتٍ كانت تَملأ الأُفُق صائِحةً: سنتياغو؛ ثم نُصِب حولهما عَلَمَا قشتالة وأراغون، وجثا فرديناند وإيزابلا على ركبتيهما يحمدان الله على هذا الفتح المبين، وسجَد خلفَهما الجيشُ كلُّه، ورَتَّلَت فرقة المرتِّلين الخاصة صلاةَ الشكر في تَبَتُّلٍ وخشوع.

ووقف أبو عبد الله في ثُلَّةٍ من فرسانه بسَفْحِ جَبل الرَّيحْان، عند مرور هذا الموكِب، فتقدم إلى فرديناند وسلَّم إليه مفاتيح المدينة، ثم ولَّى مدينتَه المحبوبةَ ظهرَه منطلِقًا إلى الجبال، حتى إذا وصل إلى قرية البَذول وهي على مسافة مرحلتين من المدينة فوق مَرْقَبٍ عالٍ من البَشَراتِ - وقف يُوَدِّع المملَكة التي نُزِع منها كما تُنْزَع السِّنُّ القادِحة، فرأى المرجَ

النَّضِير وأبراجَ الحمْرَاءَ، ومناثرها الضاربةَ في السماء، وبساتين جنة العَرِّيف، وكلَّ ما بغَرناطة من جمال وعظَمة. فأجْهَشَ بالبكاء وصاح: الله أكبر... ووقفت أمُّه عائشةُ إلى جانبه وهي تقول:حقٌّ لك يا بني أن تبكي كما تبكي النساء، لفقدِ مدينةٍ لم تستطعِ أن تدافِعَ عنها دفاعَ الرِّجال [550]. ولا تزالُ البُقعة التي وَدَّع فيها أبو عبد الله مدينتَه بدموعه وزَفَراته تسمَّى إلى الآن: آخر حَسَراتِ العَربيِّ. ثم اجتاز أبو عبد الله إلى برَّ العُدْوة بإفريقية، حيث كان يعيش بها هو وأبناؤه بالاستِجْداء وسؤالِ المحسِنين.

ظهور الصّليب

لم تكن حسراتُ أبي عبدِ الله إلا بدايةَ عصرٍ كلُّه حُزنٌ وابتِلاء وآلام ونكَبات، تتوالى على رءوس العربِ المساكين. وقد لمعَ في أول الأمر بَصِيص أمل بأن الإسبان سينفِّذون ما عاهدوا المسلمين عليه عند تسليم غَرناطة، وأنَّ العرب ستكون لهم حرية العِبادة، وإقامة أحكام الإسلام. وكان هرناندو تالاڤيرا - أولَ أُسْقُفٍ بغَرناطة بعد نَكْبَتها - رجلا خَيِّرًا واسعَ أُفُق التفكير، يحافِظ على حقوق العَرب، ويحاول أن يكتَسِب مودتَهم بالقُدوة الصالحة والرِّفق والعدْل، ثم بمشاكلتهم في عاداتهم وأحوالهم بقدرِ ما يستطيع، فأمَر قَساوِسته أن يتعلَّموا العربية، وأدّى صلاتَه باللسان العربي المبين. وكان لهذا التسامح أثره في عقول العرب، حتى إنه في سنة 1499م (905هـ) حينما قدم الكردينال شيمينيس مُرسَلا من قِبَلِ الملكة لمعاونة تالاڤيرا كان يخيَّل إلى الناس أنَّ مظاهر النصرانية - وهي في أول نشأتها بأورشليم - تجددت ثانية بغَرناطة. فقد تنصَّر في يوم واحد ما يبلغ من ثلاثةِ آلاف مِن العرب، عمَّدهُم المطارِنة ونَضَحُوهم بأغْصان الثُّغامِ المقدَّسة. ولم يَرْضَ شيمينيس عن سياسةِ اللين التي كان يصطَنِعها الأُسقف، لأنه كان من دُعاة الكنيسة الحربيةِ الذين يُظهرون نشاطهم عقِب كلِّ انتصار، ولأنه كان يريد فيما يزعم أن يُنقِذ أرواحَ هؤلاء الملْحِدين رَضُوا أم غَضِبوا، فأدْخَل في عقل إيزابلا - وما كان أسرَع تأثرِّها بكلِّ ما له صلة بالدين - رأيًا شديدَ الخطَر، ووسَوس إليها أنَّ في حِفظ عهدِ المسلمين خيانةً لعهد الله، فأنفَذت أمرَها في الحال باضطهاد العرب.

وخابت أول محاولةٍ لإجبار الغَرناطيين على التنصُّر، وأظهر المتشدِّدون من المسلمين ازْدِراءهم للمرتدِّين، فأُخِذوا وحُبِسوا. وبينما كانت امرأة تُساق إلى السِّجن لهذه الجريمة، أخذت تَصِيح وتَسْتَثِير عزائمَ أهلِ البيازِين [551]. فوثبوا إلى أسلِحتهم وأنقَذُوها. واشتَعلت الفتنة بغَرناطة وتحفَّز أهلُها للقتال. وكانت حاميةُ غَرناطة قليلةَ العدد لا تستطيع دَفع الثائرين، فاشتدَّ غضبُ شيمينيس وحُنْقه، ولكنَّ الأُسقف خرج هادئًا لا يتبعه من رجاله إلا حَمَلَة الصليبِ، ودخل غيرَ خائف ولا وَجلٍ رَبَض البَيَازين، حيث أحاط به الناس يُقَبِّلون طَرْف عَباءته، ويَبُثُّون إليه شكواهم، ويبتَغون إليه الرِّفق وحُسْنَ الوسَاطة، فأزال تلاڤيرا أسبابَ الثورة واضطر الكردينال إلى مغادَرة المدينة.

ولم يكن شيمينيس بالرجل الذي يَسْهُل صَرْفه عن أغراضِه ومآرِبه، فأَغرَى الملِكةَ أن تُصْدِر مرسومًا تُخَيِّر فيه العربَ بين التَّنَصُّر ومغادَرة البلاد. وجاء في هذا المرْسُوم: أنَّ أسلافهم كانوا مسيحيين، وأن الكنيسة تعدُّهم وهم من سُلالتهم مسيحيون منذ الولادة، فيجب عليهم أن يُظْهِروا دينَهم المورُوث. وبعد

هذا المرسُوم أغْلق الكردينال الحانِق المساجِد، وأحرَق المخطوطاتِ والكتبَ النَّفِيسةَ التي هي عُصَارَةُ الفِكر العربيِّ في عِدَّة قرون [552]. وأنذِر المسلمون وعُذِّبوا أشدَّ العذابِ ليدخلوا في دين الرفق والرحمة، على الأسلوبِ الذي ارْتَآه الملكان الكاثوليكيان لقَسْرِ اليهودِ على التَّنَصُّر.وبهذه الوسائل خضَعت جَمْهرةٌ من العَربِ، لأنهم آثروا أن يتركوا دينهم على الشُّرُود في بِقاع الأرض بلا أهل ولا مَأْوَى، ولكن جَذْوَةً من الروح العربية القديمة بقِيت متأجِّجةً بين سكَّان جبال البشرات، الذين لبِثوا حينًا من الدَّهر ثائرين ممتنعين على أعدائهم في معاقلهم الثلجية. وحاول المسيحِيون أول الأمر القضاء على هذه الثورة فآبوا بالخيبة والاندِحار.

وهذا الفوز الخلب لم يَعْمل إلا أن أثار غضبَ المسيحيين، وحفَزهم على أخذِ الثأر، فهجم صاحب تنديلة على قوجار. وهدم صاحب سيرين مسجِدًا على جماعة من النساء والأطفال كانوا التجئوا إليه من ويلات الحرب وكوارِثها. وأخذ الملك فرديناند الطُّرُق على العربِ بامتلاك قلعة لانجارون، ففرَّ من أبْقت عليه السيوفُ إلى مراكش ومصر وتركيا، وعاشوا في هذه البلاد صُنَّاعًا ماهرين. وهكذا انتهت الثورة الأولى بالبشرات.

وتلا ذلك نصف قرن والمسلمون في غَيْظٍ مكتوم، فقد أدوا مُكْرَهِين مرائِين أقلَّ ما يستطيعون أداءه من أمور الدين الذي فُرِض عليهم، ولكنَّهم كانوا إذا خَلَوا إلى أنفسهم، جَهِدوا في غسل الماء المقدس الذي عُمِّد به أطفالُهم في الكنيسة. وإذا زَوَّجهم قسيس أسرعوا إلى منازلهم فأعادوا عَقْد الزواج على سُنَن شريعة الإسلام. ثم إنهم أعانوا لُصوص البحر الذين كانوا ينزلون بثُغور الأندلس على اختِطاف أطفال المسيحيين. وقد كان في استطاعة حكومة الأندلس أن تتقي هذه الأخطارَ وتلك الأحقادَ الدَّفينة لو أنها كانت حكومةً حازمةً أمينةً، ترعى عهودَها التي واثَقت المسلمين عليها عند تسليم غَرناطة. ولكنَّ حُكَّام أسبانيا لم يكونوا حازمين ولم يكونوا أمَناء في معاملة العرب. فقد أكرَهوهم على أن يخلَعوا أزياءهم الوطنية الجميلة ليستبدِلوا بها قُبَّعات النَّصارى وسَرَاويلهم، وعلى أن يَهْجُروا سُنَّة الغَسْل والاستِحْمام، اقتداء بغالِبيهم في الصَّبر على تراكم الأقْذار، ثم أن ينْبُذُوا لُغَتَهم وعاداتِهم وأسماءَهم، وأن يَتَكلَّموا بالإسبانية، ويعمَلوا كما يعمل الإسبان، ويغيروا أسماءَهم بأسماء إسبانية.

وكان تجريدُ العرب من قوميَّتهم ودينهم دَفْعةً واحدةً فوق احتمال أي شعبٍ وقَبيلٍ، له سلائل عبد الرحمن والمنصور وبني سراج. وحدث يومًا شَغَب من جَرَّاء بعض جُبَاة الضَّرائب الظَّلَمة، فاشتعلتْ نارُ الفِتْنة الخامِدة التي كانت تَتَحَرَّق إلى الاشتِعال، وقَتَل بعضُ الزُّرَّاع جنودَ الإسبان الذين كانوا يحتلون دورهم، وثار صَبّاغ بغرناطة اسمه فرج بن فرج ينتمي إلى بني سراج، وجمَع

حولَه جماعةً من الساخطين ذوي الحَمِيَّة، وفرَّ بهم إلى الجبال قبل أن تدرِكَهم الحامية، ونادت هذه الجماعة بهرناندو آل فالور ملِكًا على الأندلس وسموه محمد بن أمية، وهو رجل من نسل خلفاء قرطبة ومن أعيان غَرناطة يُزَنُّ بإسرافه في الشهوات. وبعد أسبوع عمَّت الثورة وحمل رجالُ البَشَرات كلُّهم السلاحَ. وكان هذا بَدْءَ الثورة الثانية سنة 1568م (976هـ) [553]. وكانت منطقة البشرات من أحسنِ المناطق لنموِّ الثَّوْرات، فإنَّ الأرض المرتفعة بين جبال نيفادا والبحر، وطولَها نحو تسعةَ عشرَ مِيلا، وعرضُها نحو أحدَ عشرَ مِيلا، ليست إلا وَعْرًا تتقاسمه التِّلالُ الصَّلْدة، والأخادِيدُ العميقة، حتى لَيَصْعُبَ أن يجِد فيه المرءُ قطعةً مطمئنة إلا في وادي أندرش الصغير، وإلا في نطاقٍ ضيِّق يتوسط بين البحر والجبال.

واستمرت الثورة مشتعلةً بالبشرات سنتين، ولم يطفئها الإسبان إلا بعد جُهْدٍ عنيف. وتاريخ هذه الثورة ممتلئ بأعمال الجُرأة والتعذيب، والقتل والخيانة، والقَسْوة الوحشِيَّة من كلا الفريقين. غير أن هذه الأعمالَ البَشِعة كان يتخلَّلُها كثيرٌ من أعمال البطولة والجلَد الجديرة بأن تُشَرِّف أيَّ عصر وأيَّ قَبِيل. وكان صِراعُ العربِ شديدًا يائسًا، لأن المعركة كانت آخر معركة لهم في آخر مكان يستطيعون الوقوف فيه، فقد أحسُّوا أنهم يطارَدون، فأخذوا في هَجَماتهم الأولى، والغضبُ مِلْءُ خَياشيمهم، ينتَقِمون لما نالهم من ضُروب الإهانة والاضطهاد في مدى مائة عام. فثارت قريةٌ بعد قريةٍ في وُجوه الإسبان، ولُطِّخَت الكنائِسُ بالأقْذَار، وجُعِلت صورةُ العذارءِ غَرضًا للرُّماة، وذَبَح العربُ القساوسةَ، وكثيرًا ما نكَّلوا بالمسيحيين الذين التجئوا إلى الأبراجِ والحصونِ.

وفَلَّ قائد غرناطة مركيز منديجار من غَرْبِ هذا العِصيان قليلا بهَجمة عَنِيفة على الجبال، كان فيها على رأس أربعة آلاف من الجنود الأشِدَّاء. ثم حاول أن يأخُذَ الثُّوَّار باللين والمسالَمة والصَّفْح، وكاد يفلح لولا أن حَدثت مذبحةٌ للعَربِ بجيوبيليس، ولولا أن غدرَ الإسبانُ بالعرب ونكَثوا بعهودهم في لارول، فأثار ذلك غضبَ المسلمين، وأعاد نيرانَ الثورةِ إلى تأجُّجِها بعد أن كادت تَبُوخ، ثم تلا ذلك أن ذَبَح طائفةٌ من المسجونين الإسبان بسجن البيازين مائةً وعشرةً من العرب، فجاء ذلك ضِغْثًا على إبَّالة، وزاد في حُنْقِ العرب المضْطَهَدِين. وكان منديجار بريئًا من تَلْويث يده بهذه الأعمال الدَّمَوِية، راغبًا في مسالَمة العربِ، وقد سار بحرسه إلى السجن ليهدِّئَ ما به من ثورة واضطراب، ولكنَّ رئيسَ شرطةِ المدينة أخبرَه في الطريق أنْ لا داعِيَ لذَهابه، لأنَّ جميع مَن بالسجن من العرب قد ماتوا. وبعد هذه الحوادثِ كان العربُ يَفُوزون كلَّ يوم بانتصارٍ جديد، وأصبحَ ابنُ أمية أميرًا بالفعل على جميع ولاية البشرات، ولكن هذا الأميرَ الضَّعِيف المستَهْتر، لم ينْعَم بالحُكْم فترةً قصيرة، حتى ذَبَحه في

سَريره بعضُ أتباعه سنة 1569م (977هـ) لبُغضهم إياه، ولما حام حوله من الشبهات. وخلفه في المُلْك والزَّعامة مولاي عبد الله بن أبية، وكان صِنْدِيدًا مخلِصًا، وقائدًا صادقَ العَزْم، يقذِف بنفسه بين مخالِب الموت فداءً لأتباعه وأنصاره. غير أن القدَر كتب على ابن أبية هذا أن يحارب عدوًّا من صِنف جديد، وذلك أن أخا الملك وهو الدون جون الأوسترى، وهو شابٌّ في الثانية والعشرين، ملأته الآمال، وتكهَّنت بعظمته المخايِلُ - خلَف منديجار على قيادةِ الجيوش، فأقنعَ فيليب بعد أن تبادلا كثيرًا مِن الرسائل بخُطورة الموقِف وتفاقُم الخَطْبِ، وضرورة اتخاذ وسائلَ عَنِيفة لحسْمه، فوصل إليه في النهاية أمرٌ من الملِك بالهجوم، ولم يتوقَّع العربُ من الإسبان بعد صُدُور هذا الأمرِ الخطيرِ إلا أن يَمْنَحُوهم وقتًا قصيرًا للتوبة والإنابة. ففي غضون الشتاء سنة 1569م - سنة 1570م (977-978هـ) زحف الدُّون جون على العرب، ولم يجئ مايو إلا وقد كانت شروط التسليم قد أُعِدَّت. أما الأشهرُ التي مرت بين بدء هذه الحرب ونهايتها. فقد لُطِّخت بأنهار من الدماء، لأن شعار الدون جون كان «لا إبقاءَ ولا هوادةَ» فذُبِحت النساءُ والأطفالُ بأمره، وتحت سَمْعِه وبصره، وأصبحت قرى البشرات مجازِرَ بشرية.

وبعد أن ظهر للعَيان أن العصيان قد أُخْمِد وبَردت جَذْوَته، انطلقت من بين الرَّماد آخرُ شرارة للثورة. ذلك أن ابنَ أبية بقي مُجالِدًا فلم يخضع للإسبان، ولكنَّ القتلَ أخْضَعه في النهاية، فحُزَّ رأسُه وعُلِّق على باب المذبَح بغَرناطة، وبقي معلقًا ثلاثين عامًا.

وجاء بعد الدون جون القائدُ الأعظمُ ريكيسنس، فقضى على هذه الشرارةِ الأخيرةِ للثورة في الخامس من نوفمبر سنة 1570م (978هـ) بطرق منظَّمَةٍ: فكان يحرِق القرى بمن فيها، وكان يرسل الدُّخان على الملتجئين إلى الكهوف والأَغْوار حتى يموتوا أو يخرجوا فيموتوا، وانتظر النفيُ والرِّقُّ كلَّ مَن نجا من هذه الثورة - وكانوا قليلي العدد - فقد قُتِل في الثورة كما قيل أكثرُ من عشرين ألف عربي، وبقي منهم نحو خمسين ألفًا. فلما جاء عيد جميع القديسين في سنة 1570م (978هـ) مجّد الإسبان ذكرى الحواريين والشهداء، واحتفلوا فيه بالقضاء على مَن عثروا عليه من العرب. وحكَم الإسبانُ على مَن أُسِروا في الثورة بالعبُودية، ونَفُوا الباقين تحت حِراسة الجنود، بعد أن رَاقَبوا شِعاب الجبال حتى لا يفِرُّوا. ومات كثير من هؤلاء في الطريق من الجوع والنَّصَب والعُرْي، وذهب بعضهم إلى إفريقية فعاشوا بها يَسْتَجْدُون الناس، لأنهم لم يجدوا بها أرْضًا تَصْلُح للحَرْث. وسار بعضهم إلى فرنسا فلم يلاقوا ترحيبًا من هنري الرابع، وإن وجد فيهم أداة صالحة للكيد لأسبانيا. ولم ينتَهِ استمرارُ نَفْيِ العرب إلا في سنة 1610م (1019هـ) حين حُكِم في هذا العام على نحو نصف مليونٍ منهم بالنَّفْي. وقد ثبت أنَّ مَنْ نُفُوا من العرب في المدة بين سُقوط غَرناطة والعَقْد الأول من القرن السابعَ عشرَ يبلغون ثلاثة ملايين.

والمؤرِّخ العربيُّ يذكُر هذه النَّكْبة حزينًا، ويَعُدُّها ضَربة من ضَرَبات القدَر ويقول: «إن الله لم يشأ أن يهَب نَصْره للأندلسيين، فأُخِذوا وذُبِحوا في كلِّ مكان، ثم أخرجوا من ديارهم. وقد وقعت هذه الثائرة في أيامنا سنة 1017 للهجرة (سنة 1608م) والله جلَّ شأنُه وعظُم سُلْطانُه يقول: ﴿ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ﴾ »[554]. ولم يعرف الإسبان عندما نَفَوا العرب ماذا كانوا يفعلون... حقًّا لقد خَرَبوا بيوتَهم بأيديهم، فإنهم ابتَهجوا أولَ الأمرِ بنَفْيِهم، وشَمَتوا فيهم، وشَفَتْ غَلِيلَهم المناظِرُ المؤثِّرة لهؤلاء العرب، وهم يُطْرَدون من فِرْدَوْسهم.

ولكن الإسبان لم يدركوا أنهم قتلوا الإِوَزَّة التي تَبِيض بيضةً من ذهب كلَّ يوم، فقد بقيت أسبانيا قُرونًا في حُكْم العربِ وهي مركز المدنية، ومنبَع الفنونِ والعلوم، ومثابةُ العلماءِ والطلاب، ومِصباح الهداية والنور، ولم تصل أية مملكة في أوربا إلى ما يقرب منها في ثقافتها وحضارتها ولم يبلغ عصرُ فرديناند وإيزابلا القصير المتلألئ، ولا إمبراطورية شارل الخامس، الأَوْجَ الذي بلَغه المسلمون في الأندلس. وقد بَقِيت حضارةُ العربِ إلى حين بعد خروجِهم من أسبانيا وَضَّاءَة لامِعَةً، ولكنَّ ضَوْءَها كان يشبهِ ضوءَ القمر الذي يستَعِير نورَه من الشمس، ثم عقِب ذلك كُسُوفٌ بَقِيت بعدَه أسبانيا تتعَثَّرَّ في الظلام.

وإنا لنُحِسُّ فَضْلَ العربِ وعِظَمَ آثار مَجدِهم، حينما نرى بأسبانيا الأراضي المهْجُورة القاحِلة، التي كانت في أيام المسلمين جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، تزدَهِر بما فيها من الكُروم، والزيتون، وسنابلِ القمحِ الذهبية. وحينما نذكر تلك البلاد التي كانت في عصور العرب تموجُ بالعِلم والعلماء، وحينما نشعر بالرُّكود العام بعد الرِّفْعة والازدهار.

المصادر والمراجع

المصادر العربية:

1- ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م.

- أعلام نساء الأندلس من التكملة لكتاب الصلة، تحقيق منجد مصطفى بهجت، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1425هـ/2004م .

- التكملة لكتاب الصلة، نشر السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة - مطبعة السعادة، 1375هـ/1955م.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1399هـ/1979م.

- أُسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، بيروت، 1414هـ/1994م.

- النهاية في غريب الحديث والأثر.

3- أحمد بن حنبل: المسند.

4- الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال، بدون دار طبع، القاهرة، 1381هـ/1961م.

5- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق عامر النجار، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2001م.

6- إينهارد: سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، دار حسان، دمشق، 1410هـ/1989م.

7- ابن باجه: رسائل ابن باجه، تحقيق ماجد فخري، دار النهار، بيروت، ط 2، 1991م .

8- الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تحقيق محمد زينهم ، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2012م.

9- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1399هـ/1979م، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1398هـ/1978م.

10- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، بيروت، 1964م.

11- البغدادي: مراصد الاطلاع، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م.

12- البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، نشر دي سلان، الجزائر، 1857م .

- جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، دار الإرشاد للطباعة والنشر، 1968م.

13 -البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، نشر ليفي بروفنسال، باريس، 1928م.

14- البيهقي: دلائل النبوة .

15- التادلي: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، 1404هـ/1984م.

16- الترمذي: الجامع الصحيح.

17- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2007م.

18- جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين، شركة الشمرلي، القاهرة.

19- ابن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق طارق محمد عبدالمنعم، دار ابن خلدون، الإسكندرية.

20- ابن حبان: صحيح ابن حبان .

21- ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت - دار الجيل.

22- ابن حزم: المحلى بالآثار شرح المجلى بالاختصار، تحقيق عبدالغفار سليمان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1402هـ/1988م.

- جمهرة أنساب العرب، بيروت، دار الكتب العلمية، 1403هـ/1983م.

- ذكر أوقات الأمراء، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1983م.

- نقط العروس، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1983م.

23- الحميدي: جذوة المقتبس، تحقيق روحية عبدالرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م.

24- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1980م.

- صفة جزيرة الأندلس، نشر ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت.

25- ابن حوقل: المسالك والممالك.

26- ابن حيان: المقتبس، نشر ملشيور أنتونيا، باريس، 1937م.

- المقتبس، تحقيق محمود مكي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1390هـ/1971م.

27- الخزاعي (علي بن محمد): تخريج الدلالات السماعية، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1415هـ/1995م.

28- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، 1353هـ/1934م.

- أعمال الأعلام، تحقيق أحمد مختار العبادي.

- اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2،1978 م.

29- ابن خلدون: المقدمة، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت .

- العبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1408 هـ / 1988 م.

30- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م.

31- خيثمة بن سليمان: فضائل الصحابة .

32- أبو داود: السنن.

33- الذهبي: سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، 1419هـ/1998م.

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الغد العربي، القاهرة، ط1، 1996م .

34- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، كتاب الألف.

35- ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ليدن .

36- ابن رشد: البيان والتحصيل، تحقيق أحمد الشرقاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1404هـ/1984م.

37- الرقيق القيرواني: تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق محمد زينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1414هـ/1994م.

38- الروحي (أبو الحسن): بُلغة الظُّرفاء في تاريخ الخلفاء، تحقيق عماد أحمد هلال وآخرين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1431هـ/2010م .

39- الروياني: المسند.

40- ابن زاكور الفاسي: عنوان النفاسة في شرح الحماسة.

41- الزبيدي: تاج العروس.

42- ابن أبي زرع: روض القرطاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، 1419هـ/1998م

43- الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة مصر، 2000م.

44- ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1964م.

45- السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.

46- ابن سهل: وثائق في أحكام القضاء الجنائي، دراسة محمد عبدالوهاب خلاف وآخرين، المركز العربي للدول للإعلام، القاهرة، 1400هـ/1980م.

- ثلاث وثائق في محاربة أهل الأهواء والبدع في الأندلس، دراسة محمد عبدالوهاب خلاف وآخرين، المركز العربي للدول للإعلام، ط1،1981م .

47- السيوطي: تاريخ الخلفاء، دار الفكر، القاهرة .

48- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين.

49- ابن الشباط: وصف الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، 1967م ، 1968م.

50- الصاحب بن عباد: المحيط في اللغة.

51- صاعد بن أحمد: طبقات الأمم، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1993م.

52- الصفدي: الوافي بالوفيات، دار فرانز شتاينر بقيبادية، اسطنبول، 1981م.

53- الصولي: الأوراق، تحقيق هيورث، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2004م، سلسلة الذخائر.

54- الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، 1967م.

55- ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت.

56- الطبراني: المعجم الكبير .

57- الطبري (ابن جرير): تفسير الطبري، دار المعارف، القاهرة.

58- **الطبري (المحب)**: الرياض النضرة في مناقب العشرة، دار المنار، القاهرة، ط1، 1421هـ/2000م.

59- الطحاوي: مشكل الآثار.

60- ابن أبي عاصم: السنة.

61- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولات وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت.

62- العذري: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار، تحقيق عبدالعزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، 1965م.

63- ابن عربشاه: شرح العصام على متن السمرقندية في علم البيان، تحقيق إلياس قبلان، دار الكتب العلمية، بيروت.

64- ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة.

65- عياض: ترتيب المدارك، تحقيق أحمد بكير، مكتبة الحياة، بيروت، مكتبة الفكر، طرابلس.

66- ابن غالب: منتقى فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، تحقيق لطفي عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ربيع أول1375هـ/نوفمبر1955م.

67- ابن فرحون: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، مراجعة طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، ط1، 1406هـ/1986م.

68- ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010م.

69- الفيومي: المصباح المنير، المطبعة الأميرية، مصر، 1909م .

70- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة.

- المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002م .

71- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تقديم فوزي محمد أمين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2005م.

72- ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة – بيروت، ط2، 1410هـ/1989م.

73- ابن الكردبوس: الاكتفا في أخبار الخلفاء، تحقيق عبدالقادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت.

- تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، 1965م، 1966م.

74- الكندي: الولاة والقضاة، بيروت، 1908م.

75- الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1409هـ/1989م .

76- مجهول: آخر أيام غرناطة.

77- مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق محمد زينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1414هـ/1994م .

78- مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ترجمة وتحقيق لويس مولينا؛ طبعة المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1983م.

79- مجهول: نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق محمد رضوان، دار حسان، دمشق، ط1، 1404هـ.

80- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1، 1368هـ/1949م.

81- ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1908م.

82- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت.

83- مسلم: صحيح مسلم.

84- مغلطاي: مختصر تاريخ الخلفاء، تحقيق يحيى بن حمزة الوزنة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1423هـ/2003م .

85- المقري: نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، 1968م.

86- المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفا، تحقيق جمال الدين الشيال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، القاهرة، 1999م.

- السلوك.

87- المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية.

88- ابن المنذر: الإشراف على مذاهب أهل العلم، تحقيق محمد نجيب سراج الدين، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر، ط2، 1414هـ/1993م.

89- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2003م.

90- أبو نعيم: فضائل الصحابة.

91- الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والمغرب، تحقيق جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1401هـ/1981م.

92- يحيى بن ماسويه: الجواهر وصفاتها، تحقيق عماد عبدالسلام رؤوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التراث الحضاري، القاهرة، 2017م .

93- يوسابيوس القيصري: حياة قسطنطين العظيم ، تعريب القمص مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة.

المراجع العربية والمعربة:

1- إبراهيم العدوي: موسى بن نصير، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، 1967م.

2- إبراهيم محمد حسن الجمل: الإمام عبدالله بن ياسين، دار الإصلاح، الدمام، 1981م.

3- إبراهيم نصحي: تاريخ مصر في عصر البطالمة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط6، 1988م.

4- أحمد أمين: ظهر الإسلام، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2016م.

- هارون الرشيد، دار الهلال بمصر، 2004م.

5- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، 1984م.

6- أحمد عبدالرازق: الرنوك الإسلامية، دار الحريري، القاهرة، ط2، 2006م.

7- أحمد عبدالرحيم: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط4، 2011م.

8- أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية .

9- أحمد مختار العبادي: الصقالبة في أسبانيا، المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، 1373هـ/1953م.

- في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.

- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية .

- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.

10 - أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى.

11 - أنسام: الموريسكيون في غرناطة .

12 - أنستاس ماري الكرملي: النقود العربية وعلم النميات، المطبعة العصرية، القاهرة، 1939م.

13 - أنور زناتي: ابن حيان القرطبي مؤرخًا، دار الآفاق العربية، القاهرة.

14 - أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007م.

15- باسيليون بابون مالدونادو: العمارة الإسلامية في الأندلس، ترجمة علي إبراهيم المنوفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2011م.

16 - بالنثيا (آنخل جونثالث): تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، 1955م .

17 - تابسيل: معجم الدول والأسر الحاكمة في العالم عبر العصور.

18 - جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2011م.

19 - حامد محمد الخليفة: انتصارات ابن تاشفين، بطل معركة الزلاقة وقائد المرابطين، موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين، مكتبة الصحابة، الشارقة، ط1 ، 1425هـ/2004م.

20 - حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1932م .

- تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1958م .

- المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م. (بالاشتراك مع طه أحمد شرف).

21 - حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة .

22 - حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار .

- دراسات في تاريخ الدولة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1990م .

- الفنون والوظائف.

23 - حسن المصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم .

24 - حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1414هـ/1993م.

25 - حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، القاهرة، 1986م.

- فجر الأندلس، دار المناهل، بيروت، ط1، 1423هـ/2002م.

26 - خوليان ريبريرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1994م .

27 - دوزي (رينهرت): المسلمون في الأندلس، ترجمة وتعليق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م.

- ملوك الطوائف، ترجمة كامل الكيلاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة .

28 - دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2010م .

29 - راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م.

30 - راوية عبدالحميد: المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة، دار عين، القاهرة، ط1، 2006م .

31 - رحاب السيد: حكام الأقاليم المصرية في عصر الفاطميين، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م .

32 - زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي حسن، حسن أحمد محمود، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2016م .

33 - زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين، دار الآثار العربية، القاهرة، 1937م .

34 - سامية مصطفى مسعد: الوزارة في الأندلس من العصر الأموي حتى عصر مملكة غرناطة، الزهراء كمبيوسنتر، القاهرة، 2000م .

35 - سحر عبدالعزيز سالم: تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي.

36 - سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1999م.

37 - سعدون نصرالله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م .

38 - سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1972م.

39 - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

40 - شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة .

41 - طاهر راغب: النقود الإسلامية الأولى، مطبعة المدينة، القاهرة، ط1، 1405هـ/1984م.

42 - الطاهر مكي: ملحمة السيد، دار المعارف، القاهرة .

43 - عبادة كحيلة: صقر قريش، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، 1968م، رقم 76 من السلسلة.

- تاريخ النصارى في الأندلس، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، ط1، 1993م.

44 - عبدالباقي السيد عبدالهادي: دراسات أندلسية في الفكر والتاريخ والمذاهب، دار الآفاق العربية، القاهرة ، 2018م .

- ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي، دار الآفاق العربية، القاهرة ، 2014م .

- الظاهرية والمالكية وأثرهما في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الآفاق العربية، القاهرة ، 2014م.

- أهل السنة في مصر الفاطمية، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1439هـ/2018م .

- كتاب الإمامة والسياسة لابن حزم الظاهري وأثره في الحضارة الإسلامية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2018م .

- التدوين التاريخي عند ابن حزم، دار الآفاق العربية ، القاهرة، 2017م .

- الفرق الإسلامية في الأندلس وآثارها في المجتمع الأندلسي، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2017م.

45 - عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم.

46 - عبدالسلام أحمد الطود: بنو عباد بإشبيلية، تطوان، 1946م.

47 - عبدالعزيز سليمان نوار: الشعوب الإسلامية في التاريخ الحديث، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة.

48 - عبدالله بن محمد بن الصديق الغماري: السيف البتار لمن سب النبي المختار، مكتبة القاهرة، القاهرة، ط1، 1427هـ/1996م .

49 - عبدالله محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر، دار الثقافة، القاهرة، 1411هـ/1991م .

- من نصوص كتاب المتين للمؤرخ القرطبي الكبير أبي مروان ابن حيان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997م.

50 - عبدالمحسن طه رمضان: الحروب الصليبية في الأندلس ميلادها وتطورها حتى القرن العاشر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2001م.

51 - عبدالمنعم ماجد: السجلات المستنصرية، دار الفكر، القاهرة .

- ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1414هـ/1994م.

- نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط3، 1985م .

52 - عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، دار الفكر العربي، ط1، 1367هـ/1948م.

53 - علي أدهم: صقر قريش ، دار الهلال، القاهرة .

54 - غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م.

55 - فرانك ولبانك: العالم الهيللينستي، ترجمة آمال محمد الروبي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009م .

56 - فرج حسين فرج: النقوش الكتابية الفاطمية على العمائر في مصر، مكتبة الإسكندرية، 2007م.

57 - فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، دار المعارف بمصر، ط6 .

58 - فيليب مانسيل: القسطنطينية المدينة التي اشتهاها العالم، ترجمة مصطفى محمد قاسم، عالم المعرفة، الكويت، 2015م .

59 - كروث إرنانديث: تاريخ الفكر في العالم الإسلامي، ترجمة عبدالعال صالح، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013م.

60 - لوران عبد الباقي جلبنارلي: المولوية بعد جلال الدين الرومي، ترجمة عبد الله أحمد إبراهيم، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2003م.

61 - مارمول كارباخال: وقائع ثورة الموريسكيين، ترجمة وسام محمد جزر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012م.

62 - مجدي محمد شمس الدين: زرياب بين الحقيقة والخيال، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية.

63 - محمد بحر: اليهود في الأندلس، المكتبة الثقافية، 1970م .

64 - محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1394هـ/1974م.

- سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر، القاهرة .

65 - محمد الجمل: قصور الحمراء، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية.

66 - محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية، القاهرة، 1414هـ/1994م .

67 - محمد حسن دخيل: الدولة الفاطمية الدور السياسي والحضاري للأسر الجمالية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2009م .

68 - محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، 1970م.

69 - محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، مكتبة التراث، القاهرة، ط5، 1985م.

70 - محمد عبدالرحيم الزيني: ابن السيد البطليوسي وآراؤه الفلسفية والكلامية، دار اليقين، المنصورة، ط1، 1431هـ/2010م .

71 - محمد عبدالله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1379هـ/1959م .

- دولة الإسلام في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م.

72 - محمد عبده: تفسير جزء عم، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، 1985م .

73 - محمد عبدالوهاب خلاف: تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1413هـ/2001م .

74 - محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014م.

75 - محمد محمود خليل: الاغتيالات السياسية في مصر في عصر الدولة الفاطمية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2007م.

76 - محمد هشام النعسان: قصور وحدائق الأندلس الإسلامية .

77 - محمود خلف: ثورات المصريين في العصر الفاطمي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2012م.

78 - مصطفى حسن الكناني: العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، 1981م .

79 - مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، 2002م .

- مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح الإسلامي ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2015م .

80 - منى حسن محمود: المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م.

81 - هنرى بيريس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1408هـ/1988م .

82- يوسف أحمد بني ياسين: بلدان الأندلس في أعمال ياقوت الحموي الجغرافية، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات، ط1، 2004م.

83- يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق محمد عبدالله عنان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014م.

الرسائل الجامعية:

1- آمنة محمود عودة: الحجابة والوزارة في عصر الخلافة الأموية في الأندلس، أطروحة ماجستير، كلية الآداب، جامعة مؤتة، 1984م .

2- أحمد كامل محمد صالح: مصر بين المذهب السني والمذهب الإسماعيلي في العصر الفاطمي، أطروحة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1987م .

3- البابا (حكم): المولويّة: أطروحة لنيل الإجازة في النقد والأدب المسرحي، المعهد العالي للفنون المسرحيّة قسم النقد والأدب المسرحي، دمشق، 1989/1990م .

4- حسن حمزة جواد: نشوء الدولة السلوقية وقيامها، أطروحة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1429هـ/2008م .

5- سمير حامد: الأوقاف في عصر الدولة الفاطمية، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ، 1432هـ/2011م .

6- صلاح الدين حسن علي: مدارس الشعر في مصر في العصر الفاطمي، أطروحة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، 1977م .

7- عبير زكريا سليمان: مدينة دانية التاريخ السياسي والحضاري لمدينة دانية الإسلامية منذ سقوط الدولة العامرية حتى استيلاء الأرغونيين، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب جامعة طنطا، 1420هـ/2000م.

8- عزت قاسم: فقهاء المالكية وأثرهم في المجتمع الأندلسي إلى نهاية عصر الخلافة، رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة عين شمس، 1993م .

9- مصرية تعبان مهدي: الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية، أطروحة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1430هـ/2009م.

10- وليد عبدالمنعم حسين: قلعة رباح ودورها في الصراع الإسلامي المسيحي، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، 1435هـ/2014م.

الدوريات العربية والمعربة:

- حاتم الطحاوي: اقتحام العثمانيين للقسطنطينية شهادة للمؤرخ البيزنطي دوكاس، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، السنة العاشرة، العددان 41 ، 42، شتاء وربيع 1419هـ/1999م.

- **ليفي بروفنسال**: مدينة الزهراء، دائرة المعارف الإسلامية.

- مجهول: قصيدة رائعة في رثاء الأندلس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، مجلة المناهل، الرباط، عدد 28، السنة العاشرة، 1404هـ.

المراجع الأجنبية:

- R. Altamira, Ahistory of Spain from the beginning to the present Dar, translated by muna lee, london, ed.1,1949

- arcía-Osuna, José María Manuel; Rodríguez. "El astur rey de León Fruela II Adefónsiz "El Leproso". Argutorio: revista de la Asociación Cultural "Monte Irago.

- C. F. arnaldez, Grammaire et theologie chez ibn hazm.

- Alvaro indiculu luininosus, Esp, X1.

- Dozy, Recherchés sur L. Histoire et la Litterature de L.Espagne pendant le moyen age, parise-leyde, troisieme edition, 1881,T.1.

- Lévi-Provençal, Histoire de l Espagne Musulmane, Paris, 1950, vol. 1

- Simonet: historia de los mozarabes de espana, Madrid, 1897.

- Un hombre de orígen pagano, de oscura y desconocida prosapia, llamado Omar ben Hafs, José Antonio Conde, Historia de la dominación de los Arabes en España, Madrid: Garcia, 1820.

- Yeor, Bat; Kochan, Miriam and Littman, David (2002) Islam and Dhimmitude: Where Civilizations Collide Fairleigh Dickinson University Press, Madison, NJ.

فهرس الكتاب

Notes

[←1]

هو أحد فروع علم الآثار وهو علم يختص بدراسة تاريخ مصر القديمة ولغتها وآدابها وديانتها وفنونها.

[←2]

لين بول : تاريخ العرب المسلمين فى أسبانيا، ص 47، 49، 96، 101، 130، 134، 173، 174.

[←3]

نفسه، ص 122.

[←4]

نفسه، ص174 -181.

[←5]

عَرين : بيت الأسد، وهو في الغابات والأدغال. ودِيس: أي: وُطِئ.

[←6]

حِماها: أي قلعتها.

[←7]

مثل الإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية الهندية. انظر: فرانك ولبانك: العالم الهيللينستي، ترجمة آمال محمد الروبي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009م، ص 42 وما بعدها.

[←8]

ووطئهم: وَطِئَ - يَطَأ: يدوسه بقدمه وثقله: كناية عن الغلبة والقهر والإذلال. الزَّبيدي: تاج العروس، مادة وطئ.

[←9]

مات الإسكندر سنة 323 ق. م. [المترجم].

[←10]

ولد السيد المسيح يوم 29 كيهك الموافق 25 ديسمبر، وذلك حسب الاتفاق الذي حدث في مجمع نيقية عام 325م، وكانت هناك آراء مختلفة قال بها بعض المؤرخين منها أنه ولد في اليوم التاسع عشر من أبريل، وبعضهم قال بالعاشر من مايو، بينما رأى «كلمنت السكندري» أنه ولد في السابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد، بينما تذهب الكنيسة القبطية بأن «يسوع» ولد في تاريخ 7 يناير، وتخالف به الكنائس الغربية، وفي عام 1582م أيام البابا جريجوري بابا روما، لاحظ العلماء أن يوم 25 ديسمبر (عيد الميلاد) ليس في موضعه أي أنه لا يقع في أطول ليلة وأقصر نهار، بل وجدوا الفرق عشرة أيام، أي يجب تقديم 25 ديسمبر بمقدار عشرة أيام حتى يقع في أطول ليل وأقصر نهار، وعرف العلماء أن سبب ذلك هو الخطأ في حساب طول السنة (السنة= دورة كاملة للأرض حول الشمس) إذ كانت السنة في التقويم اليولياني تحسب على أنها 365 يومًا و6 ساعات، لكن العلماء لاحظوا أن الأرض تكمل دورتها حول الشمس مرة كل 365 يومًا و5 ساعات و48 دقيقة و46 ثانية أي أقل من طول السنة السابق حسابها (حسب التقويم اليولياني) بفارق 11 دقيقة و14 ثانية ومجموع هذا الفرق منذ مجمع نيقية عام 325م حتى عام 1582م كان حوالي عشرة أيام، فأمر البابا جريجوري بحذف عشرة أيام من التقويم الميلادي (اليولياني) حتى يقع 25 ديسمبر في موقعه كما كان أيام مجمع نيقية، وسمي هذا التعديل بالتقويم الجريجوري، إذ أصبح يوم 5 أكتوبر 1582م هو يوم 15 أكتوبر في جميع أنحاء إيطاليا.

[←11]

السلوقيون: وهم سلالة هيللينستية ترجع تسميتها إلى مؤسس الأسرة الحاكمة للدولة السلوقية، سلوقس الأول نيكاتور أحد قادة جيش الإسكندر الأكبر، شكلت هذه الدولة إحدى دول ملوك طوائف الإسكندر، التي نشأت بعد موت الإسكندر المقدوني، وخلال القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد حكمت منطقة غرب آسيا، وامتدت من سوريا وتراقيا غربًا

وحتى الهند شرقًا، كان للسلوقيين الدور الكبير في تفاعل الحضارة الإغريقية والحضارات الشرقية، وكثيرًا ما ورد ذكر السلوقيين لدى المؤرخين الغربيين كأعداء لروما، خلال ما عرف بالحروب الرومانية السورية في الفترة ما بين (192-188 ق.م) بقيادة أنطيوخوس الثالث الكبير. انظر: حسن حمزة جواد، نشوء الدولة السلوقية وقيامها، أطروحة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1429هـ/2008م، ص39 وما بعدها.

[←12]

البطالسة: عائلة من أصل مقدوني نزحت على مصر بعد وفاة الإسكندر الأكبر سنة 323 ق. م، حيث تولى أحد قادة جيش الإسكندر الأكبر وهو «بطليموس» حكم مصر، الذي جعل الإسكندرية عاصمة لمصر، وظلت أسرة بطليموس تحكم مصر حتى دخلها الرومان في عام 30 ق. م، وآخر حكام البطالسة كانت الملكة كليوباترا وابنها بطليموس الخامس عشر (قيصرون) ابن يوليوس قيصر؛ وقد وصل نفوذ الدولة البطلمية إلى فلسطين، وقبرص وشرق ليبيا، وعرفت ازدهارًا خلال عهود بطليموس الأول وبطليموس الثاني وبطليموس الثالث. لمزيد من التفاصيل عن هذه الدولة انظر الموسوعة العظيمة التي قدمها العلامة الكبير/ إبراهيم نصحي في أربعة مجلدات عن تاريخها السياسي والحضاري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط6، 1988م، ومصطفى العبادي: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح الإسلامي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2015م، ص29-63.

[←13]

أغسطوس: أول إمبراطور روماني، واسمه گايوس أوكتاڤيوس وهو ابن أخي يوليوس قيصر أحد قادة روما العظام، وقيل هو حفيد أخته، وابنه بالتبني الذي أورثه الجزء الأكبر من ثروته. انظر: مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، 2002م، ص 69 وما بعدها.

[←14]

قسطنطين: هوگايوس فلاڤيوس ڤاليريوس أورليوس قنسطنطينوس، ويعرف بقسطنطين الأول والكبير والعظيم، ولد قسطنطين في نايسوس - تقع اليوم في صربيا - عام 272 أو 273م. والده كان الجنرال الروماني قسطنطين كلوروس ووالدته كانت هيلانة.

كان قسطنطين قائدًا بارعًا، وإداريًّا عظيمًا، وسياسيًّا لا يشق له في شئون الحكم غبار، ومن أكبر أخطائه تقسيمه الإمبراطوريّة بين أبنائه؛ لكنه خلد في التاريخ بأعماله المجيدة ومنها بناء القسطنطينية، والاعتراف بالمسيحية في مرسوم ميلان وخلافه. انظر: يوسابيوس القيصري: حياة قسطنطين العظيم ، تعريب/ القمص مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة.

[←15]

بيزنطة: مدينة إغريقية قديمة كانت تقع على مضيق البوسفور بتركيا. أسست عام 658 ق. م. وكانت من قبل قرية للصيادين. أسسها أهل مدينة ميغارا (ميجارا) التي سميت باسم بيزاس ابن نيسوس ملك ميغارا. وفي عام 335م جعلها الإمبراطور قسطنطين عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) وأصبح يطلق عليها القسطنطينية نسبة للإمبراطور قسطنطين مؤسس الإمبراطورية وكان بها مقر بطريركية الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بكنيسة آيا صوفيا (مسجد آيا صوفيا حاليًا). وكان محمد الفاتح العثماني قد فتحها عام 1453م وأطلق عليها (إسلام بول). ثم أطلق عليها العثمانيون الآستانة. وحاليا يطلق عليها اسطنبول، وقد وقع اختيار قسطنطين على بيزنطة لأنه كان معجبًا بموقع المدينة لأن أي هجوم عليها سيأتي فقط من الغرب وذلك لأن الجوانب الثلاثة الأخرى محمية من جهة البحر. وفي العام 337م تم تعميده كمسيحي وفي ذلك الحين كان معماريوه ومهندسوه قد حولوا المدينة القديمة إلى قلعة جديدة وفخمة. انظر: حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1414هـ/1993م، ص 31-35، ولمزيد من التفاصيل عن مدينة القسطنطينية. انظر: ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ليدن، 1891م، ص 119-123 ؛ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، بيروت، 1964م، ص 344-352.

[←16]

الأكاسرة: لقب كان يُطلق على ملوك الفرس، وربما قيل فيهم الساسانية نسبة إلى جَدهم ساسان بن أردشير، وأولهم أردشير بن بابك وآخرهم يزدجرد، وقد انقرض ملكهم في خلافة عثمان بن عفان.انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تقديم فوزي محمد أمين، الهيئة العامة لقصور= =الثقافة، القاهرة، 2005م، 5/481.

[← 17]

قياصرة الروم: لقب أُطْلِق على كلّ الأَباطِرة الرُّومانيِّين، ويقال: إن معنى قيصر بلغة الروم: أي شُقَّ عنه، وذلك أن أول ملوك الروم وهو غاليوس ماتت أمه وهي حامل به فَشُقَّ عنه، فقيل: قيصر. فصار ذلك سمة لمن ملك منهم. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، 5/482، 483. ومنها الولادة القيصرية.

[← 18]

جاست: أي ترددت لطلبكم، ومنها قوله تعالى: ﴿ﮕ ﮖ ﮗ﴾ آية 5 سورة الإسراء. أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم لا يخافون أحدًا. انظر: الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة مصر، القاهرة، طـ 1، 1431هـ/2010م، 2/474.

[← 19]

مفاوزها: مَفَاوِزُ: صَحَارَى، فَلَوَاتٍ، واحدها: مفازة.

[← 20]

ربَض الشَّخصُ في المكان: أقام مُلازِمًا له.

[← 21]

صائحة: صيحة المناحة والفزع.

[← 22]

طفق يفعل كذا: بدأ في الفعل واستمرّ فيه.

[← 23]

الضارية: أي المفترسة والشرسة، يُقال: «حَيَوَانٌ ضَارٍ»: مُفْتَرِسٌ. و«مُقَاوَمَةٌ ضَارِيَةٌ»: شَدِيدَةٌ، شَرِسَةٌ، قَوِيَّةٌ.

[← 24]

وادعين: أي مطمئنين، ودع: سكن واطمأن. انظر: ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2003م، مادة ودع.

[←25]

مغمورًا: غير مَعْروف، خامِل الذِّكْر.

[←26]

ساوَرَه مُساوَرَة، وسِوَارًا: واثبه. ويقال: ساورتْهُ الهمومُ والهواجسُ والأفكارُ ونحوُها: صَارعَتْهُ. وسَاوَرَ الشكُّ ونحوه فلانًا: داخَلَه، صارَعَه.

[←27]

آذانًا واعية: مأخوذة من قوله تعالى في سورة الحاقة ﴿ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ﴾، ومعناها=

=حافظة لما تسمع. انظر: تفسير الجلالين، شركة الشمرلي، القاهرة، سورة الحاقة، آية 12، ص 483.

[←28]

حنيفًا: هي لفظة أخذها المترجم من قوله تعالى: ﴿ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ﴾، وقال الزمخشري: «الحنيف المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق». انظر: الكشاف، 192/1، آية 67 من سورة آل عمران.

[←29]

الأحبارُ من اليهود أي: العلماء، كما قال تعالى: ﴿ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ﴾ المائدة: 63. انظر: تفسير الطبري، دار المعارف، القاهرة، 14/216.

[←30]

مردوا: أي مرَنُوا عليه ودَربوا به، ومنه: «شيطانٌ مارد، ومَرِيد»، وهو الخبيث العاتي. ومنه قيل: «تمرَّد فلان على ربه»، أي: عتَا، ومرنَ على

معصيته واعتادها. انظر: تفسير الطبري، آية 101 من سورة التوبة.

[←31]

«الْمُثَابَرَةُ عَلَى العَمَلِ»: الْمُوَاظَبَةُ، الْمُدَاوَمَةُ.

[←32]

أَجَّجَ: أَلهَبَها، أذكاها، زادها اضطرامًا واحتدامًا.

[←33]

جذوة: جَمْرة ملتَهِبَة.

[←34]

التعصب الديني: هو مصطلح لوصف التمييز على أساس الدين، وهو إما بدافع تعصب المرء خاصة تجاه المعتقدات الدينية أو التعصب ضد الآخر، أو معتقداتهم الدينية.

[←35]

أشتاتًا: متفرقين مختلفين.

[←36]

مسلمين: تطلق هذه اللفظة على معان كثيرة، منها المُسَلّم أو المُستسلم أو المُخلِص أو الخاضع، ويراد بكل تلك المصطلحات أن تكون لله، وفي الاصطلاح: المسلم هو الذي يؤدي أركان الإسلام الخمسة ووصفت هذه الأركان بأنها ما يبنى عليه الإسلام فيما صح في الحديث النبوي: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»، وورد في الأحاديث النبوية عدة سمات لوصف المسلم كما روي في مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: المسلم من سلم الناس من لسانه ويده»، وقد أشار القرآن إلى هذا المصطلح على لسان نبي الله إبراهيم في الآية الكريمة: ﴿

﴾ الآية 78 سورة الحج.

[← 37]

إلى الناس كافة: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ﴾ سورة سبأ آية 28.

[← 38]

شُدِه: دهش بالأمر وتحيَّرَ.

[← 39]

أعمدة هرقل: هو الاسم الذي أطلقه الرومان على مضيق جبل طارق الذي يوصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطي جنوب أسبانيا، وهرقل هو بطل الميثولوجيا الإغريقية ويقال إنه شق ذات يوم الصخر لفتح مضيق جبل طارق الذي يبلغ عرضه 15 كم وتشرف عليه الصخرة المقسومة إلى نصفين وكانا يعتبران حدا للعالم القديم؛ وقيل إن البطل الأسطوري اليوناني«هرقل» نصب الأعمدة في رحلته التي قام بها لأسر ثيران غيريون، المسخ ذو الأجسام الثلاثة الذي عاش على جزيرة في الأطلسي.

[← 40]

نهر جيحون: نهر تمتد العمارة في جنوبه، وتنعدم في شماله، وعلى جانبيه العديد من المدن والبلدان العامرة، منها خوارزم، ويتفرع منه العديد من الأنهار، وينتهي عند بحيرة كانت تعرف قديما ببحيرة خوارزم، وتسمى الآن بحر آرال. انظر: الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق/ محمد جابر عبدالعال، بدون دار طبع، القاهرة، 1381هـ/1961م، ص170-168.

[← 41]

فتح القسطنطينية: تم فتحها في العام 857هـ/1453م على يد محمد الثاني المشهور بالفاتح، لمزيد من التفاصيل عن الفتح وما تبعه انظر: أحمد عبدالرحيم: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط4، 2010م، 65-72؛ محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية، القاهرة، 1414هـ/1994م، ص 48-56؛ عبدالعزيز سليمان نوار: الشعوب الإسلامية في التاريخ الحديث، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ص 46-54؛ فيليب مانسيل: القسطنطينية المدينة

التي اشتهاها العالم، ترجمة مصطفى محمد قاسم، عالم المعرفة، الكويت، 2015م، ص23-58؛ حاتم الطحاوي: اقتحام العثمانيين للقسطنطينية شهادة للمؤرخ البيزنطي دوكاس، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، السنة العاشرة، العددان 41، 42، شتاء وربيع 1419هـ/1999م، ص193-230.

[← 42]

مِراسهم: مَارَسَ مُمَارَسَةً ومِراسا: عالجه وزاوله وعاناه.

[← 43]

الشامسة: أي المعاندة والمستعصية. انظر: الفيومي: المصباح المنير، المطبعة الأميرية، مصر، 1909م، مادة شمس، ص 493، 494.

[← 44]

يوليان حاكم سبتة: اختلفوا في أصله هل هو قوطيٌّ إسبانيٌّ؟!! أم روميٌّ؟ أم بربريٌّ مغربيٌّ؟ أم فارسيٌّ؟، ومعروف أن أول معرفة للعرب بيوليان كانت سنة 89هـ/709م عند وصول موسى بن نصير إلى طنجة. لمزيد من التفاصيل انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس، دار المناهل، بيروت، طـ1، 1423هـ/2002م، ص 115-117.

[← 45]

لذريق ملك أسبانيا: وقيل رُزريق آخر ملوك القوط، والذين كان عددهم بالأندلس ستة وثلاثين

ملكًا، وحكموا ثلاثمائة واثنتين وأربعين سنة، ولم يكن لذريق من أبناء الملوك، ولا صحيح النسب في القوط، وإنما اغتصب الملك، وقتل لذريق بعد هزيمته في معركة وادي لكة سنة 92هـ/712م، وقيل في موته غير ذلك انظر: ابن الشباط: وصف الأندلس، تحقيق/ أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، 1967م، 1968م، مجلد 14، ص 103؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، تحقيق ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، طـ2، 1408هـ/1988م، ص 193، 194.

[← 46]

القوط الغربيون: إحدى الشعوب الجرمانية التي هددت الإمبراطورية البيزنطية، وعرفوا بالقوط الغربيين لأنهم اتجهوا إلى الغرب، وكان ذلك محض مصادفة، وإلا فالاسم الحقيقي لهم القوط الأذكياء، وكان القوط عمومًا قد استقروا في القرن الثاني الميلادي شمال البحر الأسود، وهناك انقسموا إلى قسمين: شرقيين وغربيين، فانتشر الشرقيون فوق سهول روسيا الجنوبية، واتجه الغربيون نحو داشيا والبلقان، وقد استفاد القوط من الحضارة الرومانية، واعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسي، ونجح القوط الغربيون في الانتشار في منطقة امتدت من تولوز على نهر الجارون إلى أسبانيا، ومن أشهر حكامهم واليا، وثيودريك الأول، وثيودريك الثاني الذي يعد أقدر حكام القوط. لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 5، 1972م، 1/83-88.

[←47]

القوط الشرقيون: الاسم الحقيقي لهم القوط الساطعون أو الزاهرون، وعرفوا بالشرقيين لتوجههم شرقًا، حيث انتشروا فوق سهول روسيا الجنوبية، ونجحوا في غزو إيطاليا تحت زعامة ملكهم ثيودريك، ولكن عقب وفاة ثيودريك أرسل جستنيان جيشًا إلى إيطاليا نجح في استردادها من القوط الشرقيين، وانهارت دولة القوط بعد ذلك بسنوات لتختفي تمامًا من مسرح الأحداث. انظر: سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، 1/101-105.

[←48]

القبائل الجرمانية: هم قبائل بربرية انتشروا في القرنين الأول والثاني في أواسط أوربا وشرقيها عبر نهري الراين والدانوب، وكان موطنهم الأول البلاد المحيطة بالبحر البلطي، وكانت أخلاقهم في تلك الفترة مزيجًا من الفضائل والنقائص التي عرفت بها الشعوب البدائية، وانقسم الجرمان إلى ثلاث طبقات: نبلاء وأحرار وعبيد، وقد نجحوا في تكوين إمارات وممالك لهم على حساب الإمبراطورية البيزنطية كمملكة القوط الغربيين، والقوط الشرقيين، والوندال، والهون، والبرجنديين، والفرنجة. انظر: سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، 1/75-109.

[←49]

الكفاف: ما كان كافيًا من الرزق قَدْر الحاجة من غير زيادة أو نُقصان.

[← 50]

خلعت العِذار: فعلت فيه بحسب السجية غير مبال ولا مترقب. انظر: ابن زاكور الفاسي: عنوان النفاسة في شرح الحماسة، 1/27.

[← 51]

النفس العابثة: أي: اللاهية.

[← 52]

مُنة: أي: قُوَّة.

[← 53]

يقال: فلانٌ شديد الشكيمة: إذا كان عزيز النفس، لا ينقاد. انظر: الرازي: مختار الصحاح، ترتيب: السيد محمود خاطر، المطبعة الأميرية، القاهرة، طـ 9، 1962م، مادة شكم.

[← 54]

بَهَظَهُ الحِمْلُ: أثْقَلَهُ، أرْهَقَهُ، شَقَّ عَلَيْهِ.

[← 55]

تنال من الغنم شيئًا: أي تنال من المنفعة أو الفائدة شيئًا.

[← 56]

هوى إلى هذه الهوة: سقط من أعلى إلى أسفل، والهوة الحفرة. انظر: الفيومي: المصباح المنير، ص 996، 997، مادة هوى.

[← 57]

حكم القوط ثلاثمائة واثنتين وأربعين سنة، وليس كما ذكر ستانلي لين بول: «كان للقوط بأسبانيا أكثر من مائتي سنة». انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 193.

[← 58]

رزحت: رزح فلان معناه ضعف وذهب ما في يده، وأصله من رزاح الإبل إذا ضعفت ولصقت بالأرض فلم يكن بها نهوض، وقيل: رزح أخذ من المرزح، وهو المطمئن من الأرض، كأنه ضعف عن الارتقاء إلى ما علا منها. ابن منظور: لسان العرب، مادة رزح.

[←59]

قساوسة: قَسٌّ أو قِسِّيس مرتبة كهنوتية في الديانة المسيحية. أسسها يسوع بحسب التقليد المسيحي عندما اختار تلاميذه الاثني عشر ثم السبعين رسولا، والوظيفة الرئيسية للقَسِّ هي التعميد، والوعظ وإرشاد المسيحيين والسماع إلى اعترافاتهم، وأصل الكلمة يرجع إلى اللفظة السريانية «» قشيشا، وتعني: شيخ أو رجل ذو مرتبة عالية، وتقابلها في اليونانية كلمة (إبريسفيتيروس) بمعنى شيخ أيضا، والكاهن يسمى شيخا نظرا لأهمية وظيفته ومكانته وتوقيرا له حتى ولو لم يصل إلى سن الشيخوخة بعد، وهي ثاني الـرتب الكهنوتية المسيحية (أكليروس) وهي تعلو رتبة (الشموسية-شماس) وتعلوها رتبة (الأسقفية-أسقف)، وتنقسم إلى ثلاث درجات حسب حجم ونطاق الخدمة التي يقدمها القس، وهي مرتبة تصاعديا كالتالي: 1. القس: وهو أحد كهنة الكنيسة.

2. القُمَّص: كبير القسوس في الكنيسة، وكلمة (قمص) مشتقة من كلمة يونانية بمعنى مدير أو مقام.

3. الخورى أبسكوبس: معاون الأسقف (خاصة في القرى)، وكلمة (خوري أبسكوبس) كلمة يونانية معناها أسقف القرى أو الحقول.

[←60]

أصهروا: تزاوجوا.

[←61]

الخَوَل: الخدم. معجم الرائد، مادة خال.

[←62]

فَلَجوا: ظَفِروا.

[←63]

أي: الذين ذهبت دولتهم.

[← 64]

يزيد صاحب «أخبار مجموعة» وهو أقدم كتاب في تاريخ الأندلس طبع بمجريط [مدريد]: أن البلاد أصيبت بالمجاعة والوباء قبل الفتح، فمات أكثر مِن نصف سكانها في سنوات 88 و89 و90هـ. [المترجم].

[← 65]

عبارة صاحب «أخبار مجموعة»: هلك غيطشة وترك أولادًا لم يرضهم أهل الأندلس، فتراضوا على عِلج يُقال له: لذريق شجاع هَجُوم، ليس من بيتِ الملك، ولكنه من قُوَّادهم. [المترجم].

[← 66]

يقول المؤلف: إنه ينقل هذه الرواية دون أن يتعرض لتأييد صدقها، وإذا كان ما يختص بفلورندا منها خياليا، فإن ما يختص بيوليان حق لا شك فيه. [المترجم].

[← 67]

عن قصة فلورندا ابنة يوليان وما وقع لها على يد لذريق انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 7، 8.

[← 68]

يقصد الملك غيطشة، وهو أحد ملوك القوط الغربيين، تولى الحكم سنة 77هـ، وملك خمس عشرة سنة حتى مات، واغتصب لذريق الحكم من بعده حيث كان أثيرًا لديه، فاستصغر أولاد غيطشة، واستمال طائفة من الرجال وانتزع الملك. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 6.

[← 69]

أَصَاخَ له وإِليه يُصِيخ إِصاخَةً: اسْتَمَعَ وأَنصَتَ لِصَوته. انظر: الزَّبيدى: تاج العروس، مادة صيخ.

[← 70]

يقال: ختل: خادع عن غفلة.انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ختل.

[←71]

الكونت: ويقال أيضا الكند وقنط، وهو لقب أطلق على النبلاء أو الشخصيات ذات الثراء والمركز الاجتماعي المرموق في أوربا العصور الوسطى، حيث استعمل هذا اللقب منذ أواخر عصر الإمبراطورية الرومانية باشتقاقه من مصطلح Comes أو باللاتينية comitis ويعني «الرفقة الإمبراطورية» أو «الحاشية»، وحقيقة عمله أن يكون أمير منطقة داخلية.

[←72]

البُزاة المعلمة: واحدها البَازِي، وهي من ضروب الصقور التي تصيد. انظر: الرازي: مختار الصحاح، مادة بزا.

[←73]

موسى بن نصير: هو أبوعبد الرحمن موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد البلوي مولى امرأة من لخم(لهذا غلب مسمى اللخمي على البلوي)، وقيل: إنه مولى لبني أمية، سبي أبوه من جبل الخليل بالشام في زمن أبي بكر الصديق، واسمه نصر، فصغر، وأعتقه بعض بني أمية، فرجع إلى الشام، وولد له موسى بقرية يقال لها: «كفر مثرى». ولي موسى بن نصير غزو البحر في عهد معاوية بن أبي سفيان، فغزا قبرص، وبنى بها حصونًا، وخدم بني مروان ونبه شأنه، وولي لهم الأعمال، فكان على خراج البصرة في عهد الحجاج، وشارك في فتح المغرب والأندلس وتوطيد الحكم الإسلامي بهما، وتختلف الروايات حول نهاية حياة موسى والرواية المشهورة أن الخليفة الوليد كان قد مرض وثقل عليه الداء فأرسل سليمان بن عبد الملك، ولي العهد، إلى موسى يأمره بالتريث في دخول دمشق حتى يموت الوليد ويتولى هو مقاليد الخلافة، فيكون له فخر استقبال الموكب الظافر. إلا= =أن موسى لم يجبه إلى طلبه وواصل السير حتى دخل دمشق سنة 96هـ والوليد في مرض موته، فأحسن وفادة موسى ثم مات بعد أيام. وكان هذا سبب حقد سليمان على موسى، وأراد أن ينتقم منه لما أصبح خليفة ـ وقيل عذّبه ـ ثم عفا عنه وقرّبه من مجلسه، وكانت وفاته بوادي القرى وقيل بمرّ الظهران وهو في طريقه إلى الحج برفقة الخليفة سليمان بن عبد الملك. وقيل كانت وفاته في المدينة المنورة. عنه بالتفصيل. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق:

شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 4/497-501؛ إبراهيم العدوي: موسى بن نصير، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، 1967م.

[←74]

الأُوارُ، بِالضَّمِّ: شدَّةُ حَرِّ الشَّمْسِ وَلَفْحُ النَّارِ وَوَهَجُهَا والعطشُ، وَقِيلَ: الدُّخان واللَّهَبُ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة أور.

[←75]

وضعت أوزارها: مأخوذة من قوله تعالى في سورة محمد ﴿گ گ گ گ﴾، ومعناها وضع أهل الحرب أثقالهم من السلاح وغيره وخضوعهم للطرف المنتصر. انظر: تفسير الجلالين، سورة محمد من الآية 4، ص 427.

[←76]

الخليفة بدمشق: هو الوليد بن عبدالملك بن مروان بن الحكم الأموي، بويع بعهد من أبيه، وكان مترفا، دميما، سائل الأنف، طويلا أسمر، بوجهه أثر جدري، في عنفقته شيب، يتبختر في مشيه، وكان قليل العلم، نهمته في البناء. افتتح الهند والأندلس، مات في جمادى الآخرة سنة ست وتسعين. وله إحدى وخمسون سنة. وكان في الخلافة عشر سنين سوى أربعة أشهر، وقبره بباب الصغير. وقام بعده أخوه سليمان بعهد له من أبيهما عبد الملك. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، 4/338 وما بعدها.

[←77]

هو أبو زرعة طريف بن مالك المعافري، أول من نزل الأندلس في منطقة عرفت باسمه فيما بعد. انظر: ابن الكردبوس: الاكتفا في أخبار الخلفاء، تحقيق/ عبدالقادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1/292.

[←78]

الجزيرة الخضراء: يقال لها جزيرة أم حكيم، وهي جارية طارق بن زياد، وكان حملها معه فخلفها بالجزيرة فعرفت باسمها، وعلى مرسى أم حكيم مدينة الجزيرة الخضراء التي تقع شرقي شذونة وقبلي قرطبة، على ربوة

مشرفة على البحر وسورها متصل به. لمزيد من التفاصيل انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص 73-75.

[←79]

ثورة البشكنس: ثورة قام بها سكان نافارا في أقصى شمال أسبانيا، ويعرف حاليا باسم إقليم الباسك، وهو إقليم ضخم يمتد عبر جبال البيرينييه الغربية على الحدود ما بين فرنسا وأسبانيا، وتبلغ مساحته حوالي 20 ألف كم^2. ويمتد الإقليم حتى شاطئ خليج البسكاي. وشعب الباسك يتحدثون لغتهم الخاصة بهم التي تعرف بالباسكية. وهي من أصعب اللغات بالعالم، ومن أهم مدن الإقليم مدينة بلباو وسان سباستيان وبامبلونا.

[←80]

اختلف في أصل طارق بن زياد فقيل فارسي وقيل عربي وقيل بربري، وهو أحد أبرز قادة الفتح الإسلامي للأندلس، وباسمه عرف مضيق جبل طارق، وذكر المقري أنه كان ضخم الهامة وعلى كتفه الأيسر شامة. انظر ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص 232 وما بعدها، ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولات وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 2/6. المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، 1/119.

[←81]

وادي بكة: عرف بذلك نسبة إلى بلدة صغيرة بهذا الموضع سماها العرب «بكة»، ومن ثم أطلق عليه وادي بكة أو لكة. انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 71.

[←82]

وادي لكة: موضع من أرض الجزيرة الخضراء بساحل الأندلس القبلي، التقى فيه طارق بن زياد بلذريق آخر ملوك القوط، والذين كان عددهم بالأندلس ستة وثلاثين ملكًا. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 193.

[←83]

في «أخبار مجموعة»: أن التقاء الجيشين كان بمكان يُقال له البحيرة. [المترجم].

[←84]

طِلَسْمًا: الطلسم هو خطوط وكتابات لا تحتوي على معنى واضح ومفهوم يستخدمها السحرة أو أتباع بعض المعتقدات وتكون تعويذة ما يُزعم أنها تدفع كل مؤذ أو تجلب الحظ السعيد. الطلاسم عادة تكون كتابة على ورق لكن أحيانًا قد تشمل أحجارًا عليها نقوش أو رموز صلبة أو خرز وكذلك قد تشمل ما يسمى الحرز.

[←85]

قيصر الأكبر: قال القلقشندى: «كان يقال لكل من ملك منهم قيصر وأصل هذه اللفظة في اللغة الرومية جاشر بجيم وشين معجمة فعربتها العرب قيصر ولها في لغتهم معنيان أحدهما الشعر والثاني الشيء المشقوق، واختلف في أول من تلقب بهذا اللقب منهم فقيل أغانيوش أول ملوك الطبقة الثانية منهم سمي بذلك لأن أمه ماتت وهو حمل في بطنها فشق جوفها وأخرج فأطلق عليه هذا اللفظ أخذا من معنى الشق ثم صار علما على كل من ملكهم بعده وقيل أول من لقب بذلك يوليوش الذي ملك بعد أغانيوش المذكور وقيل أول من لقب به أغشطش واختلف في سبب تسميته بذلك فقيل لأن أمه ماتت وهو في جوفها فشق عنه وأخرج كما تقدم القول في أغانيوش وقيل لأنه ولد وله شعر تام فلقب بذلك أخذا من معنى الشعر كما تقدم». انظر: صبح الأعشى، 5/482، 483.

[←86]

مَهاوٍ سحيقة: عميقة لا قعر لها.

[←87]

بعد لَأْيٍ: بعد شدّة وجُهْد وحاجة إلى النَّاس.

[←88]

بالقِسِيِّ: واحِدُها: قَوْس.

[← 89]

الأرعن: أَهْوَج في منطقه، متسرِّع في جهل وحمق.

[← 90]

لم أقرأ خرافةَ تحرُّك التمثالِ وسماعِ أصوات الحرب ولَجبها وتحرُّك الصور المرسومة في الرَّق فيما كتبه العربُ عن هذه الأسطورة. [المترجم].

[← 91]

صليل الرماح: صوت اصْطِدام وارْتِطام وقرْع عنيف، قعقعة.

[← 92]

أنين: التَّأوُّه أَلَمًا، صَوْت المُتَوجِّع المُتَشَكّي بهَمس غير مفهوم.

[← 93]

وآض رمادًا: (آضَ) يَئِيضُ (أَيْضًا) (أَيْ) عَادَ، وصَارَ. انظر: الرازى: مختار الصحاح، مادة أيض.

[← 94]

عن هذه الرواية في المصادر العربية انظر: ابن الشباط: وصف الأندلس، ص 103، 104؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، 130، 131.

[← 95]

ذكر ابن القوطية ذلك بقوله: «فلما دخل طارق السفن مع أصحابه غلبته عينه فكان يرى في نومه النبي وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي فيمر النبي عليه السلام بطارق فيقول له: تقدم لشأنك، ونظر طارق في نومه إلى النبي وأصحابه حتى دخلوا الأندلس. فاستبشر وبشر أصحابه» انظر: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق/ إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة – بيروت، ط2، 1410هـ/1989م، ص 34؛ وقريبًا من هذه الرواية وجدنا ذكرًا لهذه الحادثة عند ابن الشباط انظر: وصف الأندلس، ص 142.

[←96]

في «أخبار مجموعة»: فقال بعضهم لبعض: هذا ابنُ الخبيثة قد غلَب على سلطاننا وليس من أهله، وإنما كان من سِفالِنا، وهؤلاء قوم لا حاجة لهم باستيطان بِلدنا، إنما يريدون أن يملئوا أيديهم ثم يخرجوا عنا، فانهزِموا بنا إذا لَقِينا القوم. وكان لذريق قد ولى شيشبرت مَيْمَنته وأية مَيْسَرته، وهما ابنا الملك غيطشة. [المترجم].

[←97]

الجيش اللُّهام: أي العظيم. كأَنَّه يلتهم كلَّ شيء.

[←98]

وهذا نص خطبة طارق بن زياد كما أوردها ابن خلكان: «أيها الناس! أين المفر؟ والبحر من ورائكم والعدو أمامكم، فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما ستحصلونه من أيدي أعدائكم. وإن امتدت بكم الأيام ـ على افتقاركم ـ ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم، إن سمحتم بأنفسكم للموت، وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص مباع فيها النفوس أبدأ فيها بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فيما حظكم فيه أوفر من حظي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد= =انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ويكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولن يعوزكم بطل

عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون». انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م، 2/177 ـ 178.

[←99]

ذكر ابن الشباط أن لذريق أفلت من المعركة إلى موقع يقال له السواقي ثم قال: «فيقال إنه قتل وهو لا يُعرَف، وقيل أيضا إنه أراد الاستتار بستر الوادي فغرق فيه وهلك، ووجد في ذلك المكان خُف منظوم بالدر والياقوت قد سقط من رجله». انظر: وصف الأندلس، ص 107.

وذكر صاحب كتاب الإمامة والسياسة أن طارقًا احتز رأس لذريق بعد انتصاره في معركة وادي لكة وأرسل بها إلى موسى بن نصير مع ابنه فأرسلها موسى إلى الوليد. انظر: الإمامة والسياسة، 2/75؛ وقد ذكرت بعض الحوليات الإسبانية أن قبر لذريق في مدينة بازو، وهو ما انتقده العلامة الكبير حسين مؤنس. انظر: فجر الأندلس، ص 68 وما بعدها.

[←100]

الملك الإنجليزي آرثر: أحد أهم الرموز الميثولوجية في بريطانيا العظمى حيث يمثل الملكية العادلة في الحرب والسلم، ويشكل الشخصية المحورية في دائرة الأساطير المعروفة باسم الحالة البريطانية. هناك خلاف بشأن وجود آرثر، أو نموذج حقيقي له. وفي الإشارات الأولى والنصوص الويلزية، لم يُعط آرثر أبدًا لقب «ملك»، حيث تشير النصوص المبكرة إليه على أنه قائد حرب باللاتينية: dux bellorum، ثم أصبحت النصوص الويلزية في القرون الوسطى تشير إليه غالبًا بلقب ameraudur المستعارة من الكلمة اللاتينية imperator والتي تعني «قائد حرب».

[←101]

أَوْبَته: عودته.

[←102]

عَرين : بيت الأسد، وهو في الغابات والأدغال. ودِيس: أي: وُطِئ.

[←103]

حِماها: أي قلعتها.

[←104]

مثل الإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية الهندية. انظر: فرانك ولبانك: العالم الهيللينستي، ترجمة آمال محمد الروبي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009م، ص 42 وما بعدها.

[←105]

ووطئهم: وَطِئَ - يَطَأُ: يدوسه بقدمه وثقله: كناية عن الغلبة والقهر والإذلال. الزَّبيدي: تاج العروس، مادة وطئ.

[←106]

مات الإسكندر سنة 323 ق. م. [المترجم].

[←107]

ولد السيد المسيح يوم 29 كيهك الموافق 25 ديسمبر، وذلك حسب الاتفاق الذي حدث في مجمع نيقية عام 325م، وكانت هناك آراء مختلفة قال بها بعض المؤرخين منها أنه ولد في اليوم التاسع عشر من أبريل، وبعضهم قال بالعاشر من مايو، بينما رأى «كلمنت السكندري» أنه ولد في السابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد، بينما تذهب الكنيسة القبطية بأن «يسوع» ولد في تاريخ 7 يناير، وتخالف به الكنائس الغربية، وفي عام 1582م أيام البابا جريجوري بابا روما، لاحظ العلماء أن يوم 25 ديسمبر (عيد الميلاد) ليس في موضعه أي أنه لا يقع في أطول ليلة وأقصر نهار، بل وجدوا الفرق عشرة أيام، أي يجب تقديم 25 ديسمبر بمقدار عشرة أيام حتى يقع في أطول ليل وأقصر نهار، وعرف العلماء أن سبب ذلك هو الخطأ في حساب طول السنة (السنة= دورة كاملة للأرض حول الشمس) إذ كانت السنة في التقويم اليولياني تحسب على أنها 365 يومًا و6 ساعات، لكن العلماء لاحظوا أن الأرض تكمل دورتها حول الشمس مرة كل 365 يومًا و5 ساعات و48 دقيقة و46 ثانية أي أقل من

طول السنة السابق حسابها (حسب التقويم اليولياني) بفارق 11 دقيقة و14 ثانية ومجموع هذا الفرق منذ مجمع نيقية عام 325م حتى عام 1582م كان حوالي عشرة أيام، فأمر البابا جريجوري بحذف عشرة أيام من التقويم الميلادي (اليولياني) حتى يقع 25 ديسمبر في موقعه كما كان أيام مجمع نيقية، وسمي هذا التعديل بالتقويم الجريجوري، إذ أصبح يوم 5 أكتوبر 1582م هو يوم 15 أكتوبر في جميع أنحاء إيطاليا.

[←108]

السلوقيون: وهم سلالة هيللينستية ترجع تسميتها إلى مؤسس الأسرة الحاكمة للدولة السلوقية، سلوقس الأول نيكاتور أحد قادة جيش الإسكندر الأكبر، شكلت هذه الدولة إحدى دول ملوك طوائف الإسكندر، التي نشأت بعد موت الإسكندر المقدوني، وخلال القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد حكمت منطقة غرب آسيا، وامتدت من سوريا وتراقيا غربًا وحتى الهند شرقًا، كان للسلوقيين الدور الكبير في تفاعل الحضارة الإغريقية والحضارات الشرقية، وكثيرًا ما ورد ذكر السلوقيين لدى المؤرخين الغربيين كأعداء لروما، خلال ما عرف بالحروب الرومانية السورية في الفترة ما بين (192-188 ق.م) بقيادة أنطيوخوس الثالث الكبير. انظر: حسن حمزة جواد، نشوء الدولة السلوقية وقيامها، أطروحة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1429هـ/2008م، ص39 وما بعدها.

[←109]

البطالسة: عائلة من أصل مقدوني نزحت على مصر بعد وفاة الإسكندر الأكبر سنة 323 ق. م، حيث تولى أحد قادة جيش الإسكندر الأكبر وهو «بطليموس» حكم مصر، الذي جعل الإسكندرية عاصمة لمصر، وظلت أسرة بطليموس تحكم مصر حتى دخلها الرومان في عام 30 ق. م، وآخر حكام البطالسة كانت الملكة كليوباترا وابنها بطليموس الخامس عشر (قيصرون) ابن يوليوس قيصر؛ وقد وصل نفوذ الدولة البطلمية إلى فلسطين، وقبرص وشرق ليبيا، وعرفت ازدهارًا خلال عهود بطليموس الأول وبطليموس الثاني وبطليموس الثالث. لمزيد من التفاصيل عن هذه الدولة انظر الموسوعة العظيمة التي قدمها العلامة الكبير/ إبراهيم نصحي في أربعة مجلدات عن تاريخها السياسي والحضاري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط6، 1988م، ومصطفى العبادي: مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح الإسلامي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2015م، ص29-63.

[←110]

أغسطوس: أول إمبراطور روماني، واسمه گايوس أوكتاڤيوس وهو ابن أخي يوليوس قيصر أحد قادة روما العظام، وقيل هو حفيد أخته، وابنه بالتبني الذي أورثه الجزء الأكبر من ثروته. انظر: مصطفى العبادي: الإمبراطورية الرومانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، 2002م، ص 69 وما بعدها.

[←111]

قسطنطين: هوگايوس فلاڤيوس ڤالريوس أورليوس قنسطنطينوس، ويعرف بقسطنطين الأول والكبير والعظيم، ولد قسطنطين في نايسوس - تقع اليوم في صربيا - عام 272 أو 273م. والده كان الجنرال الروماني قسطنطين كلوروس ووالدته كانت هيلانة.

كان قسطنطين قائدًا بارعًا، وإداريًّا عظيمًا، وسياسيًّا لا يشق له في شئون الحكم غبار، ومن أكبر أخطائه تقسيمه الإمبراطوريّة بين أبنائه؛ لكنه خلد في التاريخ بأعماله المجيدة ومنها بناء القسطنطينية، والاعتراف بالمسيحية في مرسوم ميلان وخلافه. انظر: يوسابيوس القيصري: حياة قسطنطين العظيم ، تعريب/ القمص مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة.

[←112]

بيزنطة: مدينة إغريقية قديمة كانت تقع على مضيق البوسفور بتركيا. أسست عام 658 ق. م. وكانت من قبل قرية للصيادين. أسسها أهل مدينة ميغارا (ميجارا) التي سميت باسم بيزاس ابن نيسوس ملك ميغارا. وفي عام 335م جعلها الإمبراطور قسطنطين عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) وأصبح يطلق عليها القسطنطينية نسبة للإمبراطور قسطنطين مؤسس الإمبراطورية وكان بها مقر بطريركية الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بكنيسة آيا صوفيا (مسجد آيا صوفيا حاليًا). وكان محمد الفاتح العثماني قد فتحها عام 1453م وأطلق عليها (إسلام بول). ثم أطلق عليها العثمانيون الآستانة. وحاليا يطلق عليها اسطنبول، وقد وقع اختيار قسطنطين على بيزنطة لأنه كان معجبًا بموقع المدينة لأن أي هجوم عليها سيأتي فقط من الغرب وذلك لأن الجوانب الثلاثة الأخرى محمية من جهة البحر. وفي العام 337م تم تعميده كمسيحي وفي ذلك الحين كان معماريوه ومهندسوه قد حولوا المدينة

القديمة إلى قلعة جديدة وفخمة. انظر: حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1414هـ/1993م، ص 31-35، ولمزيد من التفاصيل عن مدينة القسطنطينية. انظر: ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ليدن، 1891م، ص 119-123 ؛ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، بيروت، 1964م، ص 344-352.

[←113]

الأكاسرة: لقب كان يُطلق على ملوك الفرس، وربما قيل فيهم الساسانية نسبة إلى جَدهم ساسان بن أردشير، وأولهم أردشير بن بابك وآخرهم يزدجرد، وقد انقرض ملكهم في خلافة عثمان بن عفان.انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تقديم فوزي محمد أمين، الهيئة العامة لقصور= =الثقافة، القاهرة، 2005م، 5/481.

[←114]

قياصرة الروم: لقب أُطْلِق على كلّ الأَباطِرة الرُّومانيِّين، ويقال: إن معنى قيصر بلغة الروم: أي شُقَّ عنه، وذلك أن أول ملوك الروم وهو غاليوس ماتت أمه وهي حامل به فَشُقَّ عنه، فقيل: قيصر. فصار ذلك سمة لمن ملك منهم. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، 5/482، 483. ومنها الولادة القيصرية.

[←115]

جاست: أي ترددت لطلبكم، ومنها قوله تعالى: ﴿ﮕ ﮖ ﮗ﴾ آية 5 سورة الإسراء. أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم لا يخافون أحدًا. انظر: الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة مصر، القاهرة، طـ 1، 1431هـ/2010م، 2/474.

[←116]

مفاوزها: مَفَاوِزُ: صَحَارَى، فَلَوَاتٍ، واحدها: مفازة.

[←117]

ربَض الشَّخصُ في المكان: أقام مُلازِمًا له.

[←118]

صائحة: صيحة المناحة والفزع.

[←119]

طفق يفعل كذا: بدأ في الفعل واستمرّ فيه.

[←120]

الضارية: أي المفترسة والشرسة، يُقال: «حَيَوَانٌ ضَارٍ»: مُفْتَرِسٌ. و«مُقَاوَمَةٌ ضَارِيَةٌ»: شَدِيدَةٌ، شَرِسَةٌ، قَوِيَّةٌ.

[←121]

وادعين: أي مطمئنين، ودع: سكن واطمأن. انظر: ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2003م، مادة ودع.

[←122]

مغمورًا: غير مَعْروف، خامِل الذِّكْر.

[←123]

ساوَرَه مُساوَرَة، وسِوَارًا: واثبه. ويقال: ساورتْهُ الهمومُ والهواجسُ والأفكارُ ونحوُها: صَارعَتْهُ. وسَاوَرَ الشكُّ ونحوه فلانًا: داخَله، صارَعَه.

[←124]

آذانًا واعية: مأخوذة من قوله تعالى في سورة الحاقة ﴿ٹ ڑ ڈ ڤ ڤ ڦ﴾، ومعناها=

=حافظة لما تسمع. انظر: تفسير الجلالين، شركة الشمرلي، القاهرة، سورة الحاقة، آية 12، ص 483.

[←125]

حنيفًا: هي لفظة أخذها المترجم من قوله تعالى: ﴿ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ﴾، وقال الزمخشري: «الحنيف المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق». انظر: الكشاف، 192/1، آية 67 من سورة آل عمران.

[←126]

الأحبارُ من اليهود أي: العلماء، كما قال تعالى: ﴿ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ﴾ المائدة: 63. انظر: تفسير الطبري، دار المعارف، القاهرة، 14/216.

[←127]

مردوا: أي مرَنُوا عليه ودَربوا به، ومنه: «شيطانٌ مارد، ومَرِيد»، وهو الخبيث العاتي. ومنه قيل: «تمرَّد فلان على ربه»، أي: عتَا، ومرنَ على معصيته واعتادها. انظر: تفسير الطبري، آية 101 من سورة التوبة.

[←128]

«الْمُثَابَرَةُ عَلَى العَمَلِ»: الْمُوَاظَبَةُ، الْمُدَاوَمَةُ.

[←129]

أَجَّجَ: أَلهَبَها، أذكاها، زادها اضطرامًا واحتدامًا.

[←130]

جذوة: جَمْرة ملتَهِبَة.

[←131]

التعصب الديني: هو مصطلح لوصف التمييز على أساس الدين، وهو إما بدافع تعصب المرء خاصة تجاه المعتقدات الدينية أو التعصب ضد الآخر، أو معتقداتهم الدينية.

[←132]

أشتاتًا: متفرقين مختلفين.

[←133]

مسلمين: تطلق هذه اللفظة على معان كثيرة، منها المُسَلّم أو المُستسلم أو المُخلِص أو الخاضع، ويراد بكل تلك المصطلحات أن تكون لله، وفي الاصطلاح: المسلم هو الذي يؤدي أركان الإسلام الخمسة ووصفت هذه الأركان بأنها ما يبنى عليه الإسلام فيما صح في الحديث النبوي: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»، وورد في الأحاديث النبوية عدة سمات لوصف المسلم كما روي في مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: المسلم من سلم الناس من لسانه ويده»، وقد أشار القرآن إلى هذا المصطلح على لسان نبي الله إبراهيم في الآية الكريمة: ﴿

﴾ الآية 78 سورة الحج.

[←134]

إلى الناس كافة: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ﴾ سورة سبأ آية 28.

[←135]

شُدِه: دهش بالأمر وتحيَّرَ.

[←136]

أعمدة هرقل: هو الاسم الذي أطلقه الرومان على مضيق جبل طارق الذي يوصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطي جنوب أسبانيا، وهرقل هو بطل الميثولوجيا الإغريقية ويقال إنه شق ذات يوم الصخر لفتح مضيق جبل طارق الذي يبلغ عرضه 15 كم وتشرف عليه الصخرة المقسومة إلى نصفين وكانا يعتبران حدا للعالم القديم؛ وقيل إن البطل الأسطوري اليوناني«هرقل» نصب الأعمدة في رحلته التي قام بها لأسر ثيران غيريون، المسخ ذو الأجسام الثلاثة الذي عاش على جزيرة في الأطلسي.

[←137]

نهر جيحون: نهر تمتد العمارة في جنوبه، وتنعدم في شماله، وعلى جانبيه العديد من المدن والبلدان العامرة، منها خوارزم، ويتفرع منه العديد من الأنهار، وينتهي عند بحيرة كانت تعرف قديما ببحيرة خوارزم، وتسمى الآن بحر آرال. انظر: الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق/ محمد جابر عبدالعال، بدون دار طبع، القاهرة، 1381هـ/1961م، ص170-168.

[←138]

فتح القسطنطينية: تم فتحها في العام 857هـ/1453م على يد محمد الثاني المشهور بالفاتح، لمزيد من التفاصيل عن الفتح وما تبعه انظر: أحمد عبدالرحيم: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط4، 2010م، 65-72؛ محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية، القاهرة، 1414هـ/1994م، ص 48-56؛ عبدالعزيز سليمان نوار: الشعوب الإسلامية في التاريخ الحديث، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ص 46-54؛ فيليب مانسيل: القسطنطينية المدينة التي اشتهاها العالم، ترجمة مصطفى محمد قاسم، عالم المعرفة، الكويت، 2015م، ص23-58؛ حاتم الطحاوي: اقتحام العثمانيين للقسطنطينية شهادة للمؤرخ البيزنطي دوكاس، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، السنة العاشرة، العددان 41، 42، شتاء وربيع 1419هـ/1999م، ص193-230.

[←139]

مِراسهم: مَارَسَ مُمَارَسَةً ومِراسا: عالجه وزاوله وعاناه.

[←140]

الشامسة: أي المعاندة والمستعصية. انظر: الفيومي: المصباح المنير، المطبعة الأميرية، مصر، 1909م، مادة شمس، ص 493، 494.

[←141]

يوليان حاكم سبتة: اختلفوا في أصله هل هو قوطيٌّ إسبانيٌّ؟!! أم روميٌّ؟ أم بربريٌّ مغربيٌّ؟ أم فارسيٌّ؟، ومعروف أن أول معرفة للعرب بيوليان كانت سنة 89هـ/709م عند وصول موسى بن نصير إلى طنجة.

لمزيد من التفاصيل انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس، دار المناهل، بيروت، طـ1، 1423هـ/2002م، ص 115-117.

[←142]

لذريق ملك أسبانيا: وقيل رُزريق آخر ملوك القوط، والذين كان عددهم بالأندلس ستة وثلاثين

ملكًا، وحكموا ثلاثمائة واثنتين وأربعين سنة، ولم يكن لذريق من أبناء الملوك، ولا صحيح النسب في القوط، وإنما اغتصب الملك، وقتل لذريق بعد هزيمته في معركة وادي لكة سنة 92هـ/712م، وقيل في موته غير ذلك انظر: ابن الشباط: وصف الأندلس، تحقيق/ أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، 1967م، 1968م، مجلد 14، ص 103؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، تحقيق ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت، طـ2، 1408هـ/1988م، ص 193، 194.

[←143]

القوط الغربيون: إحدى الشعوب الجرمانية التي هددت الإمبراطورية البيزنطية، وعرفوا بالقوط الغربيين لأنهم اتجهوا إلى الغرب، وكان ذلك محض مصادفة، وإلا فالاسم الحقيقي لهم القوط الأذكياء، وكان القوط عمومًا قد استقروا في القرن الثاني الميلادي شمال البحر الأسود، وهناك انقسموا إلى قسمين: شرقيين وغربيين، فانتشر الشرقيون فوق سهول روسيا الجنوبية، واتجه الغربيون نحو داشيا والبلقان، وقد استفاد القوط من الحضارة الرومانية، واعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسي، ونجح القوط الغربيون في الانتشار في منطقة امتدت من تولوز على نهر الجارون إلى أسبانيا، ومن أشهر حكامهم واليا، وثيودريك الأول، وثيودريك الثاني الذي يعد أقدر حكام القوط. لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 5، 1972م، 1/83-88.

[←144]

القوط الشرقيون: الاسم الحقيقي لهم القوط الساطعون أو الزاهرون، وعرفوا بالشرقيين لتوجههم شرقًا، حيث انتشروا فوق سهول روسيا الجنوبية، ونجحوا في غزو إيطاليا تحت زعامة ملكهم ثيودريك، ولكن عقب وفاة ثيودريك أرسل جستنيان جيشًا إلى إيطاليا نجح في

استردادها من القوط الشرقيين، وانهارت دولة القوط بعد ذلك بسنوات لتختفي تمامًا من مسرح الأحداث. انظر: سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، 1/101-105.

[←145]

القبائل الجرمانية: هم قبائل بربرية انتشروا في القرنين الأول والثاني في أواسط أوربا وشرقيها عبر نهري الراين والدانوب، وكان موطنهم الأول البلاد المحيطة بالبحر البلطي، وكانت أخلاقهم في تلك الفترة مزيجًا من الفضائل والنقائص التي عرفت بها الشعوب البدائية، وانقسم الجرمان إلى ثلاث طبقات: نبلاء وأحرار وعبيد، وقد نجحوا في تكوين إمارات وممالك لهم على حساب الإمبراطورية البيزنطية كمملكة القوط الغربيين، والقوط الشرقيين، والوندال، والهون، والبرجنديين، والفرنجة. انظر: سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، 1/75-109.

[←146]

الكفاف: ما كان كافيًا من الرزق قَدْر الحاجة من غير زيادة أو نُقصان.

[←147]

خلعت العِذار: فعلت فيه بحسب السجية غير مبال ولا مترقب. انظر: ابن زاكور الفاسي: عنوان النفاسة في شرح الحماسة، 1/27.

[←148]

النفس العابثة: أي: اللاهية.

[←149]

مُنة: أي: قُوَّة.

[←150]

يقال: فلانٌ شديد الشكيمة: إذا كان عزيز النفس، لا ينقاد. انظر: الرازي: مختار الصحاح، ترتيب: السيد محمود خاطر، المطبعة الأميرية، القاهرة، طـ 9، 1962م، مادة شكم.

[←151]

بَهَظَهُ الحِمْلُ: أَثْقَلَهُ، أَرْهَقَهُ، شَقَّ عَلَيْهِ.

[←152]

تنال من الغنم شيئًا: أي تنال من المنفعة أو الفائدة شيئًا.

[←153]

هوى إلى هذه الهوة: سقط من أعلى إلى أسفل، والهوة الحفرة. انظر: الفيومي: المصباح المنير، ص 996، 997، مادة هوى.

[←154]

حكم القوط ثلاثمائة واثنتين وأربعين سنة، وليس كما ذكر ستانلي لين بول: «كان للقوط بأسبانيا أكثر من مائتي سنة». انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 193.

[←155]

رزحت: رزح فلان معناه ضعف وذهب ما في يده، وأصله من رزاح الإبل إذا ضعفت ولصقت بالأرض فلم يكن بها نهوض، وقيل: رزح أخذ من المرزح، وهو المطمئن من الأرض، كأنه ضعف عن الارتقاء إلى ما علا منها. ابن منظور: لسان العرب، مادة رزح.

[←156]

قساوسة: قَسٌّ أو قِسِّيس مرتبة كهنوتية في الديانة المسيحية. أسسها يسوع بحسب التقليد المسيحي عندما اختار تلاميذه الاثني عشر ثم السبعين رسولا، والوظيفة الرئيسية للقَسِّ هي التعميد، والوعظ وإرشاد المسيحيين والسماع إلى اعترافاتهم، وأصل الكلمة يرجع إلى اللفظة السريانية «» قشيشا، وتعني: شيخ أو رجل ذو مرتبة عالية، وتقابلها في اليونانية كلمة (إبريسفيتيروس) بمعنى شيخ أيضا، والكاهن يسمى شيخا نظرا لأهمية وظيفته ومكانته وتوقيرا له حتى ولو لم يصل إلى سن الشيخوخة بعد، وهي ثاني الـرتب الكهنوتية المسيحية (أكليروس) وهي تعلو رتبة (الشموسية-شماس) وتعلوها رتبة (الأسقفية-أسقف)، وتنقسم

إلى ثلاث درجات حسب حجم ونطاق الخدمة التي يقدمها القس، وهي مرتبة تصاعديا كالتالي: 1. القس: وهو أحد كهنة الكنيسة.

2. القُمَّص: كبير القسوس في الكنيسة، وكلمة (قمص) مشتقة من كلمة يونانية بمعنى مدير أو مقام.

3. الخورى أبسكوبس: معاون الأسقف (خاصة في القرى)، وكلمة (خوري أبسكوبس) كلمة يونانية معناها أسقف القرى أو الحقول.

[←157]

أصهروا: تزاوجوا.

[←158]

الخَوَل: الخدم. معجم الرائد، مادة خال.

[←159]

فَلَجوا: ظَفِروا.

[←160]

أي: الذين ذهبت دولتهم.

[←161]

يزيد صاحب «أخبار مجموعة» وهو أقدم كتاب في تاريخ الأندلس طبع بمجريط [مدريد]: أن البلاد أصيبت بالمجاعة والوباء قبل الفتح، فمات أكثر مِن نصف سكانها في سنوات 88 و89 و90هـ. [المترجم].

[←162]

عبارة صاحب «أخبار مجموعة»: هلك غيطشة وترك أولادًا لم يرضهم أهل الأندلس، فتراضوا على عِلج يُقال له: لذريق شجاع هَجُوم، ليس من بيتِ الملك، ولكنه من قُوَّادهم. [المترجم].

[←163]

يقول المؤلف: إنه ينقل هذه الرواية دون أن يتعرض لتأييد صدقها، وإذا كان ما يختص بفلورندا منها خياليا، فإن ما يختص بيوليان حق لا شك فيه. [المترجم].

[←164]

عن قصة فلورندا ابنة يوليان وما وقع لها على يد لذريق انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 7، 8.

[←165]

يقصد الملك غيطشة، وهو أحد ملوك القوط الغربيين، تولى الحكم سنة 77هـ، وملك خمس عشرة سنة حتى مات، واغتصب لذريق الحكم من بعده حيث كان أثيرًا لديه، فاستصغر أولاد غيطشة، واستمال طائفة من الرجال وانتزع الملك. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 6.

[←166]

أَصَاخَ له وإِليه يُصِيخ إِصاخَةً: اسْتَمَعَ وأَنصَتَ لِصَوته. انظر: الزَّبيدى: تاج العروس، مادة صيخ.

[←167]

يقال: ختل: خادع عن غفلة.انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ختل.

[←168]

الكونت: ويقال أيضا الكند وقنط، وهو لقب أطلق على النبلاء أو الشخصيات ذات الثراء والمركز الاجتماعي المرموق في أوربا العصور الوسطى، حيث استعمل هذا اللقب منذ أواخر عصر الإمبراطورية الرومانية باشتقاقه من مصطلح Comes أو باللاتينية comitis ويعني «الرفقة الإمبراطورية» أو «الحاشية»، وحقيقة عمله أن يكون أمير منطقة داخلية.

[←169]

البُزاة المعلمة: واحدها البَازِي، وهي من ضروب الصقور التي تصيد. انظر: الرازي: مختار الصحاح، مادة بزا.

[←170]

موسى بن نصير: هو أبوعبد الرحمن موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد البلوي مولى امرأة من لخم(لهذا غلـب مسمى اللخمي على البلوي)، وقيل: إنه مولى لبني أمية، سبي أبوه من جبل الخليل بالشام في زمن أبي بكر الصديق، واسمه نصر، فصغر، وأعتقه بعض بني أمية، فرجع إلى الشام، وولد له موسى بقرية يقال لها: «كفر مثرى». ولي موسى بن نصير غزو البحر في عهد معاوية بن أبي سفيان، فغزا قبرص، وبنى بها حصونًا، وخدم بني مروان ونبه شأنه، وولي لهم الأعمال، فكان على خراج البصرة في عهد الحجاج، وشارك في فتح المغرب والأندلس وتوطيد الحكم الإسلامي بهما، وتختلف الروايات حول نهاية حياة موسى والرواية المشهورة أن الخليفة الوليد كان قد مرض وثقل عليه الداء فأرسل سليمان بن عبد الملك، ولي العهد، إلى موسى يأمره بالتريث في دخول دمشق حتى يموت الوليد ويتولى هو مقاليد الخلافة، فيكون له فخر استقبال الموكب الظافر. إلا= =أن موسى لم يجبه إلى طلبه وواصل السير حتى دخل دمشق سنة 96هـ والوليد في مرض موته، فأحسن وفادة موسى ثم مات بعد أيام. وكان هذا سبب حقد سليمان على موسى، وأراد أن ينتقم منه لما أصبح خليفة ـ وقيل عذّبه ـ ثم عفا عنه وقرّبه من مجلسه، وكانت وفاته بوادي القرى وقيل بمرّ الظهران وهو في طريقه إلى الحج برفقة الخليفة سليمان بن عبد الملك. وقيل كانت وفاته في المدينة المنورة. عنه بالتفصيل. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 4/497-501؛ إبراهيم العدوي: موسى بن نصير، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، 1967م.

[←171]

الأُوارُ، بِالضَّمِّ: شدَّةُ حَرِّ الشَّمْسِ وَلَفْحُ النَّارِ وَوَهَجُهَا والعطشُ، وَقِيلَ: الدُّخان واللَّهَبُ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة أور.

[←172]

وضعت أوزارها: مأخوذة من قوله تعالى في سورة محمد ﴿گ گ گ گ﴾، ومعناها وضع أهل الحرب أثقالهم من السلاح وغيره وخضوعهم للطرف المنتصر. انظر: تفسير الجلالين، سورة محمد من الآية 4، ص 427.

[←173]

الخليفة بدمشق: هو الوليد بن عبدالملك بن مروان بن الحكم الأموي، بويع بعهد من أبيه، وكان مترفا، دميما، سائل الأنف، طويلا أسمر، بوجهه أثر جدري، في عنفقته شيب، يتبختر في مشيه، وكان قليل العلم، نهمته في البناء. افتتح الهند والأندلس، مات في جمادى الآخرة سنة ست وتسعين. وله إحدى وخمسون سنة. وكان في الخلافة عشر سنين سوى أربعة أشهر، وقبره بباب الصغير. وقام بعده أخوه سليمان بعهد له من أبيهما عبد الملك. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، 4/338 وما بعدها.

[←174]

هو أبو زرعة طريف بن مالك المعافري، أول من نزل الأندلس في منطقة عرفت باسمه فيما بعد. انظر: ابن الكردبوس: الاكتفا في أخبار الخلفاء، تحقيق/ عبدالقادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1/292.

[←175]

الجزيرة الخضراء: يقال لها جزيرة أم حكيم، وهي جارية طارق بن زياد، وكان حملها معه فخلفها بالجزيرة فعرفت باسمها، وعلى مرسى أم حكيم مدينة الجزيرة الخضراء التي تقع شرقي شذونة وقبلي قرطبة، على ربوة مشرفة على البحر وسورها متصل به. لمزيد من التفاصيل انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص 73-75.

[←176]

ثورة البشكنس: ثورة قام بها سكان نافارا في أقصى شمال أسبانيا، ويعرف حاليا باسم إقليم الباسك، وهو إقليم ضخم يمتد عبر جبال البيرينييه الغربية على الحدود ما بين فرنسا وأسبانيا، وتبلغ مساحته حوالي 20 ألف كم^2. ويمتد الإقليم حتى شاطئ خليج البسكاي. وشعب الباسك يتحدثون لغتهم الخاصة بهم التي تعرف بالباسكية. وهي من أصعب اللغات بالعالم، ومن أهم مدن الإقليم مدينة بلباو وسان سباستيان وبامبلونا.

[←177]

اختلف في أصل طارق بن زياد فقيل فارسي وقيل عربي وقيل بربري، وهو أحد أبرز قادة الفتح الإسلامي للأندلس، وباسمه عرف مضيق جبل طارق، وذكر المقري أنه كان ضخم الهامة وعلى كتفه الأيسر شامة. انظر ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص 232 وما بعدها، ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: كولات وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 2/6. المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، 1/119.

[←178]

وادي بكة: عرف بذلك نسبة إلى بلدة صغيرة بهذا الموضع سماها العرب «بكة»، ومن ثم أطلق عليه وادي بكة أو لكة. انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 71.

[←179]

وادي لكة: موضع من أرض الجزيرة الخضراء بساحل الأندلس القبلي، التقى فيه طارق بن زياد بلذريق آخر ملوك القوط، والذين كان عددهم بالأندلس ستة وثلاثين ملكًا. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 193.

[←180]

في «أخبار مجموعة»: أن التقاء الجيشين كان بمكان يُقال له البحيرة. [المترجم].

[←181]

طِلَسْمًا: الطلسم هو خطوط وكتابات لا تحتوي على معنى واضح ومفهوم يستخدمها السحرة أو أتباع بعض المعتقدات وتكون تعويذة ما يُزعم أنها تدفع كل مؤذ أو تجلب الحظ السعيد. الطلاسم عادة تكون كتابة على ورق لكن أحيانًا قد تشمل أحجارًا عليها نقوش أو رموز صلبة أو خرز وكذلك قد تشمل ما يسمى الحرز.

[←182]

قيصر الأكبر: قال القلقشندى: «كان يقال لكل من ملك منهم قيصر وأصل هذه اللفظة في اللغة الرومية جاشر بجيم وشين معجمة فعربتها العرب قيصر ولها في لغتهم معنيان أحدهما الشعر والثاني الشيء المشقوق، واختلف في أول من تلقب بهذا اللقب منهم فقيل أغانيوش أول ملوك الطبقة الثانية منهم سمي بذلك لأن أمه ماتت وهو حمل في بطنها فشق جوفها وأخرج فأطلق عليه هذا اللفظ أخذا من معنى الشق ثم صار علما على كل من ملكهم بعده وقيل أول من لقب بذلك يوليوش الذي ملك بعد أغانيوش المذكور وقيل أول من لقب به أغشطش واختلف في سبب تسميته بذلك فقيل لأن أمه ماتت وهو في جوفها فشق عنه وأخرج كما تقدم القول في أغانيوش وقيل لأنه ولد وله شعر تام فلقب بذلك أخذا من معنى الشعر كما تقدم». انظر: صبح الأعشى، 5/482، 483.

[←183]

مَهاوٍ سحيقة: عميقة لا قعر لها.

[←184]

بعد لَأْي: بعد شدّة وجُهْد وحاجة إلى النَّاس.

[←185]

بالقِسِيِّ: واحِدُها: قَوْس.

[←186]

الأرعن: أَهْوَج في منطقه، متسرِّع في جهل وحمق.

[←187]

لم أقرأ خرافةَ تحرُّك التمثالِ وسماعِ أصوات الحرب ولَجبها وتحرُّك الصور المرسومة في الرَّق فيما كتبه العربُ عن هذه الأسطورة. [المترجم].

[←188]

صليل الرماح: صوت اصْطِدام وارْتِطام وقرْع عنيف، قعقعة.

[←189]

أنين: التَّأوُّه أَلَمًا، صَوْت المُتَوجِّع المُتَشَكّي بهَمس غير مفهوم.

[←190]

وآض رمادًا: (آضَ) يَئِيضُ (أَيْضًا) (أَيْ) عَادَ، وصَارَ. انظر: الرازى: مختار الصحاح، مادة أيض.

[←191]

عن هذه الرواية في المصادر العربية انظر: ابن الشباط: وصف الأندلس، ص 103، 104؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، 130، 131.

[←192]

ذكر ابن القوطية ذلك بقوله: «فلما دخل طارق السفن مع أصحابه غلبته عينه فكان يرى في نومه النبي وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي فيمر النبي عليه السلام بطارق فيقول له: تقدم لشأنك، ونظر طارق في نومه إلى النبي وأصحابه حتى دخلوا الأندلس. فاستبشر وبشر أصحابه» انظر: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق/ إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة – بيروت، ط2، 1410هـ/1989م، ص 34؛ وقريبًا من هذه الرواية وجدنا ذكرًا لهذه الحادثة عند ابن الشباط انظر: وصف الأندلس، ص 142.

[←193]

في «أخبار مجموعة»: فقال بعضهم لبعض: هذا ابنُ الخبيثة قد غلَب على سلطاننا وليس من أهله، وإنما كان من سِفالِنا، وهؤلاء قوم لا حاجة لهم باستيطان بلدنا، إنما يريدون أن يملئوا أيديهم ثم يخرجوا عنا، فانهزِموا بنا إذا لَقِينا القوم. وكان لذريق قد ولى شيشبرت مَيْمَنته وأية مَيْسَرته، وهما ابنا الملك غيطشة. [المترجم].

[←194]

الجيش اللُّهام: أي العظيم. كأَنَّه يلتهم كلَّ شيء.

[←195]

وهذا نص خطبة طارق بن زياد كما أوردها ابن خلكان: «أيها الناس! أين المفر؟ والبحر من ورائكم والعدو أمامكم، فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما ستحصلونه من أيدي أعدائكم. وإن امتدت بكم الأيام ـ على افتقاركم ـ ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم، إن سمحتم بأنفسكم للموت، وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص مباع فيها النفوس أبدأ فيها بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فيما حظكم فيه أوفر من حظي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد= =انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ويكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون». انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1398هـ/1978م، 2/177 ـ 178.

[196←]

ذكر ابن الشباط أن لذريق أفلت من المعركة إلى موقع يقال له السواقي ثم قال: «فيقال إنه قتل وهو لا يُعرَف، وقيل أيضا إنه أراد الاستتار بستر الوادي فغرق فيه وهلك، ووجد في ذلك المكان خُف منظوم بالدر والياقوت قد سقط من رجله». انظر: وصف الأندلس، ص 107.

وذكر صاحب كتاب الإمامة والسياسة أن طارقًا احتز رأس لذريق بعد انتصاره في معركة وادي لكة وأرسل بها إلى موسى بن نصير مع ابنه فأرسلها موسى إلى الوليد. انظر: الإمامة والسياسة، 2/75؛ وقد ذكرت بعض الحوليات الإسبانية أن قبر لذريق في مدينة بازو، وهو ما انتقده العلامة الكبير حسين مؤنس. انظر: فجر الأندلس، ص 68 وما بعدها.

[←197]

الملك الإنجليزي آرثر: أحد أهم الرموز الميثولوجية في بريطانيا العظمى حيث يمثل الملكية العادلة في الحرب والسلم، ويشكل الشخصية المحورية في دائرة الأساطير المعروفة باسم الحالة البريطانية. هناك خلاف بشأن وجود آرثر، أو نموذج حقيقي له. وفي الإشارات الأولى والنصوص الويلزية، لم يُعط آرثر أبدًا لقب «ملك»، حيث تشير النصوص المبكرة إليه على أنه قائد حرب باللاتينية: dux bellorum، ثم أصبحت النصوص الويلزية في القرون الوسطى تشير إليه غالبًا بلقب ameraudur المستعارة من الكلمة اللاتينية imperator والتي تعني «قائد حرب».

[←198]

أَوْبَته: عودته.

[←199]

عن مقولة موسى بن نصير للخليفة الوليد بشأن الفتح وأخباره: انظر: ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، 2/126.

[←200]

الخائرة: شديدة التعب.

[←201]

القائد المجدود: العظيم الحظ، انظر: الرازي: مختار الصحاح، مادة جدد.

[←202]

عن حسد موسى بن نصير لطارق بن زياد وما ورد بخصوص هذا الشأن. انظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 35.

[←203]

هو مغيث بن الحارث بن الحُوَيْرِث بن جَبَلَة بن الأيْهَم الغَسّاني مولى عبدالملك بن مروان، وهو أحد القادة الذين شاركوا في فتح الأندلس، سبي من الروم بالمشرق وهو صغير فأدبه عبد الملك ابن مروان مع ولده الوليد وأنجب في الولادة وصار منه بنو مغيث الذين نجبوا في قرطبة وسادوا وعظم بيتهم وتفرعت دوحتهم وكان منهم عبد الرحمن بن مغيث حاجب عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس وغيره. انظر: المقري: نفح الطيب، 3/12.

[←204]

سنابك الخيل: حوافر الخيل.

[←205]

منيرًا وهاجًا: مضيئًا متوهجًا.

[←206]

أُرشُذُونة: تقع قبلي قرطبة في نواحيها عيون غِزار وأنهار كِبار، من مدنها مدينة مالقة، وبينهما ثمانية وعشرون ميلًا، انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 12.

[←207]

مَالَقة: مدينة على شاطىء البحر كثيرة الديار بها شجر التين من جميع جهاتها، وهو من أحسن التين وأطيبه وأجوده، ولي قضاءها المحدِّث والفقيه الشهير ابن حوط الله الظاهري، بينها وبين أُرشذونة ثمانية وعشرون ميلًا، انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 178، 179.

[←208]

إلبِيرَة: من كُوَر الأندلس الجليلة القدر، نزلها جند دمشق، وكثير من موالي عبدالرحمن الداخل، وهو الذي أسَّسها، وحولها أنهار كثيرة، وبينها

وبين غرناطة ستة أميال، وكان نزول عبدالرحمن الداخل بساحل إلبيرة حين عبوره إلى الأندلس، انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 29، 30.

[←209]

تُدمير: هو تدمير بن عبدوس الذي صالح عبدالعزيز بن موسى بن نصير على أداء الجزية، وعلى التنازل عن سبعة مواضع منها حصن أوريولة والذي كان قاعدة تدمير. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 34.

[←210]

مُرْسِية: قاعدة تدمير، بناها الأمير عبدالرحمن بن الحكم، واتخذت دارًا للعمال، وهي على نهر كبير يسقي جميعها، وهي كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمار. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 182.

[←211]

أُورِيُولَة: حصن بالأندلس وهو من كور تُدمير، وهي مدينة قديمة أزلية، كانت قاعدة للعجم، ومعناها باللاتينية «الذهبية»، وولي قضاءها الفقيه المالكي خصم ابن حزم اللدود أبو الوليد الباجي. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 34.

[←212]

دغش الشفق: دخل في الظَّلام، (الشَّفَقُ) بَقِيَّةُ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَحُمْرَتُهَا فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الْعَتَمَةِ. انظر: الرازي: مختار الصحاح، مادة شفق.

[←213]

عن قول تدمير للقائد المسلم انظر: المَقَّري: نفح الطيب، 1/264 ؛ عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 64.

[←214]

عن هذه الرواية انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، 2/11.

[←215]

طُلَيطُلَة: هي مركز جميع بلاد الأندلس، كانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق، وقيل إن اسمها باللاتيني «تولاظو» ومعناه فرح ساكنوها، وذلك لحصانتها ومنعتها. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 130-135.

[←216]

أُشتورش (أستورياس): حصن من أعمال وادي الحجارة بالأندلس. انظر: البغدادي: مراصد

الاطلاع، تحقيق/ علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م، 1/71، ومن هذا الإقليم أو الحصن انطلقت حركة الاسترداد المسيحي ضد المسلمين بالأندلس أو حركة المقاومة المسيحية ضد مسلمي الأندلس؛ ومن الدراسات الحديثة التي نوقشت بمصر حول إقليم أشتوريش أطروحتا الماجستير والدكتوراه للدكتور عبد المحسن طه رمضان واللتان دمجهما معًا في كتاب تحت عنوان: «الحروب الصليبية في الأندلس ميلادها وتطورها حتى القرن العاشر»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2001م.

[←217]

المُطَّرِد: أي المُتَواصِل غير المتكاسل.

[←218]

قَرمُونَة: مدينة شرق إشبيلية وغرب قرطبة. انظر: ابن الشباط:وصف الأندلس، ص 110.

[←219]

إشبيلية: من أعظم مدن الأندلس، ولها كورة جليلة، وتطل على النهر الهابط إليها من قرطبة. سميت بذلك نسبة إلى إشبان بن طيطش أحد الملاك الإشبيليين، وقيل نسبة إلى إشمالي ومعناه المدينة المنبسطة. انظر: العذري: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، 1965م، ص 95؛ ابن الشباط: وصف الأندلس، ص 110، 111.

[←220]

مَارِدَة: مدينة بجوفي قرطبة، يقال ملكها سبعة وعشرون ملكًا منهم ذو القرنين، ويقال إنها كانت لماردة بنت هَرسُوس، ويقال لها دار الطبيخ، وعند افتتاح الأندلس وُجِد في كنائس ماردة ما وقع إليها من ذخائر بيت المقدس عند انتهاب بُخت نَصر لإيلياء، والمسافة من ماردة إلى بَطَلَيَوس عشرون ميلًا. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 175-177.

[←221]

أعتقد أن هذه الحادثة غير صحيحة وإن تواترت كتب التاريخ على نقلها. وأغلب الظن أنها من وضع العباسيين. [المترجم].

عن مآل موسى بن نصير وتنكيبه وتغريمه وزَجِّ الخليفة به في السجن ثم عفو الخليفة عنه وحجه مع الخليفة في موسم الحج من سنة 98هـ. انظر: ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، 2/82، 83؛ ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 36؛ ابن عذاري: البيان المغرب، 1/45؛ المقري: نفح الطيب، 1/133؛ حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 101؛ سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999م، 1/259-262.

[←222]

ويقال لها البرينات أيضًا. [المترجم].

[←223]

توفي موسى مغضوبًا عليه من الخليفة سنة 97هـ [المترجم].

[←224]

هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، استشهد في سنة 114هـ سنة 732م بموقعة بلاط الشهداء. [المترجم].

[←225]

الغال: هو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي يسكنها الغاليون وهم شعوب كلتية كانت تمتد على شمال إيطاليا وفرنسا وبلجيكا. كان الغاليّون رجال حرب، لكنهم لم يكونوا أندادًا للرومانيين المتدربين تدريبًا عاليًا. فهزم الرومانيون الغاليين في إيطاليا في القرن

الثالث قبل الميلاد، وأدخلوهم ضمن رعايا روما. ثم بدأت الغارات الرومانية تتوالى على غال سيسالبين. ونجح الرومانيون خلال القرن الثاني قبل الميلاد في السيطرة على الشريط الغالي المطل على البحر الأبيض المتوسط. والآن يُسمى هذا الإقليم بروفِنس. لم يسيطر الرومانيون على جميع دولة الغال إلا في عصر يوليوس قيصر، بين عامي 51- 58 ق.م، وقد قسّم الإمبراطور أوغسطس بلاد الغال إلى أربع مناطق بهدف سهولة إدارتها. واستمر هذا التقسيم 400 سنة. وقد عانت بلاد الغال فيما بعد من الحروب الأهلية والغارات، وكان الفرنكيون على رأس المغيرين، الذين قدموا في نهاية القرن الخامس الميلادي. ومنذ ذلك التاريخ سُمِّيت معظم بلاد الغال فرنسا على اسم الفرنكيين. انظر: البكري: جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، دار الإرشاد للطباعة والنشر، 1968م، ص 59؛ فشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، دار المعارف بمصر، ط6،= =ص 72، 73؛ سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، 1/197 وما بعدها.

[←226]

قرقشونة: مدينة فرنسية تقع على نهر الأود، جنوب فرنسا بالقرب من حدود أسبانيا الشمالية تتميز بحصنها القديم الذي يعود إلى ما قبل العصور الوسطى، فتحها المسلمون بقيادة عنبسة بن سحيم الكلبي سنة 713م، وظلت في أيديهم حتى سنة 759م. عنها انظر: البكري: جغرافية الأندلس وأوربا، ص 60؛ شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

[←227]

أَربُونَة: مدينة من مدن الأندلس وثغورها مما يلي نصارى الشمال. الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 11، 12.

[←228]

أقيتانية: أو أقطانية أو أكويتانيا مقاطعة في الجنوب الغربي من فرنسا، تقع بين نهر اللواء والجارون والرون وخليج بسكاي، وكان الرومان قد أخضعوها سنة 56 ق.م، واستولى عليها القوط الغربيون عام 418م، من أهم مدنها بواتيه وبوردو وطولوز. انظر: إينهارد: سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، دار حسان، دمشق، 1410هـ/1989م، ص 47 هامش 3.

[←229]

طلوشة: مدينة فرنسية عرفها الأندلسيون باسم طولوشة وباللهجة المحلية تسمى طولوزة، تقع في جنوب غرب فرنسا بالقرب من الحدود الإسبانية، على ضفاف نهر غارون.

[←230]

بونة: لعلها بَيُونَة وهي مدينة في بلاد الروم على ساحل البحر وهي بالقرب من مدينة طُودَة. الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص 61.

[←231]

مدينة سان: لعلها سان ترويز التي تقع في مقاطعة بروفانس، وأشار إليها المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون، وذكر سيطرة المسلمين عليها في عام 889م. انظر: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م، ص 316.

أو سان بول المعروفة بالثلاثة قصور والتى خربتها قوات عقبة بن الحجاج السلولي والي الأندلس في عهد الخليفة هشام بن عبدالملك. انظر: منى حسن محمود: المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م، ص 152.

[←232]

أفينون: مدينة فرنسية جنوب شرق فرنسا. تشتهر بقصر البابوات حيث عاش العديد من البابوات والبابوات المزيفين منذ أوائل القرن الرابع عشر إلى بدايات القرن الخامس عشر.

[←233]

طَركُونَة: قاعدة من قواعد العمالقة بينها وبين لاردة خمسون ميلًا، وقيل إن معناها باللسان اللاتيني «الأرض المشبهة بالمجنة». انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 125، 126.

[←234]

شارل بن بيبين: هو شارل مارتل بن بيبين الثاني، كان اسميًّا ناظرًا للقصر (رئيس البلاط) ودوق أوستراسيا، وكانت غالة كلها تحت سلطان

كلوتير الرابع (717-719م) وثيودوريك الرابع ملك فرنسا (721-737م) ومعنى اسمه «شارل المطرقة» وهو مؤسس الإمبراطورية الكارولينجية. انتصر على والي الأندلس عبد الرحمن الغافقي في معركة بلاط الشهداء، 114هـ/732م. انظر: إينهارد: سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، ص 47-51.

[←235]

مدينة تور: مدينة فرنسية تقع على بعد 206 كم من باريس، استولى عليها القوط الغربيون في القرن الخامس الميلادي، واستولى عليها الفرنجة في القرن السادس الميلادي، ودارت معركة بلاط الشهداء على مسافة 48 كم منها، وذكر الحميري أنها: «من أشرف مدائن إفرنجية». انظر: الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1980م، ص 391.

[←236]

بروفانس: مدينة فرنسية تقع في الجنوب الشرقي من فرنسا بالقرب من مدينة مرسيليا، وقد سيطر عليها المسلمون ودامت إقامتهم بها إلى نهاية القرن العاشر الميلادي. انظر: غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص 316.

[←237]

قارلة (شارلمان): شارلمان بالفرنسية: Charlemagne أو كارل الكبير بالألمانية : Karl der Große وسماه العرب قارلة عاش من 742-814م ملك الفرنجة بين عامي (768-800م) وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين عامي (800- 814م). والابن الأكبر للملك بيبين الثالث من سلالة الكارولينجيين. ويعتبر بيبين القصير (751-768م) مؤسس حكم أسرة الكارولنجيين في حين يعتبر ابنه شارلمان أعظم ملوكها، وهو أول إمبراطور روماني مقدس. عنه بالتفصيل انظر: إينهارد: سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون.

[←238]

أول أمير أموي: هو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك المعروف بالداخل. أسس الدولة الأموية التي حكمت الأندلس من سنة

138هـ/757م حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس سنة 422هـ. لمزيد من التفاصيل عنه انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، تحقيق/ روحية عبدالرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ/1997م، ص 15.

[←239]

هم: سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي حاكم برشلونة، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري، وأبو الأسود بن يوسف. [المترجم].

[←240]

السكسون: هم أفراد القبائل الجرمانية التي استقرت في إنجلترا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وهم قوم مولعون بالحرب وقد وقعت بينهم وبين مملكة الفرنجة العديد من الحروب. انظر: إينهارد: سيرة شارلمان، ص 65-73.

[←241]

سَرَقُسطَة: تقع في شرق الأندلس وهي المدينة البيضاء لأن أسوارها القديمة من حجر الرخام الأبيض، اسمها مشتق من اسم قيصر، وهو الذي بناها، وتقع على خمسة أنهار، ومسجدها الجامع بناه التابعي حنش بن عبدالله الصنعاني. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 96-99.

[←242]

يسميه العرب باب الشزري. [المترجم].

[←243]

رولند الشجاع أو رولاند: قائد عسكري فرنجي في جيوش شارلمان، يعد أحد الشخصيات الرئيسية في النتاج الأدبي الذي يعرف بمسألة فرنسا. كان رولاند حاكمًا للثغر البريتوني أحد الثغور المكلّفة بحماية إمبراطورية الفرنجة من هجمات البريتانيين. اشتهر رولاند بدوره في معركة ممر رونسفال التي لقي فيها مصرعه، وكانت قصة مقتله مادة خصبة لأدب القرون الوسطى وأدب عصر النهضة، فكان الشخصية الأبرز وقائد فرسان شارلمان في الملحمة الشعرية الفرنسية القديمة «نشيد

رولاند» التي ترجع للقرن الحادي عشر الميلادي. كما كان من الشخصيات الرئيسة في القطعتين الشعريتين الإيطاليتين العائدتين لعصر النهضة «أورلاندو إناموراتو» و«أورلاندو فوريوسو». انظر: شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، مصر، ص 120-122؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م، 1/178؛ أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، 1984م، ص 33؛ منى حسن محمود: المسلمون في الأندلس، ص 181.

[←244]

في طبعة دار المعارف: اليقين، والصواب ما أثبتناه، والقَيْن: الحَدَّاد. اللسان، مادة: قين.

[←245]

ثرموبيلي: شِعب ضيق في بلاد اليونان، بين جبل أوتا والبحر، اشتهر بالدفاع البائس الذي قام به ملك الإسبرطيين ليونيداس، ومعه ثلثمائة جندي حينما وثب جيش الفرس على اليونان في سنة 480 ق. م. [المترجم].

[←246]

بُلَهْنِيَةُ: الرّخاء وسَعَة العَيْش. انظر: المعجم الوسيط.

[←247]

جليقية (غاليسية): بلد الجلالقة وهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وجليقية تلي المغرب وتنحرف إلى الجوف، والغالب على أرضها الرمل، وتنتهي أحوازها في الجوف إلى البحر المحيط، وفي القبلة إلى أحواز مدينة طلسونة، وقاعدتهم مدينة أفش. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 66، 67.

[←248]

لِيُون: قاعدة من قواعد قشتالة، بها معاملات وتجارات ومكاسب، وأهلها أصحاب همة ونفاسة. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص

.174

[249←]

قَشتَالَة: من الأعمال الأندلسية تقع إلى الشمال من جبل الشارات. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 161.

[←250]

غسقونية: أو بسكونية على المحيط الأطلنطي، وكانت هي نهاية فتوحات طارق بن زياد. انظر: محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 1/51.

[←251]

الشارات: الجبال. [المترجم].

[←252]

قُلُمرِية: من بلاد برتغال، وهي على جبل مستدير، وتقع على نهر، وبينها وبين البحر اثنا عشر ميلًا. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 164.

[←253]

ذكر ابن أبي الفياض أن جزيرة الأندلس ملكها بعد الطوفان قوم يقال لهم الأندلس، وبهم سميت الأندلس، وقريبا من ذلك ذهب الرازي. انظر: ابن الشباط: وصف الأندلس، ص 100؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 4، 5؛ ولعل ابن أبي الفياض يقصد بالقوم الوندال أو الواندالوس الذين نزلوا أسبانيا سنة 409م ثم خرجوا منها، ولما افتتح العرب أسبانيا عربوا اسم أندالوسيا إلى أندلس وأطلقوه على جميع البلاد التي خضعت لسلطانهم.

[←254]

عن احتفاظ الإسبان بشرائعهم وقضاتهم انظر: R.Altamira , Ahistory of Spain from the beginning to the present Dar, translated by muna lee, london, ed.1,1949, p.131.c f. arnaldez, Grammaire et theologie chez ibn hazm, p.9,10 ؛ عبادة كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، ط1، 1993م، ص 84 وما بعدها، عبدالباقي السيد: ==ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي، ص 325.

[←255]

الجزية والخراج: الجزية ضريبة يؤديها أهل الذمة مقابل حمايتهم وإعفائهم من الخدمة في الجيش، وكانت تقدر حسب مذهب مالك بأربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعين درهمًا على أهل الفضة، ولا يزاد عليهم وإن أيسروا، ويعفى منها النساء والصبيان والشيوخ والزمنى والرهبان. انظر: الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق/ أحمد مبارك البغدادي، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1409هـ/1989م، ص 181-186؛ ابن رشد، البيان والتحصيل، تحقيق أحمد الشرقاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1404هـ/1984م، 4/179.

والخراج في اللغة: من خرج يخرج خروجًا بمعنى: برز؛ وأصله ما يخرج من الأرض، ويطلق على الأجرة، ومنه قوله تعالى: ﴿ ﴾ [سورة المؤمنون: آية 72]، ويطلق على الإتاوة أو الضريبة التي تؤخذ من أموال الناس على الغلّة الحاصلة من الشيء، كغلة الدار أو الدابة أو العبد.

والخراج في اصطلاح الفقهاء له معنيان خاص وعام: أما المعنى العام فهو: الأموال التي تتولى الدولة جبايتها وصرفها في مصارفها، كالجزية وغيرها. وأما المعنى الخاص فهو: «الضريبة» التي يفرضها إمام المسلمين على الأرض الخراجية النامية. وتسمى الأرض التي يفرض عليها الخراج أرضًا خراجية.

والأرض قسمان: صلح وعَنوة: فأما الصلح فهو: كل أرض فتحها المسلمون صلحًا، وصالحوا أهلها عليها لتكون لهم، ويؤدون خراجًا معلومًا كل سنة، فهذه الأرض ملك لأربابها، وهذا الخراج في حكم الجزية، فمتى أسلم أهل الأرض سقط الخراج عنهم، ولهم بيعها ورهنها وهبتها لأنها ملك لهم.

والقسم الثاني: ما فتحه المسلمون عَنوة ـ أي بالسيف ـ ولم تقسم بين الغانمين، فهذه تصير للمسلمين، يضرب الحاكم عليها خراجًا معلومًا يؤخذ في كل عام، وتقر في أيدي أربابها ما داموا يؤدون خراجها، سواء كانوا مسلمين أو من أهل الذمة، ولا يسقط خراجها بإسلام أربابها ولا بانتقالها إلى مسلم، بل إذا أسلم أهلها أو انتقلت إلى مسلم يجتمع مع الخراج أيضًا عشر ما تخرج، زكاة عليها، ولا يمنع أحدهما وجوب الآخر، وهو قول أكثر الفقهاء، وأول من وظف الخراج هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما فتحت العراق، حيث اجتهد مع الصحابة، ولم تقسم بين الفاتحين وضرب عليها الخراج، وكذلك سائر ما فتح في عصره، كأرض الشام ومصر وغيرها، لم يقسم منها شيء، وضرب عليها الخراج. انظر: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 186-200؛ محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، مكتبة التراث، القاهرة، ط5، 1985م،==ص 116-

123؛ عبدالباقي السيد: كتاب الإمامة والسياسة لابن حزم الظاهري وأثره في الحضارة الإسلامية، ص 198، 199. دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2018م،

وفيما يخص الأندلس فلا بد أن نعود إلى الوراء قليلا حيث إتمام الفتح على يد موسى بن نصير الذي قام بتخميس جزء بسيط من أرض الأندلس وهو الأراضي الواقعة جنوب الوادي الكبير، فجعل أربعة أخماس تلك الأراضي بأيدي من شارك في عملية الفتح، والخمس ملكًا للدولة، يقوم بزراعته البعض، واعتُبِروا زرَّاع أرض الدولة، وأطلق عليهم الأخماس، وأطلق على أبنائهم بني الأخماس، وطبق هذا الحكم على الأراضي الواقعة بين الوادي الكبير ووادي آنه، وما بين هذا النهر والمحيط الأطلنطي، فيما عدا شنترين وقلنبرية ومدينة شية -مدينة صغيرة تقع في الجنوب الشرقي-، وهي المدن التي استسلم أهلها للمسلمين، وبذلك لم يجر عليها حكم العنوة. وأما الأراضي الواقعة شمال الوادي الكبير فقد فتحت صلحا، وأخذ أهلها عهودا بذلك تقرر فيها ما عليهم من مال تجاه الدولة. انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 631-634؛ عبدالباقي السيد: كتاب الإمامة والسياسة، لابن حزم، ص 198، 199.

[←256]

يُقال: إنه من قرطبة، ذكره دوزي فقال: إنه كان قِسِّيسًا ولكن كتابته لا تدل على سخط شديد فهو يروي مثلا: أن امرأة الملك لذريق تزوجت بعبد العزيز بن موسى بن نصير، ولا يجد في ذلك إثمًا كما كان يفعل غيره من القسيسين، ثم قال دوزي: إن كراهية إيزيدور للعرب إنما كانت لأنهم شعب غريب لا من أجل أعمالهم. [المترجم].

[←257]

أغرته زوجه أن يلبس تاجًا فثار عليه العرب وقالوا إنه تنصر فقتلوه سنة 98هـ [المترجم].

[←258]

الحديث: أخرجه مسلم في الأيمان والنذور باب إطعام المملوك مما يأكل رقم 1661، وهذا نصه: «عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلاَمِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ

بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

[← 259]

الحديث: أخرجه مسلم في كتاب الأيمان ، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده، حديث رقم 1659، وهذا نص الحديث: «عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي، «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا».

[← 260]

تسلم: دخل في الإسلام. ويُقال كان كافرًا فتسَلَّم، ومؤلفو تاريخ الأندلس يُسَمُّون من دخل في الإسلام: إسلاميا. [المترجم].

[← 261]

عن ثورات المولدين انظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 100-105؛ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص 130.

[← 262]

عن النزعة القبلية في تولية الولاة في عهد الأمويين والخلاف بين القيسية واليمنية. انظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 44.

[← 263]

المذاهب الدينية المبتدعة: كالخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة، وقد أشار ابن القوطية إلى هذا الأمر. انظر: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 67، 74؛ عبدالباقي السيد: الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي.

[←264]

زعيم المرابطين: الزعيم الروحي هو عبدالله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي وقيل الجدالي (ت 451هـ/1059م)، ومن ثم اختلفوا في أصل قبيلته هل هي جدالة أم جزولة، وهو الذي أنشأ لهم الرباط لملازمة ثغر العدو، والمحافظة على الصلوات، وإليه انتسب المرابطون وحظوا باللقب، كما عمل ابن ياسين على نشر العلم والدعوة بين أتباعه، ونظرًا لجهوده في تعليم الناس وهدايتهم لقبه ابن أبي زرع بمهدي المرابطين. عنه بالتفصيل انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، تحقيق: أحمد بكير، مكتبة الحياة، بيروت، مكتبة الفكر، طرابلس، 4/531-533؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، 1419هـ/1998م. ص 156-169؛ حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 113-185؛ إبراهيم محمد حسن الجمل: الإمام عبدالله بن ياسين، دار الإصلاح، الدمام، 1981م ؛ وأما الزعيم السياسي للمرابطين فهو أبو بكر بن عمر اللمتوني (ت 480هـ/1087م) الذي تولى أمر المرابطين بعد أخيه يحيى بن عمر، واستمر في تأييد الزعيم الروحي عبد الله بن ياسين. فاستولى على سجلماسة وملك السوس بأسره ثم امتلك بلاد المصامدة وفتح بلاد أغمات وتادلة وتامسنا سنة 449هـ/1057م وقاتل البجلية (من شيعة عبيد الله المهدي) وقبائل برغواطة. وكان في كل هذا إلى جانب عبد الله بن ياسين. وعندما أصيب عبد الله بجراح في حربه مع برغواطة سنة 451هـ /1059م فخطب في أشياخ صنهاجة وقال لهم: «يا معشر المرابطين، إنكم في بلاد أعدائكم، وإني ميت في يومي هذا...= =ولقد ذهبت عنكم، فانظروا من تقدمونه منكم يقوم بأمركم ويقود جيوشكم...». فاتفق الرأي على أبي بكر. انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 167-172.

[←265]

هي ديهيا بنت تابنة (585م-712م)، المشهورة بلقب الكاهنة من قبيلة جراوة الزناتية، وكان جميع من بإفريقية خائفون منها، والبربر لها مطيعون، قتلت على يد حسان بن النعمان في حملته لفتح بلاد المغرب، وكانت قبل قتلها قد خرجت ناشرة شعرها وقالت لأتباعها: «انظروا ماذا دهمكم واعملوا لأنفسكم، فإني مقتولة !». انظر: الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق/ محمد زينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1414هـ/1994م، ص 46-50؛ الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء

إفريقية، تحقيق/ محمد زينهم، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2012م، ص 74، 75.

[←266]

الفاطميون: هي التسمية التي أطلقت على الدولة الفاطمية التي قامت ببلاد المغرب، وانتقلت إلى مصر، واختلفت المصادر التاريخيَّة حول نسبهم، فمُعظم المصادر الشيعيَّة تؤكِّد صحَّة ما قال به مؤسس هذه السُّلالة، عُبيد الله المهدي بالله، وهو أنَّ الفاطميين يرجعون بنسبهم إلى مُحمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصَّادق، فهُم بهذا عَلَويّون، ومن سُلالة الرسول مُحمَّد عبر ابنته فاطمة الزهراء ورابع الخُلفاء الرَّاشدين الإمام عليّ بن أبي طالب. بالمُقابل، أنكرت مصادر أخرى هذا النسب وأرجعت أصل عُبيد الله المهدي إلى الفُرس أو اليهود، وقد أسس الفاطميّون مدينة المهدية في ولاية إفريقية سنة 300هـ/912م، واتخذوها عاصمةً لدولتهم الناشئة، وفي سنة 336هـ/948م، نقلوا مركز الحُكم إلى مدينة المنصوريَّة، ولمَّا تمَّ للفاطميين فتح مصر سنة 358هـ/969م،أسسوا مدينة القاهرة شمال الفسطاط، وجعلوها عاصمتهم، فأصبحت مصر المركز الروحيّ والثقافيّ والسياسيّ للدولة، وبقيت كذلك حتّى سقوطها على يد صلاح الدين الأيوبي سنة 567هـ/1171م. انظر عنها بالتفصيل: المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفا، تحقيق/ جمال الدين الشيال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، القاهرة، 1999م، 1/15-34 وما بعد ذلك. ومن أبرز وأهم الدراسات التي تناولت الدولة الفاطمية: حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1932م ؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب= =ومصر وسورية وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1958م ؛ حسن إبراهيم حسن، وطه أحمد شرف: المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م، زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين، دار الآثار العربية، القاهرة، 1937م ؛ راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م؛ عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، دار الفكر العربي، ط1، 1367هـ/1948م؛ جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2011م ؛ محمد كامل حسين: فى أدب مصر الفاطمية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014م. محمد عبدالله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1379هـ/1959م ؛ محمد جمال الدين

سرور: الدولة الفاطمية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1394هـ/1974م. سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر، القاهرة. عبدالله محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر، دار الثقافة، القاهرة، 1411هـ/1991م ؛ عبدالمنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1414هـ/1994م ؛ نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط3، 1985م ؛ السجلات المستنصرية، دار الفكر، القاهرة. أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007م. رحاب السيد: حكام الأقاليم المصرية في عصر الفاطميين، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م ؛ فرج حسين فرج: النقوش الكتابية الفاطمية على العمائر في مصر، مكتبة الإسكندرية، 2007م. محمد حسن دخيل: الدولة الفاطمية الدور السياسي والحضاري للأسر الجمالية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2009م. محمد محمود خليل: الاغتيالات السياسية في مصر في عصر الدولة الفاطمية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2007م. محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، 1970م. محمود خلف: ثورات المصريين في العصر الفاطمي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2012م. مصطفى حسن الكناني: العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، 1981م ؛ أحمد كامل محمد صالح: مصر بين المذهب السني والمذهب الإسماعيلي في العصر الفاطمي، أطروحة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1987م ؛ سمير حامد: الأوقاف في عصر الدولة الفاطمية، أطروحة دكتوراة، كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ، 1432هـ/2011م. صلاح الدين حسن علي: مدارس الشعر في مصر في العصر الفاطمي، أطروحة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، 1977م. مصرية تعبان مهدي: الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية، أطروحة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1430هـ/2009م.

[←267]

الموحدون: لقب أطلقه ابن تومرت على أتباعه تعريضا بالمرابطين في أخذهم بالعدول عن التأويل،= =حيث إن المعتزلة كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وقد تأثر ابن تومرت بالمعتزلة ودعا الناس إلى التوحيد الخالص، ولهذا أُطلق على أنصاره اسم «الموحدين»، وسُميت الدولة التي قامت على دعوته دولة «الموحدين»،. انظر: العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 107 ؛ عبدالباقي السيد:

الظاهرية والمالكية وأثرهما في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م، ص 361.

[←268]

مونوسا البربري: كان زعيمًا نصرانيًّا من زعماء منطقة الأسترياس، وحاكمًا لمدينة خيخون، حسب الرواية النصرانية، وقيل كان زعيمًا مسلمًا يحكم الولايات البرنية الغربية وسبتمانيا، وكان قوي المراس كثير الأطماع نافذ الهيبة في هاتيك البلاد، من أقطاب البربر الذين عبروا إلى الأندلس مع طارق بن زياد. انظر: محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1/85-90.

[←269]

ولي الأندلس سنة 114هـ/732م، ثم عزل عنها ذميما وقُتِل وصُلِب سنة 122هـ/741م. [المترجم].

[←270]

في طبعة دار المعارف: أحدهما مر، وما أثبتناه هو الصواب الموافق للسياق.

[←271]

هو بلج بن بشر الذي قتله عبد الرحمن بن علقمة سنة 124هـ/742م بعد أن حكم أحد عشر شهرًا. [المترجم].

[←272]

هو: أبو الخطَّار حسام، قدم الأندلس سنة 125هـ/743م من قِبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية. [المترجم].

[←273]

بُلَهْنِيَةُ: الرّخاء وسَعَة العَيْش. انظر: المعجم الوسيط.

[←274]

جليقية (غاليسية): بلد الجلالقة وهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وجليقية تلي المغرب وتنحرف إلى الجوف، والغالب على أرضها الرمل، وتنتهي أحوازها في الجوف إلى البحر المحيط، وفي القبلة إلى أحواز مدينة طلسونة، وقاعدتهم مدينة أفش. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 66، 67.

[←275]

لِيُون: قاعدة من قواعد قشتالة، بها معاملات وتجارات ومكاسب، وأهلها أصحاب همة ونفاسة. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 174.

[←276]

قَشتَالَة: من الأعمال الأندلسية تقع إلى الشمال من جبل الشارات. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 161.

[←277]

غسقونية: أو بسكونية على المحيط الأطلنطي، وكانت هي نهاية فتوحات طارق بن زياد. انظر: محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 1/51.

[←278]

الشارات: الجبال. [المترجم].

[←279]

قُلُمرِية: من بلاد برتغال، وهي على جبل مستدير، وتقع على نهر، وبينها وبين البحر اثنا عشر ميلًا. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 164.

[←280]

ذكر ابن أبي الفياض أن جزيرة الأندلس ملكها بعد الطوفان قوم يقال لهم الأندلس، وبهم سميت الأندلس، وقريبا من ذلك ذهب الرازي. انظر: ابن الشباط: وصف الأندلس، ص 100؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 4، 5؛ ولعل ابن أبي الفياض يقصد بالقوم الوندال أو الواندالوس الذين

نزلوا أسبانيا سنة 409م ثم خرجوا منها، ولما افتتح العرب أسبانيا عربوا اسم أندالوسيا إلى أندلس وأطلقوه على جميع البلاد التي خضعت لسلطانهم.

[←281]

عن احتفاظ الإسبان بشرائعهم وقضاتهم انظر: R.Altamira , Ahistory of Spain from the beginning to the present Dar, translated by muna lee, london, ed.1,1949, p.131.c f. arnaldez, Grammaire et theologie chez ibn hazm, p.9,10 ؛ عبادة كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، ط1، 1993م، ص 84 وما بعدها، عبدالباقي السيد: ==ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي، ص 325.

[←282]

الجزية والخراج: الجزية ضريبة يؤديها أهل الذمة مقابل حمايتهم وإعفائهم من الخدمة في الجيش، وكانت تقدر حسب مذهب مالك بأربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعين درهمًا على أهل الفضة، ولا يزاد عليهم وإن أيسروا، ويعفى منها النساء والصبيان والشيوخ والزمنى والرهبان. انظر: الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق/ أحمد مبارك البغدادي، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1409هـ/1989م، ص 181-186؛ ابن رشد، البيان والتحصيل، تحقيق أحمد الشرقاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1404هـ/1984م، 4/179.

والخراج في اللغة: من خرج يخرج خروجًا بمعنى: برز؛ وأصله ما يخرج من الأرض، ويطلق على الأجرة، ومنه قوله تعالى: ﴿ ﴾ [سورة المؤمنون: آية 72]، ويطلق على الإتاوة أو الضريبة التي تؤخذ من أموال الناس على الغلّة الحاصلة من الشيء، كغلة الدار أو الدابة أو العبد.

والخراج في اصطلاح الفقهاء له معنيان خاص وعام: أما المعنى العام فهو: الأموال التي تتولى الدولة جبايتها وصرفها في مصارفها، كالجزية وغيرها. وأما المعنى الخاص فهو: «الضريبة» التي يفرضها إمام المسلمين على الأرض الخراجية النامية. وتسمى الأرض التي يفرض عليها الخراج أرضًا خراجية.

والأرض قسمان: صلح وعَنوة: فأما الصلح فهو: كل أرض فتحها المسلمون صلحًا، وصالحوا أهلها عليها لتكون لهم، ويؤدون خراجًا معلومًا كل سنة، فهذه الأرض ملك لأربابها، وهذا الخراج في حكم الجزية، فمتى

أسلم أهل الأرض سقط الخراج عنهم، ولهم بيعها ورهنها وهبتها لأنها ملك لهم.

والقسم الثاني: ما فتحه المسلمون عَنوة ـ أي بالسيف ـ ولم تقسم بين الغانمين، فهذه تصير للمسلمين، يضرب الحاكم عليها خراجًا معلومًا يؤخذ في كل عام، وتقر في أيدي أربابها ما داموا يؤدون خراجها، سواء كانوا مسلمين أو من أهل الذمة، ولا يسقط خراجها بإسلام أربابها ولا بانتقالها إلى مسلم، بل إذا أسلم أهلها أو انتقلت إلى مسلم يجتمع مع الخراج أيضًا عشر ما تخرج، زكاة عليها، ولا يمنع أحدهما وجوب الآخر، وهو قول أكثر الفقهاء، وأول من وظف الخراج هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما فتحت العراق، حيث اجتهد مع الصحابة، ولم تقسم بين الفاتحين وضرب عليها الخراج، وكذلك سائر ما فتح في عصره، كأرض الشام ومصر وغيرها، لم يقسم منها شيء، وضرب عليها الخراج. انظر: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 186-200؛ محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، مكتبة التراث، القاهرة، ط5، 1985م،==ص 116-123؛ عبدالباقي السيد: كتاب الإمامة والسياسة لابن حزم الظاهري وأثره في الحضارة الإسلامية، ص 198، 199. دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2018م،

وفيما يخص الأندلس فلا بد أن نعود إلى الوراء قليلا حيث إتمام الفتح على يد موسى بن نصير الذي قام بتخميس جزء بسيط من أرض الأندلس وهو الأراضي الواقعة جنوب الوادي الكبير، فجعل أربعة أخماس تلك الأراضي بأيدي من شارك في عملية الفتح، والخمس ملكًا للدولة، يقوم بزراعته البعض، واعتُبِروا زرَّاع أرض الدولة، وأطلق عليهم الأخماس، وأطلق على أبنائهم بني الأخماس، وطبق هذا الحكم على الأراضي الواقعة بين الوادي الكبير ووادي آنه، وما بين هذا النهر والمحيط الأطلنطي، فيما عدا شنترين وقلنبرية ومدينة شية -مدينة صغيرة تقع في الجنوب الشرقي-، وهي المدن التي استسلم أهلها للمسلمين، وبذلك لم يجر عليها حكم العنوة. وأما الأراضي الواقعة شمال الوادي الكبير فقد فتحت صلحا، وأخذ أهلها عهودا بذلك تقرر فيها ما عليهم من مال تجاه الدولة. انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 631-634؛ عبدالباقي السيد: كتاب الإمامة والسياسة، لابن حزم، ص 198، 199.

[←283]

يُقال: إنه من قرطبة، ذكره دوزي فقال: إنه كان قِسِّيسًا ولكن كتابته لا تدل على سخط شديد فهو يروي مثلا: أن امرأة الملك لذريق تزوجت بعبد

العزيز بن موسى بن نصير، ولا يجد في ذلك إثمًا كما كان يفعل غيره من القسيسين، ثم قال دوزي: إن كراهية إيزيدور للعرب إنما كانت لأنهم شعب غريب لا من أجل أعمالهم. [المترجم].

[←284]

أغرته زوجه أن يلبس تاجًا فثار عليه العرب وقالوا إنه تنصر فقتلوه سنة 98هـ [المترجم].

[←285]

الحديث: أخرجه مسلم في الأيمان والنذور باب إطعام المملوك مما يأكل رقم 1661، وهذا نصه: «عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

[←286]

الحديث: أخرجه مسلم في كتاب الأيمان ، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده، حديث رقم 1659، وهذا نص الحديث: «عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي، «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا».

[←287]

تسلم: دخل في الإسلام. ويُقال كان كافرًا فتسَلَّم، ومؤلفو تاريخ الأندلس يُسَمُّون من دخل في الإسلام: إسلاميا. [المترجم].

[←288]

عن ثورات المولدين انظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 100-105؛ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص 130.

[289←]

عن النزعة القبلية في تولية الولاة في عهد الأمويين والخلاف بين القيسية واليمنية. انظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 44.

[290←]

المذاهب الدينية المبتدعة: كالخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة، وقد أشار ابن القوطية إلى هذا الأمر. انظر: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 67، 74؛ عبدالباقي السيد: الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي.

[291←]

زعيم المرابطين: الزعيم الروحي هو عبدالله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي وقيل الجدالي (ت 451هـ/1059م)، ومن ثم اختلفوا في أصل قبيلته هل هي جدالة أم جزولة، وهو الذي أنشأ لهم الرباط لملازمة ثغر العدو، والمحافظة على الصلوات، وإليه انتسب المرابطون وحظوا باللقب، كما عمل ابن ياسين على نشر العلم والدعوة بين أتباعه، ونظرًا لجهوده في تعليم الناس وهدايتهم لقبه ابن أبي زرع بمهدي المرابطين. عنه بالتفصيل انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، تحقيق: أحمد بكير، مكتبة الحياة، بيروت، مكتبة الفكر، طرابلس، 4/531-533؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، 1419هـ/1998م. ص 156-169؛ حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 113-185؛ إبراهيم محمد حسن الجمل: الإمام عبدالله بن ياسين، دار الإصلاح، الدمام، 1981م ؛ وأما الزعيم السياسي للمرابطين فهو أبو بكر بن عمر اللمتوني (ت 480هـ/1087م) الذي تولى أمر المرابطين بعد أخيه يحيى بن عمر، واستمر في تأييد الزعيم الروحي عبد الله بن ياسين. فاستولى على سجلماسة وملك السوس بأسره ثم امتلك بلاد المصامدة وفتح بلاد أغمات وتادلة وتامسنا سنة 449هـ/1057م وقاتل البجلية (من شيعة عبيد الله المهدي) وقبائل برغواطة. وكان في كل هذا إلى جانب عبد الله بن ياسين. وعندما أصيب عبد الله بجراح في حربه مع برغواطة سنة 451هـ /1059م فخطب في أشياخ صنهاجة وقال لهم: «يا معشر المرابطين، إنكم في بلاد أعدائكم،

وإني ميت في يومي هذا...= =ولقد ذهبت عنكم، فانظروا من تقدمونه منكم يقوم بأمركم ويقود جيوشكم...». فاتفق الرأي على أبي بكر. انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 167-172.

[←292]

هي ديهيا بنت تابنة (585م-712م)، المشهورة بلقب الكاهنة من قبيلة جراوة الزناتية، وكان جميع من بإفريقية خائفون منها، والبربر لها مطيعون، قتلت على يد حسان بن النعمان في حملته لفتح بلاد المغرب، وكانت قبل قتلها قد خرجت ناشرة شعرها وقالت لأتباعها: «انظروا ماذا دهمكم واعملوا لأنفسكم، فإني مقتولة !». انظر: الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق/ محمد زينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1414هـ/1994م، ص 46-50؛ الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تحقيق/ محمد زينهم، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2012م، ص 74، 75.

[←293]

الفاطميون: هي التسمية التي أطلقت على الدولة الفاطمية التي قامت ببلاد المغرب، وانتقلت إلى مصر، واختلفت المصادر التاريخيَّة حول نسبهم، فمُعظم المصادر الشيعيَّة تؤكِّد صحَّة ما قال به مؤسس هذه السُّلالة، عُبيد الله المهدي بالله، وهو أنَّ الفاطميين يرجعون بنسبهم إلى مُحمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصَّادق، فهُم بهذا عَلَويّون، ومن سُلالة الرسول مُحمَّد عبر ابنته فاطمة الزهراء ورابع الخُلفاء الرَّاشدين الإمام عليّ بن أبي طالب. بالمُقابل، أنكرت مصادر أخرى هذا النسب وأرجعت أصل عُبيد الله المهدي إلى الفُرس أو اليهود، وقد أسس الفاطميّون مدينة المهدية في ولاية إفريقية سنة 300هـ/912م، واتخذوها عاصمةً لدولتهم الناشئة، وفي سنة 336هـ/948م، نقلوا مركز الحُكم إلى مدينة المنصوريَّة، ولمَّا تمَّ للفاطميين فتح مصر سنة 358هـ/969م،أسسوا مدينة القاهرة شمال الفسطاط، وجعلوها عاصمتهم، فأصبحت مصر المركز الروحيّ والثقافيّ والسياسيّ للدولة، وبقيت كذلك حتّى سقوطها على يد صلاح الدين الأيوبي سنة 567هـ/1171م. انظر عنها بالتفصيل: المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفا، تحقيق/ جمال الدين الشيال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، القاهرة، 1999م، 1/15-34 وما بعد ذلك. ومن أبرز وأهم الدراسات التي تناولت الدولة الفاطمية: حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، المطبعة الأميرية، القاهرة،

1932م ؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب= =ومصر وسورية وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1958م ؛ حسن إبراهيم حسن، وطه أحمد شرف: المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م، زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين، دار الآثار العربية، القاهرة، 1937م ؛ راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م؛ عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، دار الفكر العربي، ط1، 1367هـ/1948م؛ جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2011م ؛ محمد كامل حسين: فى أدب مصر الفاطمية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014م. محمد عبدالله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1379هـ/1959م ؛ محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1394هـ/1974م. سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر، القاهرة. عبدالله محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر، دار الثقافة، القاهرة، 1411هـ/1991م ؛ عبدالمنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1414هـ/1994م ؛ نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط3، 1985م ؛ السجلات المستنصرية، دار الفكر، القاهرة. أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007م. رحاب السيد: حكام الأقاليم المصرية في عصر الفاطميين، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م ؛ فرج حسين فرج: النقوش الكتابية الفاطمية على العمائر في مصر، مكتبة الإسكندرية، 2007م. محمد حسن دخيل: الدولة الفاطمية الدور السياسي والحضاري للأسر الجمالية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2009م. محمد محمود خليل: الاغتيالات السياسية في مصر في عصر الدولة الفاطمية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2007م. محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، 1970م. محمود خلف: ثورات المصريين في العصر الفاطمي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2012م. مصطفى حسن الكناني: العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، 1981م ؛ أحمد كامل محمد صالح: مصر بين المذهب السني والمذهب الإسماعيلي في العصر الفاطمي، أطروحة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1987م ؛ سمير حامد: الأوقاف في عصر الدولة الفاطمية، أطروحة دكتوراة، كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ، 1432هـ/2011م. صلِاح الدين حسن علي:

مدارس الشعر في مصر في العصر الفاطمي، أطروحة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، 1977م. مصرية تعبان مهدي: الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية، أطروحة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1430هـ/2009م.

[←294]

الموحدون: لقب أطلقه ابن تومرت على أتباعه تعريضا بالمرابطين في أخذهم بالعدول عن التأويل،= =حيث إن المعتزلة كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وقد تأثر ابن تومرت بالمعتزلة ودعا الناس إلى التوحيد الخالص، ولهذا أُطلق على أنصاره اسم «الموحدين»، وسُميت الدولة التي قامت على دعوته دولة «الموحدين»،. انظر: العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 107 ؛ عبدالباقي السيد: الظاهرية والمالكية وأثرهما في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م، ص 361.

[←295]

مونوسا البربري: كان زعيمًا نصرانيًّا من زعماء منطقة الأسترياس، وحاكمًا لمدينة خيخون، حسب الرواية النصرانية، وقيل كان زعيمًا مسلمًا يحكم الولايات البرنية الغربية وسبتمانيا، وكان قوي المراس كثير الأطماع نافذ الهيبة في هاتيك البلاد، من أقطاب البربر الذين عبروا إلى الأندلس مع طارق بن زياد. انظر: محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1/85-90.

[←296]

ولي الأندلس سنة 114هـ/732م، ثم عزل عنها ذميما وقُتِل وصُلِب سنة 122هـ/741م. [المترجم].

[←297]

في طبعة دار المعارف: أحدهما مر، وما أثبتناه هو الصواب الموافق للسياق.

[←298]

هو بلج بن بشر الذي قتله عبد الرحمن بن علقمة سنة 124هـ/742م بعد أن حكم أحد عشر شهرًا. [المترجم].

[←299]

هو: أبو الخطَّار حسام، قدم الأندلس سنة 125هـ/743م من قِبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية. [المترجم].

[←300]

بُلَهْنِيَةُ: الرّخاء وسَعَة العَيْش. انظر: المعجم الوسيط.

[←301]

جليقية (غاليسية): بلد الجلالقة وهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وجليقية تلي المغرب وتنحرف إلى الجوف، والغالب على أرضها الرمل، وتنتهي أحوازها في الجوف إلى البحر المحيط، وفي القبلة إلى أحواز مدينة طلسونة، وقاعدتهم مدينة أفش. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 66، 67.

[←302]

لِيُون: قاعدة من قواعد قشتالة، بها معاملات وتجارات ومكاسب، وأهلها أصحاب همة ونفاسة. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 174.

[←303]

قَشتَالَة: من الأعمال الأندلسية تقع إلى الشمال من جبل الشارات. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 161.

[←304]

غسقونية: أو بسكونية على المحيط الأطلنطي، وكانت هي نهاية فتوحات طارق بن زياد. انظر: محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 1/51.

[←305]

الشارات: الجبال. [المترجم].

[←306]

قُلُمرِية: من بلاد برتغال، وهي على جبل مستدير، وتقع على نهر، وبينها وبين البَحر اثنا عشر ميلًا. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 164.

[←307]

ذكر ابن أبي الفياض أن جزيرة الأندلس ملكها بعد الطوفان قوم يقال لهم الأندلس، وبهم سميت الأندلس، وقريبا من ذلك ذهب الرازي. انظر: ابن الشباط: وصف الأندلس، ص 100؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 4، 5؛ ولعل ابن أبي الفياض يقصد بالقوم الوندال أو الواندالوس الذين نزلوا أسبانيا سنة 409م ثم خرجوا منها، ولما افتتح العرب أسبانيا عربوا اسم أندالوسيا إلى أندلس وأطلقوه على جميع البلاد التي خضعت لسلطانهم.

[←308]

عن احتفاظ الإسبان بشرائعهم وقضاتهم انظر: R.Altamira , Ahistory of Spain from the beginning to the present Dar, translated by muna lee, london, ed.1,1949, p.131.c f. arnaldez, Grammaire et theologie chez ibn hazm, p.9,10 ؛ عبادة كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، ط1، 1993م، ص 84 وما بعدها، عبدالباقي السيد: ==ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي، ص 325.

[←309]

الجزية والخراج: الجزية ضريبة يؤديها أهل الذمة مقابل حمايتهم وإعفائهم من الخدمة في الجيش، وكانت تقدر حسب مذهب مالك بأربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعين درهمًا على أهل الفضة، ولا يزاد عليهم وإن أيسروا، ويعفى منها النساء والصبيان والشيوخ والزمنى والرهبان. انظر: الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق/ أحمد مبارك البغدادي، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1409هـ/1989م، ص 181-186؛ ابن رشد، البيان والتحصيل، تحقيق أحمد الشرقاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1404هـ/1984م، 4/179.

والخراج في اللغة: من خرج يخرج خروجًا بمعنى: برز؛ وأصله ما يخرج من الأرض، ويطلق على الأجرة، ومنه قوله تعالى: ﴿ ﴾ [سورة المؤمنون: آية 72]، ويطلق على الإتاوة أو الضريبة التي تؤخذ من أموال الناس على الغلّة الحاصلة من الشيء، كغلة الدار أو الدابة أو العبد.

والخراج في اصطلاح الفقهاء له معنيان خاص وعام: أما المعنى العام فهو: الأموال التي تتولى الدولة جبايتها وصرفها في مصارفها، كالجزية وغيرها. وأما المعنى الخاص فهو: «الضريبة» التي يفرضها إمام المسلمين على الأرض الخراجية النامية. وتسمى الأرض التي يفرض عليها الخراج أرضًا خراجية.

والأرض قسمان: صلح وعَنوة: فأما الصلح فهو: كل أرض فتحها المسلمون صلحًا، وصالحوا أهلها عليها لتكون لهم، ويؤدون خراجًا معلومًا كل سنة، فهذه الأرض ملك لأربابها، وهذا الخراج في حكم الجزية، فمتى أسلم أهل الأرض سقط الخراج عنهم، ولهم بيعها ورهنها وهبتها لأنها ملك لهم.

والقسم الثاني: ما فتحه المسلمون عَنوة ـ أي بالسيف ـ ولم تقسم بين الغانمين، فهذه تصير للمسلمين، يضرب الحاكم عليها خراجًا معلومًا يؤخذ في كل عام، وتقر في أيدي أربابها ما داموا يؤدون خراجها، سواء كانوا مسلمين أو من أهل الذمة، ولا يسقط خراجها بإسلام أربابها ولا بانتقالها إلى مسلم، بل إذا أسلم أهلها أو انتقلت إلى مسلم يجتمع مع الخراج أيضًا عشر ما تخرج، زكاة عليها، ولا يمنع أحدهما وجوب الآخر، وهو قول أكثر الفقهاء، وأول من وظف الخراج هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما فتحت العراق، حيث اجتهد مع الصحابة، ولم تقسم بين الفاتحين وضرب عليها الخراج، وكذلك سائر ما فتح في عصره، كأرض الشام ومصر وغيرها، لم يقسم منها شيء، وضرب عليها الخراج. انظر: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 186-200؛ محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية، مكتبة التراث، القاهرة، ط5، 1985م،==ص 116-123؛ عبدالباقي السيد: كتاب الإمامة والسياسة لابن حزم الظاهري وأثره في الحضارة الإسلامية، ص 198، 199. دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2018م،

وفيما يخص الأندلس فلا بد أن نعود إلى الوراء قليلا حيث إتمام الفتح على يد موسى بن نصير الذي قام بتخميس جزء بسيط من أرض الأندلس وهو الأراضي الواقعة جنوب الوادي الكبير، فجعل أربعة أخماس تلك الأراضي بأيدي من شارك في عملية الفتح، والخمس ملكًا للدولة، يقوم بزراعته البعض، واعتُبِروا زرَّاع أرض الدولة، وأطلق عليهم الأخماس،

وأطلق على أبنائهم بني الأخماس، وطبق هذا الحكم على الأراضي الواقعة بين الوادي الكبير ووادي آنه، وما بين هذا النهر والمحيط الأطلنطي، فيما عدا شنترين وقلنبرية ومدينة شية -مدينة صغيرة تقع في الجنوب الشرقي-، وهي المدن التي استسلم أهلها للمسلمين، وبذلك لم يجر عليها حكم العنوة. وأما الأراضي الواقعة شمال الوادي الكبير فقد فتحت صلحا، وأخذ أهلها عهودا بذلك تقرر فيها ما عليهم من مال تجاه الدولة. انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 631-634؛ عبدالباقي السيد: كتاب الإمامة والسياسة، لابن حزم، ص 198، 199.

[←310]

يُقال: إنه من قرطبة، ذكره دوزي فقال: إنه كان قِسِّيسًا ولكن كتابته لا تدل على سخط شديد فهو يروي مثلا: أن امرأة الملك لذريق تزوجت بعبد العزيز بن موسى بن نصير، ولا يجد في ذلك إثمًا كما كان يفعل غيره من القسيسين، ثم قال دوزي: إن كراهية إيزيدور للعرب إنما كانت لأنهم شعب غريب لا من أجل أعمالهم. [المترجم].

[←311]

أغرته زوجه أن يلبس تاجًا فثار عليه العرب وقالوا إنه تنصر فقتلوه سنة 98هـ [المترجم].

[←312]

الحديث: أخرجه مسلم في الأيمان والنذور باب إطعام المملوك مما يأكل رقم 1661، وهذا نصه: «عَنِ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلاَمِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

[←313]

الحديث: أخرجه مسلم في كتاب الأيمان ، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده، حديث رقم 1659، وهذا نص الحديث: «عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي

بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي، «اعْلَمْ، أبَا مَسْعُودٍ»، فَلَمْ أفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ»، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا».

[←314]

تسلم: دخل في الإسلام. ويُقال كان كافرًا فتسَلَّم، ومؤلفو تاريخ الأندلس يُسَمُّون من دخل في الإسلام: إسلاميا. [المترجم].

[←315]

عن ثورات المولدين انظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 100-105؛ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص 130.

[←316]

عن النزعة القبلية في تولية الولاة في عهد الأمويين والخلاف بين القيسية واليمنية. انظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 44.

[←317]

المذاهب الدينية المبتدعة: كالخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة، وقد أشار ابن القوطية إلى هذا الأمر. انظر: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 67، 74؛ عبدالباقي السيد: الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي.

[←318]

زعيم المرابطين: الزعيم الروحي هو عبدالله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي وقيل الجدالي (ت 451هـ/1059م)، ومن ثم اختلفوا في أصل قبيلته هل هي جدالة أم جزولة، وهو الذي أنشأ لهم الرباط لملازمة ثغر العدو، والمحافظة على الصلوات، وإليه انتسب المرابطون وحظوا باللقب، كما عمل ابن ياسين على نشر العلم والدعوة بين أتباعه، ونظرًا لجهوده في تعليم الناس وهدايتهم لقبه ابن أبي زرع بمهدي المرابطين. عنه بالتفصيل انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، تحقيق:

أحمد بكير، مكتبة الحياة، بيروت، مكتبة الفكر، طرابلس، 4/531-533؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، 1419هـ/1998م. ص 156-169؛ حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 113-185؛ إبراهيم محمد حسن الجمل: الإمام عبدالله بن ياسين، دار الإصلاح، الدمام، 1981م ؛ وأما الزعيم السياسي للمرابطين فهو أبو بكر بن عمر اللمتوني (ت 480هـ/1087م) الذي تولى أمر المرابطين بعد أخيه يحيى بن عمر، واستمر في تأييد الزعيم الروحي عبد الله بن ياسين. فاستولى على سجلماسة وملك السوس بأسره ثم امتلك بلاد المصامدة وفتح بلاد أغمات وتادلة وتامسنا سنة 449هـ/1057م وقاتل البجلية (من شيعة عبيد الله المهدي) وقبائل برغواطة. وكان في كل هذا إلى جانب عبد الله بن ياسين. وعندما أصيب عبد الله بجراح في حربه مع برغواطة سنة 451هـ /1059م فخطب في أشياخ صنهاجة وقال لهم: «يا معشر المرابطين، إنكم في بلاد أعدائكم، وإني ميت في يومي هذا...= =ولقد ذهبت عنكم، فانظروا من تقدمونه منكم يقوم بأمركم ويقود جيوشكم...». فاتفق الرأي على أبي بكر. انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 167-172.

[←319]

هي ديهيا بنت تابنة (585م-712م)، المشهورة بلقب الكاهنة من قبيلة جراوة الزناتية، وكان جميع من بإفريقية خائفون منها، والبربر لها مطيعون، قتلت على يد حسان بن النعمان في حملته لفتح بلاد المغرب، وكانت قبل قتلها قد خرجت ناشرة شعرها وقالت لأتباعها: «انظروا ماذا دهمكم واعملوا لأنفسكم، فإني مقتولة !». انظر: الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق/ محمد زينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1414هـ/1994م، ص 46-50؛ الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تحقيق/ محمد زينهم، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2012م، ص 74، 75.

[←320]

الفاطميون: هي التسمية التي أطلقت على الدولة الفاطمية التي قامت ببلاد المغرب، وانتقلت إلى مصر، واختلفت المصادر التاريخيَّة حول نسبهم، فمُعظم المصادر الشيعيَّة تؤكِّد صحَّة ما قال به مؤسس هذه السُّلالة، عُبيد الله المهدي بالله، وهو أنَّ الفاطميين يرجعون بنسبهم إلى مُحمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصَّادق، فهُم بهذا عَلَويّون، ومن سُلالة

الرسول مُحمَّد عبر ابنته فاطمة الزهراء ورابع الخُلفاء الرَّاشدين الإمام عليّ بن أبي طالب. بالمُقابل، أنكرت مصادر أخرى هذا النسب وأرجعت أصل عُبيد الله المهدي إلى الفُرس أو اليهود، وقد أسس الفاطميّون مدينة المهدية في ولاية إفريقية سنة 300هـ/912م، واتخذوها عاصمةً لدولتهم الناشئة، وفي سنة 336هـ/948م، نقلوا مركز الحُكم إلى مدينة المنصوريَّة، ولمَّا تمَّ للفاطميين فتح مصر سنة 358هـ/969م،أسسوا مدينة القاهرة شمال الفسطاط، وجعلوها عاصمتهم، فأصبحت مصر المركز الروحيّ والثقافيّ والسياسيّ للدولة، وبقيت كذلك حتّى سقوطها على يد صلاح الدين الأيوبي سنة 567هـ/1171م. انظر عنها بالتفصيل: المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخُلَفا، تحقيق/ جمال الدين الشيال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، القاهرة، 1999م، 1/15-34 وما بعد ذلك. ومن أبرز وأهم الدراسات التي تناولت الدولة الفاطمية: حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1932م ؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب= =ومصر وسورية وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1958م ؛ حسن إبراهيم حسن، وطه أحمد شرف: المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م، زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين، دار الآثار العربية، القاهرة، 1937م ؛ راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م؛ عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، دار الفكر العربي، ط1، 1367هـ/1948م؛ جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2011م ؛ محمد كامل حسين: فى أدب مصر الفاطمية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014م. محمد عبدالله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1379هـ/1959م ؛ محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1394هـ/1974م. سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر، القاهرة. عبدالله محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر، دار الثقافة، القاهرة، 1411هـ/1991م ؛ عبدالمنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1414هـ/1994م ؛ نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط3، 1985م ؛ السجلات المستنصرية، دار الفكر، القاهرة. أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007م. رحاب السيد: حكام الأقاليم المصرية في عصر الفاطميين، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م ؛ فرج حسين فرج:

النقوش الكتابية الفاطمية على العمائر في مصر، مكتبة الإسكندرية، 2007م. محمد حسن دخيل: الدولة الفاطمية الدور السياسي والحضاري للأسر الجمالية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2009م. محمد محمود خليل: الاغتيالات السياسية في مصر في عصر الدولة الفاطمية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2007م. محمد حمدي المناوي: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، 1970م. محمود خلف: ثورات المصريين في العصر الفاطمي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2012م. مصطفى حسن الكناني: العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، 1981م ؛ أحمد كامل محمد صالح: مصر بين المذهب السني والمذهب الإسماعيلي في العصر الفاطمي، أطروحة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1987م ؛ سمير حامد: الأوقاف في عصر الدولة الفاطمية، أطروحة دكتوراة، كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ، 1432هـ/2011م. صلاح الدين حسن علي: مدارس الشعر في مصر في العصر الفاطمي، أطروحة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، 1977م. مصرية تعبان مهدي: الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية، أطروحة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1430هـ/2009م.

[←321]

الموحدون: لقب أطلقه ابن تومرت على أتباعه تعريضا بالمرابطين في أخذهم بالعدول عن التأويل،= =حيث إن المعتزلة كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وقد تأثر ابن تومرت بالمعتزلة ودعا الناس إلى التوحيد الخالص، ولهذا أُطلق على أنصاره اسم «الموحدين»، وسُميت الدولة التي قامت على دعوته دولة «الموحدين»،. انظر: العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 107 ؛ عبدالباقي السيد: الظاهرية والمالكية وأثرهما في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م، ص 361.

[←322]

مونوسا البربري: كان زعيمًا نصرانيًّا من زعماء منطقة الأستارياس، وحاكمًا لمدينة خيخون، حسب الرواية النصرانية، وقيل كان زعيمًا مسلمًا يحكم الولايات البرنية الغربية وسبتمانيا، وكان قوي المراس كثير الأطماع نافذ الهيبة في هاتيك البلاد، من أقطاب البربر الذين عبروا إلى الأندلس

مع طارق بن زياد. انظر: محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 1/85-90.

[←323]

ولي الأندلس سنة 114هـ/732م، ثم عزل عنها ذميما وقُتِل وصُلِب سنة 122هـ/741م. [المترجم].

[←324]

في طبعة دار المعارف: أحدهما مر، وما أثبتناه هو الصواب الموافق للسياق.

[←325]

هو بلج بن بشر الذي قتله عبد الرحمن بن علقمة سنة 124هـ/742م بعد أن حكم أحد عشر شهرًا. [المترجم].

[←326]

هو: أبو الخطَّار حسام، قدم الأندلس سنة 125هـ/743م من قِبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية. [المترجم].

[←327]

مات عبد الرحمن الأوسط سنة 238هـ وخلفه ابنه محمد وكان له غزوات موفقة في شمال أسبانيا، ثم مات في سنة 273هـ وخلفه ابنه المنذر ولم تطل مدته، إذ أقام بالملك نحو سنتين ومات سنة 275هـ وولي بعده أخوه عبد الله بن محمد. [المترجم].

[←328]

الطَّخْوَاء: الشَّدِيدة.

[←329]

لُورَقَة: من بلاد تدمير، وهي كثيرة الزرع والضرع والخمر، ومعنى لورقة باللاتينية «الزرع الخصيب». انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص

.173-171

[←330]

جَيان: مدينة كثيرة الخصب، كثيرة العسل واللحوم، بها أكثر من ثلاثة آلاف قرية كلها كان يربى بها دود الحرير، وعلى ميل منها نهر بُلون وهو نهر كبير. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 70-72.

[←331]

هم يحيى وفتح ومطارف. [المترجم].

[←332]

الجرف: تقع بالقرب من رملة قرطبة، وتشرف على قرطبة وجميع متنزهاتها وقصورها. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 65.

[←333]

يقال إنه كان مسلمًا وارتد إلى المسيحية حوالي سنة 900م وسمى نفسه صمويل. [المترجم]

ينتمي عمر بن حفصون لأسرة من المولدين قوطية الأصل قرب باراوتا، فجده الأعلى وقت الفتح هو القس ألفونسو، وأول من أسلم من أسرته هو جده الرابع جعفر. فنسبه هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس، ويرى المؤرخ فيسترشتاين أن نسبة ابن حفصون لفروغيلو من اختراع عمر بن حفصون نفسه، وفي عام 1820م قال المؤرخ كوندي أن ابن حفصون: «رجلًا من أصول وثنية غامضة وغير معروفة». انظر: Un hombre de orígen pagano, de oscura y desconocida prosapia, llamado Omar ben Hafs, José Antonio Conde, Historia de la dominación de los Arabes en España, Madrid: Garcia, 1820, p. 295

وبغض النظر، فقد كانت أسرته تمتلك أراضي في تاكرنا من أعمال رندة، حيث نشأ ابن حفصون، وقد كان أبوه حفصون من ذوي الوجاهة والأموال، حيث ذكر ابن القوطية، أنه كان شقيًّا في شبابه، وقد عاقبه عامل رية بالسياط لذنب اقترفه، فعبر البحر إلى تاهرت، وعمل لدى

خياط، وهناك تنبأ له شيخ قابله بأنه سيصبح له ملك عظيم، ودعاه للعودة إلى بلده. انظر: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 103، 104.

لجأ ابن حفصون إلى إثارة النزعة الإثنية عند المولدين والمستعربين ضد الدولة الأموية في الأندلس في المناطق التي سيطر عليها، عبر نشر دعوات التخلص من نير العرب الغزاة، وقد نقل ابن عذاري قوله في أحد خطبه: «طالما عنّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمّلكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستعبدتكم. وإنما أريد أن أقوم بثأركم، وأخرجكم من عبوديتكم». انظر: البيان المغرب، 2/117 ؛ وانظر: دوزي: المسلمون في الأندلس، 1/145؛ Yeor, Bat; Kochan, Miriam and Littman, David (2002) Islam and Dhimmitude: Where Civilizations Collide Fairleigh Dickinson University Press, Madison, NJ, p. 63.

ظل ابن حفصون لعامين يغير على المناطق المجاورة، حتى بعث له الأمير محمد ابنه المنذر مرة أخرى عام 273هـ/886م، حيث بدأ المنذر بمهاجمة مدينة الحامة شمال شرق مالقة معقل الثائر ابن حمدون حليف ابن حفصون، فهبّ ابن حفصون لنجدة حليفه ودافع عن المدينة المحاصرة من قبل المنذر لشهرين، قبل أن تتقاتل قوات ابن حمدون وابن حفصون مع جيش المنذر في معركة انهزم فيها المتمردون، وجرح فيها ابن حفصون وعاد للاستعصام بالمدينة.

وفي عام 278هـ/891م، نقل ابن حفصون قاعدته إلى حصن بلاي الذي تقع محله اليوم بلدية أغويلار ديلا فرونتيرا، وأغار منها على ضواحي قرطبة، فجهّز الأمير جيشًا قوامه 18 ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة سار به لقتال قوات ابن حفصون التي بلغت يومها 30 ألفًا،= =والتقيا على ضفاف أحد فروع نهر الوادي الكبير في 2 صفر 278هـ/891م، وانتهت المعركة بهزيمة مروعة لجيش ابن حفصون، فرّ على إثرها إلى ببشتر، بينما سار جيش الأمير غربًا لاستعادة إستجة، فحاصرها أيامًا حتى استسلمت وعادت لطاعة الأمير. ثم سار جيش الأمير إلى ببشتر، فاجتاحها ثم قفل راجعًا إلى قرطبة.

وفي عام 286هـ/899م، أعلن ابن حفصون اعتناقه المسيحية، وتسمى باسم صمويل، في خطوة عدّها بعض المؤرخين أمثال ليفي بروفنسال وفاسترشتاين، أنها خطوة بدافع انتهازي أملا في الحصول على دعم عسكري من قبل ألفونسو الثالث ملك أستورياس الذي كان على اتصال بابن حفصون من خلال عبد الرحمن بن مروان الجليقي. وقد كان تحول ابن حفصون إلى المسيحية، خطأً سياسيًّا كبيرًا. فعلى الرغم من أن تلك الخطوة أكسبته عددًا من المؤيدين المستعربين، إلا أنها أفقدته معظم

أتباعه من المولدين الذين انقلبوا عليه وأعلنوا ولاءهم للأمير، كما ساعد ذلك في شحن المسلمين في الأندلس ضد ابن حفصون الذين عدّوا قتاله جهادًا. توالت حملات الأمير على ابن حفصون، ففي عام 291هـ/903م، سار أبان ابن الأمير عبد الله ومعه القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة إلى كورة رية لقتال ابن حفصون، فاجتاحوا رية، وهزموا ابن حفصون في عدة مواقع. ثم ألحق جيش آخر خرج في العام التالي بابن حفصون هزيمة شديدة قرب جيان، قُتل فيها عدد كبير من أتباعه. كما تعرض ابن حفصون لعدة حملات أخرى أعوام 295هـ/907م، 297هـ/909م، 299هـ/911م، انتهت كلها بهزيمته، لكن دون أن تنجح في القضاء عليه، ثم عقد الصلح بين ابن حفصون وعبدالرحمن الناصر في العام 303هـ/915م، وتوفي ابن حفصون بعد ذلك بثلاث سنوات، ودفن بكنيسة ببشتر. انظر: ابن حيان: المقتبس، نقلا عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 2/381 ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/ ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006م، ص 32؛ Lévi-Provençal, Histoire de l Espagne Musulmane, Paris, 1950, vol. 1, p. 377 ؛ عبد الباقي السيد: الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2017م، ص148-159.

وقد اعتُبر ابن حفصون من وجهة النظر المسيحية ثائرًا وبطلًا قوميًّا هدف إلى غاية وطنية سامية وإلى تحرير وطنه من المسلمين، غير أن نفس المصادر لم تنكر كون ابن حفصون قد نشأ سفاحًا وقاطعًا للطرق. وقد حاول بعض المؤرخين أمثال سيمونيت تبرير حركة ابن حفصون، بأن حركته اتخذت فيما بعد "شكلا أكثر نبلًا، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة» انظر: Simonet: historia de los mozarabes de espana , Madrid , 1897,p.516. ؛ عبدالباقي السيد عبدالهادي: الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي، ص 155، 156.

كما وصفه دوزي بأنه «البطل الإسباني الذي لبث أكثر من ثلاثين عامًا يتحدى المتغلبين على وطنه، والذي استطاع مرارًا أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم» وأنه «كان بطلًا خارقًا لم تنجب أسبانيا مثله منذ أيام الرومان». انظر: المسلمون في الأندلس، 1/227 ؛ عبدالباقي السيد عبدالهادي: الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي، ص 155، 156.=

=فى حين وصفته المصادر الإسلامية بأنه من الخوارج على الأئمة، وهو ما نراه عند ابن حيان القرطبي الذي وصفه بأنه «إمام الخوارج وقدوتهم، أعلاهم ذكرًا في الباطل، وأضخمهم بصيرة في الخلاف، وأشدهم سلطانًا،

وأعظمهم كيدًا، وأبعدهم قوة». انظر: المقتبس، نشر ملشيور أنتونيا، باريس، 1937م، ص 7.

[←334]

ببشتر: حصن كان قاعدة للعجم كثير الديار والكنائس، بينه وبين قرطبة ثمانون ميلًا، كان قاعدة لعمر بن حفصون، وقد تم تدمير الكثير من أبنيته وقت فتنة ابن حفصون. لمزيد من التفاصيل انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص 37.

[←335]

في أخبار مجموعة: وهلكت الجبايات باشتداد شوكة الثوار بكل ناحية، وانبسطت خيل ابن حفصون على مرحلة من قرطبة دون أن يدفعها دافع، وبلغ الأمر أن تقدم فارس فاقتحم قنطرة قرطبة ودفع رمحه فأصاب الصورة التي على القنطرة، وتمادى هذا البلاء خمسًا وعشرين سنة. [المترجم].

[←336]

هو عبدالرحمن بن إبراهيم بن حجاج توفي في محرم سنة 301هـ. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 20.

[←337]

قمر البغدادية: شاعرة بغدادية الأصل، جلبت إلى إبراهيم بن حجاج اللخمي (ت 288هـ/900م) حاكم إشبيلية من بغداد. وكان لها بالغ الأثر في توجيه الناس إلى الأدب في إشبيلية واهتمامهم به. وقد كانت فصيحة اللسان حسنة البيان، على دراية بصوغ الألحان، مع تمتعها بالأدب والظرف. انظر: ابن الأبار: أعلام نساء الأندلس من التكملة لكتاب الصلة، تحقيق/ منجد مصطفى بهجت، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1425هـ/2004م، ص 39، 40.

[←338]

لم أقف على هذه المقولة فيما بين يدي من مصادر.

[←339]

يبابا: خرابًا، خالٍ من أيّ شيء.

[←340]

حارب ابن حفصون في سنة 891م (278هـ) بالقرب من قرطبة وانتصر عليه. [المترجم]

[←341]

التَّنَاوُح: التَّقابُل، ومنه تَنَاوُحُ الجَبلَين، وتناوُحُ الرِّياحِ. الزبيدى: تاج العروس، مادة نوح.

[←342]

مات في ذلك الوقت سعيد بن جودي وكريب وابن حجاج. [المترجم].

[←343]

مَلْحُودِ: أي مقبور دفن في قبره، انظر: الزبيدي: تاج العروس، مادة لحد.

[←344]

كورة من كور الأندلس قبلي قرطبة نزلها جند الأردن من العرب، وهي كثيرة الخيرات. انظر: الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص 79.

[←345]

مات عبد الرحمن الأوسط سنة 238هـ وخلفه ابنه محمد وكان له غزوات موفقة في شمال أسبانيا، ثم مات في سنة 273هـ وخلفه ابنه المنذر ولم تطل مدته، إذ أقام بالملك نحو سنتين ومات سنة 275هـ وولي بعده أخوه عبد الله بن محمد. [المترجم].

[←346]

الطَّخْوَاء: الشَّدِيدة.

[←347]

لُورَقَة: من بلاد تدمير، وهي كثيرة الزرع والضرع والخمر، ومعنى لورقة باللاتينية «الزرع الخصيب». انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 171-173.

[←348]

جَيان: مدينة كثيرة الخصب، كثيرة العسل واللحوم، بها أكثر من ثلاثة آلاف قرية كلها كان يربى بها دود الحرير، وعلى ميل منها نهر بُلون وهو نهر كبير. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 70-72.

[←349]

هم يحيى وفتح ومطارف. [المترجم].

[←350]

الجرف: تقع بالقرب من رملة قرطبة، وتشرف على قرطبة وجميع متنزهاتها وقصورها. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 65.

[←351]

يقال إنه كان مسلمًا وارتد إلى المسيحية حوالي سنة 900م وسمى نفسه صمويل. [المترجم]

ينتمي عمر بن حفصون لأسرة من المولدين قوطية الأصل قرب باراوتا، فجده الأعلى وقت الفتح هو القس ألفونسو، وأول من أسلم من أسرته هو جده الرابع جعفر. فنسبه هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس، ويرى المؤرخ فيسترشتاين أن نسبة ابن حفصون لفروغيلو من اختراع عمر بن حفصون نفسه، وفي عام 1820م قال المؤرخ كوندي أن ابن حفصون: «رجلًا من أصول وثنية غامضة وغير معروفة». انظر: Un hombre de orígen pagano, de oscura y desconocida prosapia, llamado Omar ben Hafs, José Antonio Conde, Historia de la dominación de los Arabes en España, Madrid: Garcia, 1820, p. 295

وبغض النظر، فقد كانت أسرته تمتلك أراضي في تاكرنا من أعمال رندة، حيث نشأ ابن حفصون، وقد كان أبوه حفصون من ذوي الوجاهة

والأموال، حيث ذكر ابن القوطية، أنه كان شقيّا في شبابه، وقد عاقبه عامل رية بالسياط لذنب اقترفه، فعبر البحر إلى تاهرت، وعمل لدى خياط، وهناك تنبأ له شيخ قابله بأنه سيصبح له ملك عظيم، ودعاه للعودة إلى بلده. انظر: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 103، 104.

لجأ ابن حفصون إلى إثارة النزعة الإثنية عند المولدين والمستعربين ضد الدولة الأموية في الأندلس في المناطق التي سيطر عليها، عبر نشر دعوات التخلص من نير العرب الغزاة، وقد نقل ابن عذاري قوله في أحد خطبه: «طالما عنّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمّلكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستعبدتكم. وإنما أريد أن أقوم بثأركم، وأخرجكم من عبوديتكم». انظر: البيان المغرب، 2/117 ؛ وانظر: دوزي: المسلمون في الأندلس، 1/145؛ Yeor, Bat; Kochan, Miriam and Littman, David (2002) Islam and Dhimmitude: Where Civilizations Collide Fairleigh Dickinson University Press, Madison, NJ, p. 63.

ظل ابن حفصون لعامين يغير على المناطق المجاورة، حتى بعث له الأمير محمد ابنه المنذر مرة أخرى عام 273هـ/886م، حيث بدأ المنذر بمهاجمة مدينة الحامة شمال شرق مالقة معقل الثائر ابن حمدون حليف ابن حفصون، فهبّ ابن حفصون لنجدة حليفه ودافع عن المدينة المحاصرة من قبل المنذر لشهرين، قبل أن تتقاتل قوات ابن حمدون وابن حفصون مع جيش المنذر في معركة انهزم فيها المتمردون، وجرح فيها ابن حفصون وعاد للاستعصام بالمدينة.

وفي عام 278هـ/891م، نقل ابن حفصون قاعدته إلى حصن بلاي الذي تقع محله اليوم بلدية أغويلار ديلا فرونتيرا، وأغار منها على ضواحي قرطبة، فجهّز الأمير جيشًا قوامه 18 ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة سار به لقتال قوات ابن حفصون التي بلغت يومها 30 ألفًا،= =والتقيا على ضفاف أحد فروع نهر الوادي الكبير في 2 صفر 278هـ/891م، وانتهت المعركة بهزيمة مروعة لجيش ابن حفصون، فرّ على إثرها إلى ببشتر، بينما سار جيش الأمير غربًا لاستعادة إستجة، فحاصرها أيامًا حتى استسلمت وعادت لطاعة الأمير. ثم سار جيش الأمير إلى ببشتر، فاجتاحها ثم قفل راجعًا إلى قرطبة.

وفي عام 286هـ/899م، أعلن ابن حفصون اعتناقه المسيحية، وتسمى باسم صمويل، في خطوة عدّها بعض المؤرخين أمثال ليفي بروفنسال وفاسترشتاين، أنها خطوة بدافع انتهازي أملا في الحصول على دعم عسكري من قبل ألفونسو الثالث ملك أستورياس الذي كان على اتصال بابن حفصون من خلال عبد الرحمن بن مروان الجليقي. وقد كان تحول

ابن حفصون إلى المسيحية، خطأ سياسيًّا كبيرًا. فعلى الرغم من أن تلك الخطوة أكسبته عددًا من المؤيدين المستعربين، إلا أنها أفقدته معظم أتباعه من المولدين الذين انقلبوا عليه وأعلنوا ولاءهم للأمير، كما ساعد ذلك في شحن المسلمين في الأندلس ضد ابن حفصون الذين عدّوا قتاله جهادًا. توالت حملات الأمير على ابن حفصون، ففي عام 291هـ/903م، سار أبان ابن الأمير عبد الله ومعه القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة إلى كورة رية لقتال ابن حفصون، فاجتاحوا رية، وهزموا ابن حفصون في عدة مواقع. ثم ألحق جيش آخر خرج في العام التالي بابن حفصون هزيمة شديدة قرب جيان، قُتل فيها عدد كبير من أتباعه. كما تعرض ابن حفصون لعدة حملات أخرى أعوام 295هـ/907م، 297هـ/909م، 299هـ/911م، انتهت كلها بهزيمته، لكن دون أن تنجح في القضاء عليه، ثم عقد الصلح بين ابن حفصون وعبدالرحمن الناصر في العام 303هـ/915م، وتوفي ابن حفصون بعد ذلك بثلاث سنوات، ودفن بكنيسة ببشتر. انظر: ابن حيان: المقتبس، نقلا عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 2/381 ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/ ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006م، ص 32؛ Lévi-Provençal, Histoire de l Espagne Musulmane, Paris, 1950, vol. 1, p. 377 ؛ عبد الباقي السيد: الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي من الفتح حتى السقوط، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2017م، ص148-159.

وقد اعتُبر ابن حفصون من وجهة النظر المسيحية ثائرًا وبطلًا قوميًّا هدف إلى غاية وطنية سامية وإلى تحرير وطنه من المسلمين، غير أن نفس المصادر لم تنكر كون ابن حفصون قد نشأ سفاحًا وقاطعًا للطرق. وقد حاول بعض المؤرخين أمثال سيمونيت تبرير حركة ابن حفصون، بأن حركته اتخذت فيما بعد "شكلا أكثر نبلًا، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة» انظر: Simonet: historia de los mozarabes de espana , Madrid , 1897,p.516. ؛ عبدالباقي السيد عبدالهادي: الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي، ص 155، 156.

كما وصفه دوزي بأنه «البطل الإسباني الذي لبث أكثر من ثلاثين عامًا يتحدى المتغلبين على وطنه، والذي استطاع مرارًا أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم» وأنه «كان بطلًا خارقًا لم تنجب أسبانيا مثله منذ أيام الرومان». انظر: المسلمون في الأندلس، 1/227 ؛ عبدالباقي السيد عبدالهادي: الفرق الإسلامية وأثرها في المجتمع الأندلسي، ص 155، 156.=

=فى حين وصفته المصادر الإسلامية بأنه من الخوارج على الأئمة، وهو ما نراه عند ابن حيان القرطبي الذي وصفه بأنه «إمام الخوارج وقدوتهم، أعلاهم ذكرًا في الباطل، وأضخمهم بصيرة في الخلاف، وأشدهم سلطانًا، وأعظمهم كيدًا، وأبعدهم قوة». انظر: المقتبس، نشر ملشيور أنتونيا، باريس، 1937م، ص 7.

[← 352]

ببشتر: حصن كان قاعدة للعجم كثير الديار والكنائس، بينه وبين قرطبة ثمانون ميلًا، كان قاعدة لعمر بن حفصون، وقد تم تدمير الكثير من أبنيته وقت فتنة ابن حفصون. لمزيد من التفاصيل انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص 37.

[← 353]

في أخبار مجموعة: وهلكت الجبايات باشتداد شوكة الثوار بكل ناحية، وانبسطت خيل ابن حفصون على مرحلة من قرطبة دون أن يدفعها دافع، وبلغ الأمر أن تقدم فارس فاقتحم قنطرة قرطبة ودفع رمحه فأصاب الصورة التي على القنطرة، وتمادى هذا البلاء خمسًا وعشرين سنة. [المترجم].

[← 354]

هو عبدالرحمن بن إبراهيم بن حجاج توفي في محرم سنة 301هـ. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 20.

[← 355]

قمر البغدادية: شاعرة بغدادية الأصل، جلبت إلى إبراهيم بن حجاج اللخمي (ت 288هـ/900م) حاكم إشبيلية من بغداد. وكان لها بالغ الأثر في توجيه الناس إلى الأدب في إشبيلية واهتمامهم به. وقد كانت فصيحة اللسان حسنة البيان، على دراية بصوغ الألحان، مع تمتعها بالأدب والظرف. انظر: ابن الأبار: أعلام نساء الأندلس من التكملة لكتاب الصلة، تحقيق/ منجد مصطفى بهجت، دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1425هـ/2004م، ص 39، 40.

[← 356]

لم أقف على هذه المقولة فيما بين يدي من مصادر.

[←357]

يبابا: خرابًا، خالٍ من أيّ شيء.

[←358]

حارب ابن حفصون في سنة 891م (278هـ) بالقرب من قرطبة وانتصر عليه. [المترجم]

[←359]

التَّنَاوُح: التَّقابُل، ومنه تَنَاوُحُ الجَبلَين، وتناوُحُ الرِّياحِ. الزبيدى: تاج العروس، مادة نوح.

[←360]

مات في ذلك الوقت سعيد بن جودي وكريب وابن حجاج. [المترجم].

[←361]

مَلْحُودِ: أي مقبور دفن في قبره، انظر: الزبيدي: تاج العروس، مادة لحد.

[←362]

كورة من كور الأندلس قبلي قرطبة نزلها جند الأردن من العرب، وهي كثيرة الخيرات. انظر: الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص 79.

[←363]

عن هذا النص انظر: ابن سعيد: المغرب، 1/37 ؛ المقري: نفح الطيب، 1/298؛ وقد تصرف المترجم في بعض الألفاظ فلم تأت كما هي في أصل النص الذي ذكره ابن سعيد ونقله عنه المقري.

[←364]

انظر هذا النص عند المقري: نفح الطيب، 1/460، 461.

[←365]

عن مسجد قرطبة الجامع بالتفصيل انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 153-156؛ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 377-400.

[←366]

يذكر البتانوني عنايةَ العرب بالرَّيِّ بمنطقة بلنسية فيقول: فقد شقوا أنهارها وحفروا ترعها، وأجروا خِلجانها وسيَّروا إليها الماء من جبال نيفادا التي هي مقر الثلوج المستديمة، وبنوا على الترع قناطر كثيرة لحجز المياه، ووصولها إلى المنطقة العالية حتى أصبحت هذه المنطقة جنة من الجنان، وكانت دورة الزراعة فيها ثلاثية في السنة. [المترجم].

[←367]

في الحلل السندسية: لما صار معاوية بن صالح إلى عبد الرحمن أدخل إليه تحف أهل الشام، وكان في هذه التحف رمان فجعل جلساء الأمير يذكرون الشام ويتأسفون عليها، وكان فيهم رجل يسمى سفرًا فأخذ من ذلك الرمان شيئًا لطف به وغرسه حتى علق وتم وأثمر، فهو اليوم بالأندلس الرمان السفري نسبة إلى هذا الرجل. [المترجم].

[←368]

قصر الزاهر: هو مجموعة المجالس التي بناها كل من عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم بمدينة الزهراء. انظر: باسيليون بابون مالدونادو: العمارة الإسلامية في الأندلس، ترجمة علي إبراهيم المنوفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2011م، ص 50، 51.

[←369]

قصر المعشوق: واحد من جملة قصور ودور جملتها 430 تكون منها القصر الكبير بقرطبة. انظر: محمد هشام النعسان: قصور وحدائق الأندلس الإسلامية، ص 145.

[←370]

قصر المؤنس: يقع داخل مدينة الزهراء بقرطبة، وهو الجناح الشرقي بقصر الزهراء، وكان المكان المفضل لعبدالرحمن الناصر حيث كان به مكان نومه، وبه بركتا ماء. انظر: المقري: نفح الطيب، 2/104.

[←371]

قصر التاج: هو جزء من القصر الكبير بقرطبة. انظر: محمد هشام النعسان: قصور وحدائق الأندلس= =الإسلامية، ص 145.

[←372]

قصر الدمشق بقرطبة شيده عبد الرحمن الداخل ثم أضاف إليه خلفاء بني أمية وزخرفوه ونمقوا ساحته وفناءه وحاكوا به قصرهم بالمشرق. انظر: المقري: نفح الطيب، 1/110.

[←373]

هو ابن عمار. [المترجم].

[←374]

عن شعر ابن عمار في قصر الدمشق بقرطبة انظر: المقري: نفح الطيب، 1/110.

[←375]

منية الناعورة: أسسها الأمير عبدالله سنة 253هـ من مجموعة من الحقول تقع على نهر قرطبة، وأكثر من غراساتها، وكانت بساتينها تروى من النهر بواسطة ناعورة عند الرصيف، وقد انتقلت ملكية هذه المنية من الأمير عبدالله إلى حفيده عبدالرحمن الناصر فأقام بها قصر الناعورة المشهور. انظر: المقري: نفح الطيب، 2/101؛ السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1/204.

[←376]

مرج الخز: هو منتزه المرج النضير، يعرف بمرج الخز، يقع بالقرب من الرملة بين الوادي ونهر يتفرع منه بقرطبة. انظر: المقري: نفح الطيب،

2/20 ؛ السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، 1/222 ؛ محمد هشام النعسان: قصور وحدائق الأندلس الإسلامية، ص 388.

[←377]

عن ذلك انظر: ابن غالب: منتقى فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، تحقيق/ لطفي عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ربيع أول1375هـ/نوفمبر1955م، المجلد الأول، 2/296؛ المقري: نفح الطيب، 2/79.

[←378]

عن هذه المقولة انظر: أنسام: الموريسكيون في غرناطة، ص 86.

[←379]

كانوا يسمون الباكية بالبلاطة. [المترجم].

[←380]

في المقري: الذهب. [المترجم].

[←381]

الإبريز واللازورد: الإبْريز: الذَّهَب الخالص. ويُقال: ذَهَبٌ إِبْريز. وهي كلمة معرَّبة. انظر: جبران مسعود: معجم الرائد (إبريز) ؛ واللازورد كلمة ذات أصول فارسية تمت إضافتها للغة العربية. ثم انتقلت من العربية للاتينية (lazulum) ومنها إلى بقية اللغات الأوربية. كما كان يسمى عند العرب القدماء بالعَوْهَق، ويستخدم للزينة وهو من الأحجار الكريمة، وأجود أنواعه ما كانت زرقته صافية وضاربة إلى الحمرة أو الخضرة. انظر: يحيى بن ماسويه: الجواهر وصفاتها، تحقيق/ عماد عبدالسلام رؤوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التراث الحضاري، القاهرة، 2017م، ص 62.

[←382]

الثريات: الثريا مَنَارَةٌ مُتَعَدِّدَةُ الْمَصَابِيحِ يُنَارُ بِهَا فِي البُيُوتِ الكَبِيرَةِ وَالقُصُورِ. انظر: المعجم الرائد، مادة ثرو.

[←383]

الرطل: اثْنَتا عَشْرة أُوقيَّة أَو 2564 غرامًا.

[←384]

الزهراء: عن أخبار هذه المدينة الساحرة ودورها وجنانها وقصورها ونفقتها وأهل الخدمة فيها وخلافه انظر: ابن غالب: منتقى فرحة الأنفس، ص 299 وما بعدها.

[←385]

هي جاريته الزهراء، وكان يحبها حبًّا مفرطًا وبنى لها مدينة باسمها تحت جبل العروس شمال قرطبة.= =انظر: المقري: نفح الطيب، 1/523.

[←386]

بدئ في بنائها سنة 325هـ (936م). [المترجم].

[←387]

كان دخل المملكة في عهد الناصر عشرين مليونًا من الدنانير. [المترجم].

[←388]

في نفح الطيب، أن ملك الروم أهدى إليه مائة وأربعين سارية. [المترجم].

[←389]

لمزيد من التفاصيل عن وصف ابن حيان لهذه الأبواب انظر: ابن غالب: منتقى فرحة الأنفس، ص 301.

[←390]

قال ابن حيان: وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحدًا من أهل مجلسه أومَأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق

من النور ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم. [المترجم].

[←391]

وقريبًا من هذا الوصف ما ذكره الرازي من وصف رائع لدور الزاهرة وأماكن كل فئة من السكان والخدم والوزراء وخلافه. انظر: ابن غالب: منتقى فرحة الأنفس، ص 301؛ وقد وصف ابن الخطيب ما قام به عبدالرحمن الناصر من جهد في بناء المدينة حيث قال: «انتقل إليها واتخذ فيها الدواوين للأعمال، والحجر للغلمان، والسقائف للحراس، والقصور للولد والخاصة والإصطبلات للظهر والكراع، وعمل داخلها الأهراء الواسعة والخزائن الوثيقة، وانتقل إليها، ورتب فيها مقاعد الوزراء وسقائف العمال، وكتب بأن تجلب إليها الوظائف والجبايات والأموال» انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/ أحمد مختار العبادي، 2/62.

[←392]

السَّجف: السِّتر.

[←393]

في «ط»: من أهل.

[←394]

المقري: نفح الطيب، 1/366.

[←395]

الوزراء: خطة الوزارة مأخوذة من المؤازرة أي المعاونة أو من الوزر بمعنى الثقل. كأن صاحبها يحمل مع الخليفة أوزاره وأثقاله. انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص 65. وقد وردت كلمة الوزير في القرآن بسورة طه آية (29) كما وردت في السنة في أكثر من موضع عن ذلك انظر، علي بن محمد الخزاعي، تخريج الدلالات السماعية، تحقيق/ أحمد محمد أبو سلامة، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1415هـ/1995م، ص 44، 45.

وقد عرفت الأندلس هذه الولاية (الخطة) منذ عصر عبدالرحمن الداخل 138هـ ـ 172هـ/756م ـ 788م حيث استوزر ولديه هشام الرضا وسليمان، وكانا يحضران مجالس مشورته بالقصر. انظر: ابن الأبار، الحلة، 1/42؛ وفي عهد عبدالرحمن بن الحكم 206هـ ـ 238هـ/822م ـ 852م تم تنظيمها حيث خصها بعنايته وقسمها لعدة أقسام وأفرد لأصحابها مجلسًا خاصًّا بهم في قصره يدعى بيت الوزارة. انظر: ابن سعيد، المغرب، 1/46. وفي عهد عبدالرحمن الناصر عرفت الوزارة لقبًا جديدًا أطلق على بعض الوزراء هو: ذو الوزارتين وكان أول من تلقب به الوزير أحمد بن عبدالملك بن شهيد . انظر: ابن الأبار، السابق، 1/238. وابن شهيد جده مولى معاوية بن مروان بن الحكم، كان خادما لعبدالرحمن الناصر ترقى في المناصب حتى ولاه الكور والوزارة انظر: نفس المصدر، 1/237-239.

وكانت الوزارة الأندلسية مقسمة أصنافًا لكل صنف وزير وكان لهم مجلس يجلسون فيه على فرش منضدة، ينفذون أمر الخليفة، وأُفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم هو الحاجب. انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص 167، 168.

[←396]

الحُجَّاب: الحاجب منصب إداري مشرقي، مهمته إدخال الناس على الخليفة حسب مقامهم وأهمية أعمالهم. ولكن هذا المنصب في الأندلس الذي أوجده الأمير عبد الرحمن الداخل (138 – 172 هـ) وقلده أخلص رجاله، من أمثال: يوسف بن بخث وعبد الواحد بن مغيث الرومي وغيرهم، هو بمثابة رئيس الوزراء الذي يعتبر حلقة وصل بين الأمير الأموي وبين وزرائه، واعتمدت الإمارة الأموية على أسر معينة فولت رؤساءها الحجابة مثل أسرة أبي عبدة، وأسرة ابن شُهيد وغيرهما. ففي عهد الأمير هشام (172 - 180 هـ) تولى الحجابة أبو أمية عبد الغافر بن أبي عبدة، وكان حاجب الأمير الحكم بن هشام (180 ـ 206 هـ) أخاه أبا عبدة عبد العزيز. ويخبرنا ابن عذاري بأن حاجبي الأمير عبد الرحمن الأوسط (206 - 238هـ) هما ابن شهيد وابن أبي عبدة، وتولى عيسى بن الحسن بن أبي عبدة الحجابة للأمير محمد (238 - 273 هـ) بعد وفاة الحاجب عيسى بن شُهيد. ووصفت لنا بعض الروايات بساطة هذا الحاجب وسلامة نيته، وشغل أبو عثمان عبيد الله بن الغمر بن أبي عبدة منصب حاجب الأمير محمد في عهد والده الأمير عبد الله (275 - 300 هـ) ويبدو أن هذا المنصب الإداري (حاجب أولاد الأمراء) لا يعطي صلاحيات الحاجب نفسها الذي يكون بمثابة رئيس الوزراء. وربما يعني الوزير الخاص للأمير الولد في

عهد والده. وقد استغنى الأمير عبد الله عن منصب الحجابة آخر أيامه مكتفيًا بوصيفه بدر بن أحمد الصقلبي الذي كان ينظم أموره. وكان بدر مولى الأمير الناصر أشهر حجاب هذا الأمير (300 - 350 هـ)، واشتهر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي بتولي هذه الخطة على أيام الخليفة الحكم (350 - 366 هـ).

وبعد وفاة الحكم عام 366 هـ سيطر الحاجب المنصور على مقاليد الأمور وعرفت هذه الفترة (366 - 399 هـ) بفترة الحجابة تولى أمرها الحاجب المنصور وأولاده من بعده وقد أحاط الحاجب المنصور نفسه بهالة من الأبهة والفخامة حتى إن الوزراء وغيرهم كانوا يقبلون يديه، كما أنه حجر على الخليفة هشام وساواه في المراتب، ولما سقطت الخلافة الأندلسية، وقامت على أنقاضها دويلات الطوائف، اتخذ بعضهم لقب الحاجب مثل سابور الفارسي، وهو أول المستقلين في منطقة بطليوس. وباديس بن حبوس صاحب غرناطة، وأحمد بن قاسم أمير البونت. لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر: آمنة محمود عودة: الحجابة والوزارة في عصر الخلافة الأموية في الأندلس، أطروحة ماجستير، كلية الآداب، جامعة مؤتة، 1984م ؛ سامية مصطفى مسعد: الوزارة في الأندلس من العصر الأموي حتى عصر مملكة غرناطة، الزهراء كمبيوسنتر، القاهرة، 2000م، ص38 وما بعدها.

[←397]

الحكم المستنصر: استخلفه والده عبد الرحمن الناصر من بعده في الحكم، وقد تولّى من سنة (350هـ/ 961م) إلى سنة (366هـ/976م)، وتلقب بالمستنصر بالله، وكان يوم تولّى في نحو السابعة والأربعين من عمره، وكان أبوه يُقَرِّبُه ويعتمد عليه في كثير من الأمور؛ فكان ذا خبرة بشئون الحُكم والسياسة. انظر، ابن حزم الظاهري: ذكر أوقات الأمراء، رسائل ابن حزم، 2/194.

[←398]

يفيدنا المقري بتفاصيل هذه الواقعة حيث ذكر أن المتحدث الأول الذي أمره الحكم المستنصر بالتأهب للحديث هو الفقيه محمد بن عبد البر فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظة، بل غشي عليه وسقط إلى الأرض، فقيل لأبي علي البغدادي إسماعيل بن القاسم القالي صاحب الأمالي والنوادر فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم انقطع

القول بالقالي، فوقف ساكتا مفكرا في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد؟ وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء؟ قام من ذاته، بدرجة من مرقاته، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب، ونادى في الإحسان من ذلك المقام كل مجيب، يسحه سحا كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي البغدادي. انظر: المقري: نفح الطيب، 1/368، 369.

[←399]

يؤخذ من ابن خلدون أن المأمور بالكلام أولا هو أبو علي القالي، فلما أُرْتِج عليه قام منذر بن سعيد فارتجل خطابًا ضافيًا. [المترجم].

[←400]

يروى أن منذر بن سعيد بدأ خطبته بقوله تعالى: ﴿ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ﴾ (الآيات) ثم وصل ذلك بقوله: فمتاع الدنيا قليل والآخرة خير وأبقى وهي دار القرار ومكان الجزاء. [المترجم].

[←401]

هي أسرة اشتهرت بالبراعة في الطب والأدب، أولها أبو مروان بن زهر، نال حظوة كبيرة عند مجاهد ملك دانية فطار ذكره بالأندلس، ثم ابنه أبو العلاء بن زهر، كانت له منزلة سامية في عهد المرابطين، ثم عبد الملك ابنه، اشتهر بالطب في عهد الموحدين، ثم ابنه الحفيد أبو بكر كان طبيبًا أديبًا، ثم ابنه عبد الله. [المترجم].

[←402]

هو أبو عبد الله المالقي النباتي، سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم ولقي جماعة يعانون هذا الفن وأخذ عنهم معرفة نبات كثير وعاينه في مواضعه، واجتمع أيضًا في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات، وكان لا يذكر دواء إلا عين في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس. وجعله الكامل بن أيوب رئيسًا على العشابين بدمشق، ثم خدم الملك الصالح أيوب بمصر، ومات فجأة سنة 646هـ. [المترجم].

[←403]

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، من أعظم مفكري الإسلام وفلاسفته، ولد بقرطبة سنة 520هـ واتصل بيعقوب بن عبد المؤمن، وبرع في الفقه والطب والفلسفة، وتولى قضاء إشبيلية واستمر بها خمسًا وعشرين سنة، وكان الطبيب الخاص لأبي يعقوب يوسف ثم لولده المنصور، واتهمه بعض خصومه بالزندقة فنفي من المغرب إلى قرطبة، ثم دعي ثانية إلى مراكش، وأعظم آثار ابن رشد شرحه لفلسفة أرسطو. مات سنة 595هـ (1195م). [المترجم].

[←404]

يظهر أن الشعر كان طبيعة في أهل الأندلس. قال ياقوت في الكلام على شلب: وسمعت ممن لا أحصي أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرًا أو يعاني الأدب، ولو مررت بالفلّاح خلف فدَّانه وسألتَه عن الشعر، قرَض من ساعته ما اقترحتَ عليه في أي معنًى طلبتَ منه. [المترجم].

[←405]

المرية: إحدى مدن كورة إلبيرة وهي باب الشرق ومفتاح التجارة، ومرسى للسفن وما يقوم به الأسطول. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 183، 184.

[←406]

ميورقة: جزيرة فتحها المسلمون سنة 290هـ/902م تطل على البحر الزقاقي ومدينة بجاية من جهة القبلة. لمزيد من التفاصيل انظر: الحميري، الروض المعطار، ص 188.

[←407]

هو أبو عبد الله محمد الثاني عشر بن علي بن سعد بن علي بن يوسف المستغني بالله بن محمد ابن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف، الملقب بالزغبي، حكم فترتين الأولى من 887-888هـ/1482-1483م، والثانية من 891-898هـ/1486-1492م. انظر: زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، 1/94.

[←408]

هو أبو عبد الله محمد الثالث أو محمد المخلوع بن محمد الفقيه بن محمد الغالب بالله بن يوسف ابن محمد بن أحمد بن نصر، حكم في الفترة من 701-708هـ/1302-1309م. انظر: زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، 1/93.

[←409]

هذه العبارة تكررت على جدران قصور الحمراء وامتدت إلى ما لا نهاية متخذة أشكالًا وصورًا عديدة، وقد كانت هذه العبارة شعار بني نصر وعلامة على الوثائق والرسائل وكأنهم كانوا يشعرون بالخطر المحدق بمدينتهم فعبروا عن مأساة عصرهم بهذه الصورة. انظر لمزيد من التفاصيل عن ذلك: محمد الجمل: قصور الحمراء، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، ص 287-291.

[←410]

ذكر ابن حزم أن عدد فهارس مكتبة قصر الحكم المستنصر بلغت أربعًا وأربعين فهرسة في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها سوى ذكر أسماء الكتب. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 36.

[←411]

الأثيل: الأصيل.

[←412]

تزيد مدة الحكم المستنصر عن ذلك، فقد تولى الحكم سنة 350هـ ومات سنة 366هـ. [المترجم].

[←413]

في نفح الطيب: أنه كان في التاسعة من عمره. [المترجم].

[←414]

كان أبو علي القالي مؤدب هشام المؤيد، وقد وصفه بأنه كان في صباه في غاية الحِذْق والذَّكاء. [المترجم].

[← 415]

صبح البشكنسية أو صبيحة أو أورورا -ومعناها بالإسبانية الفجر أو الصباح الباكر- جارية الخليفة الحكم المستنصر بالله وأم ولديه عبد الرحمن وهشام، ظهرت صبح البشكنسية كجارية في بلاط الخلافة في أوائل عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله، وقد شغف بها الحكم وحظيت عنده واستأثرت لديه بالنفوذ والرأي، خاصة بعدما أنجبت له ابنه الأول عبد الرحمن عام 351هـ الذي توفي طفلا ومن بعده ولده هشام. كما كانت كلمة صبح مسموعة في تعيين الوزراء ورجال الدولة والبطانة وأغلب شؤون الدولة وكان لصبح الدور الأكبر في تقديم محمد بن أبي عامر وتنصيبه في مهام كبيرة بعد إعجابها بذكائه ومواهبه وظرف شمائله، توفي الخليفة الحكم المستنصر وكان ولي عهده وابنه هشام ما زال في الثانية عشرة من عمره، مما استوجب وجود وصي على عرشه. تولت صبح الوصاية على ابنها، بدعم من الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وحليفها صاحب الشرطة ورجل الدولة القوي محمد بن أبي عامر. توطّدت العلاقة بين صبح وابن أبي عامر، حتى تناقلتها الألسنة، ودارت حولها الأناشيد والأشعار الشعبية، وقد مكّنت صبح محمد بن أبي عامر من تولي كل سلطة وكل أمر، مما ساعد ابن أبي عامر على إزاحة منافسيه على السلطة الواحد تلو الآخر ثم نهج ابن أبي عامر نهجًا جديدًا بأن حجر على الخليفة الصبي ولم يسمح لأحد بمخالطته، بل وإن خرج من القصر ألبسه بُرنسًا فلا يُعرف، وأحاطه بالجند ليمنع العامة من الوصول إليه، ثم أقام سورًا وخندقًا حول قصر الخلافة، ليحكم حجره على الخليفة. ومع تلك التطورات، أدركت صبح خطورة الأحداث على عرش ولدها، فأشاعت بين العامة أن المنصور يسجن الخليفة ويحكم رغمًا عنه ويغتصب سلطته. ثم ألّبت عليه القائد غالبًا من جهة، ثم راسلت زيري بن عطية حاكم المغرب الأقصى لنصرة ولدها، وأرسلت أموالا إليه ليجهز جيشه ويعبر إلى الأندلس. فطن المنصور لذلك، فلجأ أولًا إلى رفع يدها عن أموال خزائن القصر الخليفي التي كانت تقوم بتهريبها بواسطة فتيانها، فأرسل ابن أبي عامر ابنه عبد الملك بقوة وجمع من العلماء والوزراء إلى قصر الخلافة بقرطبة، وخاطب الخليفة هشامًا في أمر الأموال التي تهربها والدته، وطلب أن تنقل كل الأموال من قصر الزهراء إلى قصر الزاهرة. وبعد أن فشلت محاولات صبح البشكنسية في استرجاع ملك ابنها، اعتزلت ورضخت للمصير الذي آل إليه ولدها، وتوفيت صبح أم المؤيد هشام سنة 389هـ/999م. انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، 2/251 وما بعدها ؛ محمد عبدالله عنان: دولة= =الإسلام في الأندلس، 1/521 وما بعدها ؛ عنان: تراجم إسلامية، ص199-211؛ راوية عبدالحميد: المرأة في

المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة، دار عين، القاهرة، ط1، 2006م، ص117-122.

[←416]

لما مات الحكَم عزم جؤذر وفائق رئيس صقالبة القصر على صرف البيعة إلى المغيرة أخيه، وأخبرا المصحفي بذلك فوافقهما في الظاهر، ثم جمع جنده وأرسل ابن أبي عامر لقتل المغيرة فخنقه، وأُخِذت البيعةُ لهشام. [المترجم].

[←417]

هو جعفر بن عثمان المصحفي. [المترجم].

[←418]

في الحلل السُّنْدُسِية للأمير شكيب أرسلان: أن غالب بن عبد الرحمن كان من أشهر قواد بني أمية. فهو الذي رَمَّ حصون مدينة سالم سنة 335هـ وهو الذي زحف على قشتالة وأوقع بأهلها سنة 342هـ، وفي إحدى غزواته ببر العدوة استصحبه القاضي محمد بن أبي عامر وانعقدت بينهما مودة أكيدة. [المترجم].

[←419]

روماني انتخب حاكمًا للدولة سنة 509 ق. م. وحين علم أن ولديه اشتركا في مؤامرة لقلب نظام الحكم، حكم عليهما بالإعدام. [المترجم].

[←420]

أرباض قرطبة: أي ضواحيها، وقد ذكر ابن بشكوال أنها بلغت واحدا وعشرين ربضًا: فالمدينة القبلية بعدوة النهر بها ربض شقندة، وربض منية عجب، وأما الغربية فتسعة، وهي: ربض حوانيت الريحان، وربض الرقاقين، وربض مسجد الكهف، وربض باب اليهود، وربض مسجد أم سلمة،= =وربض الرصافة. وأما الشرقية، فسبعة، وهي: ربض شبلار، ربض فرن بربل، وربض البرج، وربض منية عبد الله، وربض منية المغيرة، وربض الزاهرة، وربض المدينة العتيقة، وهو نفس ما ذكره ابن الخطيب والمقري. انظر: المقري: نفح الطيب، 1/458، 465، 466.

[←421]

بنى مدينة الزاهرة بطرف قرطبة على نهرها الأعظم سنة 368هـ، وانتقل إليها سنة 370هـ. [المترجم].

[←422]

السكة: هي النقود والعملة، وتعرف الدار التي تصدر النقود بدار السكة أو دار الضرب التي يسك فيها النقد باختلاف أنواعه من دنانير ودراهم وفلوس، وعرف ابن خلدون السكة بأنها الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد تنقش فيه صور أو كلمات مقلوبة، ويضرب بها على الدنانير أو الدراهم، ولفظ السكة كان يطلق على الطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم. انظر: ابن خلدون: المقدمة، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت، ص 182، 183؛ أنستاس ماري الكرملي: النقود العربية وعلم النميات، المطبعة العصرية، القاهرة، 1939م، ص 104 وما بعدها؛ طاهر راغب: النقود الإسلامية الأولى، مطبعة المدينة، القاهرة، ط1، 1405هـ/1984م، ص 13، 14.

[←423]

كان عدد الصقالبة الذين نكبهم في هذه الحادثة ثمانمائة أو يزيدون. [المترجم].

[←424]

في نفح الطيب: أنه غزا ستا وخمسين غزوة. [المترجم].

من غزوات المنصور الخمسين: غزواته على حصن الحامة في رجب 366 هـ، وحصن مولة في شوال 366 هـ، وشلمنقة في صفر 367 هـ وفي ربيع الأول 373 هـ، وريف مملكة نافار وكونتية برشلونة في شوال 367 هـ، والمُنية في ربيع الآخر 370 هـ، وقلعة أيوب وأنتيسة في ذي القعدة 370 هـ، وسمورة في رمضان 373 هـ، وطرنكوشة في ربيع الآخر 371 هـ... وغيرها انظر: العذري: نصوص عن الأندلس، ص74 وما بعدها، ولابن حزم كتاب مفرد عن غزوات المنصور بن أبي عامر إلا أنه مفقود للأسف، ولكن إذا كانت وفاة العذري بعد ابن حزم باثنين وعشرين عامًا فمن المرجح أن يكون الأول قد استفاد من الثاني، وأن النصوص التي ذكرها عن غزوات المنصور مستقاة من كتاب ابن حزم المفرد عن هذه الغزوات. انظر:

عبدالباقي السيد: ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي، ص352 ؛ نفس المؤلف: التدوين التاريخي عند ابن حزم، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2017م، ص 178.

[←425]

في نفح الطيب: واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف. [المترجم].

[←426]

كنيسة شنت ياقُوب: كنيسة عظيمة في ثغور مارِدة، وقد بنيت على جسد يعقوب الحواري الذي قتل ببيت المقدس وانتقل جثمانه إلى المكان الذي بنيت فيه الكنيسة، وذلك بواسطة أحد تلامذته، وقد غزا المنصور بن أبي عامر شنت ياقوب سنة 387هـ وأسر وقتل وهدم وأحرق. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 115؛ المقري: نفح الطيب، 1/413، 414.

[←427]

في نفح الطيب أنه قال: إني أونس يعقوب. [المترجم].

[←428]

انظر عن هذه المقولة: دوزي: المسلمون في الأندلس، 2/146.

[←429]

مات سنة 374هـ. [المترجم].

[←430]

يسمي العرب هذه الغزوة: غزوة قنالش والدير. [المترجم].

[←431]

عن ذلك انظر: Dozy, Recherchés sur L.Histoire et la Litterature de L.Espagne pendant le moyen age, parise-leyde, troisieme edition, 1881,T.1, p.193؛ دوزى: المسلمون في الأندلس، 2/146؛ آنخل جونثالث

بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955م، ص11،12 ؛ عبدالله محمد جمال الدين: من نصوص كتاب المتين للمؤرخ القرطبي الكبير أبي مروان بن حيان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997م، ص 175.

[←432]

الغَرْب: الحِدَّة.

[←433]

هم أنصار الدون كارلوس البربوني ولد سنة 1788م، ومات سنة 1855م، وهو الابن الثاني لشارل الرابع، وكان يُدعى ملِك أسبانيا. [المترجم].

[←434]

عبدالملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر، تولى حجابة الأندلس بعد وفاة أبيه المنصور، وكان يقال عنه: «لم يولد بالأندلس مولود أسعد منه على أبيه وعلى نفسه وعلى حاشيته»، تمسك بمن استخلصه أبوه من طبقات أهل المعرفة، واصطنع البرابرة العدويين ودعا قبائلهم للدخول إليه والخدمة له، وبلغت الأندلس في أيامه نهاية الكمال. انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، 1/270 ؛ المقري: نفح الطيب، 1/423؛ عبدالله محمد جمال الدين: من نصوص كتاب المتين، ص 178-182.

[←435]

هو عبدالرحمن شنجول لقب بالمأمون وبالناصر، وتولى الحجابة بعد أخيه المظفر، وقد جر افتراق الجماعة وجرأ على خلعان الطاعة، وقد زاحم الخليفة هشامًا في الخلافة وطلب منه أن يجعله وليًّا للعهد، ولم تدم مدته طويلًا حيث قام عليه المهدي محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر فقتله وصلبه، وانبعثت الفتن عقب ذلك. انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، 1/270، 271؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/ بروفنسال، ص 94؛ وانظر: تاريخ ابن خلدون، 4/149؛ المقري: نفح الطيب، 1/424.

[←436]

تولى في الفترة من 403هـ/1012م حتى 422هـ/1030م ثمانية خلفاء هم محمد بن هشام المهدي، وسليمان بن الحكم المستعين، وعلي بن حمود الناصر، والقاسم بن حمود المأمون، ويحيى بن علي المعتلي، وعبدالرحمن بن هشام المستظهر صديق ابن حزم الظاهري، ومحمد ابن عبدالرحمن المستكفي، وهشام بن محمد المعتد بالله. انظر: ابن حزم: ذكر أوقات الأمراء، ص 196-203.

[←437]

كان هشام بن محمد المعتد بالله لعبة في أيدى القرطبيين، وكان علي بن حمود لعبة في أيدي الصقالبة، وكان سليمان بن الحكم المستعين لعبة في أيدي البربر، والرابع هو إسماعيل بن عباد أمير إشبيلية الذي أظهر شبيهًا لهشام المؤيد يدعى خلف الحصري عثر عليه في قلعة رباح إحدى المناطق التابعة لسلطانه، وأعلن أن هشامًا لم يمت، وبايعه الناس بالخلافة على أنه هشام المؤيد. انظر: ابن حزم: ذكر أوقات الأمراء، 197، 199، 203؛ ابن حزم: نقط العروس، رسائل ابن حزم، 2/97؛ دوزي: ملوك الطوائف، ترجمة كامل الكيلاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ص 33.

[←438]

هو خلف الحصري كان شديد الشبه بهشام المؤيد، فادعوا أنه هو. ابن حزم، نقط العروس، رسائل، 2/97، 98.

[←439]

المعروف أن محمد بن عباد أمير إشبيلية هو الذي ادعى وجود هشام ثانية كذبًا وتمويهًا ليستعين بهذه الحيلة على أمره ويهدد خصومه. [المترجم].

[←440]

هشام الثالث المعتد بالله آخر خلفاء الأندلس، وأخو الخليفة عبد الرحمن المرتضى الذي قُتل دون الخلافة عام 409هـ/1018م في معركة أمام بربر صنهاجة حلفاء بني حمود في إلبيرة، ففرّ هشام من قرطبة إلى حصن ألبونت في جوار صاحب الحصن عبد الله بن قاسم الفهري. وبعد أن خلع القرطبيون يحيى المعتلي بالله من خلافته الثانية في 20 ربيع

الآخر 418هـ/1027م، قرر أهل قرطبة رد الخلافة للأمويين، واختاروا هشام بن محمد بن عبد الملك فبايعوه في 25 ربيع الآخر، ولقّبوه بالمعتد بالله. بقي المعتد بالله العامين الأولين من خلافته في ألبونت، ثم انتقل إلى قرطبة في ذي الحجة 420هـ/1029م، في خلافته كان الأمر والنهي لرجل من وزرائه يدعى الحكم بن سعيد القزاز، الذي أساء معاملة القرطبيين، واستأثر بكل سلطة. فاستغل أمير أموي يدعى أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر والمعروف بالعراقي غضب القرطبيين، وفتك بالحكم القزاز في ذي القعدة 422هـ/1030م ثم هاجم القصر هو والعامة، ففر منه المعتد بالله بأهله، وهو يناشد المهاجمين حقن دمه. ثم رأى أهل قرطبة إبطال الخلافة بالكلية، فخلعوا هشامًا في 12 ذي الحجة 422هـ/1030م، ونفي جميع الأمويين من المدينة. أما هشام المعتد بالله فلجأ إلى جوار سليمان بن هود صاحب لاردة حتى توفي في صفر 428هـ/1036م. انظر: ابن حزم: ذكر أوقات الأمراء، رسائل ابن حزم، 2/203، 204؛ الحميدي: جذوة المقتبس، ص 28؛ ابن عذاري: البيان المغرب، 3/145؛ ابن سعيد: المغرب، 1/55، المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق/ محمد زينهم، دار الفرجاني، القاهرة، 1414هـ/1994م، ص 57.

[441 ←]

لحق المعتد بالله بعد خروجه من السجن بابن هود وأقام عنده ومات في لاردة سنة 428هـ-1036م. [المترجم].

انظر عن هذا النص: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/ بروفنسال، ص 139.

[442 ←]

عن ثورة العامة عقب إزاحة دولة المنصور العامري. انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، 3/69-74 ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/ بروفنسال، ص112؛ دوزي: المسلمون في الأندلس، 2/161-166.

[443 ←]

عن تدمير البربر لمدينة الزهراء. انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، 3/64،65 ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/ ليفي بروفنسال، ص129؛ ليفي بروفنسال: مدينة الزهراء، دائرة المعارف الإسلامية، 3/95 وما

بعدها؛ هنري بيريس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1408هـ/1988م، ص 114.

[←444]

كان أول من تولى الخلافة من بني حمود هو علي بن حمود الملقب بالناصر. انظر: ابن حزم: ذكر أوقات الأمراء، ص 199.

[←445]

كما فعل أبو الحزم بن جهور: فإنه حكم مملكة قرطبة حكمًا يشبه الحكم الدستوري من سنة 422هـ إلى سنة 435هـ فكان الذي يقوم بالحكم جماعة من كبار رجال الدولة، ولما مات قام ابنه أبو الوليد بالأمر بعده على هذا التدبير إلى أن مات سنة 443هـ. [المترجم].

[←446]

المعتضد: ابن عباد الذي أحرق كتب ابن حزم علانية بإشبيلية، ثاني ملوك بني عباد على إشبيلية في الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف. خلف أباه أبا القاسم بن عباد، ونجح في توسيع الإمارة غربًا لتضمَّ لبلة ولبة وجزيرة شلطيش، ثم خاض صراعًا مع طوائف البربر في الجنوب حتى ضمَّ قرمونة ومورور ورندة وأركش والجزيرة الخضراء، وأخيرًا استولى على قرطبة. كان المعتضد شهمًا مهيبًا قويًّا صارمًا، وإن كان مستبدًّا، ويُروَى أنه قتل ابنه البكر إسماعيل بيديه حين تآمر عليه وقد أراد توحيد الأندلس تحت حكمه، فدخل في العديد من الصراعات مع ملوك الطوائف الآخرين بالأندلس. تزوج المعتضد من ابنة مجاهد العامري صاحب دانية، وكانت له نحو سبعين جارية، وورث الحكم عنه ابنه محمد المعتمد على الله. انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، 2/39-52؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، 5/331، دار فرانز شتاينر بقيبادية، اسطنبول، 1981م.

[←447]

ألفونسو السادس (الأذفونش): هو الابن الثاني للملك فرناندو الأول ملك ليون وقشتالة وسانشا الليونية ابنة ألفونسو الخامس ملك ليون وشقيقة برمودو الثالث ملك ليون. بوفاة والده، قُسمت مملكته بين أبنائه، فكان نصيب ألفونسو ليون، بينما تُوّج شقيقاه سانشو ملكًا على قشتالة وغارسيا على جليقية. انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/

بروفنسال، ص330 ؛ يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة وتعليق/ محمد عبدالله عنان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014م، 1/125 وما بعدها؛ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 3/389-404.

[←448]

يسميه صاحب نفح الطيب القنبطور. [المترجم].

[←449]

أشهر ملوك الطوائف، شاعر، أديب، شجاع. أسره ابن تاشفين ومات بالمغرب سنة 488هـ. [المترجم].

[←450]

جاءت هذه المقولة عند ابن خلكان على النحو التالى: «لأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج». انظر: وفيات الأعيان، 2/483، ووردت عند الذهبي وغيره بلفظ: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير». انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الغد العربي، القاهرة، طـ 1، 1996م. 32/25، والحميري: الروض المعطار، ص288، تحقيق/= =جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م.والسلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 2/38.

[←451]

خلف ابن عمه على بلاد المغرب فاستقرَّ له ملكه ودانت بلاده، وكان شجاعًا داهية متشددًا في الدين، توفي سنة 493هـ. [المترجم].

هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورفيت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة بن أمية بن واتلمي ابن تامليت الحميري، من قبيلة لمتونة الصنهاجية. أمه هي ابنة عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقطين. كانت قبيلته تسكن المنطقة الممتدة من وادي نون إلى رأس موغادور، إلى مدينة ازكي شرقًا، وكانت المناطق الشمالية مقرًّا لبني وارتقطين، وفيها ولد ابن تاشفين عام 400 هـ الموافق 1009م. عُرفت قبيلته بالسيادة وبسطت سيطرتها على صنهاجة، واستطاعت الاحتفاظ بالرئاسة منذ أن جعلها فيها الإمام ابن ياسين. تلقى في طفولته العلم من

أفواه المحدثين والوعاظ،، ونال ابن تاشفين نصيبًا من تعاليم عبد الله بن ياسين، ودبر أمر المرابطين بحنكة، وعبر إلى الأندلس وضمها إلى الدولة المرابطية بعد أن انتصر نصرًا مؤزرًا في موقعة الزلاقة، وخُطب له بالأندلس والمغرب على ألف منبر وتسعمئة منبر. انظر: المراكشي: المعجب، ص 116 وما بعدها؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس، 136، 137؛ عنان: تراجم إسلامية، ص225-234. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م.

ومن أبرز الدراسات عن يوسف بن تاشفين: سعدون نصرالله دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1405هـ/1985م؛ حامد= =محمد الخليفة: انتصارات ابن تاشفين، بطل معركة الزلاقة وقائد المرابطين، موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين، مكتبة الصحابة، الشارقة، ط1، 1425هـ/2004م.

[←452]

الزلاقة: هي بطحاء من إقليم بطليوس غرب الأندلس، وفيها كانت الواقعة الشهيرة للمسلمين بقيادة يوسف بن تاشفين حيث انتصر انتصارًا مؤزرًا على ملك قشتالة ألفونسو السادس سنة 479هـ/1086م. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 8/447، ابن الأبار: الحلة السيراء، 2/100، ابن خلكان: وفيات الأعيان، 7/116، ابن خلدون: العبر، 6/186، الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص83 وما بعدها؛ المقري: نفح الطيب، 4/364، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص146، السلاوي: الاستقصا، 2/43.

[←453]

هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رياح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم، أسلم سنة ست من النبوة، وقيل سنة خمس، وقد أعز الله الإسلام بإسلامه، وفي عهده اتسعت الدولة الإسلامية، وكان أبيض أمهق تعلوه حمرة، طوالًا أصلع، شديد حمرة العين، استشهد رضي الله عنه سنة 23هـ. انظر: ابن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق/ طارق محمد عبدالمنعم، دار ابن خلدون، الإسكندرية، 1/83-91؛ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، بيروت، 1414هـ/1994م، 4/53؛ المحب الطبري: الرياض النضرة في مناقب العشرة، دار المنار، القاهرة، ط1، 1421هـ/2000م، ص= =185-291؛ ابن

حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، مكتبة مصر، القاهرة، د. ت، ترجمة رقم 5736.

[←454]

حصن ليط: يقع حصن الليط على جبل شامخ بين مرسية ولورقة، وكان القشتاليون قد اتخذوه مركزًا يغيرون منه على الأقاليم المحيطة به فحاصروا المرية ولورقة ومرسية مما اضطر ابن اليسع صاحب لورقة أن يبادر بالاعتراف بسيادة المعتمد بن عباد لعجزه عن مقاومة قشتالي الليط. انظر: دوزي: المسلمون في الأندلس، 3/137، 138.

[←455]

يشبههم المؤلف بالبيوريتان أو الأتقياء: وهم صنف من البروتستنت متشددين في الدين، وكان لهم نفوذ أيام حكم كرمويل. [المترجم].

[←456]

شاعر إنجليزي من الدرجة الأولى اشتهر بالنقد اللاذع الساخر، 1608م، ومات سنة 1674م. [المترجم].

[←457]

كان للفقهاء سطوة كبيرة في عصر المرابطين دفعت السلطة الحاكمة إلى تبني الدراسات المرتبطة بفروع المذهب المالكي، ومحاصرة الفكر الفلسفي وما يدور في فلكه، ومن ثم سمعنا في عصرهم عن إحراق كتاب الإحياء للفيلسوف والفقيه الشافعي العظيم أبي حامد الغزالي. انظر: التادلي التشوف لمعرفة رجال التصوف، تحقيق/ عبد الوهاب منصور، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2006م، ص 90؛ حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص446، واضطر عدد كبير من الفلاسفة أن يخفوا نشاطهم كمالك بن وهب الأزدي الإشبيلي المقرب من علي بن يوسف بن تاشفين، وذلك لما لحقه من المطالبة بدمه بسبب تمكنه من الفلسفة واشتغاله بها. انظر: البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص27 ؛ المراكشي: المعجب في أخبار المغرب، ص185 ؛ وحتى ابن باجة الفيلسوف الشهير اضطر لمسايرة الوضع السياسي بإنشاء تصورات فلسفية مثالية تبرر موالاته لجانب المرابطين. انظر: ابن باجة: رسائل ابن باجة، تحقيق/ ماجد فخري، دار النهار، بيروت،

ط2، 1991م، ص64. واتهم علي بن جودي تلميذ ابن باجة في دينه ولاحقته السلطة المرابطية لأجل اشتغاله بالفلسفة. انظر: ابن سعيد: المغرب، 2/109. وتم تغريب الفيلسوف أمية بن أبي عبدالعزيز لاشتغاله بالمنطق والفلسفة. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، 19/634. وقتل البعض من الفلاسفة كأبي بكر محمد ابن الحسين الميورقي، ومنع البعض من التدريس كأبي الفضل بن النحوي. انظر: ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق/ محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1908م، ص301. ولعل تبكيت الشقندي للمغاربة بأنهم لم ينجبوا في علوم اللحون والفلسفة كابن باجة خير دليل على كراهية المرابطين للفكر والفلسفة. انظر: المقري: نفح الطيب، 3/192. ولمزيد من التفاصيل عن= =الحركة الفلسفية بالأندلس في عصر المرابطين والموقف منها انظر: آنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، 334-347 ؛ كروث إرنانديث: تاريخ الفكر في العالم الإسلامي، ترجمة عبدالعال صالح، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013م، 2/152 وما بعدها ؛ دى بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2010م، ص 323 وما بعدها ؛ محمد عبدالرحيم الزيني: ابن السيد البطليوسي وآراؤه الفلسفية والكلامية، دار اليقين، المنصورة، ط1، 1431هـ/2010م، ص 43-49.

[←458]

في أخبار المغرب للمراكشي: وكان لا يبت حكمه في صغير ولا كثير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، وقرَّر الفقهاء عنده تقبيح علم الكلام، وأمر بإحراق كتب الغزالي لما دخلت الأندلس. [المترجم].

[←459]

في طبعة دار المعارف: قليلًا إلا.

[←460]

مدينة من أجمل مدن إيطاليا وأمنعها حصانة، حاصرها الرومانيون حتى كاد يهلك أهلها فاضطر هانيبال إلى تسليمها حوالي سنة 210 ق. م. [المترجم].

[←461]

ابن حمدين: هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن محمد بن عبدالعزيز بن حمدين التغلبي، نجح في السيطرة على قرطبة عقب مغادرة ابن غانية لها وقتل قاضي المدينة، ونادى على نفسه بالمسجد الجامع بقرطبة باسم المنصور بالله، وذلك سنة 539هـ/1145م، واشتد في مطاردة كل من لحقته ريبة في الانحياز إلى المرابطين. انظر: ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ترجمة 119؛ الضبي: بغية الملتمس، ترجمة 385؛ يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس، ص 218، 219.

[←462]

ابن قسي: هو أحمد بن الحسين بن قسي أبو القاسم أول الثوار المريدين الذين قاموا بالثورة على المرابطين، رومي الأصل من بادية شلب، ادعى الهداية مخرقة وتمويهًا على العامة، وتسمى بالإمام، وهو صاحب كتاب «خلع النعلين» (توفي بعد سنة 540هـ/ بعد 1145م) وكانت له كرامات منها أنه كان عنده عنزة يوجد طعم العسل في لبنها، وكان عنده شجرة يخرج من ثمارها الدنانير الكثيرة، وما وقع لأبي يعزى يكنور من إيواء الأسود والوحوش إليه وعكوف الطير عليه، وكان إذا خاطبها عقلت= =كلامه وعملت به، وكان أهل المغرب يستسقون به فيسقون. ابن الأبار: الحلة السيراء، 2/197-202 ؛ المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، 1/645،648 ؛ يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس، 1/215-217.

[←463]

ابن وزير سيداري: هو محمد بن سيداري بن عبدالوهاب بن وزير القيسي كان أبوه أبو محمد سيداري أميرًا بغرب الأندلس وتغلب على ابن قسي سنة 540هـ/1145م، وكان هو وابنه أبو بكر محمد بن سيداري صاحب الترجمة من رجالات الأندلس رجاحة وشهامة، وتولى أبو بكر محمد قصر الفتح المنسوب إلى أبي دانس في ناحية الجوف بالأندلس بعد استرداده من نصارى الشمال سنة 587هـ/1191م، وتوفي بعد حضوره واقعة العقاب. انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، 2/271-275.

[←464]

ابن مردنيش: هو عبدالله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر عبدالله بن عياض والي الثغر وما والاه، تولى بلنسية وأسكنه الجند قصرها عقب اختفاء ابن عبدالعزيز وخروجه منها، وهو عم محمد ابن سعد بن مردنيش زعيم شرق الأندلس الشهير، ويعرف بصاحب البسيط، لأنه استشهد في

موقعة البسيط مع ابن هود. انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، 2/214، 215؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/ بروفنسال، ص 256.

[←465]

هو عبدالمؤمن بن علي بن علوي الكومي، ولد بضيعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا سنة 487هـ/1094م في أيام يوسف بن تاشفين، وكان أبيض تعلوه حمرة شديد سواد الشعر معتدل القامة وضيء الوجه جهوري الصوت، تولى أمر الموحدين بعد وفاة ابن تومرت، وتوفي سنة 558هـ/1162م. انظر: المراكشي: المعجب، ص169 وما بعدها.

[←466]

وادي الرمل: يبعد عن مدينة طَلَبِيرة خمسة وثلاثين ميلًا. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 127.

[←467]

بازو: عاصمة مملكة غاليسية البرتغالية. انظر: دوزي: المسلمون في الأندلس، 2/261 هامش 15.

[←468]

عن السيد الكمبيدور: انظر: ملحمة السيد، ترجمة الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1983م ؛ ابن عذاري: البيان المغرب، 3/305؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/ بروفنسال، ص 203 ؛ ومعنى الكمبيدور أو القنبيطور على حد قول ابن عذاري «صاحب الفحص».

[←469]

روبرت سوذي: شاعر كاتب أديب إنجليزي مات سنة 1843م. [المترجم].

[←470]

اسم قصر السيد. [المترجم].

[←471]

بُرغُش: مدينة بالقرب من ليون، الغالب عليها اليهود، وهي مدينة كبيرة يفصلها نهر. الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 44.

[←472]

هو أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر. [المترجم].

[←473]

أمير بلنسية: هو يحيى بن ذي النون الملقب بالمأمون والذي ضم بلنسية إلى مملكته، وظلت تحت حكمه في الفترة من 458هـ/1065م حتى 469هـ/1076م.

[←474]

يحيى بن ذي النون: هو يحيى بن إسماعيل الملقب بالمأمون خلف والده الظافر إسماعيل في الحكم سنة (435هـ/1043م)، وقد سار على سُنَّة أبيه في تسيير أمور مملكته المترامية الأطراف، فأقام بين الناس بالعدل، وكانت السياسة التي انتهجها المأمون في بداية عهده سبيلًا لاتساع مملكته، وعلى الرغم من اتساع مُلك المأمون بن ذي النون إلا أنه شغل خلال فترة حكمه الثلاث والثلاثين بالتخاصم مع ملوك الطوائف الآخرين، وخاصة عدوَّه اللدود سليمان المستعين بن هود صاحب سَرَقُسْطَة، والمعتضد بن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة ومن بعده ابنه المعتمد، وابن الأفطس صاحب بَطَلْيَوس. انظر: ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع مجلد 1ص114؛ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، 2/12 ؛ ابن عذاري: البيان المغرب، 3/276، 277 ؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/ بروفنسال، ص205 ؛ ابن خلدون: العبر، 4/161.

[←475]

أصغر قطعة نحاسية بأسبانيا، وهي أقل من الفارذنج الذي يقرب من المليم، وفي الحلل السندسية:= =أن أمير بلنسية كان يمنحه عشرة آلاف دينار في كل شهر. [المترجم].

[←476]

أهراءه: الأهراء هي الأماكن التي تخزن بها الغلال الخاصة بالسلطان. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، 4/33.

[←477]

دانية: مدينة حصينة وهي إحدى كور مدينة بلنسية وتقع في الجنوب الشرقي لها، تقع على ساحل البحر. انظر: العذري، نصوص عن الأندلس، ص 19 ؛ ومن الدراسات المهمة عن مدينة دانية التاريخ السياسي والحضاري لمدينة دانية الإسلامية منذ سقوط الدولة العامرية حتى استيلاء الأرغونيين عليها للأستاذة الدكتورة عبير زكريا سليمان، وهي في الأصل أطروحة دكتوراه تقدمت بها لكلية الآداب جامعة طنطا، 1420هـ/2000م.

[←478]

شاطبة: حصن من حصون مدينة بلنسية تقع شرقي قرطبة. انظر، ابن غالب، منتقى فرحة الأنفس، ص 285.

[←479]

أريولة: هي مدينة أُورِيُولَة، وقد سبق التعريف بها.

[←480]

السغب: هو الجوع، والمسغبة المجاعة، ومنها قوله تعالى في سورة البلد: ﴿ے ۓ ۓ ﯕ ﯖ ﯗ﴾ (14). انظر: محمد عبده: تفسير جزء عم، ص 94.

[←481]

المخمصة: المجاعة.

[←482]

عن الشروط القاسية: انظر: ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، تحقيق/ أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، 1965م، 1966م، مجلد 13، ص 85 ؛ الطاهر مكي: ملحمة السيد، دار المعارف، القاهرة، ص 92 ؛ عبدالسلام أحمد الطود: بنو عباد بإشبيلية، ص 239، 240.

[←483]

لأنه بعد أن عاهد القاضي أبا أحمد بن جحاف حاكم بلنسية أحرقه بالنار. [المترجم].

[←484]

ابن رزين: هو عبدالملك بن هُذَيل بن رزين حسام الدولة أبو مروان ذو الرياستين، ولي بعد أبيه الحاجب عز الدولة أبي محمد هذيل بن عبدالملك شنتمرية الشرق، وصار إليه بعض أعمال بلنسية، توفي سنة 496هـ. انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، 2/108-115.

[←485]

البونت: قرية من أعمال بلنسية. لمزيد من التفاصيل انظر الحميري، الروض المعطار، ص 56.

[←486]

مربيطر: حصن بالأندلس قريب من طُرطوشة، وهي كثيرة الزيتون والشجر والأعناب والثمار. انظر الحميري، الروض المعطار، ص 181، 182.

[←487]

سقطت روما على يد القبائل الجرمانية سنة 476م.

[←488]

المنكودة: تعيسة سيئة الحظ.

[←489]

الأرك: حصن منيع من قلعة رباح، وفيه كانت واقعة الأرك التي انتصر فيها المنصور الموحدي على صاحب قشتالة نصرًا مؤزرًا. الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 12، 13.

[←490]

العقَاب: منطقة بين جيان وقلعة رباح، وقعت فيها موقعة عظيمة هزم فيها المسلمون سنة 609هـ/1212م. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص137، 138.

[←491]

ابن هود: هو محمد بن يوسف بن هود، الذي أصبح حاكم الأندلس الشرعي في نهاية حكم الموحدين، حيث اعترفت بطاعته العديد من مدن الأندلس كشاطبة وجيان وغرناطة ومالقة والمرية وإشبيلية، واستولى بعد ذلك على الجزيرة الخضراء وجبل الفتح من أيدي الموحدين سنة 629هـ/1231م، واستظل بلواء الخلافة العباسية فرفع شعار السواد، ودعا للخليفة المستنصر بالله العباسي، وتلقب بلقب المتوكل على الله، ووقع الصراع بينه وبين ابن الأحمر مؤسس مملكة بني نصر فيما بعد. انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، 3/276-279 ؛ ابن خلدون: العبر، 4/169وما بعدها؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق/ بروفنسال، ص 280 وما بعدها.

[←492]

بني نصر: أصلهم من أرجُونَة من حصون قرطبة، وينتسبون إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة الخزرجي، وأول حكامهم محمد بن يوسف بن نصر والذي كان يعرف بالشيخ، وعرفوا أيضًا ببني الأحمر نسبة إلى جدهم عقيل بن نصر الذي لقب بالأحمر لشقرة فيه. انظر: ابن خلدون: العبر، 4/170 وما بعدها؛ المقري: نفح الطيب، 1/447 وما بعدها؛ مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، 2001م، محمد الجمل: قصور الحمراء، ص 46.

[←493]

سقطت بَلَنسِية وقرطبة ومُرْسِية سنة 636هـ وسقطت إِشْبِيلية سنة 664هـ. [المترجم].

[←494]

قرطبة: قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين، تقع على نهر عظيم، وقرطبة بلسان القوط «قرظبة» ومعناها بلسانهم «القلوب المختلفة»، وقيل معناها «فاسكنها». انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 153-158.

[←495]

معنى «نيفادا» الثلج، ويسمِّي العربُ هذه الجبالَ بجبل الثلج، أو شلير (بصيغة التصغير). [المترجم].

[←496]

شريش: من كور شذونة بالأندلس، وبينها وبين قلشانة خمسة وعشرون ميلًا، وهي على مقربة من البحر، وكانت مشهورة بالكروم الكثيرة والزيتون والتين والحنطة.. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 102.

[←497]

قادِس: جزيرة بالأندلس عند طالقة من مدن إشبيلية.. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 145 وما بعدها.

[←498]

هو محمد بن يوسف بن نصر. [المترجم].

[←499]

محمد العاشر: هو أبو عبد الله محمد العاشر بن عثمان بن يوسف بن يوسف بن محمد بن يوسف ابن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف. لقب بالأحنف. انظر: زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، 1/93، 94؛ تابسيل: معجم الدول والأسر الحاكمة في العالم عبر العصور، المركز القومي للترجمة، القاهرة، طـ 1، 2011م، 2/242، 243.

[←500]

نقد ذهبي كان يُتَعامَل به في أوربا قديمًا، قيمته: تسعة شلنات وأربعة بنسات. فهي تقرب من قيمة الدينار. [المترجم].

[←501]

الحمراء: قصر الحمراء هو قصر أثري وحصن قديم شيده السلطان أبو عبد الله محمد الأول ابن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر بن الأحمر، واضعًا ببنائه النواة الأولى للأسوار والقصبة والقصور ثم تتابعت الزيادات في القصور والمجالس والقاعات على أيدي سلاطين بني نصر بعده، وثمة خلاف بشأن سبب تسمية هذا المعلم البارز باسم قصر الحمراء، فهناك من يرى أنه مشتق من بني الأحمر، وهم بنو نصر حكام غرناطة، بينما يرى آخرون أن التسمية تعود إلى التربة الحمراء التي يمتاز بها التل الذي تم تشييده عليها. في حين ذهب فريق ثالث إلى أن بعض القلاع المجاورة لقصر الحمراء كان يُعرف منذ نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي؛ باسم حصن الحمراء، ومن ثم فإن تسمية قصر الحمراء بهذا الاسم سابقة على عصر بني نصر، وهو ما نميل إليه ونرجحه. انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، 1/149،152؛ باسيليون بابون مالدونادو: العمارة الإسلامية في الأندلس (عمارة القصور)، 3/85 وما بعدها ؛ محمد الجمل: قصور الحمراء، ص46-55.

[← 502]

بدئ في بناء الحمراء في القرنِ الثالثَ عشرَ، وتمَّ في القرن الرابعَ عشرَ. [المترجم].

[← 503]

حصن قديم على صخرة ارتفاعها خمسون ومائة قدم. [المترجم].

[← 504]

يسمى هذا المرج أيضًا بالفحص والبطح، وهو يمتد نحو خمسين كيلومترًا إلى الغرب حتى مدينة لوشة. [المترجم].

[← 505]

في الروض المعطار: حدره. ويظهر أنهم كانوا يبدلون الهاء واوًا عند النطق. [المترجم].

[← 506]

تسمَّى الأرض التي بها الحمراء وما حولها بالسبيكة. [المترجم].

[← 507]

دار العدل: قصر مستقل بالحمراء جدد بناءه الأمير أبو الحجاج يوسف بن الأحمر سنة 749هـ، وكان يجلس فيه السلطان صباح الاثنين والخميس لسماع القرآن وأحاديث النبي العدنان، وفيه يأخذ الوزير قصص الناس ليعرضها على السلطان. انظر: ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، تحقيق/ كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010م، 3/120.

[← 508]

كانوا يجلسون للحكم يومي الاثنين والخميس. [المترجم].

[← 509]

إشارة إلى أن العدل قوة في الدنيا والآخرة. [المترجم].

[← 510]

شارل الخامس: هو ابن فيليب الأول وخوانا ملكة قشتالة، ولد شارل في ڤانسان وأصبح وصيًّا على== عرش فرنسا بعد استسلام والده جان الثاني إلى الإنجليز في بواتييه في عام 1356م، وفي عام 1364م، توج شارل ملكًا على فرنسا باسم شارل الخامس، وفي عهده اتسعت رقعة الإمبراطورية في أوربا واتسعت رقعة أسبانيا خاصة في المكسيك والبيرو. قسم ملكه على ولديه فرديناند الأول وفيليب الثاني. وتنازل عن العرش عام 1556م، واعتزل في أحد الأديرة الإسبانية. وتوفي سنة 1558م.

[← 511]

هي عائشة بنت محمد العاشر بن الأحمر سلطانة غرناطة، المعروفة بعائشة الحرّة الأمينة والشريفة، عرفت في التراث الإسبانى باسم Aixa عايشة، أم آخر ملوك غرناطة، وذكر بعض المؤرخين أنها ابنة محمد الثامن. ووفقًا لوثيقة مأخوذة عن لويس سيكو أنها استلمت من أختها أم الفتح منزل زهير والذي تم بيعه في الثالث من أكتوبر عام 1492م للفارس المسيحي لويس دى بالديفيا بمبلغ ألفان وخمسمائة ريال فضية، ثم أصبح بعد ذلك من أملاك الملوك الكاثوليك. ويوجد في غرناطة قصر دار عائشة الحرة وفي الضواحي «قصر جنيل». أصبحت عائشة سلطانة

بعد زواجها من الملك أبي الحسن على الذي أنجبت منه ولدين وهما أبو عبد الله محمد والمعروف في المصادر الإسبانية باسم بوأبديل (Boabdil) والابن الثاني هو أبو الحجاج يوسف كما أنجبت ابنة سميت عائشة. أغرم السلطان بأسيرة مسيحية تدعى إيزابيل دي سوليس وعرفها الغرناطيون باسم ثريا بعد اعتناقها الإسلام، وفي حوالي عام 1484م دبّت بين ثريا وعائشة الغيرة والمنافسة، وشعرت عائشة بالخوف= =على إرث أبنائها خاصة أن ثريا كانت تسعى لدى السلطان لجعل أحد أبنائها وليًّا للعهد بدلًا من أولاد عائشة، كل هذا حفّز عائشة على أن تشترك مع بني سراج في الإطاحة بالسلطان وتعين ابنها أبا عبد الله مكانه بعد تحريره من أحد أبراج قصر الحمراء حيث كان سجينًا من قبل والده السلطان. وحثت عائشة ابنيها على الفرار إلى وادي آش حيث نُصب أبو عبد الله سلطانًا، وعادت عائشة للمثابرة مرة أخرى عندما وقع ابنها أبو عبد الله أسيرًا عند القشتاليين في معركة لوسينا وتفاوضت معهم وتم تحريره، وكانت عائشة تعرف بالحرة تمييزًا لها عن الجارية الرومية ثريا. انظر: عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 7/196-202.

[←512]

السلطان أبي الحسن: هو أبو الحسن علي بن سعد بن علي بن يوسف المستغني بالله بن محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف، حكم فترتين أولهما من سنة 868-887هـ /1464-1482م، والثانية من 888-890هـ/1483-1485م، وكان يلقب بمولاي أبو حسن.

[←513]

أبو عبدالله محمد: هو محمد الثاني عشر آخر حكام غرناطة ، خلع والده من الحكم، وفي عهده سقطت الأندلس.

[←514]

زنْبيلٌ: القُفَّةُ الكَبيرَةُ، الجِرابُ، الوِعاءُ. انظر: عبدالغني أبو العزم: المعجم الغني، زنْبيلٌ.

[←515]

كان بنو سراج وُزراءَ سلاطينِ غَرناطة، ويُقال: إن أبا عبد الله كان يتَّهِمُهم بممالأة الإفرنج. [المترجم].

[←516]

عن هذه المقولة: انظر: خوسيه أنطونيو ك نده: تاريخ حكم العرب في أسبانيا، ترجمة لارا نيكوولا فاليه، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، طـ 1، 2014م، ص 352، واشنطن إيرفنج: أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هاني يحيى نصري، مؤسسة الانتشار العربي، طـ 1، 2000م،ص 70.

[←517]

أقام بأسبانيا زمنا طويلا. مات سنة 1859م. [المترجم].

[←518]

انظر: واشنطون إيرفنج: آخر حروب العرب بأسبانيا.

[←519]

الوصف التالي الذي وُضع بين أقواس، مقتبس من كتاب واشنطون إيرفنج. [المترجم].

[←520]

يسميها صاحب نفح الطيب: «النقيرة». [المترجم].

[←521]

الدساكر: قَالَ الصّغانِيّ: هِيَ (القَرْيَةُ)، والدَّسْكَرَة: الصَّوْمَعَة، وفِي جَامع القَزّاز: الدَّسْكَرعلاَ: الأَرْضُ المُسْتَوِيَةُ، وقِيل: الدَّسْكَرَةُ: بُيُوتُ الأَعَاجِمِ يكون فِيهَا الشَّرَابُ والمَلاَهي. وقيل الدَّسْكَرَة: بِنَاءٌ كالقَصْرِ حَولَه بيُوتٌ وَمنازِلُ للخَدَم والحَشَم. انظر: الزَّبيدي: تاج العروس، مادة دسكر.

[←522]

سنتياغو: هو مدينة شنت ياقُب أو شنت ياقوه أو شنت ياقوب أو شنت يَاق، أو سانت يعقوب، تقع في أقصى الشمال الغربي من شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد سبق التعريف بها.

[←523]

الهُوات: الهُوَّةُ: الحُفْرةُ البعيدةُ القعر، والجمع: هُوًى، وهُوٌّ، وهُوِيٌّ، وهوات. انظر: المعجم الوسيط، مادة هُوَّةُ.

[← 524]

الأخاديد: جمع أخدود وهو الحفرة العميقة.

[← 525]

فِرسِن الوعل: الفِرْسِنُ مِنَ الْبَعِيرِ: بِمَنْزِلَةِ الْحَافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ، قَالَ: وَرُبَّمَا اسْتُعِيرَ فِي الشَّاةِ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة فرسن؛ والوعل: تيْسُ الجَبل، له قرنان قويَّان مُنْحنيان كسيفين أحدبين وهو جنس من المعز الجبليّة، انظر: المعجم الوسيط، الوعل.

[← 526]

الزغل: هو محمد بن سعد بن علي بن يوسف المستغني بالله بن محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف. من بني نصر أو بني الأحمر المنحدرة من قبيلة الخزرج القحطانية، يعرف بالزغل ومعناه الشجاع الباسل، ومن نسله قبيلة ضخمة وعريقة تُدعى بني الزغل (بنو الأحمر) الأنصارية، منتشرة في بلاد المغرب والشام ومصر. انظر: المقري: نفح الطيب، 4/424 ؛ عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 7/202.

[← 527]

فتفرقوا أيدي سبأ: أي تفرقوا تفرقا لا اجتماع بعده، شبهوا بأهل سبأ لما مزقهم الله في الأرض كل ممزق، فأخذ كل طائفة منهم طريقا على حدة. واليد: الطريق، وقد أشار القرآن إلى ذلك في سورة سبأ حيث قال الله تعالى: ﴿ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ﴾ (19).

[← 528]

في نفح الطيب: وقُتِل من النصارى في هذه الوقعة ثلاثةُ آلاف وأُسِر نحو ألفين من جملتهم خالُ السُّلْطان وصاحب إِشبيلية، وصاحب شريش وصاحب النقيرة وغيرهم، وهم نحو الثلاثمائة من الأكابر. وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعُدة والذهب والفضة. [المترجم].

[←529]

هو أبو عبدالله الصغير محمد الثاني عشر آخر حكام غرناطة.

[←530]

قبرة: مدينة أندلسية بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلًا، كانت حتى عهد الحميري مشهورة بسوق جامعة يوم الخميس، وبضروب الفراسات، وأنواع الثمرات، وكثرة الزيتون. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 149.

[←531]

لشانة: هي قلعة اللسانة تقع جنوب شرق قرطبة، وهي حاليًا بلدة صغيرة حصينة ضمن نطاق قرطبة. انظر: مجهول: آخر أيام غرناطة، ص 65.

[←532]

يحرق الأرم: يحكُّ أَضراسَه بعضها ببعض من الغيظ.

[←533]

يزعمون أن المنجِّمين تَكَهَّنوا بأنَّ سُقوط غَرناطة سيكون على يده. [المترجم].

[←534]

رَبَضٌ مُتَّسِعٌ إلى شمال غَرناطة يبلُغ نحو رُبُع المدينة وكان يُقيم به معلمو البُزَاة الصيد. [المترجم].

[←535]

الزغل في لغة المغاربة: الفتى الغضُّ الشباب. [المترجم].

[←536]

أي: أبو عبدالله الصغير (محمد الثاني عشر).

[←537]

لورة: مدينة من مدن إشبيلية.

[←538]

ذكران: لعله ذكوان، وهو حصن في غرب الأندلس. انظر: مجهول: نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق/ محمد رضوان، دار حسان، دمشق، طـ 1، 1404هـ، ص 13.

[←539]

قرطمة: ذكرها ابن غالب وبيّن أنها خربة في عصره إلا اليسير، وأنها معدودة في البادية. انظر: منتقى فرحة الأنفس، ص 295.

[←540]

رُندَة: من مدن تاكُرُنا، تقع على نهر ينسب إليها. الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 79.

[←541]

قلعة رباح: تقع بين طليطلة وقرطبة، إلى الغرب من طليطلة. انظر: ابن غالب: منتقى فرحة الأنفس، ص289 ؛ وسميت بهذا الاسم نسبة إلى رباح، الأمير الذي حكمها في القرن الثامن الميلادي، إلا بعض المصادر العربية تؤكد أنها سميت باسم التابعي علي بن رباح اللخمي الذي اشترك في فتح الأندلس. كانت تابعة لمدينة طليطلة في التقسيم الإداري الأندلسي، وتوصف بأنها مع طلبيرة حد فاصل بين أرض النصارى وأرض المسلمين سقطت في يد ألفونسو السادس مع طليطلة سنة 476هـ (1085م)، ثم استعادها أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي، بعد انتصاره في وقعة (الأرك) تبادلها المسلمون والنصارى عدة مرات، وسقطت نهائيا سنة 1147م، وموقعها اليوم على بعد 12 كيلو مترا شمالي شرقي مدينة سيوداد ريال عاصمة المديرية التي تحمل نفس الاسم جنوبي مديريتي مدريد وطليطلة على ضفاف نهر يانة ولا زالت آثار القلعة باقية حتى الآن، ومن أحدث الدراسات عن قلعة رباح ما قام به الباحث وليد عبدالمنعم حسين، من دراسة تقدم بها للحصول على درجة الماجستير تحت عنوان: «قلعة رباح ودورها في الصراع الإسلامي المسيحي» بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية، 1435هـ/2014م.

[← 542]

لوشة: من أقاليم إلبيرة، بينهما ثلاثون ميلًا. الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 173.

[← 543]

في خلاصة تاريخ الأندلس للأمير شكيب أرسلان: وكان معه آلات ومدافع تفوق الإحصاء لإدارة جند ألمانيين. [المترجم].

[← 544]

وادي آش: مدينة قريبة من غرناطة، ينحط نهرها من جبل شُلَير، وهي كثيرة التوت والأعناب والثمار والزيتون. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 192.

[← 545]

عن حال أهالي مالقة عقب سقوطها. انظر: مجهول: نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر، ص 94، وعمَّا قيل في رثائها انظر: مجهول: قصيدة رائعة في رثاء الأندلس، تحقيق/ عبدالرحمن الحجي، مجلة المناهل، الرباط، عدد 28، السنة العاشرة، 1404هـ.

[← 546]

في أثناء هذا الحصار وصل إلى معسكر الإسبان راهبان: أحدهما كبير دير الفرنسيسكان ببيت المقدس أرسلهما سلطان مصر ليطلب من فرديناند وإيزابلا رد ما استوليا عليه من أملاك المسلمين وإلا قتل سلطان مصر النصارى بمملكته وخرَّب الكنائس. وكان من أثر هذه السفارة أن أرسل الملكان إلى سلطان مصر بطرة ماتير سفيرًا فأقنعه بحسن معاملة ملكي أسبانيا للمسلمين فوقف الأمر عند هذا الحد!! [المترجم].

[← 547]

أندرش: من مدن المرية، وهي من أنزه البلدان. انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص 31.

[← 548]

هكذا سماها صاحب أخبار العصر. [المترجم].

[←549]

لبس شِكته: أي لبس سلاحه تامًّا، أو دخل في سلاحه. انظر: ابن عربشاه: شرح العصام على متن السمرقندية في علم البيان، تحقيق/ إلياس قبلان، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 189.

[←550]

انظر نص الرواية القشتالية الخاصة بهذه المقولة مترجمة عند محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 7/267.

[←551]

البيازين: أحد أحياء مدينة غرناطة يقع شمال شرق المدينة بالقرب من قصر الحمراء الذي يطل على==الحي من أعلى ويفصله عنه نهر حدرة، ويرجع تسمية الحي باسم حي البيازين إلى سبب من اثنين كما يشاع، إما نسبة إلى البزاة وهو نوع من الصقور والتي كان أهل غرناطة مولعون بتربيته وتدريبه على صيد الطيور البرية مثل البط والديوك البرية والأرانب. أو نسبة إلى أهل مدينة بياسة والتي تقع شرق الأندلس والتي يقال إن سكانها نزحوا من مدينتهم واستقروا في هذا الحي، ويحتوي حي البيازين على العشرات من المعالم الهامة والتي ستشعرك بروعة التصاميم العربية الأندلسية، حيث مازال هناك الكثير من البيوت الصغيرة وأيضا بعض المنازل الكبيرة مثل: دار الأميرة عائشة الحرة: وهي والدة الملك أبي عبد الله آخر ملوك بني الأحمر، والتي اشتهرت بدورها الكبير في تأخير سقوط غرناطة، وقصر الضيافة النصري: وقد بناه الموحدون عام 615 هجرية وكانت الأميرة عائشة الحرة هي آخر من امتلكه قبل سقوط غرناطة، ويحتوي الحي على ثلاثة أبواب رئيسية هي باب البيازين وباب فحص اللوز وباب الزيادة، كما كان يحتوي على مجموعة من المساجد والتي قام الأسبان بهدمها أو تحويلها لكنائس مثل: المسجد الجامع والذي بنيت كنيسة سان سلفادور على أنقاضه ومازال بعض أجزاء منه قائمة حتى اليوم، ومسجد المرابطين والذي كان من أقدم مساجد غرناطة والذي بنيت على أنقاضه كنيسة سان جوس، ومسجد التائبين والذي تحول إلى كنيسة سان خوان دي لوس ريس.

وقد كان هذا الحي من أكثر الأحياء نشاطا في فترة الحكم الأندلسي، حيث كان يقطنه الكثير من الأثرياء والحرفيين المهرة، ولكن بعد سقوط الأندلس قام الملك فيليب الثاني بطرد المسلمين من الحي وتم إخلاؤه تماما، وفي عام 1994م قامت مؤسسة اليونسكو بوضع حي البيازين ضمن قائمتها لمواقع التراث العالمي التي يجب حمايتها والحفاظ عليها. انظر ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، 4/120؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 83؛ مجهول: آخر أيام غرناطة، ص77 ؛ أحمد محمد الطوخي: مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص55، 56.

[← 552]

انظر عن حرق مخطوطات العرب بغرناطة وبشاعة ذلك: خوليان ريبريرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1994م، ص 145-147، 203-205.

[← 553]

قام بهذه الثورة مسلمو غرناطة الذين أجبروا على التنصر سنة 1568م بالبشرات بعد سقوط مملكة غرناطة، ففي سنة 1567 م أصدر الملك فيليب الثاني مرسومًا قضى بإنهاء كل أشكال التسامح مع الثقافة المورسكية، فحظر استخدام اللغتين العربية والأمازيغية (البربرية)، ومنع ارتداء الملابس المورسكية، وأجبر المورسكيين على التسمي بأسماء مسيحية، وأمر بتدمير كل الكتب والوثائق المدونة باللغة العربية، وبتعليم جميع الأطفال المورسكيين على أيدي قساوسة كاثوليك. ويرى البعض أن فيليب الثاني أصدر هذا المرسوم بنية دفع المورسكيين للثورة ليتخذ ذلك ذريعة لإبادتهم أو طردهم، أو أنه كان يريد ضمان ولاء المورسكيين بدمجهم دمجًا كاملًا في المجتمع الإسباني، وقد تسببت سياسة فيليب الجديدة المتشددة في اندلاع ثورة مسلحة في المناطق التي كانت في الماضي جزءًا من مملكة غرناطة. خطط للثورة فرج بن فرج ـ الذي ترجع أصوله إلى بني الأحمر آخر حكام غرناطة من المسلمين ـ ومحمد بن عبو (واسمه الإسباني دييغو لوبيث)، وجمعا القوات وطلبا المدد من ملوك شمال إفريقيا.

وفي ليلة عيد الميلاد من سنة 1568م اجتمع سرًّا في وادي الإقليم جماعة من منفيي ومورسكيي غرناطة والبشرات وغيرهما، وتبرءوا من المسيحية، وبايعوا ابن أمية ـ واسمه المسيحي فرناندو دي بالور

Fernando de Valor قائدًا لهم ووريثًا لعرش الدولة الأموية في الأندلس. وبدأ العصيان المسلح على شكل حرب عصابات بدعم عسكري ومالي من المغرب. ولكن ابن أمية اغتيل سنة 1569م وخلفه محمد بن عبو.

أرسل فيليب الثاني قوات عسكرية كبيرة قوامها جنود إسبان وإيطاليون لقمع الثورة على رأسها أخوه غير الشقيق جون النمساوي، وكان من بين مقاتلي هذه الحملة الإنكا غارثيلاسو دي لا فيغا، الذي نُصب قائدًا فيما بعد مكافأة له على دوره في قمع هذه الثورة. ورغم أن الثوار ـ الذين تزايد عددهم باطراد من أربعة آلاف رجل سنة1569م إلى 25 ألف رجل في العام التالي (بينهم جنود من البربر والأتراك) ـ رغم أنهم حققوا بعض الانتصارات، إلا أنهم سرعان ما خسروا ما كسبوه وقُتل قائدهم==ابن عبو بيد بعض أتباعه في مؤامرة دبرها الإسبان في أحد كهوف البشرات في13 مارس1571م، ثم خمدت الثورة سنة 1571م. انظر تفاصيل هذه الثورة في مجلدين كبيرين عند مارمول كارباخال: وقائع ثورة الموريسكيين، ترجمة وسام محمد جزر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012م.

[← 554]

سورة الأعراف، من الآية 128.